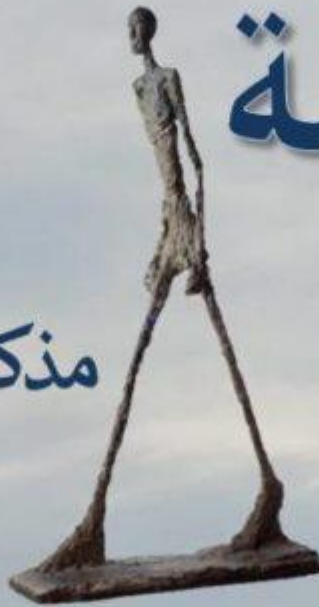


منصف المرزوقي

الرحلة

مذكرات أدمي



دار منوال للنشر
PARADIGME EDITIONS



صدر للمؤلف

الكتابات الطبية

- المدخل إلى الطب المندمج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995-للأطباء والطلبة
دليل المرَبّي في التثقيف الصحّي: الدار الجزائرية للنشر 1986
سلسلة كتب التثقيف الصحي -الدار العربية- تونس 1984
تاريخ الطب للأطفال -دار أليف للنشر-تونس 1982

الكتابات السياسية

- لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المرَبّي: دار الرأي تونس 1982
دع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي تونس سنة 1986
الاستقلال الثاني-دار الكنوز الأدبية. بيروت 1996
هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهالي -دمشق 2001
من الخراب إلى التأسيس -المركز المغاربي -لندن 2003
عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهالي -دمشق 2004
حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهالي دمشق -2006
إنها الثورة يا مولاي - الدار المتوسطية - تونس 2011
اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر-بيروت 2014
نتنصر أو نتنصر -من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطية - تونس 2014
المراجعات والبدائل: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية -الدوحة 2022

الكتابات الفكرية والأدبية

- في سجن العقل -أقواس - تونس 1990
حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة -مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان-دمشق 2003
الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983
الرحلة-طبعة دار الأهالي -دمشق 2002-، 2010، طبعة الدار المتوسطية تونس سنة 2015
شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018

بالفرنسية

- **L'arrache corps** : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Edit alternatives. Paris 1979,
Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez** - Ed, lieu commun. Paris 1987
- **La mort apprivoisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- **Le mal arabe** : Ed le Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** : Ed L'atelier - Paris 2009
- **L'invention d'une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir ?** Éd paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت

www.Moncefmarzouki.com

إلى حرّة، هناء، هالة، آمنة
وكل الأطفال المشاغبين

الفهرس

تقديم كتاب الرحلة

الكتاب الأول: الاحرام والوصول

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: الغريب

الكتاب السادس: الملحمة

الكتاب السابع: الرؤيا

توطئة

صيف 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طبّ سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانينات والتي سيتمّ عزلي منها نهائيا سنة 2000. قلت في نفسي ربّ ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة.

الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيع أرهقتني كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأي معطيات وقد تمّ -في إطار التنكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي -حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت رأسه وأشرف فيه على أبحاث طلبتي ومساعدتي؟ لم يبق أمامي إلا كتابة ليست بحاجة لمعطيات وتُسبني لحظة هموم السياسة وتروّح عن النفس كريبها: الرواية، تحديدا رواية من الخيال العلمي.

يقال " إذا عُرف السبب بطل العجب" والسبب في قضية الحال نهم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنته إبان المراهقة. يُتخذ القرار ببعض الرهبة لتعترضني منذ أول لحظة أصعب إشكالية: أي عقدة لروايتي هذه؟ ماذا عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرّة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمرها البشر وانقرضوا؟ فكرة مبتدئين استنفذت من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبار كتّاب الميدان.

إذن لأجعل المستكشفين يسقطون على النصّ الذي سأترك ليعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وعن ظروف وأسباب انقراضها. تطوّر إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمشي بذكرها الركبان.

ماذا لو جعلت من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مهنّهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجراتهم كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشتررون الآثار المهربة لتزيين حدائقهم الفاخرة؟ لأجعلهم يجدون في نصّي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي عبّث، ولما لا لبعثي معه حيا أرزق من جديد.

هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل الخطوط الحمر للعلم والدين؟ المشكلة من البداية أن هؤلاء التجار-العلماء بأمسّ الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعذبوا في النموذج الأصلي.

لكن، لكي تكون لمعطياتي قيمة تسمح بنجاح المشروع، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما طبيعة وقوانين العالم المراد بعثه والحال أنني لا أزداد بها علما إلا وداهمني الدوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

ثم من أين لي جمع المعطيات الضرورية وأغلبها مبعثرة في فوضى رهيبية داخل ذاكرة مثل مكتبة تكدّست فيها على مرّ السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبدا لتنظيمها؟

شيئا فشيئا تراجعت فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتم التخلي عنها نهائيا في هذه الطبعة والطموح ينحصر في تفحص ما تراكم داخل هذه الذاكرة من أحداث شكّلت قصة حياتي لعل شيئا من المعنى ينبثق منها ليفسّر قل ليبر-سبب وجودي.

النص إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية، أن مشاعر وأفكار الراوي هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟

لكن هناك خاصية أساسية في السيرة الذاتية أي ادعاؤها أنها تروي الأحداث كما حصلت فعلا وهو ما لا أدعيه مطلقا. أذكر حقًا أنني كنت عاكفا على لوحى في الكُتاب وأنا لم أتجاوز الخامسة، أعبت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلّمها فصرخ في وجهي المؤدّب بشدة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن هل كنت فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم كنت أهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت ألعب لعبة المعلم مع والدتي ألقتها الحروف التي اتعلمها في الكتاب. لكن هل كان الأمر بطلب منها لتتعلم قراءة المصحف الذي كان لا يفارقها لأنها لم تدخل يوما مدرسة؟

أذكر جيّدا أنها قالت لي يوما ضاحكة إنني كدبت أصنّف متخلفا ذهنيا عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضعف بصري وأن والدي غضب غضبا شديدا لما علم بالقصة. لكن هل كنت على باب قوسين أو أدنى من الطرد وأن المعلم نصح والدتي بأخذني لتعلم رعي الخرفان عند أخوالي أورعي البعير عند أعمامي كما أروي في النص؟

لم لا، فالذاكرة ليست خزّانة تتراكم فيها ملفّات يجمّدها الزمان ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يصقل فيها الحاضر ملفّات الماضي، يُعيد تكوينها وترتيبها وإضفاء معانٍ جديدة عليها. لهذا ليس للذات تاريخ وإثما تواريخ تتشكّل من تضارب الملفّات، وممّا أضيف إليها عمداً أو بلا وعي.

أليس هذا حال كل السير الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حياتنا، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟
من تقاليد كتابات السيرة الذاتية أيضاً تحديد أماكن الأحداث التي يرويها الكاتب، خاصة احترام تسلسلها الزمني، كل هذا غائب تماماً في النص والهدف منه التعمّن في مراحل مفصلية من حياة الراوي لا رواية أحداث تنطلق من الطفولة إلى الشيخوخة.

النص إذن ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية؟
حقاً توجد فيه جِلّ العناصر المطلوبة في كل رواية أكانت أسطورة مقدسة أو قصة بوليسية.
كما هو الحال في كل رواية، بطل الرواية مزيج من الأنا ومن شخص خيالي ومن ثم التغيير المتواصل لضمير الفاعل.
لرسم صور أبطال القصة عرفت من طبائع بعض من عرفتُ وعاشتُ من البشر، لكنني عرفت أيضاً من خيالي ومن شخصيات أبطال كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعتني بطابع لا يمحى.
كما هو الحال أيضاً في كل رواية هناك -بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من آلام وعرف من مصاعب- خاتمة بل وسعيدة أيضاً.

يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما ستقرأ رواية.
القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أن الراوي يحكي في الصنف الأول قصة حياته وفي الصنف الثاني قصة شخص ثانٍ، ولو أنه عادة هو لا غير تحت أفضة أخرى.

وفي الشككين من النادر أن يكون هاجس الكاتب الأسئلة الكبرى التي يثيرها وجود البطل وبقية بشر القصة.
إنها إشكاليات إما غائبة تماماً أو يقع التعرض لها عرضاً وتلميحاً. كيف لا وهي في التقسيم المصطنع الذي اختلقناه للتفريق بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة الجادة (الموقوفة كتابة وقراءة على النخب) أو من وظائف الدين (أي الشكل الأدبي والشعبي للفلسفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية وبتقدير شديد.
حتى دستوفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية كان يحترم هذه القاعدة.
العكس تماماً هو ما يفعله أو -بالنسبة للبعض- ما يرتكبه النص. هو من البداية إلى النهاية تفكير في مما سماها الكاتب الكبير الأسئلة اللعينة والتي أخرجها إيليا أبو ماضي أجمل صيغة في طلاسمة الشهيرة.
السؤال هنا طبعاً لماذا تكلف مثل هذه المشقة التي لن يؤدي التعامل معها إلا التخبط في نص هجين لا علاقة له بالفلسفة ولا بالأدب.

يجب العودة هنا إلى الطموح الذي انطلقت منه الكتابة -والرحلة قد أوشكت على نهايتها- أي استحضار كل ما تراكم في الذاكرة من تجارب الحياة لعلها تكتسب التناسق والمعنى مما يجعل منها قصة لا فوضى من الأحداث التي لا يربط بينها رابط.
المشكلة أن قصتي هذه لا يمكن أن تكتسب أي معنى خارج قصة الإنسان ككل وهي مجرد فصل من فصول قصة القصص هذه.

طبعاً يمكن تجاهل هذا البعد أو يمكن الاكتفاء بالمتوفر في السوق الفكرية الخيالية من تفسير وتبرير لوجودنا.
للأمانة لا شيء من هذه البضائع المتناقضة المتنافرة المتباغضة يغريني بأن أعهد لها بقصتي تتصرف فيها على ذوقها لتعطيني المعنى الذي تتخيل والذي قد لا أقبل. أي خيار آخر غير إعادة طرح السؤال سيد الأسئلة الذي تتمحور حوله قصتنا جميعاً: ماذا نفعل في هذا العالم؟

هكذا تحول النص تدريجياً من القصة الوحيدة التي يمكنني القول إنني أعرفها أي قصتي إلى البحث عن قصة الأدمي لأنها هي وحدها التي ستعطي لقصتي المعنى الذي تبحث عنه.

هل "الرحلة" إذن أطروحة فلسفية؟

قطعاً لا لأن النص حافظٌ في جزء منه على بعض مكونات السيرة الذاتية وفي جزء آخر على بعض مكونات الرواية.
ومع هذا هو رؤياً تتشكل تدريجياً بحثاً لقصتي ولقصة كل آدمي عن هدف وحتى عن ضرورة، الأمل ألا تكون كما يقول المسعدي "عبث أشرّ ما فيه جهله أنه عبث".

خاصية أخيرة لنصّ صعب التصنيف. هو متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن.

كنتُ أعتنم-حتى وانا في الحكم، كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزميتين سياسيتين-للاختلاء بالنص ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ.

نتيجة الانقلاب الذي حصل في تونس صيف 2021 والحكم عليّ بأربع سنوات سجن غيابا، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطبقات السابقة التي صدرت ورقيا في دمشق سنة 2002 و2010 ثم في تونس سنة 2014 والتي تغيرت لا يحصى من المرات في الصيغ الالكترونية.

أسباب هذه الكتابة التي لا تتوقف؟

هناك طبع صاحبكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاذ الصبر حتى والكتاب في المطبعة. لا شك ان سهولة الإضافة والحذف والتصنيف التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهل ومغري لم يكن في متناول طه حسين وهو يملي "الأيام"، وليس للمستكتب إلا الورق والقلم والمحيرة.

وأبضا أن الحياة بتجاربها المتلاحقة لا زالت متواصلة ومن ثم ضرورة مواكبة النص لموضوعه... مما يعني أن "الرحلة" لن تكتسب شكلها النهائي إلا عندما أضع على الموقع عشية الرحيل النهائي آخر مراجعة.

في المحصلة، ما هذا النص المسترسل الكتابة والذي يجمع بين ميادين بتباين السيرة الذاتية والرواية والاطروحة الفلسفية؟ أي أهمية للأمر؟ أليست متعة الكتابة بالنسبة للكاتب ومتعة القراءة بالنسبة للقارئ كل المطلوب؟

كل ما أرجوه إذن أن يجد القارئ في قراءة "الرحلة" المتعة التي وجدتها في كتابتها، خاصة أن يجد ذاته في نص طموحه أن يروي في التفاصيل والمتغيرات رحلة ذات وفي العموميات والثوابت رحلة كل ذات.

**

الكتاب الأول

الإحرام والوصول

جِئْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَلَكِنِّي أَتَيْتُ
وَأَقْدَ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقاً فَمَشَيْتُ
وَسَأَبَقِي مَاشِياً إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمِ أَبَيْتُ
كَيْفَ جِئْتُ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
أَسْتُ أَدْرِي

إيليا أبو ماضي

مقدمة الكتاب الأول

"اللهم أتمم هذه الرحلة على خير."

همس الرجل بالجملة ساهماً، ثم تنهّد مواصلاً ارتداء أسماله على مهل.
كان عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء.
أذكر أنني توقفت عن كتابة الوصفة، أنني نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة للمعزي وله أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما ننفك في دأب سفرا
وقوله:

أنا بالليالي والحوادث أخبر سفر يجذبنا وجسر يعبر
وقوله

وهوّن ما نلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر
لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ لرهين المحبسين وإنما كانت صلاته صدى لصورة بالغة القدم، كثيرة التكرار، تشارك فيها الأميون مع الفلاسفة والشعراء.

“هيا لنُدع غم غد يا صاح (عمر الخيام)
ولنغتتم العمر ببشر وهناء

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا
والعائش بالألوف في الدرب سواء”

الحياة رحلة!

لم لا؟ ألا أنزل من بين فخذي امرأة كمسافر ينزل من أغرب السفن التي تحفل بها قصص الخيال العلمي؟
ألا نخترق العالم زحفا ومشيا وركضا وركوبا على ظهور دواب من لحم أو من حديد لنغادره يوما محمولين على مركبة اسمها النعش؟

كل هذا صحيح، لكن.... ثمة شيء في الصورة لا يستسيغه فكري.

إجمالا رحلة الحياة تجارب حسية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه وليس فقط مشيا على طريق يربط بين نقطة وصول اسمها المهدي ونقطة نهاية اسمها اللحد.

حقا هذا عالم فيه ما يُستكشف بالجسد، لكن جَلّ استكشافه له كان لقمم الفن والفكر والموسيقى والأداة الذهن، لا غير.
رحلة الحياة أيضا استكشاف الذات لذاتها، وهذه ليست سفرة في مكان وزمان وإنما غوص بالفكر والخيال والذاكرة في الأعماق المجهولة التي يطفو الأنا الواعي على سطحها.

اعتراض آخر: في رحلة الحياة، أغلب تحركاتنا على الطريق كتشرد ورقة خريف تطوّح بها الريح في كل اتجاه حتى وأن كان من بيننا من يؤمن أن ورقة الخريف هذه هي التي ترسم مسار الريح.
ما المتبقي إذن من شرعية استعمال صورة كهذه؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منافساتها، خاصة تلك التي تشبه الحياة بمحنة وامتحان.
أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصوّر العالم ساحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب وأخطر الظروف بدلا من تصوّره منفى ووجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم ربما لم نقترفه؟
ثم أليس صحيحا أن أوفرنا حظا من ينهي حياته بمعنويات السائح الذي اغتنم كل الفرص للتمتع برحلة مثيرة لم تغتته بخصوصها وكالة الأسفار؟

وفي كل الحالات من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاعت الأقدار أن أدخل العالم والأدميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحار وفي أعماقها، يذرعون العالم في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أيّ من العصور السابقة.
للتذكير هم ليسوا وحدهم في هذه الحالة.

تكتشف يوما أن كل الكائنات الحية في حلّ وترحال أزليين أكان الرحيل على سطح الأرض، في أعماق البحر أو في أعالي السماء. بل تكتشف وأنت تتطلّع بالبصر والبصيرة لما فوق هذه السماء أن أجرام الفضاء من كواكب وكويكبات وشموس ومجرات تتدافع هي الأخرى في كل اتجاه وكأنّ الأمر لكل ما هو موجود التحرك من مكان إلى مكان، من زمان إلى زمان، من حالة إلى حالة ومن شكل إلى شكل.

الظاهرة واحدة والأسباب متعددة.

أول حافز لتدافع الأدميين نحو الأفق خوفهم أن يؤكلوا أو الطمع في أكل لم توقّره لهم عين المكان. هكذا تدافع الأوائل آلاف السنين أفرادا وشعبا في الأرض ذات العرض والطول جريا وراء طريدة أو هربا من صياد. إنه واقع لم يتغير كثيرا، وكل ما تغيّر أشكال الصيادين والطراند. ثمة أيضا الفضول وليس فقط الخوف والجوع.

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض: يقال إن هناك وراء هذا البحر جبال تلامس قممها السحاب! يقال إن هناك وراء هذه الجبال بحر لا يعرف له ضفاف! يقال إن هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس! يقال إن هناك داخل هذه الغابات الخائفة كائنات أغرب من كل ما ينسج الخيال! يقال إن هناك على ضفاف نهر أبلاه الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف أيّ آلهة علّمتهم صنع الجبال! يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتدّ آلاف الكيلومترات بناه قوم لا يضاهيهم بشر في التوحّش والتحصّر! يقال إن هناك وراء هذا السور أو تلك الجبال الشامخة بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب.

للرحيل وازع آخر هو الحجّ لأماكن اصطفاها الأدميون للقاء من ضرب لنا فيها موعدا لا يُخلف... أيضا لالتقاط الأنفاس لحظة وهي الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقلّ طيلة الحجّ.

لا غرابة أن اقضّي العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسباب القاهرة.

هكذا تدافعت مع المتدافعين مستكشفا، طالب علم، سائحا، حاجّا، لاجئا، أشدّ الرحال لكلّ فجّ عميق اسمع عنه أو تدفعني إليه الظروف القاهرة... ونصيحة الشاعر دوما في الوجدان:

سافر تجد عوضا عن تقارقه
واني رأيت وقوف الماء يفسده
واتعب فإن لذيد العيش في التعب (الشافعي)
إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
ولشمس لو وقفت في الجو دائمة
ولأسد لولا فراق الغاب ما اقتربت
ولتبر كالترب ملقى في معادنه
ولعود في أرضه نوع من الحطب

هكذا هرولت إلى كل مكان يستعرض فيها عالم طاووس مفاتنه أجلس خاشعا أمام قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجة الظلام، بختفي في خضم البحر، يخرج منه غير مبلى... أمام هضاب متموجة من الصحاري الصفراء والبيضاء... أمام أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد... أمام نهر جبار يشقّ طريقه بحذر بين الأدغال والرمل... أمام بحيرة صافية تكتشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور... أمام سهول شاسعة ملتحفة بالأبيض أيام وصالها مع الثلج أو بالخضرة المرصعة بكل ألوان الزهور أيام مواعدها مع الربيع وبصفرة الذهب حين تأتيها حرارة الصيف بالشيق... أمام جبال متكبرة توجت قممها بالسحاب وبالثلج... أمام أدغال كثيفة تتصبب عرقا تحت سماء بلون الرماد... أمام بدر يرسم على صفحة البحر نهرا براقا موجه من ساطع النور... تحت سماء تتلأأ بجواهرها ليلا.

يواصل العالم تحديك باتساعه المذهل وثرأه الهائل مهما سافرت بالذهن أو بالجسد.

كم من لوحات للرسم الأعظم يقلدها منذ غابر الزمان أنبغ الرسامين!

كم من كائنات تتبارى في الغرابة تزحف على البطن، تطير في السماء، تغوص في أعماق الماء، تمشي على طرفين وعلى أربعة، وكلها تتنافس في الطرافة والإعجاز!

كل يوم جديد والذات تصرخ صرخة الشيخ الجليل "لم يزدني الورد إلا عطشا".

أه لو تسعفني الأقدار بما يكفي من الزمن لأتحصّ أجنحة كل أنواع الفراش.

كأنّ الخطوط والبقع والنقط والأشكال والألوان مادة خام تمّ مزجها بكيفية مدروسة تلقائية لتجود بما لا يحصى من روائع الفن. اعجاز الصنع وعجز الكلام عن وصف المصنوع. جناح الفراش دون شك أروع أقسام متحف الله.

تسلّم يوما أنك لم ترتحل إلا على الزبد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول.

أه لو قبضت لي الأقدار لي عمرا كافيا حتى لا أرحل عن هذا العالم لم أتمتع ولم أتبتّل أمام أروع ما فيه.

كم من بحيرات نار ونور لم أصلها لأملأ العينين منها وهي تتلاطم في أشداق البراكين!

كم من أعاصير وصحارٍ وجبال وغابات وسهول لم يكحلّ جمالها عيني!

كم من جزيرة ساحرة تخبئ في أعماق المحيط لم ألجأ إليها ولم أعادها مودعا ببيكاء السكان ومن يبتلعه الموج يحسب في عداد الأموات!

كم من كائنات مدهشة جانبها وجانبتي لا التفت إليها وهي بدورها لا تعيرني أدنى اهتمام!

كم من آثار كدسها الأدميون على طول الطريق لا علم لي حتى بوجودها!
كم من روائع مرّت أمامي تهبني عطائها ولا أنتبه لها أصلاً!
كم من رسائل رماني بها العالم لم أفهم لها معنى أو حتى لم أنتبه لها أصلاً!

تتقدّم القراءة كنوع من الحلّ، كسفر بالوكالة.

أليست بديلاً عن السفارة التي لم تسعفنا الظروف للقيام بها نفق ابانها بخشوع أمام اللوحات الإلهية التي لا نعرف ونتعرف على أغرب الأنماط من البشر والكائنات الحية الأخرى؟

ليس الراوي هو من تكلف كل مشاقها، موثقاً علينا كل ما عانى من أخطار الطريق، لا ندري هل يجب أن نشكره لأنه هو الذي تكلف مشاق وأخطار الطريق أو أن نحسده لأنه هو الذي... تكلف مشاق الطريق وأخطاره؟
داخل ملفاتي المتراكمة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغامر امتطى مطهّم النصوص.

هكذا ارتحلت مع بحارة حتشبسوت نستكشف بلاد كوش وبونت، مع حنون نستكشف الشواطئ الغربية إفريقياً... مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميمّما وجهه نحو الشرق، مع ابن جببر إلى ذلك المرفأ النتن على ساحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام، مع التاجر سليمان السيرافي البصري في رحلته إلى الصين، مع الشيخ الأكبر والشريف الإدريسي والكناني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزي وابن الخطيب وهم يتلمسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار المقدسة، ومعهم اكتشفت معالم الطريق العظيم الذي حمل على مرّ القرون أفواج الحجّاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.

هكذا ارتحلت مع المجريطي إلى بغداد والبصرة أنقّب عن رسائل اخوان الصفا أعود بها أثمن غنيمة... مع ابن فضلان أتأمل معه مشدوها أراض بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف... مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد النوبة... مع ابن البيطار من مالقة إلى دمشق عبر القيروان منقبا في أسرار النبات... مع البيروني ابحت معه عبر ربوع الهند في معتقدات أدميها المقبولة منها والمردولة... مع التجاني أقرن بين ما رآه من قابس وتوزر ونفزاوة وبين ما أعرف عن ربوع ذرعتها منذ باكر الطفولة.

هكذا ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان... مع ياو بحثا عن جزر هو-تشيوي الخمس... مع هوان-شن-تاي ركضا وراء جزيرة الحقيقة... مع شنغ-هي في سفراته السبع نحو شواطئ الجنوب والغرب... مع كولومب شعاري شعاره: أروغ السفرات تلك لا نعرف إلى أين ستقودنا... مع فزوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقرصان فرانسيس درأك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقنفيل ولابروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرة صفراء اسمها العنبر سّماها الأوائل دمعة الآلهة.

هكذا ارتحلت مع بحارة نانتيكوت في أخطر وأبعد وأصعب بعثات الصيد، نجري وراء الحوت المسكين، نخرجه داميا من الأمواج نقطع أطنانا من لحمه، نغلي شحمه في قدور شيطانية، نعود ببقاياها، نقاسم أفذر الأرباح.

هكذا ارتحلت على متن السفينة "البيجل" راقبت ما يخطه بعصبية رجل اسمه "داروين" ... مع بيرري وامندوسن ونوبلي وشاكلتون أستكشف القطبين.

هكذا ارتحلت مع مارجريت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس، هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات ومعتقدات "البدائيين" والمتوحشين هي طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تفسد بما نسميه التحضّر.

آخر رحلة لي بالوكالة كانت مع أغرب قافلة اخترقت الصحراء... قافلة محرّمة على الرجال ليس فيها إلا النساء ... نساء قبائل التبوّ تتاجرن في الماعز والتمر والرسالة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نساننا من تجهيز القوافل والضرب في الأرض ذات الطول والعرض... يا للخسارة، كم ضيّعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلّى إلا عبر عيون الرجال.
تبقى القراءة رغم كل إمكانياتها حلّاً منقوصا.

صحيح أنها توفرّ علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي.

حقّا هي تفتح لنا الأبواب المغلقة للترحال داخل ذوات من لا نعرف من الأدميين فنستكشفهم عبر نصوص الشعر والأدب والسّير الذاتية، ونحن بأمان لا نثّم باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس.
وإبان هذا التجوال في الذوات الأخرى، يمكننا التأكد أيضا أننا نختلف عنها ولا نختلف كثيرا، فنطمئن لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا منفذ لأحد، وأننا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعا من بقية البشر.

ثمة للأسف نواقص للقراءة لا ينفخ الإدمان في تجاوزها بل ويزيد طينها بلة.
هي لا تَعَوِّض التجربة، والويل لمن يحاول أن يجعلها بديلا لها... أو مهربا منها.
هي تجمع بعض أجزاء "بوزل" العالم، لكن قِطْعَها القليلة المتناثرة نادرا ما تأخذ شكلا مَرْضيا.
ترتطم عاجلا أو آجلا بالحقيقة المحبطة: أنت أمام عالم لا يستنفذ مهما ذرعته بالذهن أو بالجسد ولو عشت آلاف السنين.
ومع هذا...ومع هذا ...

هل نحن حقا بحاجة للهولة في كل اتجاه وهذا الكم الهائل من الروائع على أعتاب بيوتنا؟
عجبي ممن يتدافعون إلى المتاحف منبهرين بلوحات جامدة أو يفخرون بما يمتلكون منها، وأعمال الفنان الأعظم على ذمتهم،
مجانا، في كل لحظة.
كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر والذهن منبهر أمام طفرة اللامتناهي صغرا، اللامتناهي كبيرا، اللامتناهي تعقيدا... اللامتناهي
جمالا.

يا للوليمة والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر!
يا للوليمة والعالم روائح الحيق والنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسئل عن عطر النساء!
يا للوليمة والعالم طعم التين والتمر والزيتون، الخبز الساخن للجوع والماء الزلال للتعطش!
يا للوليمة والعالم خريبر ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعء، الرقيق للناي، نداء عشق حسّون
اعتلى شجر التوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هامس لجذّة تغزل، أذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم
جديد!

يا للوليمة! يا للحصاد الذي تعجز عن وصفه أكمل لغة طوّعها أفصح لسان لأنبغ شاعر!
تأتيني يوما رغبة التدوين لكل هذا، للرحلة بمفهوم المعرّي لا بمفهوم التيجاني.
ألم أجعل شعاري في الحياة: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم" فليكن التدوين إذن بالمفهوم الأوسع والأعمق؟
أهزّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلب مشروع كهذا.
من أين للسرد أن يجدّد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟
من أين للوصف أن يصف عالما لا يستنفذه وصف؟

من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سفّه كل ما قيل فيه من أقوال؟
أسارع لرمي الفكرة في سلّة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس،
ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع
آخر تكفّلت ظروف الحياة بؤده باكرا بعد اتضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.
تفتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح مدجّجة بحجج تفتعل مطلق الثقة في
مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.
أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بذكرها الركبان وتتناقلها الأجيال؟
أليست أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو
عرض البحر؟

ثم لم لا المحافظة لأحفادي على قصة سيذهب بها النسيان وقد يجد فيها ولو واحد منهم ما يسهّل عليه اختراق الأوقات الصعبة؟
ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحالة الماضي ما أبعد عني أخطارا كثيرة ووقر عليّ كم من مشقات؟
نعم لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خرائط" العالم علّ الأمر يفيد ولو قليلا رحالة الأجيال
القادمة؟

وأیضا لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي تؤرّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أدّى الأمر لمزيد من خلط
الأوراق؟

يتواصل الشّد والجذب بين الرغبة والرغبة.
يصمت النقاش سنوات، ويوم لا أتوقع يعود السجال بذرائع أخرى.
لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتا، من صراع استنزف طاقاتي طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات
تافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمنّع فيما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لزيارة الوداع قبل آخر
منعرجات الطريق، لتصالح ذاتي مع ذاتها؟

هل هذه الحجج هي التي رجّحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟

ربما حصل الأمر للذة رفع تحدّ أخرج ألقبته على نفسي، ربما لتزايد حدة الشعور باقتراب الأجال المحتومة وضرورة استجماع شتات ذات مهّدة بالتفكّك، أو لسبب تحرّكه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي. وفي كل الحالات متى كنا بحاجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير! يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين يستعرض ويتفحص ملفات تراكمت في الذاكرة علّ صورة متماسكة عن رحلة الحياة تنبثق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفّ بي من كل حذب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

اليوم 14 600 من الرحلة

**

أنتحل في عالم أم في عالمين؟

التدوين نعم، لكن لأي رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة... أو التي نعيشها ونحن نغط في النوم؟
الا نقضي جزءا هاما من رحلتنا في هذا العالم ونحن نيام؟
كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نساورها كل ليلة كلنا دون استثناء!
ربما أحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة نعود بها
نثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهدناها فيه من غرائب وعجائب؟!
نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع أو نطرد؟! لماذا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا؟!
وفي أقدم الملفات، يتابع الطفل بصمت قلق التنفس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الرد على كل استفزاز معرضا عن
مواصلة اللعب. كم مرة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه والسؤال بل قل الهاجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب
هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم؟
تتملص حتى "ما" من الرد عليه. لما تفضل يوما "با" بالرد، تفاقمت حيرة الطفل بل اندلعت فيه أولى المخاوف وأعماها.
ماذا لو تاهت هذا النفس التي يتحدث عنها والده في الأماكن المجهولة؟
ماذا لو ضللت الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟
ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أم غير التي رضي بها ورضيت به؟
يداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حبل شفاف متين تربط "ما" طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه
الأخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطع الحبل وبقيت النفس سجيناً العالم العجيب؟
لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن
مبهم الأخطار.
وفي أقدم الملفات حول هذا الموضوع يندرنى شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين حالا، جون مزيد من التسوية
والمماطلة.
أفتعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدة مقصودة.
يتصاعد منه الإلحاح ومي المشاكسة. أشعر به قد غير اللهجة والأسلوب ليمر إلى منطق الإلزام.
يسقط الرأس-المرّة تلو الأخرى-على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرة كأنني أرفع صخرة إلى عنان السماء.
إنها بداية نزع التمرد على كل سلطة تأمر وتنهى لا تكلف نفسها شرح الأسباب.
يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبر عنيد.
تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيرا على الصدر لا يجد رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب،
تطفئ النور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيا الأم ابتسامة مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيبات أن تنفع
في صد الكوابيس.
توقّف عند بعض الخصائص المميزة لرحلة الليل هذه.
أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبا آمنا تستودعه بكل ثقة-جسدا فقد تأهبه للكرّ والفرّ دفاعا عن
وجود على الدوام مهتد.
من هذه الطقوس أيضا التخفّف من جلّ لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء" الغريب الذي سترحل قل الذي سترحل
إليه أنه يتطلب شمسية أو معطف فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا.
حقا، هناك من يرقنون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيادون في "الواقع" لا تحسبا لما سيلقونه
من أعداء على الضفة الأخرى.
ثمة بالأساس ضرورة التخفّف من صدى هموم هذا "الواقع" والأمر ليس دوما بالسهولة التي نود.
يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهور في آخر هزيع من الليل، تذرع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم
نائمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أذني مبتهلا لكل آلهة الأدميين
وشياطينهم أن تكف المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.
ها قد تعطلّ المصعد الذي يرفعنا عادة دون جهد إلى الأعالي المجهولة.
مصعد؟ تغزوني -صورة أكثر حداثة.

تنشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية وراكب نافذ الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبـي. يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟

- كلّ المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور البلسمية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي... شعر كالحرير يداعب خدي... تنفّس بطيء يبعث فيّ هدوءه... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلة.

تتسلّل تفاحة أو تفيحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلّق الفراش، تحشّر جسمها الصغير بين الجسمين المتعانقين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المتشجّج. تتحرّك شفتاه بحثاً عن الراحة المفتوحة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجل المتزايد الارتخاء قشعريرة برد لذيذة فيحكم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤشرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض بؤر توتّر.

- استحضار آخر وسائلنا.

يرفع الأب يده، يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت.

تستسلم الذوات الأربع أخيراً للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسّط الأجساد الحية، تبعث فيها وتمتصّ منها ببالغ الحذر شيئاً ليس للغة مصطلح عنه ولا للقصة حالياً فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيراً ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية:

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع.

الذات الآن في بعض المتاجر الضخمة وسط حشود من... الدمى. تحدّق فيّ دمية تلبس حلّة العرس ثم تغمزني وهي تبتسم. تصرخ فيّ دمية أخرى مخضبة الشفتين بالأحمر القاني أن أغتتم موسم التخفيضات. أي تخفيضات؟ هل أنا أيضاً دمية كهذه الدمى؟

تتدافع من كل الاتجاهات بالونات صغيرة شبيهة بقطرات الضباب أو بفقاع الصابون. داخل كل فقاعة آدمي بحجم نياحة متسلقا جدارها اللزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخه الصامت يدوي في أرجاء العدم.

الديكور الآن نزل نتنن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعذر عن فيضان المرحاض وأنه سيصلحه حالاً. ما يهمني- أيها الغبي- ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تقلق يا سيدي- ستأتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تقلق، السائق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زرّ مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثق فيه.

جريدة اليوم جريدة البارحة وقبل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوماً عند نفس المحطة ليحييه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الإشهار في شكل وجه معوّج لأدمي مسك بصدغيه يصدر صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي... النرويج! أين يوجد هذا البلد؟

تتعالى من اللأمحدّ همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس آدمي. تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على زرّ كهرباء ثبتت في أشداق الحوت. يصرخ فيّ البحر أن أرهب غضبا غير محدّد السبب. ترعيني فهقهة تتصاعد من حنجرة كلب أعرج. أنحني لألتقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لتوّه من العش. أنفخ عليها لتلتهب من جديد، ثمّ أرميها في الفضاء فتنفجر بالضحك.

تحضر الذات مجدداً أنّها أخفقت وأنّ عليها إعادة الفرض. تتمرّد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبداً. تصرخ في وجه مجهول أرفض، أرفض، أرفض. كم مرّة يجب أن أعيد هذا الفرض اللعين؟ يأتي الرّد صمّتا ساخرا ومهدّداً من مصدر قريب بعيد، ما تتطلبه المهمة من مرّات. المهمة! أي مهمة؟ لتذهب المهمة إلى ألف جحيم.

يحرك الرجل الماشي رجلين من حجر تثبتا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أب يجلّ وجهه الجميل شعر بلون الكفن. يرتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى الوجهان مُعلّقين في الفراغ. يتصاعد من المسجى على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل لإنسان بحملها. يتسع ربع ابتسامة شبح. يهمس في الأذن: كم أنت مودع يا طفلي الصغير. يقطب الشبح الأشيب جبينه مستنكرا ضعفا مشينا، ينزاح الثقل من الرجلين، يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشى طليقا، أنه يركض خيبا، أنه يقفز قفرات جبارة في الهواء، كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا.

يتّجه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أوصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر ويشعر الطفل أن لا مهرب له من برائته. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر.

تنصب العمارة البيضاء التي تناطح النجوم، أمشي على سقفا متجها للهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكها في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزعا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا فإنه هو القليل. أنحني لالتقاط نظرات سقطت من يد عجوز مرتبك هو أبي عاد من منفاه وتلاقينا على باب البيت عائد أنا الآخر من منفاه. أمام البيت آلاف الناس يحرقون فينا بصمت، أدعوهم للدخول فيندافعون حولنا، تحتج ربة البيت بأن ليس لها ما يكفي من فناجين القهوة لكل هؤلاء الضيوف. تتعطل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟

كم من أمي دخل فراشه هربا من "الواقع" ونهض منه هربا من الكوابيس وهو كل مرة كالمستجير من الرمضاء بالنار!

اللعة! أين كنت؟ على الضفة الأخرى لهذا العالم أم في عالم مختلف؟

لنحاول رصد الملامح الكبرى لهذا الذي "نحط" عليه ونعيش فيه من أغرب القصص.

أغرب ما فيه أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغيّر من سفرة لأخرى.

تصوّر أنك تقيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرّة ثانية بأربعة شمس وأحيانا بنصف شمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد. كأنّ هذا الذي ترخّل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشاجال وماكريت.

هل الفن صدى لما تكتشفه الذات وهي في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ لم لا؟ ألم نهرب من فضاء الحلم أيضا فكرة الآخرة والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" ونحن لا نعي.

ثمّة أيضا غرابية المسافر الذي يضع رحله في مثل هذا الفضاء. قال واحد من أنبه الرحالة: "حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لاوتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاوتسو؟"

السؤال داخل السؤال ماذا لو كان الحالم -أكان لاوتسو أو الفراشة- هو نفسه حلم يحلمه حالم قد يكون هذا الذي تسميه بعض الرؤى الله... حالم يحلمنا نحن جميعا مما يجعل منا مخلوقات حلم تحلم بدورها مخلوقاتنا.

المهم أنّ الذات، أصبحت "الآن" و "هنا" شكلا لا شكل له... شكلا تخفّف من خصائص الشكل... فكرة مبهمة لا تتذكّر أنّها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن... شكلا ضاعت ملامحه الأصلية.

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة لأخرى، من زائر لزائر؛ والعهد على ما يرويه كل من ناموا وحلموا واستيقظوا. نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم يمشي فيه كل واحد منا على طريق لا يشبه طريق أحد آخر... عالم خاص بكل مسافر... عالم يتلاشى بالسرعة التي ظهر بها.

يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الإبهام بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحدا فيه ولا تدخل حلم حالم.

اللهم إلا!

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صدف، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل تواعدنا على اللقاء في عالم أوضح معالم؟ كيف أفسّر خروجها من بين جحافل الأعراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفت من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إليّ باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوبا ومعتذرا وهي لا ترتمي بين ذراعي؟ لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقني بحيرة كأنها تعنصر من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوما من الأماكن التي ترتاد؟

في آخر المطاف، ما هذا الذي ننتيه فيه كل ليلة أو قل ما هذه التجربة التي نكررها كل ليلة فلا نزداد أي معرفة بها؟
لننسى فرضيات سحرية قديمة عن رسائل مشفرة تبعث بها الآلهة وفرضيات أخرى عن مخاوف وشهوات مكبوتة تفوح
الأحلام بنبتها. ما الذي يبقى؟

ما نحن متأكدون منه أنه محكوم علينا أن نغادر كل ليلة ديارا معروفة ولو نسبنا إلى ديار أخرى مجهولة تماما... أنه محكوم
علينا أن نعود منها لنعود إليها مجددا والمرء كمن يتقاذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط،
ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ... وذلك إلى آخر منعطفات الطريق.

وأیضا أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعناها أصابها من الأمر عطب خطير
قد يؤدي أحيانا-إن طال المنع-إلى نهاية الحياة نفسها.

ماذا لو جعلنا منه إذن "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه كل ليلة للراحة وأشغال الصيانة
الضرورية. تصوّر أیاد خفية تستلم الذات حال دخولنا الغيبوبة لتفرك هنا أوساخ الذهن وتنظف هناك أوجاع الروح. بعد نهاية
الحمام يأتي أمر الرحيل والعودة للصراع.

فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه يتمّ فيها كل ليلة صقل الشمس والقمر وتلميع
النجوم ونفض الغبار عن الجبال وفرض الراحة على الكائنات لنجد كل صباح عالما جديدا معافى جاهزا لأحسن استعمال؟
تقول ولماذا يحرم علينا التمتع بمنظر المنظر لتشجيعه وربما لبعض الاقتراحات؟ يا عبيط لأن المنظف الكوني لا يريد
مزعجين يتدخلون كل لحظة في العملية ويضيعون وقته بشهواتهم الغيبية. حجة لن تقبلها إلا النساء وهن أحسن من يعرفن
ازعاج الرجال عند دخول المطبخ للتدخل فيما لا يعينهم.

ثمّة فكرة أغرب تقلب الأمور رأسا على عقب وهي تجعل من اليقظة قاعة الانتظار والمنام العالم الذي نعيش فيه الرحلة
الحقيقية أي هي التي نحقق فيها مهمتنا السرية التي جننا من أجلها العالم... مما يعني أننا قد نرتحل في عالمين موازيين وليس
في عالم واحد !!

إغلاقا لملف شائك سأعتبر دون أدنى حجة مقنعة أو برهان متين-أن ما نسميه "العالم" هو عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء
الذي تيسر لي إدراكه خلال ما عشتُ من الزمن. هكذا يمكنني أن أتخلص من عبءٍ ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية
رحلتي فيه هو لا غير.

أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في عالم آخر أو على الضفة الأخرى من
هذا العالم، فهي مسؤولية ظلّ لي أتصوره -بشيء من الشماتة-مُنهمكا في كتابة رحلته لقراء من الأشباح، ليس فيها إلا أشلاء
جمل عن أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط وقد لا تعني شيئا... وشاكيا مثلي من صعوبة مهمّة عبثية لم يكلفه بها أحد.

**

هل تبلورنا في العالم قضاء وقدر أم ارتظام الضروريات بالصدف؟

استحضارنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوقّر إلا على القليل من المعطيات ومع ذلك يدعي اكتشاف تصميم البناية المجهولة، مما يضطره لتجنيد الخيال وحتى لتصور قطع لم توجد يوماً لكنها تملأ الثغرات المزعجة. اعتبر موضوع انطلاق الرحلة.

كيف يسعنا القول إنها تنطلق عند الولادة والحال اننا نعلم أنه لا بد لكل بداية من أحداث سبقتها ومهدت لها ... أن لهذه الأحداث نفسها أحداث سبقتها... وأن للأحداث التي سبقت الأحداث التي سبقت هذه الأحداث أحداث سبقتها وهكذا إلى أن تضيع سلسلة الأحداث الممهدة لبدايتنا المفترضة في ضباب غابر الزمان! !

إنها إشكالية ضخمة ستتابع الطفل إلى آخر مراحل الرحلة، لكن مهلاً لا زلنا في بداية تشكل تصوره للبداية " الحقيقية" .

ها هو قد امتلك وقد أصبح في سنته الرابعة اللغة وكل ما تسمح به من أسئلة لا تتوقف ابدا:

- "ما"، أين كنت قبل ولادتي؟

- في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.

- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميز دوماً بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وسنقول عنه "ح" يوماً: لو طلب منك أن تفعل لا شيء لفعلته بأقصى ما تقدر عليه من سرعة.

- "ما"، ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟

من أين لفاقد الشيء أن يعطيه، ولفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر ثم هناك أشياء لا تقولها أم لابنها

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق الممتسب بما يطفو من القش:

- لا أحب شيئاً فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- "ما"، "با" دوماً غائب، لماذا؟ أين هو الآن؟ حدثيني عنه، متى عرفته، كيف أصبحت له ابناً؟

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:

- ذهب شيخنا إلى الجامع الأعظم مفتشاً عن مؤدّب لأطفال قريتنا ثم... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجاً: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثاً عن "با"...؟

العهد على الراوية ثم على خيال الطفل والكهل.

تحرك الشيخ ذلك الصباح بحثاً عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سگانها. وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذاك لعلمه بمواصفات حاجته. العجب العجاب أن تكون كلها موجودة في "با".

الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجوداً ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان الذي ربما جاءه خفية في مهمة ما. كأن الأقدار ضربت له موعداً لم يكن له الحق في نسيانه على شدة استخفافه بالمواعيد.

هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قابعا في زنزانه رطبة ولا حتى مصابا بزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديداً.

لم يكن يتمرن على السلاح أو بصدد نقله من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق هاربا من الجيش والشرطة.

نعم، كان الرجل الذي أرادته لي القصة دليلي الثاني موجوداً ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفاته، حاضراً بين يدي القدر.

تري هل تردّد الشيخ؟ ربما انتبه للوقاحة التي تنضح بها كل قسمات الشاب الغريب.

هل أربهته جراءة كانت تطبع حركات الطالب الطموح وسكناته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوقاد الذي كان يستهوي حتى ألد أعدائه؟ أم هل اختارهم رغم حدة طبع واضحة -لأنه كان وسيماً؟

يأخذ العم إبراهيم قراره باختياره هو لا غير وحسناً فعل. مهلاً. ما زال هناك أكثر من تقاطع طريق قبل أن تأخذ القصة الطريق الذي يودّ شبح لي لم يأخذ بعد الشكل الذي يريد.

كأنّ الأدمي الذي سأسميه "با" يتردّد. هل أتوهم أم أنني كالطفل الذي يلعب بإخافة نفسه وهو واثق أنّه لا خشية عليه من لعب كهذا.

يحتدم أول نقاش بيننا من وراء أستار زمن تداخلت مستوياته واتجاهاته.

- ستذهب مع الشيخ، وإلا كيف أكون؟

- أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفا؟ أنا أعيش مع الفلاحين! أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...

- قلنا: كفى من أنا، أنا، ألا تعرف كم يكره البشر هذه الكلمة في فم غيرهم.

- يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أنتصوري مؤدب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!

- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أدبا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستنتشر بانتهابك له؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللعنة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده وعقليته البدوية باحتقارها التاريخي للماشين وراء أذنان البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واطرك الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.

من حسن حظي أن الجوع حافظ أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لأدمي مثل "با".

ثمة أيضا سبب أقوى من الجوع اسمه الخوف.

كان "با" تلك الفترة الغامضة من تاريخه منخرطا في قصص معقدة عن وقوف مع غزاة جدد يأمل منهم خلاص البلاد من غزاة قدامي... عن تخزين وسرقة تهريب سلاح جنود أجنب تقاتلوا بكل ضراوة وقتلوا بكل وحشية... عن انتصار الغزاة

القدامى على الغزاة الجدد وبحثهم عن ساعدوا أعدائهم... عن هرب واضطرار للاختفاء فترة من الزمان في أي مكان...

عن وجود الشاب المتهور نفسه رغم أنه مؤدب لأطفال الفقراء، يقرئهم بعض ما تعلم في الجامع الأعظم... عن سخط على الأقدار الظالمة التي ما انفكت تضحك منه، جاهلا أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار متنا جميعا.

هو الآن وجها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب.

لا ترقص طربا أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللاممكن ممكنا.

أيرضى الشاب المتعرج بفلاحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي عاب على زنوبيا أنها أتت الوجود قبله، هو الذي رثى لشجرة الدر لأنها لم تعرفه بعلا، هو الذي سخط على الخنساء لأنها لو عرفته لقاتلت فيه وحده الشعر ولو كان شعر

العزاء، هو الذي كان يقول لأصحابه: البارحة كانت سهرة لم يعرف لها الليل مثيلا: المغنية كوكب الشرق، وكلمات الأغنية

لأمير الشعراء، والمستمع عبدكم المتواضع! !

ادخلوا جهوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسيتكم من نرجسية رجل حفطني باكرا قصيدة تفوح بكبرياء سخيف لأحفظ منها مقطعا واحدا:

قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب (مهيار الديلمين)

وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أنب مثل أبي

هكذا لم أذكر "با" في حديث إلا وقلت: السيد "أين في الناس"، فيضحك الإخوة وتقطب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

المهم في هذه المواجهة المصيرية موقف الطرف الآخر الذي بدونه هو أيضا لن أكون.

هل ترددت المرأة وهم يواجهونها بضرورة التحول لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض خادمة بلا أجره توفّر لبعليها أيضا متعة عابرة؟

يعاودني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرفه فيها من حس فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟

هل أذاب أخيرا ربغ ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟

أم هل اكتشف وراء عيني المها نكاء حادا بهره ولو أنه كان من قوم لا يبحثون عن الذكاء عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنها بما يخبئها لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه. الأرجح أنها صدقت، ومع ذلك قرّرت أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ما

قرّرت مشيئة سلطة عليا لا يعصى لها أمر.

كانت "ما" تتحرك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلا ما أرادته كائن لا مردّ لإرادته.

كيف لا تؤمن بأمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحداث يؤكد صحة قراءتها الأحداث.

أصوّرها منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تناجي نفسها للتغلب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألا يصل بتاتا، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسعه أن يولد مشوّها، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموت أن يخطفه بتلك الحصابة اللعينة ذلك

الصيف المشنوم، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصيف الآخر المشنوم، لكن ذلك لم يحصل... إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لذلك سيشفى وسيثب على رجليه مجددا كالعفريت الذي أحب. بقدر ما كانت " ما " تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا " مكتوب " أو مسطر منذ الأزل في دفتر الأقدار بقدر ما آمنت دوما أن العكس هو الأقرب للحقيقة.

في رؤياها هناك قوة قاهرة فرضت على فطرة الماء النازلة من أعلى شلال الزمان اتجاها أوصلها إلى شفتيها بالرغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى النهاية. أنظر إلى نفس القطرة، أتابع تدرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ الاعتقاد أن بوسعها التوجه أي لحظة يمينا بدل الشمال، أن تتطاير بخارا، أن تدخل أعماق الشلال لتختفي فيه، أن يدفعها الريح خارج السيل. نعم، لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوما. ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي أولد الفتح أن يتخذ له مسارا آخر؟ أليس المصطفى هو سبب نهوض أمة ووراء تحركها ملايين القصص اتخذت الاتجاه الذي حدده بوعي وبدون وعي؟

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التساييح والقرآن من أمم
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمت الزغب كالرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار، تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمان.

ألم يكن بوسع الأمور أن تتبع مسارا آخر؟

أي دليل لي على أن العنكبوت لم تتحرك تلك اللحظة سهوا أو عمدا. وأن القتلة فهموا أنّ الغار ليس مهجورا؟ كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب.

كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا.

كان بوسع تلك الجدة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل الشفاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهاقا وكربا.

ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمّي "عام القنطرة" بذلك الجدّ أو تلك الجدة؟

أهناك قصة موازية لـ "ما" تنتقل فيها من رجل إلى رجل بعد أن هجرت "با" الرجل الطيب الذي قصر حياته على تربية خمسة أطفال رمتهم في عنقه وهربت لتدير ماخورا كما وقع الأمر في قصة من أشهر قصص الأدب الأمريكي؟ ترى كيف أنا "الآن" في مثل هذه القصة؟ وما الذي فعلته بعد اكتشاف الحقيقة الرهيبة؟ ربما قتلت "ما" بيدي العاريتين؟ أغمض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أي مسار كانت تتخذه قصتي وقد انتصر آدمي اسمه هتلر في الحرب التي أجبرت "با" على الاختفاء في قرية القش والطين التي ولدت فيها.

تختار السائحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس ودفنها. تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب "الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستقلب ضحكة مرحة لبداية دردشة تستهلها مع كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبز والعدوانية.

تفتح عينيها على الأقصى، تحتق باندهاش في النادل الأسمر المقترّب منها بكل حذر. يلحظ الرجل نظرتها المسلّطة عليه فيزداد تشنجا. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم الموردين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجددا نصيبا وافرا من السوط وهو لسبب يجهله مئثم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرد وحتى بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكفّ عن التمعن فيه بدهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعود عليه من الازدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرك أنامله تلقائيا نحو شعرها كأنّ فيها حنيينا غريزيا لهذه الجدائل الشقر. يتوقف في نصف الطريق وقد داهمه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأدب المهنيين:

- عفوا يا دكتور، هل ضايقتك هذا العبد السامي في شيء؟

- لا أبدا، أبدا.

- أحببت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا... لكنك لم تأكلي منها شيئا!

تقطّب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفقتها. تجمع حوائجها لائذة بالفرار وفي عينيها غلالة الدمع، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تنس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنائسها عن صدى أنغام رجل اسمه "فيفالدي".

يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو راكضة نحو القنال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر باني إمبراطورية أورو-أفريقياسيا العظمى عليه صلوات الربّ ووطن وبركات الربّة فريكا. يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك لتتفرّج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا untermensch، يا ما تحت الإنسان".

يمكن الآن لنسخة أخرى من نفس القصة أن تتقدم.

يتوجّه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشباب الأسمر المتعجرف:

- أرجو يا دكتور أن "الحيلائي" أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئا! إنها أشهى المرطبات المثلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسيادنا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوما مع زوجها وطفلتها. حذار.

طفلتان! تفاحة وتفيحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟ ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سببا، مخترقا ساحة القديس حانون في اتجاه معبد بعل إله أكبر آلهة إمبراطورية قرطاج التي لا تغرب عليها الشمس منذ آلاف السنين. ثم يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها تحقّق فيه فاعرة فاهها. هراء كل هذا؟ طبعاً في عالم صنعته رؤى بالغة البساطة بالغة التبسيط.

إن لم نقبل بمثل هذه التصورات معتبرين أن مكانها روايات الخيال العلمي لا أكثر، هل نخطئ إن قلنا إنه ما كان لقصتي وقصتك أن تبدأ أي أن توجد أصلا في لحظاتها الأولى لولا كمّ هائل من الأحداث التي سبقتها وفتحت لها الطريق علما وأن هذه الأحداث كانت تبدأ هي نفسها لولا... الخ، الخ،

بديهي أن رحلتي لم تبدأ بولادتي وإنما بأحداث مهدت لها منها -حتى لا نذهب بعيدا -ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وتردّد حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار بجبل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا، ونجاح الاستعمار بفرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قارة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من الأحداث الأخرى- أغلبها لا علم لي به-ربما كانت قد تثير في موجة عارمة من الضحك. كلنا ننبثق من تسلسل أحداث لم تكن يوما لا مبرمجة ولا حتمية وقابلة للتوقّع.

كل القصص، حتى قصة العالم، ارتطام الصدف بالصدف بالصدف والضروريات بالضروريات والنتيجة أنه لا شيء مقدّر إلا اللامقدّر ولا شيء مكتوب إلا اللامكتوب.

كم مثير أن تكون الأمور من الأزل وإلى الأزل على هذا النمط، أي قيمة للعيش في عالم ليست المفاجأة أروع هداياه؟! *

**

سكوت الذاكرة عن تفاصيل الاحرام ومحاولة الخيال ملئ الثغرات.

محكوم على سلسلة الأحداث التي أوجدتني وأوجدتك أن تبرز من ضباب ماض لا أحد يعرف له بداية وأن تختفي في ضباب مستقبل لا أحد يعرف له نهاية.

كل ما نحن متأكدون منه أن إمكانيات مبهمة مضمنة داخل بداية كل البدايات تبلورت شيئاً فشيئاً، أنها تحركت على ألف مسار ومسار، أنها تفرقت أمام ألف تقاطع طريق وطريق، أنها بفعل ألف صدفة وصدفة تجمعت كالجداول بما جمعت من مياه السحب العابرة لتصب في كيان أكثر وضوحاً اسمه النهر.

ماذا لو قلنا الجغرافيين عندما يقررون أن نهر النيل أو الأمازون أو النيجر يبدأ في نقطة محددة من المكان متجاهلين من أين أتت كل القطرات التي فيه.

تصبح البداية في هذه الحالة وبقرار سيادي لا نقبل فيه نقاشاً المرحلة التي تسبق الوصول أو الولادة.

لنسماها الاحرام لما لها من أهمية في الاعداد لأقدس الرحلات: رحلة الحياة.

سل من تريد عن هذه البداية وستواجه بجهله الفاضح.

لا خيار لك إن ألح عليك السؤال غير جمع ما يمكن من معطيات عن وصول أقرب الأدميين إليك والفرضية اننا نصل كلنا بنفس الكيفية وإن تباينت التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

تبتسم الممرضة وهي تمدني بنتيجة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ترتسم الابتسامة على محيا المارة وعيونهم على بطن امرأة تمشي متناقلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب ترصد نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتفخ من جديد في نسق منتظم كلهث الراكض...

عالم لا هم له إلا الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

تستعيد الذاكرة كيف كانت بداية البداية لرحلة هذا المجهول الذي سأكون له الدليل الذكر، الذي سينادي بي بأجمل ما أسند إلى من ألقاب: "با".

ثمة الآن داخل فكري شبح كالفأر في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج تاركا وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو إجباره على الرحيل.

أقرر اعتماد سياسة التجاهل علها تؤدي إلى اختفائه أو حثه على البحث عن قنطرة أخرى يعبر عليها.

هل أقول له ألا يجرب معي من الآن حيله، وأني غير مهتم بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدمه للعالم أم جميلة فخورة.

هل تدخل لديها لتقنعني؟ هل تدخل لدي لأقنعه؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدوم، وليس هو الذي يترجّانا؟

تنهار يوماً كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفاً ومحض عناد.

وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هدوء ما قبل وما بعد العاصفة.

تتسارع دقات قلبي النائمين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترسم على الوجهي ابتسامة عابرة. تأتي المتأهب للرحلة المقدسة من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح الفكرة فعلاً...الضرورة التي لا مناص

منها للتسلل من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

"أماه أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل بونوفاس)

امنحيني حق أن أولد

وأنت يا أبتاه، يوم أولد

امنحني حق أن أحيا

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهوائي لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح"

منذ أول لحظة رصد إشارات مبهمة عن دخولك تجربة الوجود والحوار معك لا يتوقف أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل.

أصحيح أنك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، صوت من تحملك في أحشائها، أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم، أنه هو الذي يفودك من تواصل الحلم إلى انتباه بداية اليقظة أنك لا تخطيء فهم ما يأمر به وما ينهى عنه، أنك تمسك بلجام من تركب بققاز من حرير، توجهها إلى حيث يجب أن تذهب وهي متبرمة سعيدة؟
مثلي لا يكتفي بالقليل والقال.

تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني.

ربما تستفرد بك. ربما تفتح لك ذاكرتها. المرأة المتهورة! قد تنكص على الأعقاب. سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق معك. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي أذان صاغية. تكلم لأسجل لقرائي كيف انطلق الطريق.

أمام صمتك ثمة كئيب الطبية... وخوف مبهم مما فيها من أمكانيات الفشل.

تبتت في فكري المشوش أنه لا خوف فالصانع مجرب أخذ كل الزمان. فعلا كأنك أمام مهندس عبقرى صامت ومخفي ألقى على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة. كأنه طوال هذه الشهور التسعة يعطي ما يلزم من أوامر لمأمورين لا يقفون عنه مهنية عالية: اصنعوا، قيسوا، شذبوا، لا تغفلوا، قفوا، واصلوا، هنا جدوا، آخر اللمسات هناك.

الحمد والشكر لكل هذا الاتقان، لكل هذه العبقرية.

داخل الكهف السحري، تواصل تجميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظر بك بفارغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة ومن الصياد.

يضع الفنان الأعظم أخيرا توقيعه على اللوحة.

تأخذ القصة منعطفًا جديدًا.

في محطة الوصول ويتصادف أنها غرفة توليد في مستشفى عريق، يطلب مني بكل أدب أن أنزح إلى الخلف حتى انتهاء مراسم استقبال الوافد الجديد. تأخذ الأيدي البارزة على عاتقها مواصلة مهمة الأيدي الخفية. تسترق آلة وضعت على البطن المكور دقات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخبط خبط عشواء. تتعثر ضربات قلبي هي الأخرى. يتصبب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الألام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضُّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق الأبيض وأعضُّ على نواجذني لأمنع الصراخ الذي في داخلي، فتهتّر لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأنك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسئول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصرًا على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزًا... أم لأن فيك خشية مبهمة تتعاطم كلما اقتربت ساعة الحسم؟

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتباكًا.

حوار بيني وبين شبح قد يكون أنت وأغلب الظن أنه أنا في مرآة ذات لا تعكس صفحتها لحد الآن شيئًا.

هل تتلأأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه وشكل التجسد؟ هل هالك ما شاهدت في أعماق ذاكرة "ما" وأنت تتجول في قصتها والقصص التي انغلقت عليها قصتها؟ هل انفجر في وعيك العويل المتعالي من كل مسافر وقد أطبقت عليه أشداق الحياة؟ هل اقتنعت أنك لن تأتي بجديد، أنك ستتراكم فوق من تراكموا، أنك ستضيف للفشل فشلا؟ أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول قف، لا تخط خطوة أخرى، اذهب، لا تأتي، لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي سُدِّقَ؟ هل قررت أن الصفقة لا تستأهل تضحيات بهذا الحجم؟

تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي... ادفعي!

تتصبب "ما" عرقًا. تصرخ والألم يعتصر أحشاءها إنني لميتة.

تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكننت لا أهرب لحد الآن سوى أن تكون الأيدي الخفية قد أساعت الطرز فتأتي مسخًا مشوًا.

آه، صدقتني وقررت أن تعود من حيث أتيت. يا مجنون، الضريبة مهما غلث لا شيء بالمقارنة مع ما ستجني. ألا تعلم أن هدية ميلادك عالم بأسره لا أكثر من هذا ولا أقل... ثم ماذا سنفعل لو تغلب عليك الجبن بكل الملابس التي اختارتها لك، "ما" وكأنها تعانك لمعرض أرباب؟

هل بمثل هذه الحجج أقنعتك بالموافقة؟ أهكذا زال آخر ترددك؟ يبدو كذلك ودقات القلوب تنتظم والأيدي المحمومة تتباطأ والابتسامات تعود لشفتي القابلة.

كأنني بك تتحرك أخيرا نحو باب الكهف السحري مدفوعا بقوة لا تقاوم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين هذا العالم والعتمة التي تتبلور داخلها في صمت كل العوالم. أستحثك مبتهلاً مشجعاً ناسياً قراري بأن أتشمّت فيك في أول مناسبة.

تطلق الأم الأزلية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك في نفس اللحظة باب الزمان على مصراعيه. تنفصل كالثمرة الطازجة، كتفاحة لذيذة، قطفت من غصن أقدس شجرة.

في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش داخل أفخم القصور وبينما مشيعو الجنازات في ذهاب وإياب، تزغرد القابلة الأزلية احتفاءً بمجيبك أنت وكل أفواج الوافدين الجدد.

صرختك الأولى. حقاً مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية؟ ليّدعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة.

ألم القطف من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك إلى الأبد؟

هل أربك أنك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهيبة؟ أداهمك الوعي أنك لن تكون نذيراً وإنما أغلب الظن قرباناً؟

ربّما رفعت عقيرتك لتنذر وترهب. كم مضحك أن تتوجّه بالتهديد لعالم مدجج بالسلاح، وأنت الأعزل من كلّ سلاح! أم هل هي صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة أيها النهم الذي لا يشبع أبداً؟ ربما الأمر مجرد لفت انتباه تقول للعالم بكلّ بساطة وإيجاز: ها أنا.

**

الإفافة

أيا كان معنى لصرختك الأولى هذه المؤكد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نرق عصبي المزاج، يتمازج فيها صراخ كائنات لا تحصى بدويّ الرعد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصفير الريح. لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا علّك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدّس: مرحبا بك في عالم الانبهار والرعب... وكن على أشدّ الحذر. كن الرهان الرابع لهذا الذي يرمي-منذ بداية الملحمة العظمى-بكل مولود جديد، كما يرمي المقامر المتفائل آخر فلس له على طاولة القمار.

اللعيبة! لا أحد يعرف كيف تشتغل. كل ما نحن متأكدون منه أنها هي التي تحدّد لنا مكان الوصول وزمانه. هي التي تقرّر ميزانيتك منه وهل ستموت طفلا أم في أرذل العمر. هي التي تختار ما القصص التي ستتابع. هي التي ستمنحك الصحة أو أخبت الأمراض. هي التي ستضع على نمتك أحسن الأدلة أو أسوأهم. هي التي ستأخذك على أضمن مقاطع الطريق أو تدفع بك من هاوية لأخرى.

القادم الجديد لأول مرّة بين يدي. شعور عابر يشبه خيبة الأمل. كم أنت مثير للضحك بل وللشفقة أيها الأدمي. تصل العالم عاريا وتريد نفسك الغازي، تصله يد فارغة وأخرى لا شيء فيها وتريد نفسك مالك الأرض ومن عليها، تصله لا مخالب ولا أنياب وتريد نفسك سيد النمر والنسر والأسد، تصله أضعف مولود وضعته أنثى أي جنس آخر وتريد نفسك صانع آلهة.

أه، يا تقاحة، كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعفها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعّدا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبية قبل أن ترمي به في سلّة المهملات. ولم يكن هناك أيّ هالة من نور حول رأسك الأصلع.

لم أكن أعلم آنذاك أنّي سأراك، بعد ليلة تسكع في الشوارع المقفرة، تضعين على وجه القردة العجوز قناع الملاك المنتظر. ثم تدهمني رهبة ما ينتظرنني مستقبلا من مسؤولية توصف دوما بالجسيمة.

أليست حياتي منذ هذه اللحظة ملك لآخر سيوجّه دفة رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه؟ شعور كالبرق الخاطف بالندم وبفوات أوان الندم. ثم جدل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. أعود لمناجاة كائن لا أعرف عنه ولا يعرف عني شيئا.

نسيت أن أقبلك من فرط انشغالي بتفحصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي بيئلي بها البعض لأن الأيادي الخفية أخطأت في شيء ما. برافو، هي لم تبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي عليّ؟ أنا! كلّ الباقي! طيب لكن ماذا لو بدأنا بالسلام. لا أحظى برّد وأكاد أغضب لقلة الأدب.

- قلت: مرحبا.

ترفع القابلة صوتها ضاحكة تأمر أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنظر إليّ باسم نافذة الصبر تتشوق لاحتضان أول وليد لها. أمذك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت السخرية التي أداويه بها منذ زمن طويل: أعذر من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

والآن ماذا حدث بعد أول صرخة وأول احتكاك بالأيادي المجهولة التي بعثت فيك أولى الأحاسيس والمشاعر.

قل لي أيها القادم الجديد عن انطباعاتك البكر فهي جد مهمة لكاتب مثلي يطمح لتدوين ما لم يدون له أحد قبله.

أه ليس لك ما تصرح به وما عليّ إلا أن اشغل دماغي، أن احفر في أعماق ذاكرت، أن استجد بخيالي.

كل الصور عاجزة عن تمثّل اللحظة المفصلية التي ينتبه فيها الأدمي للعالم أول مرة.

ثمة صورة تبلورك كمسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك جحافل من الأعراب ليسوا أقلّ ضياعا.

وأیضا صورة الإفافة.

تستيقظ أنت البحّار شيئا فشيئا على صرير الشراع، على دويّ الموج، على صفع الريح. لكنك لا زلت ملتحما بالعالم لا حدود واضحة بينك وبين الزورق والسماء والبحر. ثم تنفصل شيئا فشيئا عن كل هذا لتجد نفسك واحدا ووحيدا وسط العاصفة في عرض المحيط.

إنها أفضل الصور... ومع هذا.

بالمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم اليقظة. ممّا نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل الرحلة؟ لا علينا، لسنا الآن في حاجة ماسة لطرح مثل هذه الأسئلة ومحاولة اختلاق ردود عليها. ثمة الأولويات وهذا الذي نفيق فيه ليس خاليا من المنغصات وبداية السلسلة حالة مزمّنة لن تفارقك إلى أن تفارق هذا العالم. أه، أيها الأدمي المسكين؛ محكوم عليك أن تأتي الوجود جانعا، أن تجرّب منه كل أصناف المسغبة وأن تغادره وأنت على جوعك الأول.

يدرك العالم المنكبّ عليك أن عليه تلبية أولى حاجياتك وإلا فأنتك لن تقيم فيه طويلا. يأتيك من المبهم سائل حار لذيق الطعم، يتدفّق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ.

ها أنت في وضع مريح يسمح لك بالانتباه للأصوات تأتيك من عالم يدهمك من كلّ المسام كأنه النهر وأنت الإسفنج. يتجدّد مغص الفراغ وكأن لهذا الإحساس المزعج مواعيد ثابتة ثبات لذة الرواء والشبع. تشعر أنه لم يعد لك من طاقة على تحمّل كل هذا النور، كل هذا الضجيج، كل هذا الزخم من الأحاسيس والمشاعر تدهمك من داخلك ومن خارجك.

لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبتت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد.

تهرب، إذن، إلى مغارة النوم لتبرأ من صدمة الوصول.

أنظر لبني سفر وقد وصلوا لتوّهم العالم. هم يدخلونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبأ الذي فارقه كأنهم يتمرنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة. المشكلة أنه لا نكوص من الآن على الأعقاب. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحويان الوجل في مغارته. لا بد له من الإسراع بمغادرتها والدافع الفضول والجوع. لا مناص من التسارع إليها دوريا هربا من كم من أخطار غامضة.

شيئا فشيئا تتضح الحدود وتنفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها شكل الكائن الذي كان المغارة السحرية وجسر العبور وهو الآن مدير التشريفات، الحارس والخدام الأمين. قريبا المرأة التي تعكس لك أول صورك.

يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقا بأنها لخلخال وأساور.

تتعلم باكرا الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوما لهيب المغص المتجدّد.

ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج.

إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. لا تلبث أن تدخل الاكتشاف الهائل الآخر بأنك تستطيع أن تصرخ كل الأبدية، والشيء المنقذ من الورطة التي تتخبط فيها مُصر على غيابه المرعب.

قد يكون أهمّ انطباع للقادم الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه بكل كرم- ما هو بأمس الحاجة إليه، أو تمنع هذا المطلوب الضروري لمواصلته الوجود إن لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم، وأنداك لا بدّ من التملق تارة والابتزاز تارة أخرى.

هكذا تتشكّل باكرا في أحاسيس الذات البكر ومشاعرها الأولى دعابات الأساطير والأديان وما تفرّع منها وضدها من فلسفات.

ما أغرب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للعالم لرصّع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!

أعود مرارا وتكرارا لاحتضان القادم الجديد بهذه التعلّة أو تلك.

انتبه يوما لصغر رأسه. تعبير فكري صورة خاطفة لمكتبة ما زالت رفوفها فارغة. لكن هي حقا فارغة أم تفيض بملفات تجرّبة الحياة على مرّ ملايين السنين؟

كل الأجوبة مضمنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفكّ تنتظر زمن البروز الموجه. ومع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين. لم أعرف منهم من أتى مسلما معانقا ومصافحا. لم أعرف منهم من حدّث عمّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جرّب فيها من أشكال وأحلام... لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهزّبة من عوالم ما قبل العالم بقياض بها شيئا ثمينا... وهذا الأدمي الذي سأقوده في مجاهل العالم لا يشدّ عن القاعدة.

مواصلته العيث مع رضيع مصرّ على وقار الشيوخ.

كيف؟ لا فائدة من الإلحاح السمج؟ أنا ألحّ! أدرش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة

ما. أه، لا تقبل تهديدا. مرحى، من شابه أباه فما ظلم. على الأقلّ طمئنّي. هل هذا حقا أول أيام رحلتك؟ هل هذا أول لقاء لنا أم

هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكنت لي أبا في حلم آخر؟ هل تهنا عن بعضنا البعض في اتساع عوالم لا حصر لها؟ هل تواعدنا على تجديد اللقاء الآن وهنا؟ باختصار هل أنت حقا مولود جديد أم أنك والد كل قديم وكل جديد؟

يحدّق فيّ الكائن الغريب مواصلا تجاهله الاستفزازي فأصرخ فيه ضاحكا: واصل تحديك السافر لأبيك، سأنطقك في نصي بما أريد وما أنا بأمرّ الحاجة لسماعه.

كأنه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوة دون جسر فوقها.

إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة للتدخّل في نسق الأمور. ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به وملتصق. مؤكّد أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وبين قصصها وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قيس من شعور قد يكون جُرب في عالم آخر. محكوم عليك أن تدخل هذا العالم غير محمّل بالأم قديمة وعادات لا فائدة منها، أن تأتي الوجود مفسوخ الذاكرة، أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تمسّها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لتواصل قصة القصص في فصلها الجديد.

**

أولى الخطوات

يتشكّل العالم إبّان الإفاقة كمعطى مباشر تتعامل معه الذات خارج اللغة ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة. تأتي سريعاً مرحلة الخروج من وضع المتلقّي السلبي للمعلومات إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات. ثمة معلومات ناقصة في ذاكرة الطفل عن هذه المرحلة من الرحلة، لكنها متوفرة بكل التفاصيل وهو الجدّ الذي يرصد أقصى ما يمكن التفاصيل عن أولى خطوات الأدمي على الطريق.

تقلت مني الصرخة:

- حذار، البنت، البنت!

تضحك تقاحة:

- تظنني كنت سأدوس على يدها.

- لو فعلت لخنقتك.

لا تنتبه حرّة للخناقة الضاحكة، مواصلة زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجناها من الفضاء المطوّق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنت اسميه "جوانتنامو" لأسباب يطول شرحها. تنتهد تقاحة:

- "با"، ستجنّني هذه الطفلة. أخشى أن تجنّك إن تركتها في حراستك كل الوقت الذي سأحتاج لموعدها.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنها الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وكأنها اللعبة التي جادت بها الأقدار.

- كفى وقاحة مع والدك. لا تقلقي سأجد ما ألهي به الطفلة، والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختفي.

تنسحب تقاحة مسلّطة عليّ نظرة فيها إشفاق وشكّ في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته "البعبع".

وجها لوجه مع من ستعرف في النصّ تحت اسم حرّة.

يحديق فيّ الكائن الغريب باحتراز لا يخفيه من غريب جديد. لا بدّ من رسائل طمأننة لأحظى بالثقة الغالية.

- ها قد أخرجتك من "جوانتنامو". أنت الآن حرّة يا حرّة. أرني كيف تكون بداية استكشاف العالم.

تجلس رضية التسعة أشهر على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق فيّ مطولاً. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب. ترمي بيديها البضتين على الأرض لتنتقل كالسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة. تنتصب على ساقين مرتجفتين. تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسّس الكتب. تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالذوي فتسقط بدورها على مؤخرتها من علوّ قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها باحثة عن ردود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

ترفع قامتها، أو قلّ تتسلّفها من جديد، إلى حيث يمكن مواجهة بريق شيء يلمع. يتبيّن أن الشيء يستعصي على المسك والجدب. تدير الرضية وجهها بحثاً عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف الأربعة أمتار مربعة من عالم سير هبها يوماً اتساعه.

يفترّ ثغرها عن ابتسامة أول صبح لأول عالم.

تعود أذراجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدّر كم هو ثمين لأمها وأبيها. تقلّبه ببالغ التركيز.

تكتشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تتورع إلى أن يأتيها الصراخ الضاحك بالتوقف.

تغيّر الرضية اتجاهها وتقصدني مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها.

تتوقّف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها بشيء لا أتعرف عليه.

تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرّة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تذوّق العالم؛ فاللسان-بعد العينين-أهمّ أدوات الاستكشاف.

تنتبه حرّة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص.

ترمي الرضية براحتها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها مترنحة لتبدأ العبت بفنجان القهوة.

- ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني. ستتعلمين سريعاً أن الاستكشاف أيضاً اكتشاف الموانع داخل فضاء محمّل بكل الأخطار.

إنه يوم أغرّ حقاً، فلماذا لا يؤرخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتنطلق الزغاريد وتنصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟

ها أنت تحرّك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنّه صلباً لا تعلم أنه يطفو منذ القدم على أنهار من النّار. تواصل تحسّس سطح البسيطة بحذر في محلّه، والعثرة تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل عثرات. ينزاح عنك الخوف تدريجياً فهمت سرّ العملية وأن المشي ضرورة فقدان التوازن ثم تداركه. كأنني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجّعا ومطمئنا: والآن تقدّم، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل، ولا خشية أن تكون أنت بالذات القشّة التي تقصم ظهر البعير.

**

اكتساب العالم ملامحه الأولى

لو تابعنا الأدمي في هذه المرحلة من رحلته وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهمقنا وهو لا يكف عن الركض والرقص والنط والتسلق والهرولة كأنه يبحث دون كلل عن شيء أو عن أحد. كذلك لو دخلنا وعيه وسجلنا ما يمر به من مشاعر، لأرهمقنا وصف ما يمر به من حالات.

إنها المرحلة التي يضع فيها القادم الجديد الحجر في الفم ليختبر صلابته، يرفعه إلى الأنف ليتأكد أن ليس له رائحة، يرميه إلى فوق ليشعر بمقاومته للرمي... التي يتحسس فيها الأواني والأدوات ليعرف ما تثيره من أحاسيس لا يخشى لمسها حتى وهي تلتهب نارا.

إجمالا الأدمي في حالة دائمة من الفضول الجارف لكل ما يحفّ به من مظاهر وكائنات وأشياء. بطل قصتنا الآن في وضع يسمح له بإرضاء هذا الفضول وكل معالم الديكور الفخم، الريح، الشمس، القمر وليل الصحراء، حاضرة لا تنتظر إلا انتباهه.

تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدة غير معهودة فيها:

- ألم أقل لك مرارا: لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح! أدخل الغرفة بسرعة. لا تخرج إلى أن أسمح لك.

يفلت الطفل من بين ذراعيها هاربا لوسط الحوش، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا.

ثم كيف يضيق فرصة تأمل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟

هو الآن مختبئ وراء نخلة يجيل البصر مبهورا في اكفهرار وجه السماء والموجات الخاطفة من الضياء تتتالي بعصبية متزايدة كأن إليها يقذف ولاعة تعاكسه، أو كأن عفرينا أشعل في كبد السماء مصباحا من "النيون" يرفض العمل.

تتزايد سرعة ومضات المصباح الخفي وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه.

يتصبّب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للغوط جريا وراء جده يساعده في سقي النخل.

تعبره لحظة فكرة أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال-خاصة هو-من حماقات.

تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته مختبئا عنها وراء أطول نخلة الحوش يسمح الرمل عن وجهه.

تدفعه بقوة للغرفة، تحميه من جنون الريح.

- هل تشعر بحرقة في عينيك؟

- اتركيني، أريد أن أذهب للغوط. جدّي هناك ينتظرني.

- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمّه وأبيه؟

- جدّي سيجدني. هو أحسن من يقفّي الأثار.

تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الريح: ممنوع، ممنوع، كفى الآن.

تختبئ وطفلها من غضب الريح في الغرفة الصغيرة، والرمل يصفع الباب الخشبي كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده.

- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

بوابة جهنم! نقطة الخلاف الوحيدة مع "ما" إلى يوم مماتها. كلنا نكتشف العالم في زمن لم نستشر فيه ومن مكان لم نختره.

أي أهمية للأمر والعالم يتجلى لك بكل روائعه من أي مكان تدخله وفي أي زمن تتبلور فيه.

تعود الأم للنصح والتحذير وتلك مهمة كل دليل.

- احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعد عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفّف من أحزاني؟

لمغالبة عصبيتها لا تجد الأم من خيار أسوأ من رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقدوا فيها الطريق والحياة أحيانا.

- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام مميّنة على بعد بضعة أمتار من الخيمة

وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق. وهل حدثتلك عن "با" لما كاد يهلك وقد ضاع بين كتبان الرمل!

نعم، لكن كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جننا أصلا لغير متعة الضياع!

وفي ملف آخر يؤكد "با" ما روته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكثّر عن الأنياب: لما هبّت الريح، فقدت كل أثر

لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوما كاملا والريح تمحو الأثار. ولما بدأت الشمس ترميني

بأشعتها كالصياد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنار، ولا طريق يدلني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هالك. ثم تذكرت كيف

يكون المشي عندما يضيق الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. وعند مجيء الليل خرجت منها

لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهارا وأمشي ليلا إلى أن وصلت

واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يغزتك-يا بني-من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها وويل أيضا لمن لا يرفع تحديها.

الطفل الآن حبيس عاصفة الرمل. ممنوع عليه العودة وللهضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال الشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكئيبان؟

يغض الطفل عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع. تأتي الكهل وهو يتفحص مشاعره أنها إعجاب وغيره ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.

كأني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة، تبيّت عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالنبي عشنا ونحن تائهون في هذه الصحراء، لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر. تعود الأم لدورها الأزلي تفسّر وتحذّر.

- يا بني، نعم هدأت العاصفة لكننا في عزّ الظهيرة، لا مجال للخروج الآن، ثمة من مات بضربة شمس كم سمع الطفل من تحذير بخصوص هذه الشمس المعلم القار المتحرك في الديكور الثابت للرحلة.
- يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.
هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فقط، وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.
يشيح الطفل برأسه حتى لا ينگسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

- "ما"، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟
لا ينتظر جوابا، وقد اختار رده وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهما استقرّ في كبدها فهوت من عليائها كالطير الجريح. يمدّ يده بحذر نحو صيده ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلّ أن يريق على الجمر الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الأفاق.
- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟
- لا شيء، لا شيء، قلت لك: لا شيء.
يفلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحصاته الشمس، لا عنا ما سبّبت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالقطران.

نعم الصحراء جهنّم في عزّ الظهيرة الجنّة عندما تكف الشمس عن اضطهادنا. الظلام أخيرا بعد طول الترجّي ونفاذ آخر مخزون من الصبر.

- "ما"، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟
تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفيننا ما نقاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.
- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها فقط! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.
يستبطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار... بغض أمه للصحراء وهيام أبيه بها. يختار باكرا

صفه لجانب أبيه ضدّ أمه... للمرّة الأولى والأخيرة.
تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحبّ قدها في شمس الأب والجد:

- لا أجمل من غروبها وشروقها حتى هنا... أه، وهي على وشك البروز! لكن... لماذا تنقلب فيما بعد إلى...
تصمت "ما" لحظة، تصيح السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع ثغاء الجدي المولود الجديد. ثم تشخص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.

- أه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي ألطف وأرحم!
- هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟
- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.
- يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس جميعا ويتشاركون فيها.

كأنّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحفظاً بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية مرهفة وخجلا دفيناً. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكملوا نقش "بخنوقها"؟ هل كان سحرا تختفي داخله فلا يراها أحد؟

تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.

هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري ولنقل "ما" ما تشاء.

- أنا و"با" وجديّ نحبّ القمر. أعرف أنك أيضاً تحبينه كثيراً. سأنتظر طلوعه معك.

- قد يأتي متأخراً هذه الليلة.

- لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.

- أمر سيدي ومولاي، لكن لا تنهني إذا حلاك النوم.

قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي الليالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتقي عنه الوحشة والسحنة المكشّرة التي يتخذها عندما يتسرّب بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكوايبس والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف اللصوص والعشاق.

هذا طفل ما زال بعيداً كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص والعشاق وبقية الكائنات، وأنه لولاه لدارت الأرض على نفسها بثلاثة أضعاف سرعتها فإذا بسطحها مسرح أبدي للريح الصرصر والعاصفة الهوجاء، ولا قدرة لكائن حيّ على البقاء.

أه على فكرة. أكتنا نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلم؟

من علم الأدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعترف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟

أهم من كل هذا في تساؤلات الطفل الصلة التي تبدو وثيقة بين هذا القمر وبين الهلال.

- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.

تحاول الأم التصحيح:

- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه "القمر".

- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه جرم آخر. لو كان كلامك صحيحاً لوجد هلال للشمس.

تبتسم "ما"، تداري حرجاً. أليكون للشمس هلال لم يتقطن له إلا طفلها؟

- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

- لنفس السبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريد.

"كم عمر القمر؟ (إيسا)

ثلاث عشرة سنة.

تقريباً"

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهم الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على "ما" دون إثارة ضحكها، وغدا على "با" لإثارة إعجابه.

أولى النظريات أن القمر كوة كبيرة قد تمكّن جسمه النحيل يوماً من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضاً إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوساً يمسه به الكائن العطوف الذي تصلي له أمّه، يهش به على العفاريث التي تملأ أحلامه، وبغيابه تعود الأشباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش، تترصد به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحور-بكيفية جذرية-وظيفته في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا رميت على سطحه الكائنات الأثمة لقضاء عقوبة اسمها "الحياة". يصبح مصباح الليل عين حارس المحتشد الأعور، ذلك المدعو في قصص قومه "إبليس".

رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية لم تكن هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هاجس الأطفال على مرّ العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كلّ طريق يتبعه، واكبوا تغيّر ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا واتبعوه إلى أن حظوا الركاب على سطحه ليتنفسوا الصعداء وهم يشاهدون بأعينهم واحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترنح البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.

يعود الطفل لأسئلته الغريبة التي لا تتوقف أبدا.

- "ما"، من ماذا صنع الله الشمس والقمر؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. الشمس مصنوعة من ذهب قرطيك أما القمر فمصنوع من الفضة كالتى حول معصمك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- فكرة مثيرة، لكن صدقني، يا بني، لا أدري.

- سأقول ل'ابا' عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنعت الشمس والقمر. سيكون متفقا معي في كل ما أقول.

- أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقوله هو.

- "ما" أريد أن تروي لي أطططططط طول قصّة في الدنيا، أنا أحبّ القصص لكنك...

- نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جدّك التي...

- لا، لا، تعرفين لكنك لا تريدين...

تضحك "ما" بحرج.

- صحيح أنني لا أحبّ القصص... قد يكون لأنّ جلّها للتخويف أو لتزيين الواقع.

هل نطقت "ما" حقا هذه بهذه الجملة أم أن النصّ يقولها ما لم تقل في إطار إعادة صياغته للأحداث وتزيينه هو للواقع؟ ربما قالت شيئا من هذا القبيل علق بذهن الطفل وأعدت ذاكرة الخيال صياغته بعد عقود. ربما هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لقصص الأدميين فوضعها على لسان أحكم من عرف منهم.

يعود الطفل للكلام يغالب تناوب المشرف على الرحيل للصفة الأخرى من العالم. تضع الأم اصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.

- أنصت لأي شيء؟

- للصمت... لكل هذا الصمت.

الصمت... صمت الصحراء ليلا. الصمت الذي سيحلم به الكهل وهو على طول الطريق محاصر، مهتد، معتدى عليه بكل مما يصدره الأدميون من صراخ وتأوه ونواح وتصرّع وشخير وتسابيح وهتاف. أنت جالس على الرمل تحت قبة السماء المرصعة لألئى بمأمن أيضا من أشيائهم وبياء لبشاعة ما تصدر هي الأخرى من أصوات. كأنّ بقية الكائنات التي تسكنها لا تتجاسر على رفع عقيرتها ووقارها الفطري وقد التحفت ببرقع الظلام، يثني عن كل صراخ بذيء وعن كل جمل عقيم. حتى أرقّ الموسيقى خطأ نوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشازا. لا الغابة، لا السهل، لا الجبل ولا البحر بقادرين على اعتصار ما تعتصره الصحراء ليلا من مشاعر بالغة القدم بالغة العمق. هكذا وقف كم من آدمي في حضرة أبيه صور الجمال والجلال هامسا لنفسه وللنجوم: تنكّرت من أنا، تنكّرت من نحن، أعرف ماذا نفعل كلنا هنا! لهذا كان إنجاب الأنبياء وسببى اختصاص الصحراء وحدها لا ينافسها في الأمر منافس.

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو. لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع دوي انفجار شمس أين منه دوي ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط، وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظّ أو من سوءه أن بعدا لا يتصوره عقل يمنع عنّا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج.

ينتبه الطفل وهو يغالب موجات النعاس ليريق ما يتلأأ في حالك السواد الصامت.

يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العدّ. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. ثم تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تقوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته ل'ما'. يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنثور.

سؤال آخر يرهق به ذهننا مشغولا في آن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها في ظلمة الليل- عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟ إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تحوها الشمس كل صباح. قد تكون ثقوبا في ستار داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمه والدجاج والماعرز والعمات والأعمام والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "ما" الله. ألا تردّد دوما أنه نور يوجد في السماء؟ كان واثقا أنه لو وضع عينه على أيّ من هذه الثقوب لرآه جالسا على عرشه. آه، لو استطاع التسلل عبرها ليلاقى هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!

كم استقرّ فيه هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تناجيه أمه في الجهر وفي السرّ، فضولا جارفا! كم صوراً مشوشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صورته في فكر الطفل أنه آدمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مردّدة أنه لا سند غيره يرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكد من الأمر إلا بالسفر إلى حيث يوجد. ما الحلّ وثقوب النور متناهية البعد ولا يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلم، يوضع على سلم، يوضع بدوره على سلم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسع الثقوب الصغيرة لمرور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع. الحلّ بالطبع: فانوس الليل عند اكتماله.

حانت لحظة "الإسراء" وقد أثقل النوم منه الجفون وانتهت المقاومة العنيفة. يبدأ الطفل التسلق وكل درجة يعتليها تزيده خفة وجذلا إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدد الطفل قامته الصغيرة إلى أعلى محاولا التمعّن في ملامح وجه مشرق بالنور. يبتسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر - وهو جالس على ركبتيه - بأنفاسه الهادئة على عنقه.

- ماذا تريد مني، يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حب! تتراحم المطالب عن أب يريده عاد من الغربة ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أم يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لجيد "ما"، وعن مسحة جديدة للجدّ، وعن جحشة جميلة يزوجها عنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كلالل أسئلته ليفهم كلالل شيء. تتسع ابتسامته الكائن المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.

يشعر على وجهه بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.

- "ما"، لقد كلمت الله وقلت له ...

ترتسم على وجه الأمّ علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إياك!

تضع "ما" يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأول مرّة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبيلغها.

- "ما"، لكنه قال لي...

- يا بني قلت لك كفى.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه. يفضل الاخلاص للنوم مجددا وهو لا يعلم ما الذي يخبئه له المنعطف الجديد من الطريق.

من أقدم الذكريات التي تشكل مادة هذه القصة شيخ جليل ينكبّ على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- صيف الصحراء والحصباء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم غدا إلى أهلك في الشمال على مسئوليتي، وسأبلغ ابني بقراري وسيقبله وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

آخر ليلة للطفل في صحرائه الغالية لا يعلم أنه سيرحل عنها وسيرحل بها كاملة داخل وجدانه.

آخر مشهد لا ينسى تودّعه وتعدّه بالمزيد يوم يرجعه الطريق الذي أخذه بعيدا عن أحضانها.

تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

- انهض أنه الفجر

تهزّ الأم طفلها برقة متزايدة الحزم:

- اتركني.

- انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يفرك الطفل عينيه. يأخذ كل وقته للتثاؤب. يتسمّر أمام حالة يتخذها العالم الطاوس عندما يقرّر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مآدبة الحياة. بداهة لم يدّخر الداعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النفقات لتزيين دار الضيافة. أليبهنا بغناه وحسه الفني المرهف؟ أم ليعوّضنا عما سنلقى في دار ضيافته هذه؟ أم لسبب آخر لا ترقى له أفكارنا وصورنا الصيانية؟ يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلّون ثوب الليل بحمرة شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحوّل إلى بحر قان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصقّى لم يتجمّد بعد في سباته.

ما من شكّ في فضل بناء معابد ماتشوبيتشم على البشرية جمعاء. لا أحد يعرف كانت تربط الشمس عند الغروب إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الوتد. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أننا ربما ندين لهم بعدم ليادها بالفرار رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعات ومن ثمة ثباتها على الشروق بعد كل غروب.

تستغرق "ما" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتيها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتابع وجه الله يبتسم. تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنظر في الاتجاه المعاكس.

يتسمّر الطفل أمام معجزة جديدة، والقمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النهار نصف الزمان، ولفانوس الليل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء. يجبل البصر بين الشيبين، لا يكاد يصدّق عينيه. ثم ينفجر صارخا راقصا، داهمته فرحة صاحبة لن يفهم سببها إلا وهو كهل يسترجع وينظم ذكرياته، داعم العينين منقبض الحلق. ورغم أن اللغة توثت الشمس وتذكر القمر، فإن الطفل كان على أتمّ الثقة أن فانوس النهار لا يكون إلا ذكرا والأنثى هي القمر، وإلا كيف يفسّر ما في بدر الدجى من رقّة وما في الشمس من حدة وعنف.

على كل حال، ألا توثت لهجة القرية فانوس الليل فتسميه "القمر" (القاف منطوقة على طريقة البدو). هو نسج لنفسه قصة، البدر فيها الزوجة الهادئة والشمس بعلها الصاخب، وتجافيهما الدائم فصل من سرّ لا بدّ أن يسبر يوما أغواره. ينجح به خياله لتصور أسباب الجفاء. أي كارثة دعت سيّدة الليل لكي تصبح بمثل هذه الدعة الشاحبة والهدوء الحزين؟ هل نور الضحى عرق الشمس ونور الظلمات دموع "القمر"؟ هل أعرض عنها بعلها السماوي مفضّلا زوجة أخرى لأنها أغضبتة يوما لسبب تافه؟ قد تكون أنت من الأثام ما دعاه لهجرها؟ لا، لا. إنه هو المخطئ بالضرورة. ها قد عدّبه الندم على فعلته الشنيعة فأثاها هذا الصباح يطلب الصلح والعفو.

نعم كنت طفل آدميين افترقا على الأرض، وكان لي في السماء أب وأم على نفس الجفاء لا يتلاقيان-هما أيضا-إلا نادرا.

**

الزمان

شيئا فشيئا تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للعالم الذي أفاق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهارا حالكة السواد ليلا مقام الشمس والقمر والنجوم والله. تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير وحمير. وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سيأتي زمن اكتشافه لما يخرج بحثا عن "با". ثم تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حال. فالشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزار وتصمت ومغص الجوع يرحل ويعود. ثم يكتشف الطفل باكرا أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحداث تأتي بمواعيد ثابتة يعرفها الكل بل حتى هو. أي دهشة كانت تصيبه لو أقيم السوق الأسبوعي عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس؟ ثمة يوم أدرك باكرا أهميته وأمه تقيق فيه وفي عينيها بريق غريب تسارع لإعداد عصيدة السكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تتبرك به تترجى حمايته من أخطار مبهمة. ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيئها تحل أسعد ليالي الأطفال وأشق أيام الكبار، والكل فرح راض بما أمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

- لا تقلق يا بني، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبدا.

- أنت متأكدة، متأكدة، متأكدة!

- كل التأكد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحب هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبع ذلك اليوم بروائح الحبور والحب والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

المشكلة أيضا أن الزمان يعود بالعيد الذي يحب وبالعيد الذي يكره.

تفتتح الذاكرة ملفت طفل في سنته الرابعة أو الخامسة يفتح عيني الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، ودبعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلله كما لو كان له الأب والأم. وفي هذا الملفت المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقاتل يمسح سكينه في منديل أبيض هادئ راض عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقبضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقدّر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جرّه بعيدا حتى لا ينقضّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمزّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصمّ الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلّمك من الآن إلى الأبد!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردّد: كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعبثن ضاحكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصبان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هون عليك، إنه مجرد... أقصد أنه، على كلّ حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الأدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة: اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهزّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يعذبه عجزه، هو الذي لم يقدر على حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يخنتي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلاح والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلقّف أيادي الأم والخالة والجدّة شيئا أسود لزجا يضعنه مباشرة على نار الكانون. تصرخ فيه الجدّة بالكفّ عن الدلال وتتاديه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر ليتنوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيت أنها تتاديني يا كبدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت. من منافع الزمان أنه أحسن دواء لتلتئم به كل الجراح وهو الذي يحمل في طياته نعمة اسمها النسيان. لكن هل هذه حقا أهم فضائل الزمان علينا.

تصوّر أنك تصل عالما لا زمان فيه. أنت في هذا السيناريو المرعب كائن لا تتحرك له عضلة يشاهد فيلما توقف إلى الأزل عند مشهد واحد. تصوّر الآن أنك وفدت على عالم أصيب الزمان فيه بلوثة من الجنون وسيل الأحداث يذهب في كل اتجاه لا نسق له ولا إيقاع ولا عودة أبدا لحالة سابقة. لحسن الحظ نحن ننزل عالما ابن حلال لا يكتفي فقط بتوفير أروع ديكور وإنما يضمن لنا زمانا مؤدبا يمكن التنبؤ بالخطوط العريضة لمساره وإلا كيف كنا نقدر على شيء من التخطيط لرحلتنا؟ ينتبه الطفل أن العالم لا يثبت على حالة وأن عليه مواجهة مشاكل القرّ بعد أن عانى من مشاكل الحرّ. لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء منجمّ. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

- "ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بنيّ.

- ما معنى فصول؟

- كبرى التغيّرات التي يعرفها الطقس... أي الجو... أي...

إنها الحالات التي يمرّ بها العالم والتي سيقضي الشعراء والرسامون والموسيقيون والباحثون في العلوم الطبيعية جزءا هاما من رحلاتهم في استكشافها... إنها الحالات التي سنعدّل طوال الرحلة مزاجنا على مزاجها وأرواحنا تجرب هي الأخرى التغيير المتواصل لما يعتدل داخلها من مشاعر وأحاسيس وأفكار... إنها نبض عالم هو الآخر كائن حي نحن خلائه.

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغيّر؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

يواصل الطفل بحثه عن المعطيات الضرورية لكي يتشكل العالم في ذهنه بأكثر ما يمكن من الوضوح.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

- نعم يا حبيبي الفصول أربعة. سترى تتابعها جميعا ونحن الآن في أرض جدتك، بعيدا عن تلك الأرض التي سخط الله عليها

فحرمها الربيع والخريف مبتليا إياها بلهب جهنّم أغلب الوقت ولبليالي الصقيع ما بقي من الزمان.

ما أحلى الخريف هنا واللهب يشتعل في دوالي العنب! ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيض!

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟

تكفكف الأم دمعها ثم تبتسم.

- "ما" لكن لماذا اربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حضا من أرض الآباء والأجداد؟

ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه. الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته؟

يغيّر الطفل وجهة الحديث.

- "ما"، أيهم الأول؟ أيهم المفضّل عند الله؟ أنا متأكّد أنه الفصل الذي خلق فيه كلالل شئ.

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعابث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجمال طبعا... الربيع.

يقدمّ الطفل لأوّل أيام الخلق مرحّبا ومهنّئا بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهشّ نافذ الصبر-بعصاه وبيعض الرياح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد

فتنصرف متأقفة متوعّدة برجوع قريب. ثم يمرّر خرقا لامع البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على ذكر الألوان،

ليسمح لي بالتعبير مجدّدا عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير والاحتجاج على قلة انتباه جّل المسافرين إلى مدى المهنية

العالية التي تحلّى بها وما يزال. هل عرفتم نهارا طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض

والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوقّر على الدوام. صحيح أنه كان يوسع الفنّان

الأعظم أن يظهر مزيدا من الكرم أي مزيدا من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات يغيرها طول الوقت، حتّى نتسارع كلّ

صباح للنافذة لنصرخ مرّة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفّ، ما هذه الصفرة الغيبيّة التي اتخذتها الأشجار،

الظاهر أنّه سيكون يوما بطعم القرع.

تقول وأنت على ألف حق كفى دلالا يا هذا، انظر كيف يوصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يأمر أشجار اللوز والخوخ

بارتداء أجمل الحلّي والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتندافع الكائنات من مخابئها، تنفض عنها الخمول

والحذر. تخرج أوّل فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بغنج. تتبعها أوّل نحلة يدلّ اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب

ظهر النسيم. تغادر بعدهما أوّل نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل

زينته، أول عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقية الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.
هذا الربيع ' إيسا "
حتى ظلي
مفعم حيوية

أن أوان إطلاق الروائح من مخابئها. تسكرني ما تبتئه الحشائش والأزهار من رسائل الحب. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنها نحلة تريد سنّ رأسها في أزهار البرتقال. تؤكد أنها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعل عدم الانتباه مواصلا الاستنشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعا بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها- عبر مختلف الفضاءات- بصورة أنف عتياً فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرغ في أحضان زهرة أخرى وأني هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتسارع النحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتمان صفقة لا تريداني-ظلمًا-طرفا فيها.

أه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهم. يرفع عصاه في وجه جوفة ما تزال خرساء. تتعالى من كل ما يمشي وينطّ ويطيّر ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لذة الجماع. نعم، ما من شك أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يقدم مرحبًا بالصيف ومهنًا بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتثاقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطبق له فراقا. يطرد القادم الجديد بفضاضة ما بقي متردداً من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلا من شمس كأنها قنّت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيراً ذراعيه فيدخله الطفل سعيداً بقاء موج عاد مضيافاً بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدة غير معهودة وكأنه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالأدميين من شبق. يعزّي الصيف الأجساد أو يفتعل تغطيتها لأنه هو- لا الربيع-موسم الإغراء والحب. ترتخي الأعصاب بحلول ليل يصل كالمنقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانه الكائنات ترحب وتتمنى له طول المقام. تتصاعد روائح الريحان والفلّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها. نعم، ما من شك أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، أنا متأكد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تمسح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملاًها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكذّ.

يجمع الصيف حوائجه متأففاً من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يقدم الطفل لأول أيام الخريف مرحباً ومهنًا بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمتلل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تدرت بالأوراق الميتة سمادا لتجدد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة لنخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ربحاً تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيهها دوما حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفير. تأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصة الموت. تمتلئ السماء بأشلاء بقاياها وبقايا أشلائها. تتحرك نباتات بأغصانها المحملة ورودا حمراء كأنها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتدفع عنها عدوان الريح. تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والتثني. يشتدّ لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صغيراً مسترسلاً ما بين طبقة صراخ المولود الجديد

وغرغرة المحتضر. يتردد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلم الأبيكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخامر ذهن الطفل المشدوه. من أولع البرق وأين الطبول التي يصمّ قرعها الأذان؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الرّيح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟ نعم ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- "ما"، لم تشاركني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحّباً ومهنّناً بحسن الوصول.

يضرّب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تتلأأ حبات الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم الأزلية على طاقيته تشدها بقوة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفقدّة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاسي كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتخمة أسرفت في العطاء. أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضا يوما قصيرا مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفء. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضربات خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.

نعم، ما من شكّ أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

حتى لا يتعطلّ الكلام، يبادر الطفل أمه بأخر سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما"، طبعا الفصول الأربعة إخوة، من أحبّهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستقرّ يوما فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي وبوسان تفادا اتخاذا أي موقف، الأول مكثف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحملين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كان أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّا في أذن الربيع: أنت الأوّل وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الصيف: اصطفتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم ورائك.

إنها دائرة الزمان التي حكم علينا أن نرتحل داخلها. قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرر نفسها بثبات عبثي مملّ، وقد تكون الشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة نهاية أن تكون بداية لمشروع عنيد بالغ القدم على الدوام جديد.

**

الدليلان

القاسم المشترك بين الرحلة بمفهوم التيجاني ومفهوم المعري ضرورة الدليل. إلا أن هناك فرق جوهري في طبيعته.

في رحلة التيجاني-أو أنت تركض وراء دليل في محمية افريقية تزورها لأول مرة -الدليل شخص لا تربطك به أي صلة عدا عقد ظرفي. يجبره هذا العقد على قيادتك على طريق محفوف بالمخاطر إلى أن تحقق هدف السفر. يجبرك نفس العقد على مكافأة هذا الذي خدمك نقداً وشكراً. بعد ذلك يذهب كل واحد في سبيله تنساه بأسرع ما ينسأك.

أما بمفهوم المعري فالدليل جزء لا يتجزأ من الرحلة من بدايتها إلى نهايتها. هو الجسر الذي يحملك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود.

هو السفينة وأول مرفأ تنزل به. هو مدير التشريفات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات.

هو متعهد الخدمات اليومية، ناهيك عن كونه أول مرآة تكتشف فيها ذاتك.

هو من يقود أولى خطاك في العالم ... لكنه أكثر من هذا.

هو الذي تبدأ النظر بعينيه لهذا العالم و تواصل الأمر لأمد طويل. قد تبقى تتعامل معه طوال حياتك وفق ما وضع في ذهنك من تعليمات أغلبها لا واعية.

أين لك خادم كهذا لا يستقبل ولا يطالبك يوماً بأتعاب مخددة بالذمة وبخلاص الساعات الإضافية الضويلة التي يحرّمها قانون الشغل!

لوعياها بكل ما في الطريق من مصاعب واطار لا يقدر عليها دليل واحد، ارتأت السلطات العليا التي خططت رحلتك أن تمّتك بنسختين منه.

أول من تتعامل معه منذ انطلاق الرحلة هذا الذي يسميه كل آدمي مهما كانت لغته "ما".

كم من نصوص كتبت في هذا الدليل الأول! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من أغاني، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبدًا له وتبرّكا!

على مرّ العصور جعل منه الذهن البشري "أوما" أمّ الكون، و"سدنا" أمّ الحيوانات، و"قايا" أمّ الحياة، و"عشتار" أمّ الحبّ، و"ارشكيجال" أمّ الموتى، و"إيزيس" أمّ الربيع، والعذراء أمّ المخلص!

كم لنا أساطير لا تحصى عن قتل الأب، لكن ولا اسطورة واحدة تجاسرت على تخيل قتل الأم.

أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتذالا.

هل من المعقول أن...؟ كلاً ثم كلاً. تستوقفني سرعة الرفض وعنفه. تفرع داخل ذهني أجراس الخطر. ترى ما المخفيّ بمهارة في باطن أقدم الملفات، ما المحرّم، ما "الطابو"؟

تسترجع الذاكرة براعم مشاعر بالغة التعقيد، بالغة الغموض، بالغة الحرج، فيها غيرة باهتة وحرّج متوارٍ وإنكار ساذج أن يكون هذا الأدمي ضالعا في أمور فيها سوانل لزجة ودماء متدفقة وجلد ولحم وأنات لذة وأنات ألم، وأن تكون الذات نتيجة كلّ هذا. ماذا أيضا عن بعض أحداث صغيرة أخرى لا تتماشى مع صورة القديسة. لا أكره لديّ من أن أكون متعبدا أو أن يصوغ ذاتي صنم حتى ولو كان صنم "ما".

يا ما تعلمت عن الأدميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم! كم منهم يتقدّمون كأطهار وقديسين وهم أقدر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة! أمر جدّ طبيعي وعدم الكمال أهمّ خاصية في الأدميين وهي محركهم الأساسي نحو هذا الكمال الذي لا يجرون ورائه ولا يدركونه أبدا.

تتردّد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعرّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني. تنصاع مكرهة للأمر الجافّ.

- كانت ... كانت رحمها الله تقسو عليّ... وأحيانا... تضربني.

ما العيب في أن تفضّل أمّ أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتّر إناء الخزف الجميل. يوشك على السقوط من علياه والتهشم إلى ألف قطعة.

ليتنى ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا آدميا بنواقصه على التعلق بصنم ظلي بريقه بالذهب المزيف؟ ثمة تماثيل تبدي فهما عميقا لا تنازل فيه لطبيعة دليلك الأول هذا. تتأملها من جهة فتري وجه "كوماري" ربّة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت "كالي" تتلوى راقصة على جسد طفلها المرمرى تحت قدميها، قلادة الجمالم حول عنقها، ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.

إنها قاعدة أساسية لفهم الأدمي: إن أدار لك وجهه المضيء، ابحث عن وجهه المظلم، وإن واجهك بوجهه المظلم ابحث عن النور المظمور وراء السحنة البشعة. حتى الأم الأزلية لا تخرج عن سطوة القاعدة. تقول كفى عقوقا وتجنبا على اللواتي وضعت الجنة تحت أقدامهن! عقوق؟ طبعا لا.

لا أتمنى بعض ما كانت تجود به الأم دون حساب إلا ويعوي أحد: اذهب؛ ابحث عن أمك عند غيري. لا أبحت عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحي إلا وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟ آخر ما سخرُوا به مني لافتة قاعة الاجتماع: "اغسل فنجان قهوتك يا هذا؛ فأَمْك لم تعد تسكن هنا من زمان". أي أدمي مهما كان ناكرا للجميل لا يدين بأجمل تجارب الحياة لدليله الأول؟ ...ومع هذا. كم من دراسات علمية تقضح ما لا يصدق عما يفعله بأطفالهم نوع من الأمهات والآباء! كم من دليل ما ان استلم القادم الجديد ولو نازلا من أحشائه إلا وبادر بلفه في خرق قدر ورميه في أول صندوق قمامة وفي أحسن الأحوال تركه يصرخ بالنجدة على اعتاب مسجد او كنيسة!

كم من دليل منع عن زبونه الصغير أبسط حاجياته وجعل من رحلته جحيما لا يطاق! شواد تحصى ولا يقاس عليها؟ نعم، لنطمئن أنفسنا لا أصعب على العقل والقلب من صورة أم أو اب يتحول جلادا. للأسف هناك طيف من المواقف والتصرفات تجاه القادم الجديد ينطلق من أقصى الخير الذي تمثله كوماري إلى أقصى الشر الذي ترمز له كالي... وبين النقطتين كل الممكن من الحالات والأوضاع التي ستعطي لكل رحلة نكهتها الخاصة حلوة أو مرارة واغلب الوقت مزيجا من الاثنين.

يشاء حسن طالعي أنني سقطت على النوع الذي تكتب بخصوصه رسالة شكر للإدارة العامة مع توصية بتزقيته وتخصيص أحسن مكان له في الجنة (حتى وإن كان لنا تحفظ بخصوص هذا الجزء الأخير من التوصية سنتعرض لتفسيره لاحقا)

تطرح الظاهرة قضية الموصفات المطلوبة من الدليل الأول لتتلاءم مع طبيعة المهام التي تخول له التمتع بأجمل لقب وإلا كان الأمر انتحال صفة والتحيل عليها.

أولى المهام طبعا ضمان المؤونة التي بدونها قد يتوقف السفر نهائيا. يأتي يوم يجب البحث عنها خارج جسد الدليل. ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمات كأنها التصقت بحلقها: - أبوك في مكان لا يمكنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء... هذه الليلة فقط... جدتك ستزورنا قريبا... ربما غدا... ستأتينا بالكثير من خبز الطابونة والزيت والزيتون وكل ما تحب. تعضن الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها... ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: "ما" لست جائعا. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبدا، أبدا، أبدا. تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كان بها تردد بين ربع الابتسامة أو تفجر الضحك.

تضع نقتها على رأس ابنها ثم الخد المبتل على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة المولية صارخا وقد جاءته فكرة عبقرية أخرى: - "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكف المغص الذي في بطني. تضع الأم إصبعها على شفتيه. يسود الغرفة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشجة المصدر وصفير الثعبان يرمي بأخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش. يلقي ليل بهيم محمل بتهديدات غامضة بكله على امرأة وطفل وأخيه الأصغر سيببتون هذه الليلة (وكم آدميين آخرين) على الطوى.

تتخلل أحلام الطفل صور لعجوز تضع عجبنا داخل فرن الطين تنفخ بقوة على الحطب، تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجلي؛ ابني جائع.

فجأة يشعر بأمه تهزه وبها شيء كالجدل: هيا. انهض. الجارة-جازاها الله ألف خيرا-أتت لنا بقفة فيها ما يكفيننا لأسبوع، وبعدها يفتح الله. جدتك أيضا في الطريق وستأتينا من أخوالك بكل ما نحتاج.

يجلس الطفل بين امرأتين تتهامسان لفظور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاويه يوما فطور. تلتحق بهما نسوة الحي. جنن هذه المرّة للتهامس في أمور خطيرة تقع وسط مدينة صغيرة أفاقت على حصار الدبابات.

تصرخ الجدة في الطفل الهائج وقد نفذ صبرها من ضججه. - إن لم تكف هرجك فإن العبيثة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما ستري.

العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع.

يا ما هدّته عمّات وخالات بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبه بالأطفال الشرسين سليطي اللسان.

يتوسع عالم الطفل لكائنات موجودة لكنها أصعب اكتشافا على البصر حتى من أفاعي الصحراء. لم يبق عليه إلا تخيلها ورسمها ليخفّف من خوف مداهم.

- "ما" من أخطر؟ العبيثة أم الأفعى؟

- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام؟!!

تصرخ الجدة ضاحكة تريد تدارك زلّة لسان ابنتها:

- اسمع بقية قصة البارحة، لكن كفّ عن القفز على هذا السرير. إذن: وقف علي بابا على باب الغار.

ذهن الطفل الآن مشغول بأولاد الحرام أكثر مما هو مشغول بقية قصة عنتره ابن شدّاد.

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونوا أخطر من العبيثة؟

يغمض الطفل عينيه، يترصد قلعا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يتعمّق صمت الصمت ويغوص العالم في ظلمة لا قرار لها. يفرق الطفل في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يصدر الباب صريرا ويتحرك شيء في الظلام. يثب الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة التي هزّ بها معه للفراش ملء راحته والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه باكرا إحدى مقولاتهم؟ أم هل وجد وحده القانون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع حجاتك دوما في الجيب.

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة:

- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبيثة؟ آه، العبيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم مطمئنا. أمك ساهرة على الباب، سأترك لك النور.

يتنفس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنّه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جنّا أو إنسا وأنه سيشرح رأس العبيثة بحجراته لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجنا لفراش أم تقرّر الليلة إعطاءه حق اللجوء.

أليست المهمة الأخرى للدليل أن يكون الحامي من عالم يعجّ بالمبهم والواضح من أخطار النهار والليل؟

تتسارع نسوة من الأقارب والأباعد لمعاينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعادت مكسوفة من الصحراء بطفلين مريضين. - آه، هذا هو الطفل الكبير. مسكين يبدو أن والده ملاحق ومطلوب من البوليس، ردّ الله غربته لتجدي من يعيلك أنت وطفلك. "الله يخليه لك". نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما توحّمت به على عبد وقانا الله من شرّ العباد وشرّ العبيد. "الله معافينا".

يا لعينيه! كأنه يقرأ في الأذهان، ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسمائنا... آه، والده هو الذي سمّا تيمنا بملكننا الطيب!

الاسم!

تخيل أنهم رفضوه لك عند الوصول، ولا أحد كلف نفسه عناء تسميتك، لأن حظك العاثر شاء أن تكون ضحية تجربة علمية قرّرت دراسة علاقة الاسم بتكوّن الذات. ها أنت في وضع من مميزاته أن لا أحد يناديك، لا أحد يطلب منك أو ينتظر منك شيئا ولا حتى دفع الضرائب بما أنك غير مضمّن في أي دفتر... من حسن حظك أن العرف والقانون يحزّمان جريمة أقطع من جريمة القتل. فالاسم حق مطلق ومعطى يسلمونك إياه عند الوصول تقبله طوعا أو كرها ليضع الحدود بينك وبين بقية الأدميين، ليجعل منك فردا متفردا وفريدا، معرّفا ومعروفا لنفسك وللآخرين... ها أنت موثق إليه من المهد إلى اللحد كما أنت موثق للجد والعظم والرابط بين التغيرات التي تمرّ بها الذات هذا الصوت الذي لا يتغيّر من بلل الرضيع إلى بلل الشيخ. كم من أجزاء من شكلك سيأتيها الوهن والعطب واسمك كأول مرة سمعته من "ما" لا يصاب بمرض ولا يشيخ أبدا!

الوظيفة الثانية للاسم إدماجك في مشروع غامض، في أمل مبهم، في مهمة عليك الانتباه لها... أي مسار كانت تتخذه الرحلة لو كانت "ما" هي التي أطلقت عليّ اسما محملا بتعليمات وأمان صامتة غير التي حملها الاسم الذي فرضه "با" لمتابعة ملحمة بطل اختاره هو ليكون النموذج لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار! لكن من أين لكل عمر أن يكون الفاروق الحازم العادل ولكل مريم أن تلد مخلصا وإلها!

تتنهّد احداهن بصوت عال تهمس في أذن "ما" لا تعرف أنني أفتعل النوم:

- يتيم الأب يتوسّد الركبة ويتيم الأم يتوسّد العتبة.

يثب الطفل من الحزن صارخا:

- لا أريد أن تموتي، أسمعيني؟ إذا متّ لن أكلمك أبدا!

تجمع النساء حوائجهن تتلعثمن ببعض عبارات الاعتذار لائذات بالفرار.

تحكم الأم ذراعها، تمسح دمعها يتهاطل من عينيه ومن عينها:

- اطمنن. لن أموت، هذي من روعك.

- و، يا... هل... هل مات؟

- يا حبيبي، أبوك حي يرزق.

- إذن لماذا لا يأتينا أبداً؟ ألم تقولي لي انه بانتظارنا هنا؟ لماذا تركنا جدي والصحراء؟ لماذا جئنا لهذه المدينة البشعة؟ لماذا يتركنا وحدنا دوما هنا أو هناك؟

- يا بني إنه مطارد... وله كثير... ممن يريدون به الشر.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها.

يعلم أن أمه تخفي عنه سرًا له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهمهم بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جناً أو عفاريت، إنما بشرا كالذي يعرف، لكنهم، لسبب جهله، يريدون الشرّ به وخاصةً ب "با".

يا للطفل المسكين لو علم مواعده معهم تلك الليلة!

يتعالى القرع مرعبا ككلّ قرع فظّ في آخر هزيع من الليل. تنتشج يدا الدليل الذي لا ينام إلا متحفّزا حول ذراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلا في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعثنا لنأتيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنفذ: أخذته الجدة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن تسلمكم إيّاه. يتردد زوار الليل.

يتقرر من قبل لا ندري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تتشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق ذابحها، أن جثة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلا يدفّع أبرياء ثمن أفعال الأثمين.

ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء الطفل أيما عند الجيران.

ذات يوم تدخل علينا امرأة قالوا لها أنها تعلم الغيب وتعرف يوم رجوع "با".

تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملوّنة على الأرض بصعوبة. يأتيها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلا في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنّة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا متشنجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.

- خفّي عنك يا عزيزة. ما ثمّة إلا الخير.

تنطلق "الدقازة" في خطاب لا يهّم منه الطفل المفتوح العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة. وهذا الطفل؟

- انتبهي، إنّي أرى عينا شريرة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تتهدّده!

تعود الأسارير إلى تجهمها.

تتدارك "الدقازة" ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

- لا تجزي سيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذه كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبي. ضعها في كيس صغير واربطه حول عنقه. لا تتركه ينزعه أبدا حتى وهو في الحماّم. إنهم يريدون به وبوالده شرًا عظيما، قبح الله سعيهم.

- قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصبية.

- قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا فتى حرزك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسم الله دوما عليك.

يسأل الطفل أمه عن المرأة الغريبة. لا يفهم إلا بعد عقود ردها الواجم:

- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني بعض ما أتمنى وأعطيتها بعض ما تحتاج.

العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير مختزل في جدة وأم وخالات وعمات وجارات وكلهن يريدون تقبيله واللعب معه. عالم انثوي بامتياز بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقة ونعومة وليونة وطراوة... عالم سكري المذاق، مشبع بالألوان الصاخبة، بروائح البخور والطيب... عالم يبعث فيك الدفء والاسترخاء واللذة وشعور الأمان... ثم-سرّيعا-الاختناق. تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفت كثافة

روائح البخور والعطر، ليتحرك البطيء، ليحتد ما هو خافت، ليكتسب المكور المستدير أضلعا حادة. لا تعجل، يا فتى. يوم تعرك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتد الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تمنى النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وهور العين.

مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الذكر وهو شبح لا يعرف له وجهها؟ أليست مهمة كل دليل يحترم نفسه ومهمته الأخذ بيد القادم الجديد إلى أن يكتسب ما يلزم من الثقة في النفس للتوغل وحده في مجاهل الطريق؟ أه صحيح، شريطة ألا يكون هو نفسه ضاع في ثنايا هذا الطريق، من اين لتائه أن يكون دليل تائه أكثر منه ضياعا؟

تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا.

ها هو مرابط اليوم بطوله أمام المحطة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صفيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه دخانا أسود كثيفا. كم كان يحب رائحته الخانقة تعده برائحة عطرة لطرشوش أحمر بذوائب سوداء! ألم تقل له "ما" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحص الطفل الأدميين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمرّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلاً. يعود إلى البيت كلّ مساء كسير النفس داعم العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير ذنب. لا ينفع توسّل "ما" ونهيبها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم، ولا تزيد إلا الطين بلة والطفل يتعلم تصرفا جديدا وهو ينقّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه. من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يوّد هذا الشعور عنده قلقا دفينا لن يفارقه يوما. ترى، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العامة عند الأدميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صبغة البحث عن الأب وهو مجرد ممثل لغائب أبعد لا ينزل أبدا من أي قطار؟ تكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبثا.

لا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم.

تغلبه حيويته. لا بدّ لكل مشكل من حلّ. يكفي أن يجده أو أن يقرّر أنه وجده. يعود للجحافل المعتادة للرجال وهو- هذه المرة- عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجهه من لا صورة له ملامح وعلامات.

ألم نصنع أساطيرنا وأدياننا بهذه الطريقة، نضع على الغائب الأزلي اسما وصفة، نتعلم انتقاء الحلول التي تلاؤمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلى... وآخر ما يهمنا صحتها؟

ثم يعاوده الغمّ. لا أحد من آبائه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلتقى منه إلا الصدّ والزجر.

ينتهي الطفل بالإقرار بعيب طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أول إضراب له... لكن ضدّ من؟

يجلس على عتبة باب المنزل المتداع، مصمّما ألا يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه دليل دونه يستحيل الرحيل...وما على الله أو أي مسؤل آخر إلا البتّ في القضية.

تقترب الأم من طفلها بحذر من يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الأدمي الذي يتحرك دوما وكأنه مصنوع من الضباب. ترتفع يد الأم ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقة في الفضاء، أنها تتردّد، أنها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. تزعجه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة المعلقة. كان لا يشعر بالأمان إلا واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كأنه- على صغر سنّه- صنع من خشب جفّ قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرّر "ما" راحتها عليه بمنتهى الحنو. يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرحوه دخول البيت:

- ماذا سيظنّ الجيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما شاءوا، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد يطير فرحا عند مجيئك؟
مؤكد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهم.

ما من شك أنه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثا، متقطع الأنفاس، أخذ القادم الجديد بين ذراعيه وكله فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنه لم يتكلف من العملية إلا أسهلها. كأنني به يتنفس الصعداء وهو يتأكد أن القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد أكون أطلقت عقيرتي بالصراخ أول مرة انكبّ فيها على مهدي وقد تملكتني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العامة وأن حديثا بشفرة "المورس" أو بأي شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخول باستراق المكالمات السرية.

- ما هذا الدليل؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، باردا على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيتركني غالب الوقت وحيدا ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قردا عالما يفاخر بي رفاقا يستهزئون بي وبه.

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- النجدة !

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- الرحمة !

لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة القمار التي لا مردّ لحكمها من سيكون الدليل الثاني. أتخيله، وأنا ما زلت أتقن في إطلاق صرختي الأولى، أخذا بزمام الحديث عجولا، نافذ الصبر، متوتر الأعصاب، مستنفر الحواس، كأنه داخل أو خارج لتوه من صراع مع ما حملت الأرض من كواسر. كم من مرة سيجعنا قل سيفرقنا في الواقع وفي فضاء الخيال ما يسميه البعض حوار الصمّ وكل متكلم لا يسمع إلا صدى صوته.

- "يا": لو تزحزح جنابكم قليلا لأبصر شيئا من هذا العالم، لا أرى إلا ظهركم الموقر.

- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلمك كلّ ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلمك كلّ ما يجب أن تتعلم من فنون الصراع فدليلك بالحرب أحسن خبير. هيا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتحه الفتح المبين ولا تضيق وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أما. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين. لا أسمعك تنشد: "أين في الناس أب مثل أبي!"

- "يا" أريد أن أسألك

- في هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوما مشهورا في وجه من يعصّ باليد اليمنى وباليد اليسرى السوط مرفوعا في وجه من ينجح. في هذا العالم اللعين يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلمك ما يجب أن تتعلم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظّ أن أكون له أبا.

- "يا" اسمعني أنت ولو مرّة.

- في هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيدا حتى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الأدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كلّ ما يجب أن تتعلم في فنون الصيد؛ فدليلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. في هذا العالم اللعين، حذار من الأدلة المزيقين، يقودونك إلى صحار بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرار بلا عشب، لكن لا تخف فدليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأنثى ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أي ضربة حظّ أصابتك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبيث الرجال، والآن تدبّر أمرك وكن جديرا بي.

للحقيقة كان هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعا ولا نراه عيبا إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الأدميين وقتك وجهدك حتى تكتشف من يختفي وراء القناع وهم يراوغون بافتعال التواضع والزهد والتجرد وباقي فضائلهم التعيسة.

كان "با" من النوع الذي يحمل خصاله و عيوبه واضحة لا لبس فيها ولا غش، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنفوشة نياشينهم.

كان مبالغا في عيوبه ومبالغا في خصاله إلى أن تتقارب فتتحمي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغثيان . كانت صراحته سلاطة لسان. كان احتقاره نارا حارقة، و عنفه لا يطاق. كان غروره، كذكائه، كوسامته، كأناقته، كجراته، كفصاحته، كوقاحته، شيئا خارجا عن المؤلف.

كم من مرة سنقول الأم لأبنها: يا بني، لو تعرف كم كنت لا زلت ظالما لو الدك!
مؤكد أن الرجل ظلم بقدر ما ظلم ولربما أكثر. ظلمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل -كما هو الحال دوما مع الأدميين- لتتخفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم.

ظلمه أيضا ابنٌ ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات.

إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الآباء الطيبين لا تقلّ عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الآباء الشريرين؟

ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف عند الآباء والأمهات وأنه نفس الحبّ عند الكلّ حتى وإن أخفق الآباء في التعبير عنه؟
أ يكون الوهم السائد الذي يُعطي للإنانث الدورَ الأجل هو نتيجة استنثاره بذهن وقلب الطفل في أولى وأهمّ سنواته، بينما الآباء المساكين يموتون إر هاقا بحثا عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟
هل الأمر نتيجة تفوّق مكرهٍ على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامّة. هل نجاحه في تسويق صورتهنّ على حساب الذكور المغفلين أكبرُ عملية غسل للدماغ عرفتها البشرية؟!

كرجل وكأب، وتحملا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركا لكل ما سبق من مظالم لُحقت بالرجال عامة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، بل وسنجعل عيد الآباء -نكاية في الحركات النسوية- يدم ثلاثة أيام كاملة لا يوما واحدا وخالصة الأجر بالطبع.

المهمّ أنه حكم في ذلك الفصل من القصة على طفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة راكبا لا ينزل أبدا من أي قطار، وأن يعتصم بالشارع جالسا هو وأمه على عتبة الباب يأمر الله والعيثة والجن والعفاريت وكل من لا يهمهم الأمر بتحمل مسؤولياتهم في تمكينه ككل الأطفال -من حقه في دليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق.

توقف عند تشوّق طفل لأبيه الغائب -من الأکید تشوّق الأب لطفله- والأمر جزء هام من عقدة القصة وتطورها.
نحن هنا أمام عيّنة من علاقة الأبوة والبنوة. إنها علاقة ستتخذ ما لا يحصى ولا يعدّ من أشكال متباينة الطرافة والحدة والتعقيد والخطورة والنتائج وذلك حسب الصعوبة الأساسية التي ترتطم بها العلاقة، وبالطبع حسب طبيعة كل أب وكل ابن والظروف التي تشكل خلفية هذه العلاقة وإطارها. حدث ولا تسل عن كل الحالات التي تتخذها علاقة الأم بابنها وعلاقة البنات بأمهاتهن وعلاقة الحبيب بحبيبته والصديق بصديقه والعدو بعدوه الخ. أي فكر قادر على استوعاب كل هذه التجارب التي يحاول الأدب جاهدا عن استكشاف بعض ملامحها انطلاقا من قصة رحلة هذا أو ذاك!

السؤال بالطبع لماذا الإفراط في التنوع المذهل لهذه التجارب الذي يمرّ بها الأدمي؟ سؤال سنرجي محاولة الرد عليه.

تواصل الأم مناورة التهذؤة:

- تريد الآن بقية قصة البارحة، تعال... إذن قال الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنتره قال له أنه لن يحارب لأن...

- لا، لا، لا، عنتره لم يكن أبدا جباناً!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنتره لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصراخ:

- أريده أن يأخذني لحمام الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.

- سيأتي وستذهب معه لحمام الرجال لأنك كبرت فعلا.

- لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن.

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

- قلت لك: لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سننتظر سوياً.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخانقة.
تجد المرأة الذكية مخرجا سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراق. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:
- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق فيّ، إنني متأكدة من الأمر. سيزورك اللّيلة في المنام.
يسترجع الطفل حيويته الصاخبة. يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه.
يدخل عالما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق.
يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق.
يصفرّ وحش أسود صغير الرحيل.
تبصر أم مطّلة بحنوّ فائق اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم.
تترأى لها من خلال عينين دامعتين ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفتان تنبسان بكلمة واحدة.
هي تعلم أنّ اللقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتَي أبيه يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مرارا قبل أن يتفرّع الطريق
نهائيا ليذهب كلّ في حال سبيله.

**

انفشاع الضباب عن الأفق

يشعر الطفل النائم بوجه جاف التصق بوجهه. تداومه أحاسيس مبهمه عن روائح عطر وتبغ وعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحقان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود. قد يكون العالم فعلا علبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة لتستجيب للشهوة الجامحة.

تهمس الأم:
- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟
بصرخ الأب:
- يا مغفل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدك.
- ونأخذ "ما" معنا.
- أمك لا تحبّ واحتنا وشبعت من الصحراء.
- أذهب وأترك أمي؟!
- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل الفتى وبفلسف الشعور البغيض إن لم يرحل.

تسرّ "ما" في أذن ابنها أنها لا بدّ أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمّل السفر، أنها سترافقه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجدّه ويردّه لأمّه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدئ من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع ممّا كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق.

تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت عده لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدقّ تفاصيل الملابس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حبّ صامت للشيخ الذي اعتقها من الأسر. يسرّ الدليل الهادئ في أذن الدليل الصاخب بأخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يفتعل "با" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى يا امرأة، اتركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار.

كان "با" دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأنّ وقتنا جدّ محدود، يضيّع علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لنضيق وقتك أنت ننفق منه ونبدّر، أما وقتي أنا فثمين. منه تعلمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر: سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بجدّ ألا يفزع عكم كل الوقت الذي يبذره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البصّة. تفتتح أخيرا قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس.

على رصيف المحطّة، والفجر في أولى الوعود تبدأ سفرة ظلّت نموذج كل ما تبعها من السفرات.

بصرخ الطفل في أب يغالب للبقاء مستيقظا.

- "با هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟
يجيل "با" البصر حوله بعصبية مشيرا للطفل بغلق فمه.
- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟

ينفذ وصول القطار "با" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غير موضوعا كان سيغيّره بقلق الرجل أو بدونه.

ينسى الطفل-وهو لأوّل مرّة في جوف الوحش الأسود-ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه.

يهرع تلقائيا للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أي آلة إلا وأنفه فوق الزجاج.

يتحرك القطار على وقع الصفير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلّل من النوافذ المفتوحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أيديهن أمام أنوفهنّ ضاحكات متأففات.

تتسع حدقاته وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريبا يومها ألا يعبا أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوما ثابتة... بدأت تركض.

يرجعه الضجيج المتصاعد داخل العربة المكتظة إلى هوايته القديمة: التفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظنّ، ترى كم هم؟ سيسأل "با"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوها بها أبدا. كان "با" لا يستقرّ في مكان إلا مكرها كلة تحفّز لاستئناف الطريق. كان الحلّ والترحال عنده حاجة قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوما على سفر. ربما قرأ واستبطن أبياتا وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له وحده

"تغرّب عن الأوطان في طلب العلا

(الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهمّ واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

تلنقط أذن الطفل مقاطع من كلام هامس لوالده حول شيء اسمه "الوطن" ومحنته.

كان على حكيمنا إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرّقهم عن البشر الآخرين؟

يعود الطفل للتركيز على نافذته متعجّبا من إعراض الناس عمّا يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوما كل المسافرين، أنه سيجلس يوما مثلهم غير مبالٍ بغروب شمس أو بطول قمر.

يستحوذ على اهتمامه التغيّر البطيء، والثعبان الأسود يغادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراض موحشة غيراء اللون تميل-كلما تقدّم الركب-إلى حمرة قانية. تغرق المناظر العجيبة شيئا فشيئا في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمرا بالجلوس أو الأكل. أخيرا يتوقّف الثعبان الأسود عن الصغير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر.

يعبره استياء غير مفهوم. ألم يكن يترقب الوصول بفارغ الصبر؟ يغادر القطار متناقل الخطوة، يحرك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفّز، متأهب، متشوّق للمزيد من ركض القطار. - "با"، هذه ليست قرية جدّي.

- إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبيت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزول. أنا ميّت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجرّها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بالسبّ والشتم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلّما هوى السوط وكانّ ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:

- واحتنا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القبول أنّ يوسع الثعبان الأسود الجري نهارا كاملا لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق أفقي من الصلب ممتدّ في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود.

يجب التنبّث من الأمر.

- وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جدًا جدا؟

- لبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بني.

- وهل ستسافر إلى كلالللالل أماكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

- لا، لكنني أحاول.

- سأحاول أنا أيضا؟

- وهل أمامك خيار آخر؟

يتهاك الطفل على سرير النزول ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلّله سهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطيّر. ينهض صارخا هاربا من السوط، يهزّ الدليل النائم جنبه:

- استيقظ وإلا فاتنا قطار الصحراء.

- لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر بعض الدقائق. يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل النائم:

- استيقظ، سيفوتنا القطار.

- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:

- استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.
- يثب الرجل رافعا كفه. يفهم الطفل أنه في خطر. يسלט الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثم ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أن الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدد.
- اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟
- يجرّ الطفل دليله المندهبس يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.
- هذه هي المحطة. اجلس الآن ولا تتحرك حتى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.
- لا قطار هنا!
- سنركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.
- هل فيها نوافذ؟
- نعم.
- هل تتحرك البيوت والأشجار عندما تسير؟
- تماما.
- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.
- هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسنلتك.
- سأقول ل"ما" أنك أردت أن ترميني من النافذة.
- وأنا سأقول لها أنك أخرجتنا من المنزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنم قليلا عليك اللعنة.
- وأنا ماذا أفعل؟
- نم.
- لقد نمت.
- لم تنم بما فيه الكفاية.
- بلى.
- يشعر الطفل بتجدد الخطر ثم بانحساره السريع والمحطة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.
- ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟
- نتجوّل بما أنه ما زال أمامنا وقت.
- في الثالثة صباحا؟ في هذه المدينة الموحشة!
- يشعر الطفل أن الدليل يراوغ. يسقط في يد الرجل.
- تعال، عليك اللعنة.
- تبدأ الزيارة والزبون هو الذي يجرّ الدليل.
- لا أحبّ هذه المدينة.
- ألم اقل لك أننا لن نرى شيئا في هذا الظلام.
- أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.
- إنّه بعيد من هنا.
- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.
- إذا ذهبنا إلى البحر فاتتنا الحافلة.
- اختيار صعب جديد.
- هل سنرجع من هنا؟
- يتنفس الرجل الصعداء.
- أعدك أن أخذك للبحر عند رجوعنا من الصحراء.
- أريد فطيرة.
- كلّ ما تريد.
- الآن...الآن...الآن!
- نعم الآن. الآن، لكن كفّ عن النطّ والصراخ.
- بالعسل؟

- بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.

أخيرا الرحيل. يتكدس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة ويقية الكائنات الثانوية من دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له "با" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء السائق.

يحار لَبه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.

يحاول الأب إعادة الحوار مع طفل يقرر وحده متى يكون الكلام ومتى يجب الصمت.

- لست مطالبا بالوقوف طوال السفارة.

- لا أحبّ الجلوس.

- افعل ما تشاء.

- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟

تدوي قهقهة الأب.

- سنتعبنى كثيرا على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفارة، وكم أتعبنى هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبة.

تصل الحافلة المرهقة قرية تتلخص في شارع مغبر تتكسد على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "با" عن المكان وحمّاتة الطبيعية العجيبة التي تبرىء بمائها الفوار كل الأمراض.

ثم تغوص الحافلة المتزايدة تعباً في مهبهم ممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

- انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير".

- هل هي بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

- الصحراء بحار من الرمل بدل الماء واحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركاب يعلمون أن هذه الأرض القاحلة التي يسمونها البحاير تستأهل حقا اسمها ... أن الصحراء التي لم تكن دوما بحار الرمل التي نعرف... أنها كانت لأربعين مليون سنة خلت جزءا من بحر بل من محيط اندثر كانت تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان... أنه كما للقلب قبض وارتخاء لهذا الأرض نسقها إلى نهاية الكوكب : كل عشرين ألف سنة غابات ومستنقعات وبحيرات وأنهار وسكانها الفيل والأسد والكركدن والتمساح ، بعد مئات السنين ولعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجذب التي لا يعيش فيه إلا الماعز الابل والبشر من نوع قوم "با".

حتى هذه الأراضي القاحلة يمكن أن تتحول بين عشية وضحاها إلى براري إيرلندا. إنها إحدى معجزات الصحراء والبراعم المخفية صابرة، عنيدة، قوية تنتظر تحت الرمل والصخر أشهرا وأحيانا سنينا رحمة الغيث لتعود ولو لفترة خاطفة من الزمن وطن الأعشاب والأزهار.

قلّ من ينتبه أننا ندخل الوجود كمن يدخل عرضا سينمائيا وليس على الشاشة إلا صورة للعالم نظنها صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقش الضباب عن الفكر فنفهم أننا لا نرى إلا مقطعا من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أوسع خيال.

يجذب الطفل كمّ أبيه وهو في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "با": هذا جمل يا جحش وليس حصانا.

يضجّ الجمع بالضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف البدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الشريرين... وخاصة "با".

يلصق وجهه بالنافذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلا على جرح بسيط وحوله العالم بكلللالل غرائبه.

- "با" انظر. انظر!

- إلى ماذا؟

- لسابقك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرك.
يضجّ الجمع مجدداً بالضحك.

- إنها حافلة البوبو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ احمد الله أنّها تصل بنا.
يعود الطفل للصراخ:

- انظر، انظر !

- اللعنة على هذا المغفل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟

- أنظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟
يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.

- الحرّ وضجيج المحرّك وهذا الفرخ سيقضون على ما تبقى لي من عقل.

يدخل الرجال في حديث هامس عن الحافلة، وكيف توقّفت أكثر من مرّة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمّن ماتوا من العطش لأنهم رفضوا الانتظار. يفاجئ الطفل خوف مبهم أن تتوقّف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت
"ما" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.

- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟

- اسكت، يا مغفل.

يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمع صمّت متجهّم. يأتي الطفل لأول مرّة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير
واضحة المعالم. تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي بسلام.

تعود الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى النفوس.

أخيرا يتوقف هدير المحرك وهو يلفظ آخر أنفاسه.

إنها آخر محطة قبل الوصول.

يتسارك الركاب إلى الباب كالفئران إلى سطح اليابسة بعد نجاة المركب من الغرق.

يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل متشبثا بيد الدليل: إنّها بركة هذا البريء.

يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.

- أنت، تعال معي.

يتوجّه الأب لابن خالي الذهن:

- انتظرنى هنا حتّى أكمل الإجراءات.

- أي إجراءات؟

- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة لأمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا من حيث أتينا. لا تتحرّك حتّى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حراس الطريق. يخرج "با" أخيرا، يده على خده، عيناه

جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة"

وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم.

ما الذي حدث يومها؟ ملفّ خطير رفض "با"، حتى بعد عقود، فتحه لفضولي. بداهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوما

عن النزيف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.

- لماذا؟

- هيّا، قبل أن تفوتنا حافلة القرية.

- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "با" ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبر عن مرح أو فرح.

- هؤلاء! من بلّغ عنيّ واحد منهم، والباقيون ولّوا الأدبار عندما علموا من أكون. تنكّر دوما-يا بني-أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال و... !!!

- أتحدّث عن الرجال فالنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل،"با" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- إياك وإياك أن تشبه يوما رجالا لا تتعدى الرجولة عندهم التبول وقوفا.

تندافع على لسانه أبيات للشاعر الذي ارتضاه قذوة ونموذجا ضجّ بالشكوى مثله من قوم لا تجد فيهم "كريما تزول به عن القلب هموم" أو "صحبة لا يعوزها الصدق في الأخبار والقسم"، أو "مكان يسرّ بأهله الجار المقيم"، أو ثغرا مبتسما عن محبة لا عن خوف أو طمع.

ها هو يغلي بالتهكّم المرير وبالسخط على قوم "استدججوا" و"استبقروا" و"استنعجوا" وجعلوا من الخروف واستكانته للمقصّ والسكين نموذجهم الأعلى.

- خاصية أشباه الرجال الجبن. احذر يا فتى منه إنه "خديعة الطبع اللئيم" إنه ما يكرهه ويتفاداه "الحزّ الممتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوما جباناً وإلا تيرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلماً بنسبي. إياك أن تشبه يوماً هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون. يقبلون اليد التي تخفضهم ويعضّون التي ترفعهم.

يواصل زمجرته وهو يجذبني يكاد يخلع كتفي:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! آه وآه

تشتدّ نوبة الغضب، وهل الغضب إلا جنونا صغيرا من حسن الحظّ أن الناس تشفى منه دون حاجة لطبيب.

- اللعنة، اللعنة على هؤلاء البشر، اللعنة اللعنة على هذه الأرض وما حملت!

- "با"، لكن كل الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدّا جدّا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئاً قدر بغضتي له. هو مثلهم: صغير... مدنه... قراه... جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توقّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتعمرها الرمال، أحرقتها إن استطعت، وإلا أهرها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كان الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها؟ يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتقرّ من حوله.

- اللهم لا تقبرني في أرض جبناء! اللهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور-يا فتى-جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع توارى في الرمل جثة الأسد!

كان "با" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة الذلّ أمام مستعمر أو طاغية حقير. كل هذا الصخب كان أيضا حبا معكوسا وهو لا يبغى شيئاً قدر التباهي بأهله على عادة البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفاخر به وقد أتاهم في عصر تخلوا فيه عن مشروع أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

هذا الرجل هو نفسه الذي سيردّ لابنه أكثر من مرة:

- يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبّا مخلصا ووفيا إلا لهذا الوطن مهما جافاك وظلمك...

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة "با" وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية الوطن والمنفى. إنها نفس الثنائية الساذجة التي ستطبع تكفير ابنه طفلا ومراهقا وكهلا، إلى لحظة اكتشافه كم كان والده غارقا في قصة تافهة لا يعي أنه في أرضه وهو بين أغرب الأمم وأنه غريب عابر في أرض الآباء والأجداد.

كم يبدو "با" اليوم ضيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. ثم كيف لم يكتشف-هو الباهر الذكاء-أننا، معشر البشر، أينما وجدنا دوما في وطننا وفي منفانا، لأن من طبيعة العالم أن يكون دوما لنا وطننا ومنفى أيا كانت قطعة الأرض التي حكم علينا أن نعيش فيها.

لكن ماذا لو كان صراع "با" مع ومن أجل الوطن بمفهومه الضيق، الوتر الحساس الذي كان يتعهده وينقر عليه باستمرار ليستل من أعماق ذاته أحدّ الأحاسيس والمشاعر، تلك التي يبحث عنها الآخرون جريا وراء الجنس أو المال؟ يجزّ الأب الغاضب طفلا مندحشا لا يغفر لأهله ضعفهم وبغضه المفاجئ لوطن لم يرقى لمصاف أحلامه.

يتوقفي طريقه إلى مريض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم.

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهندام أمام جدك.

أحسن ما في الأدميين نزع التمرد إذ لولاها لما وجد تجديدا.

- لا أريده. لا أحب لونه الأسود وشكله الفضفاض.
- وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرّد، ربما حتى لا يصبح العالم فوضى ليس فيه طريق سالك.
- قلت لك: البس. بكم السروال، يا رجل؟
- لا أريده، لا أحب لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!
- يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.
- يصرخ فيه "با" بـ"بغلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه السروال بالقوة.
- والآن البس بسرعة، وإلا فانتنا الحافلة.
- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!
- مشهد لا أكثر منه ابتداء في علاقة الأدميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.
- القانون سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحرّكها في الاتجاه الذي تريد... لتفويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرد امتداد لها. إنه تصرّف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون والخالق يريد تطويع المخلوق بالوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر والالتجاء لربّ آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلّقة فقط باستراتيجيات التطويع وهي تتأرجح بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرفقة، الصدّ والوصال.
- يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا.
- يتوقّف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدّي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها.
- يرمي بالسروال في وجه البائع ويجزّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه.
- ثم تتباطأ سرعته وقد جاءه التردّد.
- يسترق النظر إلى طفل يشهق صامتا لأنه أقسم باكرا ألا يبكي أبدا كالنسوة والصغار.
- لا أريد أن تقول لجذّك أنني ضربتك، وإلا فأنتني سأضربك مرّة ثانية.
- بل سأقول له أنك ضربتني بشدّة، سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول لـ "ما". نعم سأقول لها، سأقول كل شيء!
- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جدّك.
- وسأقول أيضا لله.
- لا تقمحه هو الآخر، يكفيني مشاكلي مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولدا طيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟
- يتمسك الطفل برفضة المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدّم بها رجل متزايد الارتباك. ثم تندفع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقّدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.
- بعد المرطبات وزيارة جدي، نسافر معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر وكلللال الأماكن التي سافرت إليها؟
- موافق.
- كلمة رجال؟
- شريطة ألا تقول لجذّك أنني ضربتك.
- كلمة رجال.
- يعرض الأب على ابنه إمكانية قضاء الليلة عند قريب، ليواجه برفض قاطع.
- لا، لا جذّي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!
- يصرخ "با" وقد تبخّر منه مجددا كل حسن استعداد:
- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصبنتني بالدوار. كفت عن الجري، كفت!!
- وهل بوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟
- تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تريدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تدور عاجزة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل آملا أن يطغى صوته على صراخ الريح:
- "با"، أين الطريق؟ لا أراه.
- تعود للرجل المتجهّم بشاشته:

- إنّه أمامك، يا مغفل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.

- "با"، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تنكّرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "با" لا يتهامس مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغبرة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي فرّ من الصحراء ناقما، ساحطا، لا يحلم وهو منفيّ عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحفر والمشى ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر. كم سمعته يتحدث عن كئيباتها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنع! كم سمعته يردد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانيّ أن امدد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرة الأخيرة في "العرق"... أن أجبل بصري في عمق سماء ليلها.

يفيق الأب من ذهوله صارخا: وصلنا لمشارف الواحة. بعد قليل سترى جدك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب. حقًا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تنعكس في مرآة العالم أجمل حالات الأدمي، وتنعكس في الأدمي أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذاك وتحققت فيها أهداف ذاك من هذا، وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المنكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل ناسيا كل ما من حوله. يدفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح الساخنة. يتلقّف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، داعم العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستبطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلم من سفرة استطبعه إلى الأبد...أنّ الواحة محطة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وحدودا وعسا يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنه لا بدّ من فتح الطريق أحيانا بأجسامنا، وأن السفر هو الهام، لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه دموع الفرح.

وفي نفس الحافلة التي تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلع الطفل دموعه وأنفه على النافذة ينظر لجده واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسياخذه كما وعد إلى "طينية" ليبنذرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ "ما" طفلا يحبس بصعوبة دموع الأسى والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورات... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

- أما أنا فأحبك كثيرا وأكثرنا حبًا لك "با". يا بني، لو لم تكن معه لأقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظّ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

كانت "ما" تصدق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تأدية واجبه ولولاه لفضّل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر أكاذيب الرجال على النساء.

حقا يومها فرّ "با" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلفوا معه فجاءوا لذبحه ليلا. حقا كان له أعداء يتربصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتدلة أو حتى من أخطر مسؤولية: مواجهة الذات لذاتها.

يعود الطفل للصراخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هاجسه معرفة إلى أين يؤدّي: - إلى مدينة الجامع الأعظم حيث ستذهب مثل والدك يوما لتتعلم كلام الله.

- وبعدها؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك، "ما"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد "با" وأعود به.

يا للطفل المتهوّر! أقول له كم في الطريق من عقبات، من ألغام ومن وحل... أن أخطر ما ينتظره على تقاطعاته بنو جلدته!

أقول أو لا أقول، ما الفرق؟

تبتسم، "ما" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض

والطول، هائما على وجهك مثل كل بني آدم، تبحث عما لا يوجد وتجد ما لم تبحث عنه قط.

رمي النرد ولا مجال للرجوع إلى الوراء.

يركب بطلنا الصغير عصا القصب مستعدًا للإقلاع ليعرف كلالل ما يوجد وراء الأفق.

قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف كلالل ما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات.

تواصل الطفلة المتقطعة الأنفاس القفز بالحبل بين أشجار الزيتون، تضحك من غياب الطفل الذي سيصبح بعلمها والطفل الذي

سيصبح طفلها.

لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن تتوجّه إليه كل الصلوات: اللهم اتم هذه الرحلة على خير، إنك السميع المجيب... أحياناً.

**

الكتاب الثاني العالم

ما أن يعود الربيع
إلا وأنا متيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟

“هايكو” لشاعر مجهول

مقدمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

يثير فيّ رقم هذا اليوم رهبة خاصة تفرض التوقف عنده. نعم، منذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة. تقول لكنه يوم روتيني وردّي يا ساذج هل ثمة أحسن من الألفة للتغطية على ما ينتظرنا أو ما ربما حدث من أخطر حدث؟

تضيف لتهدئة روعك وروعي: ما الداعي إلى القلق، فنهاية العالم مبرمجة، حسب البعض، لبداية القرن والألفية، أي بعد شهور معدودات؟

المشكلة أن الأدمي أكثر من رمى التواريخ جزافاً وأن من شأن تكرار هذه الإنذارات الكاذبة عدم الانتباه لوقوع أقصى ما يخشاه البعض... وأقصى ما يتمناه البعض الآخر. يبقى أنه لا بدّ للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم هو الذي يلفظ فيه أنفاسه الأخيرة والمسكين مصاب بأكثر من مرض خطير؟ ربما قرّرت السلطات العليا التسرّع على الأمر. تصوّر حالة الفوضى هذا النهار لو أعلمتنا نشرة أخبار المنتصف أننا نعيش آخر أيامنا، وأنه يجب إخلاء المحل حيث لا تمديد في عقد الكراء بأي ذريعة كانت.

ربّما حصل المحذور وقامت القيامة البارحة مثلاً، ممّا قد يعني أن النص حلم يحلمه ميّت! في حالة استهزائكم بالفرضية، لماذا يكون عدم انتباهي لنهاية العالم وخروجي منه أغرب من عدم انتباهي لبدايته ودخولي فيه؟ لا قدرة لأحد على التأكيد أن هذا اليوم ليس آخر الأيام. لذلك قرّرت وضعه تحت المراقبة منذ انطلاقه حتى لا أفاجأ أو أخدع... نعم أن أخدع، لا لشيء إلا لأنه لا يختلف عن بقية الأيام التي تدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهور، وغادر القادمون القدامى بنفس الصعوبة، وتخبّط المرتحلون في المشاكل المبتذلة التي جرّبوها جيلاً بعد جيل. أنظر إلى ساعتني بشكّ حذر بين الفينة والأخرى فيتأكد لدي كل مرة أن عقاربها تتقدّم إلى الأمام لا إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي-لحدّ الآن-تحت قدمي، ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ بصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل الحالك السواد.

على كل حال، ما يزال أمامي بضع ساعات لمحاولة الانتهاء من النص، علماً أنني أرفض التفكير في جدوى العملية إذا فرغ العالم من القراء والنقاد، فلو فكّرت في جدوى أفعالي لما قمت بأي عمل باستثناء سماع الموسيقى. ابشروا جميعاً بتواصل العالم. كأنّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكأنّ الخشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظّ (أو لسوئه)، فاليوم-بالتأكيد-ليس النهاية حيث ولّى الأدبار منذ أكثر من دقيقتين حسب ساعتني، والعالم ما زال موجوداً.

حتّى لا أتهم بترويج الأوهام والأمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقنة، سأقطع الكتابة لحظة للخروج إلى الحديقة والتثبت من الأمر. يسعني الآن-دون أن يسعدني ذلك كثيراً-تأكيد ما كتبت سابقاً، فقد مشيت على نفس الأرض الصلبة المعتادة ولسعنتني نفس الهوام المجهولة، وتصاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة، ووترت أعصابي أعراس الجيران، ولفحتني نفس الريح القادمة من البحر، المشبعة حرارة ورطوبة. كذلك لمست كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصقتها. لم ألاحظ أيضاً ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على رداء الليل لا يبدو مختلفاً عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الأدميين ونباح الكلاب، وأني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلق.

كلّ هذا يؤكّد أنّ العالم ما زال موجوداً وأن كنت لا أزال أجهل كيف ولماذا.

كم غريب أن ننسى أو أن نتناسى غرابة هذا الذي نفيق فيه، هذا الذي نقضّي فيه حياتنا، هذا الذي نغادره ونحن لا نعرف عنه تقريباً أي شيء.

كم غريب هذا العالم الذي يرصده منذ بداية تاريخنا الرسم والتصوير، الذي يعيد الفنّ خلقه، الذي يتغنّى به ويسبه الشعر والأدب، الذي تقدسه وتدنسه الأديان، الذي يبحث العلم عن قوانينه، الذي تبحث الفلسفة في سبب وجوده، الذي تسعى التكنولوجيا للتحكم فيه والذي تتوهم السياسة السيطرة عليه!

تأتيني عندما أحاول تمثله صور عديدة وأولها صورة المطار.
كأنك عند وصولك هذا العالم مثل مسافر يفيق فجأة وسط زحمة بشر يتزاحمون على بوابات الخروج وبشر ينتظرونهم خارجها على أحر من الجمر وبشر يتدافعون في الاتجاه المعاكس وصوت نافذ الصبر يتعالى من البوق: الرجاء من السيد غريب الالتحاق فوراً وحالاً بغرفة الرحيل رقم 5.

في هذه الصورة أنت لا تعرف من أين أتيت، إلى أين أنت ذاهب وماذا تفعل داخل هذه الزحمة ولماذا يرتمي عليك أحدهم مسلماً بحرارة بينما يدفعك آخر بفضاضة لتخلي له السبيل وحتى من أنت.

وأيضاً... لا فكرة لك عن هندسة هذا المبنى المترامي الأطراف الذي تبحث فيه عن طريقك فما بالك بما وراءه من إدارة ووظائف وتقنيات بالغة التعقيد لن تسعفك كل السنين التي ستقضيها تائها في الأوراق لفهم أبسط قواعدها.

ثمّة أيضاً صورة أخرى هي صورة المحمية الإفريقية التي تفيق فيها ذات صباح ليس معك إلا دليل خائف مهمته حماية نفسه وحمايتك من الكواسر التي تترصد وراء كل شجرة. من اين لك وانت في هذا الوضع الاهتمام بجمال الغابة وتنوع أشجارها وما تحتويه من كائنات تتبارى غرابة وإعجازاً وكل همك أن تجد ما تأكل وألا يجذك من يريد أكلك.

لقراء فرانز كافكا ثمّة صورة العالم الذي تفيق فيه وأنت منهم بجريمة تجهل عنها كل شيء قد تكون أكل تفاحة من حديقة رب بخيل بنقاهه. لا ينفذ أن تقضي وقتك في دهاليز المحكمة تبحث عن القاضي وحيثيات التهمة. لن تجد أمامك إلا أبواب تفتح على أبواب وأبواب تفتح على أبواب أخرى وهكذا إلى أن تخرج من الكابوس بنعمة الموت. ثمّة من الأدميين من يذهب إلى أبعد من هذا التصور المرعب والعالم هو المكان الذي يقضي فيه مدة العقوبة على جريمة ارتكبتها في حياة سابقة يرتعد فرقا من أن يبعث قرداً أو فأراً في عالم أفضح.

كم من صور أخرى يمكن لشاعر أو اديب استعمالها لتمثل العالم: السوق، السيرك، المحتشد، الثكنة، ساحة المعركة، السجن، الماخور، المصنع، منجم الكبريت، الخ.

كل هذه الصور صحيحة لكنها لا تعكس إلا وجهها من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من الوجوه التي يتخذها العالم ولا واحدة قادرة على الردّ على هواجس هذا النصّ.

قال في هذا العالم شاعر اسمه المتنبّي أننا نتملكه عند القدوم تملك سالب ونفارقّه عند الرحيل فراق سليب.
مؤكد أنني أردت ككل الأدميين تملكه. لكنني لا أطمح اليوم لشيء قدر طموحي فراقه وقد أشبعت فضولي عن هذا الذي تبلورت فيه لسبب غامض وانبتق فيّ لسبب لا يقلّ غموضاً.

كم من أسئلة معلقة أحياناً منذ الطفولة والبحث عن أجوبة لها لم يتوقف يوماً.

هل قدّ القمر حقاً من فضة خلخال، "ما" والشمس من ذهب قرطبيها؟

هل هو حقاً بناية متقدمة على وجودنا نسكنها ربحاً من الزمان ونتركها لمن سيأتي بعدنا؟

أم هل هو بناية نبنيها نحن وتختفي باختفائنا؟

إن كنا نحن من نبني هذا العالم هذا فعلى أي دعامات، بأيّ مواد، وفق أي تصميم وخاصة لأي هدف؟

**

اليوم 19710 من الرحلة.

عالم الحواس الخمس

- عودة لأقدم ملقات ذاكرة الطفل نتفحص كيف تجمعت تدريجياً قطع " البوزل" المتفرقة لتشكّل آخر تصورات الكهل.
- تهمس "ما" في أذن ابنها وهو يفرك عينيه نصف مستيقظ.
- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، أكثر من ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض، قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غير رأيه.
- يصرخ "با" في طفل فاغر الفم دهشةً انتصب واقفا على السرير.
- يا الله يا فتى، تحرّك ما لك تنظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نصيغ.
- تتدافع الأسئلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "با" خروج الجنّي من القمقم.
- "با" أين ... أين كنت؟
- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.
- يرقص الطفل على سريره فرحاً. ثم يعاوده القلق.
- هل ستسافر مجدداً؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟
- كأنك تريد إغصابي! هيّا، لا تصيغ وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة المدينة الكبرى برنامج الحمام وزيارة الحلاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. ثم لا بدّ أن أبحث عن كتاب قبل آخر قطار. تعال، حدث الخطي.
- يتبع طفلاً تجاوز سنته التاسعة رجلاً وُلد على عجل، عاش على عجل، مات لا يلوي على شيء وكان له مواعيد هامة حتى في الآخرة.
- تتلقفنا نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.
- وصلنا! بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...
- لا تؤثر أعصابي من الآن.
- أسرع، أسرع، أريد أن أرى كلالل شىء.
- يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغبرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:
- "با"، ما هذا الشىء؟
- حدث الخطوة وأغلق فمك.
- لماذا يقف أمامه الجنود؟
- حتى لا ينسفه رجالنا... إنه تمثال لوحد من كهنتهم يسمونه "لافيجيري".
- "با"، هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟
- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استقزاز المحتلّ وكفره.
- يزمجر "با" كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.
- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشماتة بنا، لنفس الشماتة سموا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرّة ومرة على لا-جبروتنا نحن.
- أريد أن ألمس ال...
- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابات السب، سنقلعه طال الزمان أو قصر.
- من هواجس الطفل ابتداء من تلك اللحظة أنه للادميين أشكال غير التي قُدت من اللحم والعظم والتي تتدافع من حوله في كل اتجاه.
- لا بدّ له من الركض مع الراكضين وحتى تجاوزهم ليكون أول من يصل ولو أنه لا يعرف ما المكان الذي يجب أن يسبقهم إليه. يصرخ فيه "با" يكتم ضحكه وراء ملامح يجاهد لكي تبدو عابسة.
- تمهّل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.
- يجد الطفل نفسه فجأة مثل قشة طافية على أمواج نهر صاحب وجدران الشارع الضيق مثل سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.
- ينقل الطفل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيغ شاردة ولا واردة.
- "با"، من هذا الرجل، وماذا يفعل؟
- شيخ ينسج الجبب. سأشتري لك جبّة جديدة ليوم العيد، إذا كفتت عن الصراخ.

- انظر "با"، إنه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!
- هذا سوق الشواشين، هذا الرجل بالذات ليس من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعشرات.
- "با"، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحن الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.
- يا جش. أريد لك مستقبلا أفضل.
- "با"، لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب "سفساري" أبيض؟
- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.
- "با"، ما هذا الشيء الأبيض؟
- يسمونه "الكنسترو". يوم نخدغ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.
- "با" ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟
- ثم يُداهم الطفل قلقٌ مبهم.
- بخصوص الحَمَام والحَلّاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟
- لا تماطل. هل رأيت هذه الغابة من الشَّعر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصّها- أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.
- يصل أبُّ يجر ابنا، وابنٌ يجر أبا، لحمّام اسمه "القشاشين" يقول عنه "با" إنه أفضل وأرخص حمّامات المدينة العتيقة.
- "با"، لماذا صبغوا عمودي المدخل بالأحمر والأخضر؟
- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟
- كنتُ أفضل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدى!
- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيق الأشكال والألوان في ضباب تنهأدى داخله أجسام مترهلة تحمل حول الخصر فوطة باهتة اللون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاة منه. الطفل الآن بين يدي "الطيباب" كالفأر بين مخالب القطر. يسلم جسمه مكرها ليدي المهنيّ الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقريع.

لا يبقى للطفل غير كتم أنينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سافر على حرمة الجسدية. ألم يطالب أمه بأب يأخذه لحمام الرجال ملّ حمام النساء يذكره دوما أنه ما زال طفلا صغيرا. ومع هذا، ليس في هذا الحمام اللعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمّل، وقد أعمى البصر الماء والصابون ورغوة "الشامبو".

- عيناى تحرقانني، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.

- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقلّ أنشّفك. المرّة المقبلة ستذهب إلى الحمام مع أمك ككلّ الصغار.

- أريد الخروج ! أريد الخروج!

- أخرج الله روحك. استلق على هذا الحصر فلا بدّ من الراحة. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من "ما".

يأخذ الطفل الثمرة، يقربها من عينيه يطيل النظر وكأنّه يرى برتقالة لأول مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدّى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمام.

- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

- بلى، إنها جميلة جدّا، خاصّة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضا، "با"، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالا بمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟ هل لها روائح أخرى؟

- يا لك من طفل غريب. والآن كلّ برتقالتك واطركني أغفو لبعض الوقت.

- "با" لا أريدها...إنها شديدة الحموضة.

- كل القشور...ربما يعجبك أكثر طعمها.

يغض الأب عينيه معرضا عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار تجدد الصلة. يغلق عينيه هو الآخر، يقتحمها للظلام متذكرا لعبته المفضلة زمنا طويلا، وكم كانت أمه تكرر لها لسبب غير مفهوم.

ومن الملفات المطمورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفت عن هذه اللعبة، ابحت لك عن غيرها، إنك تخيفني.

يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يستقرّ "ما" معاهدا نفسه على العودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينيها.

أليست اللعبة الغبية - كما كانت تصفها أمه ظلما- بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات؟! هو يتذكّر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.

- "ما"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟

- إنه من المبصرين يا بني، تلطف معه دوما وخذ بيده لتعيّنه على شقّ الطريق.

- مبصر؟

- يجب أن تسمّيه "مبصر" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.

- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.

يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصر" متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه

استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو "يستنشق" روائح يفوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوما روائح.

ها هو "يسمع" دبيب النمل على الأرض كأنه رگض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزخر به الفضاء من إنس وجان.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفسّر للضيرير لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون

سعف النخيل؟

- "ما" إذن، هذا الأعمى كما يقول جدّي لا يراني!

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.

هو سيعاني مثل بقية الأدميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره وهي شاخصة إلى الأفق أو منعكسة على

ذاتها لا تهتم إلا بها. هو أيضا سيبقى ساعيا بكل قواه لتتوجّه إليه كل الأعين كأن كثافة رؤية الآخر تكتّف من الوجود. هو

أيضا سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار. هو سيجرّب مرافقا نصيحة آدمي يدعى "بيكات" بإبعاد أي كائن بوسعه

النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بغلاق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلاق العينين علّ الذات

توجد أخيرا خارج سطوة الناظر.

ينمو قلق جديد داخل الطفل.

- "ما"، هل سأكون مبصرًا يوما ما؟

- "سبعة أطاف وبعد الشرّ على ولدي"، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عيني.

ثمّة رعدة خفيفة في نبرة صوت الأم تنبئ بوجود رعب تحاول إخفاءه ولا تفلح.

كيف لا يأتيها التطيّر وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟

ألم يسمعها تهمس ذات ليلة في أذن جارة وهي تظنّه نائما.

- هل هو الرمدم؟ إنه الرمدم... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبي.

- لكنه يقرب كل الأشياء إلى عيني، أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.

العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه "ما" تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصاحب الطفل إلى يوم الرحيل.

في أي عالم كنت ترتحل لو لم تكحلّ عينك خضرة الغابات والمراعي، زرقة السماء والبحر، بياض الثلج والسحب، حمرة

الورد والشفق، صفرة الصحاري وحقول القمح... في أيّ عالم كنت ترتحل، لو أفقت فيه دون حاسة السمع التي أعطيت دون

منّ وحرّم منها بعض الذين ظلمتهم أيّما ظلم طاوله القمار... في أيّ عالم كنا ترتحل جميعا لو أفقنا فيه بالعمى والصمم وبلا

حاسة الشمّ وكل ما نملك مثل دود الأرض حاسة اللمس.

ثمّة إذن عالم لا يعرفه إلا المبصرون! وآخر اختفت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش! وآخر لا وجود فيه للروائح إلا

ككلمة من اللغة لا يعرفه إلا من فقدوا حاسة الشمّ! كم من بني سفر ارتحلوا داخل عوالم كهذه لا يعرفونها إلا هم!

أرتعد فرقا اليوم وأنا أتصور أن طاوله القمار كان بوسعها أن تسحب لي رحلة في مثل هذه العوالم.

يمكنك متابعة الفكرة في الاتجاه الآخر. تصوّر أنك ولدت بحواس خمس لها طاقات غير محدودة مع حواس لم ينتبه لها ارسطو

ولا كل من أضافوا لها عددا يكبر ويصغر حسب الباحثين في الأمر. ها أنت تسمع ما لا تسمعه الخفافيش، تشمّ ما تعجز عن

شمّه الكلاب والقطط، أو ترى بعين النسر والصقر. تستحثّ فيّ الفكرة كل طاقات التخيل. رؤية ما وراء النفسجي؟ تحسّس الذبذبات الكهربائية-المغناطيسية، وربما حتى ذبذبات الجاذبية إن وجدت؟
قد يأتي يوم يحمل فيه أحفادنا سماعات تلتقط غزل الأرهار ونظارات عن قرب تتأمل رقص الذرات ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرات. لكن ما الفائدة وماذا ترانا فاعلين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي إمكانيات التي خلقنا بها؟

المهمّ أن يتوفر الطفل على كل الأدوات الضرورية لرصد حالات العالم وهو رائحة الفل والياسمين، وهو طعم القهوة المرة والخبز الساخن، وهو راحة يد "با" تضغط بلطف على يده تطمئنه على أنه لا زال محبوبا. نعم، يا لحظّه وهو مسلح بما يلزم من حدة البصر والبصيرة للانبهار بحركة الشمس، للتوقف عند اختلاجة عابرة في نظرة "ما"، للتعجب أمام ملامح الهيبة والقوة في نظرة الصقر والأسد.

أليس بديهيا أنّ البصر والسمع والشم والذوق واللمس أدواتنا لبلورة العالم كما نعرفه من مبهم سنسميه مرحليا العتمة وأنه لولا هذه الحواسّ لتبخّر في ضباب العدم ولغرقت الذات التي ترصده في ظلام اللاوجود؟

على كل حال ما يزال الطفل بعيدا عن مشاكل التنظير هذه علما وأنه كان من العدل والإنصاف مدّه بعينين إضافيتين، وربما بأنف ثانٍ وأذن ثالثة، وهو بكل هذا الانتباه والنهم.

يفتح الطفل عينيه سعيدا بعودة الألوان والأشكال والحركة.

يكتشف والده يراقبه باستغراب ثمّ يهز كتفيه أمرا هيا إلى بقية يومنا.

يخرجان من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج حتى لا يرى الحلاق ناصبا له الكمين.

- "با"، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟

- قلت لك: لا تنهزّب من قصّ الشعر.

- أسألك عن المبنى، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي علّ الحلاق المسكين يستطيع لك شيئا.

حصّة التعذيب الثانية، أهذا هو اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟

يتفحص وجهه الذي في المرأة. يطيل إليه النظر كأنه يراه لأول مرّة.

ترجع له المرأة وجهها مستديرا أسمر، بأنف صغير مدبّب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.

يثير فيّ الوجه الغريب، عابس الملامح مع مسحة من كآبة، قلقا غامضا.

- "با"، انظر، هل هذا حقا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا.

- أتحمّل منظر طول الوقت وتريدني أن أتأمك في المرأة أيضا؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثا طويلا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- "با"، هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أدر-ي. لا أحد يدري شيئا في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك إلى نهاية الحلاقة.

يقرّر الطفل أن يعلّق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتقرّج الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تقلّب المزاج.

يعود إلى تأمل أدوات الحلاق من موس، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر.

ثمّ يشدّه ثانية الوجه العابس في المرأة.

تواصل حصّة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملفت للنظر غير صورته تتأمّله بإلحاح.

يغض عينيه ثمّ يفتحهما أملا أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحقّق فيه كل مرّة، يستقرّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان، يقرّر تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

- "با"، هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب:

- هيا يارجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا "الفرخ".

ينفض الحلاق عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسها فيها، "با". يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

- حقا، إنه طفل ذكي وجميل.

- جميل، أه، نعم، أمه تدعي هذا أيضا. تعرف المثل: "كل قرد في عين أمه غزال".

ينطلق السؤال كالرصاصة الطائشة:

- "با"، هل أنت أيضا قرد وفي عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كهذه. يا إلهي لم يجرب مثلها على كثرة ما عرف خذ الغص من الصفع! ثرى هل ستنرك -كالمرّة الفاتنة- آثار الأصابع الخمسة؟

يجرّ الرجل المنتشج طفلا قرّر ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، حيث أتاه الهدوء ومعه الندم.

قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان "با" على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعدّبه أحيانا.

محاولة التكفير.

- أن الألوان لنشرع فيما تحبّ، هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

...

- شيء نشتره لأمك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

.....

- تصمت عندما أريدك أن تتكلم، وتصمّ أذني عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعة زوج "ما" ستكون هذه المرة جدية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة، مجرد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البنائية التي تواجه الحمام.

- المطعم! نبدأ به، إنني أتصور جو عا.

- إذن، إلى المطعم يا فتى.

وهذا معلم أثري من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطقوسه وألوان الطعام التي يقدم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجانب كانوا أم أبناء البلد.

ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة توما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاع الضخمة.

لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطاولات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيق، تحميها من تساقط المطر ومن نبال الشمس الأسقف المرفوعة فوق شارع حافظ منذ قرون على طابعه الشرقي الجميل. يجلس الطفل بجانب أب شاردي يجيل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "ما".

يرفع إصبعه مشيرا إلى بناية مهيبية تتوجه إليها الجحافل، لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمت فيه كلللالل كلام الله، وحيث سنصلي معا.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح! الدليل الشامخ على قدرة أجداننا على البناء والتشييد.

قد يكون المبنى شيئا هاما بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهم هو ما حوله.

- "با"، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنتظر هكذا إلى هذه المرأة؟ لماذا هناك نساء لا يلبسن السفساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده للناس؟ لماذا قلت له "بيّ ينوب" ولم تعطه شيئا؟ هل رأيت النادل، إنه إنسان طريف حقًا، يهرول بخفة بين الطاولات، إنه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون معه.

- اترك الرجل وشأنه، كلّ، وقت الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينيه؟

- قلت لك: كلّ، أتريد طبقا آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟

- "با" لم أكل الدّ منه من قبل، رائحته أيضا طيبة، سأقول ل"ما" أن تطبخه لي كل يوم.

- نعم، نعم لكن كفت عن الصراخ أصببتي بالصداع، ألا تستطيع الكلام بهدوء، لست أطرشا.

- "با"، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكسي لرجل طلب ملوخية...

- هل ستأكل هذا الطبق اللعين أم أسكبه على رأسك؟

- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.

- ركضا.

يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على البقاء لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل التمعن في مناظر أعجب ما فيها تجدها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدمي والده موضوعتان على الأرض، بينما تتدلى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نفاذ الصبر أمام زمان يتلأأ به في طفولة كأنها القفص المطبق على العصفور.

يتوقف مجهول، ينقضّ عليه بالقبلات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم: كيف حالك؟

أهمّ سؤال يلقيه الأدميون على بعضهم البعض. ما أصعب الردّ وفي كل إجابة فحّ. إن أنت تبجرت في مصائبك ضابقت السائل وهو متعب من كثرة المصائب. إن أنت أسهبت في وصف ما أنعم به الله عليك من الطيّبات أثرت غيرته. وفي الحالتين إن أطلت في هذا الاتجاه أو ذاك ضيّعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقتصّ عليك آخر نجاحاته أو مصائبه هو. أما إن اختصرت الردّ، أو حتى تجاهلت السؤال - كما سيفعل هذا الطفل المتهوّر عندما يكبر- فسيسبب ذلك على تكبر فطري وحتى على تخريب مقصود وأنت تمنع السائل من فرصة الشكوى أو المباهاة. أقلّ الأجوبة خطرا وركاكة أن تنتهد وتقول أحوالي كأحوال العالم "ماشية" و"غير ماشية"، "الماشية" تعوّض "الغير ماشية" و"الغير ماشية" تنعّص على "الماشية".

ينصرف الصديق فيتنقّس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال طعامه. فجأة يجلس لا هنا إلى نفس الطولة شيخ بدين بيّنس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحوّل انتباه الطفل للقادّم الجديد.

- "با"، انظر. ليس لك كشطة مثل الشيخ لأنّه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك "با" ضحكة صفراء، يبتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يسمح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تلبس أيضا كشطة بدل "الكبوس" و"جبة" و"قمراية" مثل أبناء المدن.

يهبّ الرجل واقفا، يجرّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بدّ لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى ومع هذا الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفّل، لم تنتبه لهجته. الرجل كان يتهمك علينا. هل تعلم كيف يسمّوننا أهل هذه المدينة الكلبة: الأفاقيون؟

- "با" ما معنى أفاقيون؟

- القادمون من الأفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفترقون بين جنوبي وشمالي، لا يرون في قدمنا إلا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهدها... أفاقيون، أفاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نفتح أحدا منهم أنهم هم سكان الأفاق بالنسبة لجدك ومركز العالم واحثنا.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل آلامه ذروة لا تُحتمل.

- اللعنة! سنحتلّ هذه المدينة، سنستعبد من فيها من أشباه الرجال، سنسبي نساءها، سننهب أسواقها، سنحرق بيوتها. أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنّي الجدّ الذي سيفخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يوما أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخ قارب الموت، وأنا كهل قارب اليأس من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورتنا الخدم لخدمهم واليوم يورثونا لحراس الخدم! سارق فاسد يحكم البلاد وأنت تنفّرج ثم تدّعي أنك ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمّر الطفل شاخصا ببصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلفة ببثّ وتلقّي الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النصّ. هذا الأذان الذي يتعالى من المئذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد مكان أيا كان، من صنّع الأدمي أم من صنّع "الطبيعة" إلا وله إضاء حسّي يمتاز به، صوتا كان أم رائحة. وهذا الطفل سيتعلّم اكتشاف الفرق بين موسيقى آذان المدينة التي تطلّ على مضيق اسمه

“البوسفور” والمطلّة على نهر اسمه النيل وكيف يتلّون في هذه وفي تلك، وكيف هي رنة الأجراس، وما الذي يفرّق بينها وهي تفرع في مدينة تربض على ضفاف نهر اسمه “الراين” أو نهر آخر يُدعى “السين”.

آخر التوصيات العقيمة.

- أنتبهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو لطحر الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تفارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرّة أخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفاً من التهديد وإنما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلو! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الحَمَام الطائر، الراقص، الماشي، القافر الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطاننا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب “ما” الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب إنها تتوسط الصحن، إنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم أنذاك أنه دخل عالماً منسوجاً في جزء كبير منه -وإلى الأبد- من الشائعات وأنصاف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطب جبينه مختاراً تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

- انزع حذاءك وتذكّر أين وضعت، لا تترك يدي وإلا فقدت في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادها الكثيف، والثريا العملاقة تتدلّى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراسة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلاً، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئاً قدرّ الجري للوصول إلى الصفّ الأوّل حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلّين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك قيّد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيلة، لماذا هذا القلق المبالغ والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظراته تقول: لا تخش شيئاً، أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمّله طفل صغير وهو يقفد الخلق ركوعاً وسجوداً ووقوفاً ثم ركوعاً وسجوداً. فجأة يتسمّر بصره على قدمي الراع الساجد أمامه. لا أهم الآن من هذين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزّق يبرز منه كعب القدم كأنه تقاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متآكل. تأتيه فكرة شدّ “با” من كمّه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثم ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقذ الطفل إلا انتهاء الصلاة من صفة جديدة بسبب رجل نسيت امرأته أن ترقع جواربه. يصرخ أب غامر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيّا، أسرع، البس حذاءك، فما زال أمامنا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت.

تأتي الطفل رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

- “با”، هل جواربك مثقوبة أيضاً، أما أنا فجواربي جديدة.

يتنهد “با”:

- بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرأة، الجوارب... ما البقية يا ترى!

ها أنا أتلكأ وأتباطأ، أجرّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.

كان الأب والطفل لا يمسيان إلا وواحد يجرّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه؛ أما جنباً لجنب فذلك ما سيأخذ زماً طويلاً على فرض أن الأمر حصل يوماً.

- تحرّك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.

- سأقول ل “ما” إنني صلّيت في أكبر جامع في العالم.

- الجامع الكبير ليس أكبر جامع في العالم.

- (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟

يتنهد “با”. ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلاً.

- يا بنيّ، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبير وتدخلها. آنذاك ستلبس عن

جداره كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الحقيق، وسينادونك كلهم “سيدي الشيخ الحاج”. تحرّك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما

زال أمامنا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

يأخذنا الطريق في الاتجاه المعاكس.

كانت المكتبة المكان الذي كان يركض له “با” متأففاً من طول الحلاقة والأكل وخطبة الجمعة... آخر محطة زيارة للمدينة

وأهمّها في ذلك اليوم المشهود.

أقسم أنني رأيت الرجل يغمض عينيه للحظة يستنشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكأنه عاشق متيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبة يستنشق آخر عطر لها. حقا لا تُعرف للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتصوّع به المكتبات.

يغفل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري.

مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "با"، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

- "با" أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كل اللللال الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدتها بهذه الكيفية السخيفة.

ينغمس "با" في تصفّح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.

- تعال، قل لعمّك ما تريده أنت.

- أريد آخر عدد لمجلة سندباد زيدان وأيضا سلسلة القصص الهندية.

يفتح البائع فمه محدقا في "با":

- القصص الهندية؟! كم له من العمر!

يغالب "با" زهوه:

- يبدو أن أمه توحمت على غجرية، هات له ما عندك من هذه السلسلة حتى لا يقرأ كتبي، قد يفهم منها أكثر مما أفهم.

هات ما عندك، يا للرجل المتهور.

يصرخ "با" وقد امتقع لونه:

- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشيا على الأقدام؟

يتدخّل البائع بلطف:

- لا تحمّل والدك فوق طاقته، ما أخذته زاد لأشهر من القراءة.

يأخذ "با" في تقليد لهجة البائع الحضريّة:

- ولا تحمّل والدك فوق طاقته...

يعود إلى الصراخ بلهجته البدوية:

- ما دام والده حيّا فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حقّ لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك

في أقلّ من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجودا... إلخ.

يقرّر الطفل تجاهل علامات الامتعاض المتزايدة عند "با" وعدم الانتباه لحبّات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مباليّ بالبائع

يخفي سروره وشماتته.

إنذار صامت أنّه من الأحسن أن أتوقّف قبل أن ينفجر الرجل الخطير.

توقفت ثم ركض باتجاه المحطة.

في عربة الدرجة الثالثة لآخر قطار الأحواز الفقيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.

- "با"، هذه المرّة أنا الذي سأختبر معلوماتك. من هو أكبر شاعر في كل اللللال الدنيا؟

يرسم "با" على محياّه ابتسامة التهكم ثم يصرخ.

- قطعاً، ليس ذلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوما أراد الحياة" لو قال على الأقل "إذا هذا القطيع يوما أراد الممات"،

لكان من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...

- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.

- هل ثمة غيره يا مغفل؟

- "با"، أريد أن أكون مثله عندما أكبر.

ينفجر الرجل ضاحكا، ثم يستشيط غضبا كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.

- إياك، ثم إياك. حذار أن تصبح شاعرا ولو كهذا الشاعر الذي عقرت بعد ولادته النساء. هذه أمة بقدر ما كنّ الله فيها من

شعراء بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمدحون.

- ماذا أكون إذن؟

- مهنتان شريفتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظارات اللعينة لا تصلح مقاتلاً. كن طبيباً والآن اتركني أقرأ جرائدي.
هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عاد إلى قراءة جرائده.
آخر ما يهّم الطفل مستقبله الغامض وكل ما يريد العودة إلى الركض لاستكشاف كلالل أزقة المدينة العتيقة، كلالل جوامعها، حوانيتها، مطاعمها ومقاهيها.

مدينتنا... (نزار قباني)

تظل أثيرة عندي

برغم جميع ما فيها

أحب نداء باعتها

أزقتها

أغانيها

مأذنها... كنائسها

سكاراها... مُصلّيها

تسامحها، تعصّبها

عبادتها لماضيها

مدينتنا - بحمد الله -

راضية بما فيها

ومن فيها

بآلاف من الأموات

تعلقهم مقاهيها

لقد صاروا مع الأيام

جزءاً من كراسيها

صراصير محطّة

خيوط الشمس تعميها

فلا الأحداث تنفضها

ولا التاريخ يعنيها

هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بالنسبة إليه عجوزاً عاهرة تحمل من كل مغتصب، تلد اللقيط وراء اللقيط، تربّيه كالقطة التي تتغذى بفلات أكبادها... وأنه سيواصل حبّها رغم كل شيء.

حكّم علينا ألا نصل إلى المكان الذي نريد إلا وشدّنا الحنين إلى الذي غادرنا، ألا نعود إلى مسقط الرأس إلا وشدّنا الحنين مجدداً إلى ما وراء الأفق... والعالم دوماً على ما هو عليه من عطاء ومن تمنّع.

يومٍ يجلس الكهل لترتيب ملقّاته عن توغّله في الفضاء الحسيّ سينتبه أنه لم يطلب من الطريق إلا أن يبعده ما استطاع عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بأسرع ما يستطيع.

كيف لا الرّجل لن يعرف مكاناً على بُعد أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كذلك التي اعتصرت منها أزقة المدينة العتيقة وهو ابن بجرّ أبا يتلّكاً أو يركض للتخلص من قبضة أب متوتّر على الدوام.

كيف لا وقد أصبحت المدينة منذ ذلك اليوم المشهود بكل ما تزخر به من ألوان، من أصوات، من روائح، من أنواق ومن حراك، كل العالم أختزل في مكان من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من أماكنه.

**

على تخوم الفضاء اللامادي للعالم

كانت رقيقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداعية، ولم يكن من باب الصدفة أن نلتقي، أن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن.

- قلت إنك تريد معرفة تواريخ بنايات هذه الأزقة التي عرفتها ابان طفولتك.

هنا كان سوق العبيد، وهذه مقابر الملوك، وهذه دار لوزير سابق. أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصّحي. أتدري أن المكتبة الوطنية كانت ثكنة للجند الأتراك؟ هذا حيّ اليغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياما؛ إرهاب دولة ذلك العصر. أتصوّر بسهولة كم أتعبت الرجل المسكين ذلك اليوم، لم تتغير كثيرا رغم مرور السنين.

يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتهبا بعد خمسة عقود كمن ينفخ على الرماد ليلتهب ما بقي تحته من الجمر.

تلحظ المرأة الذكية الحركة:

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موحجة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها.

- جنّت بك لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحمام ووظيفتها التي كان "با" لا يعرف شيئا عنها، وبعدها قد يتفتح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها صلة أو قصّة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوما ما هذه البناية! لم تثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟ هذا هو الحمام، لم يتغيّر منذ ذلك العهد، ما يزال الحلاق ناصبا في بابه كميننا للأطفال.

- بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلّب مني تفاصيل أدق، لست إلا هاوية.

- غفرت لك جهلك أنت الأخرى.

- إذن، بعد المطعم والجامع كان الأب المسكين يحاول إكمال بقية أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلّص من مشاكسات "الفرخ"، ومقسما بأغلظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية والأّن أتبعيني إلى المكان الذي كان "با" في عجلة للوصول إليه، لا أزال أتذكر موقعه.

تتدافع من أعماق الذاكرة تفاصيل ذلك اليوم المشهود الذي شهد أول لقاء لي مع الكتب مصطفة على الرفوف مغرقة في الصمت والحال أن لا شيء فيها غير صراخ الألم والتنبيه يتصاعدان من قلوب وعقول خيرة من عبروا قبلنا عالم الرعب والانبهار هذا.

أتسمّر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحانوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط. أصرخ جاحظ العينين.

- انظري ما فعل أبناء الكلب بأول مكتبة أخذني إليها "با". جلّ هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو اليوم تتابع حوانيت يبيع فيها محتالون لأغبياء هذه الصناعات التقليدية الكاذبة وهذه الساعات الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدّعي الفن وتوهم بالقداسة!

- لا فائدة من وضع أنفك على هذا الزجاج القذر. لن ترى غير ما أرى. تعال وتمالك نفسك. المكتبات بالعشرات وهي أيضا محلات تجارية تبيع موادا للاستهلاك اسمها الكتب.

- يا امرأة تحدّثي باحترام عن أماكن لا تقلّ قداسة عن المسارح والعلب الليلية.

- استفزاز باستفزاز، قل لي يا فهميم ما الذي يفرق بين حوانيت تبيع هذه الساعات واللوحات البشعة وبين مكتبات تبيع كتبها أغلبها لا تصلح حتى للفت السمك.

ثمة فرق أساسي. حالما ندخل المكتبات تداهمننا روائح الورق، تسترعي انتباهنا ألوان الكتب المعروضة ولما نمسك البعض منها لتصفحها أو لشرائها تأتينا من لمسها متعة مرهفة صعبة الوصف. مما يعني أن الكتب مادة وخصائص تخضع لقوانين الفيزياء والكيمياء أي أنها تنتمي كليا للفضاء الحسي للعالم. لكنها تنتمي أيضا لفضاء آخر. هي تنغلق على كائنات حية لا مادية غير قابلة للرصد بأي من الحواس الخمس اسمها الفكريات وتلعب دورا أساسيا في تشكيل العالم الذي نعرف. هذا ما يجعل من المكتبات مناطق حدودية تفصل حقا بين فضاءين للعالم في الوقت لكنها ككل المناطق الحدودية عامل للتواصل والتبادل والاثراء المشترك.

نواصل شقّ الطريق وسط الزحمة في صمت. تغيّر مرافقتي الموضوع أو هكذا تتصور

- على فكرة ما ذا تكتب حاليا؟ أنت لا تنفك عن الخربشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبيك، كم أودّ أن أستعيره منك بعض الوقت.

- لست متأكدا أنك ستستخرجين منه شيئا، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحيانا قراءة ما كتبت.

- خطُّ الأطباء؟

- ظروف الكتابة، أحيانا وقوفا وسط حافلة مكتظة وحنّى مشيا.

- مادة لنصّ جديد في الأفق؟

-نعم

تشرّد مرافقتي ببصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحبّ مطربة لكلينا:

كتبنا ويا ما كتبنا

ويا خسارة ما كتبنا

كتبنا مئة مكتوب

وللهلا ما جاوبنا

- نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبنا ويا ما سيكتبون.

-إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

-لأننا لا نكتب إلا لأنفسنا. أجمل ما في الكتابة كل الوقت الذي تأخذه على حساب الأشغال التافهة التي تلتهم حياتنا... هي أيضا أتمن فرصة لاختلاء الذات بذاتها تنظم أفكارها حول ما عاشت وما تعيش من أغرب تجربة تمرّ بها الذات اسمها الوجود.

تعود مرافقتي للحديث ترضي فضولها بين جدّ ومزح:

-عُد إلى تفاصيل المشروع.

- لنقل إنه نوع من التقرير عن رحلتي في هذا العالم استجمع فيه كل ما تعلمتُ أو توهمتُ تعلّمه عن الأدمي، عن الأدمية، عن العالم، عن ذاتي وهي تصارع من أجل البقاء أعتصر من داخل الملفات التي تراكمت داخل ذاكرتي كل هذه العقود، أجوبة تردّ على ثلاثة أسئلة تلاحقنا طوال الرحلة وعينا بها أم طمرناها في أعماق اللاوعي لعلنا ننساها وتنسانا: ما هذا العالم، ماذا نفعل فيه، ماذا نفعل به؟

-كنت أظن رجال العلم لا يتعاملون إلا مع مواضيع بالغة الدقة بأدوات مناسبة تاركين مثل هذه المشاكل للشعراء والأدباء والفلاسفة.

- أه صحيح. تعلّمنا باكرا وضع العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة... الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر... الفلسفة في خانة والشعر في أخرى... الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين... النبيلة في الواجهة والدينونة خلف الستار... الجدّ حيث لا مجال للهزل والهزل حيث لا مجال للجدّ... أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل!

- نعم لكن أيّ هريسة فكرية لو لم نفرّق بين القضايا والمستويات والمناهج!

-جلّ النصوص تتوجّه إما إلى القلب وإما إلى الدماغ. كأن العقل ليس عاطفيا، كأن العاطفة ليست عقلانية. كأن الذات ليست عاطفة-عقلا أو عقلا-عاطفة. كأنها ليست نظاما وفوضى... كأنها ليست عقلانية لا عقلانية، لذلك أريد الخروج من وعلى هذه الثنائيات الساذجة. أريد أن يعكس نصي العالم كما هو أي أن يتجاوز فيه الفكرُ والخيال، أن يروي ما عشت من أحداث بالغة الخصوصية وما واجهت من كبرى القضايا التي تهّم الإنسانية جمعاء، أن اتحدث فيه عن أحسن وصفة لكعكة الشوكولاتة السائلة وأحسن وصفة لتخليص العالم. كل أملي أن يكتشف النصّ تعبائاً فضي جاء من أعماق الفضاء في بعثة حفريات آلاف السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيترجمه وينال درجة الدكتوراه بامتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

- وكيف ستحقّق انجازك العظيم هذا؟

- بالتمعن في أدقّ تفاصيل القصة الوحيدة التي أعرفها جيدا علني أكتشف الثوابت التي بُنيت عليها كل قصص الأدميين.

أليست المعرفة الدقيقة بجسد واحد كافية لمعرفة كيف بُنيت كل الأجساد، وإن تباينت فيما لا يُحصى من التفاصيل؟

- أنت كمن يدّعي أن دراسة قطرة تعلمك ما طبيعة المحيط. لكن، ما علينا. المهمّ أن تجد في عصر الاستهلاك السريع والجاهز والمعلّب، من يقرأ، والكتّاب هذه الأيام أكثر من القراء.

- هل تساءلت يوما لماذا نقرأ؟ أليس لأننا نبحث عن ذواتنا في قصص الآخرين؟ أليس لأننا نبحث في قصص الآخرين عن معنى وجودنا في هذا العالم؟ لا خوف إذن من انقراض جنس القراء والفضول أحبّ عيوب البشر.

- إلى أين انتهى مشروعك العبقري؟

- إلى كمّ هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بودّي أن أنشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا ذوق الزبون وخوف الرقيب. المشكلة غياب الناشر الانتحاري القادر على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطيب ومن فوضى؟ ثم أيّ قارئ قادر على الصبر عليها؟

- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفل لهم الشهرة التي أراوها بمثل هذا الاستقزاز. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظهم العاثر لثُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية. جاء دوري لأنفجر بالضحك.

- هم ليسوا بحاجة إلى أي توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي لا للعلم ولا للأدب.

- ومتى ستشرّفني بأن أكون أولى قرّاء قصتنا جميعاً؟

- لا أعرف، بل لا أعرف أصلاً هل سأغامر يوماً بنشر النصّ.

- الخوف من الرقيب؟

- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهاراتٌ عديدة لست متأكداً من امتلاكها.

-مهارات؟

نعم مهارة حارس الغابات، والنصّ غابية موجشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات، مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصقل والنقش، مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانات لتتداخل القطع في أكثر الأشكال تناسقاً، مهارة الفنّان والنصّ لوحة فنيّة يجب أن تسطع فيها الألوان أو قطعة موسيقية يجب ألا تعرف نشازاً، مهارة سقراط وهو يستقرّ في السامع طاقاته الذهنية ليولدا المعنى معاً. - سأفتعل تصديقك، وأنّ الهدف ليس إرضاء رغبة كل الكتّاب: إعادة صياغة العالم الذي يعبرون وحتى خلق عوالم أخرى يرونها أجدد بالوجود. والان ماذا عن العنوان؟

- رحلة الحياة أو كتاب الرحلة، ربما الرحلة.

-إذا كانت المادة بنفس طرافة العنوان... فيا خيبة المسعى!

- هل غلظتي أن البشر لم يتركوا عنواناً لكتاب إلا واستعملوه نكايّة فيّ، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحبيطة قرونا قبل أن أولد؟

- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حساباً لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟

- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوماً، سيخرجون جُملاً من سياقها، سيقولونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان والكفر، بالشيء وبالنقيض... كل هذا تعسفاً على النصّ وتحاملاً على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.

-آخر سؤال: جدّد أليس وهّم كل الكتاب التغلّب على الفناء بالحرف... بخصوصك البقاء في ذاكرة هذا الشعب الذي لا يبدلك حبّاً بحبّ.

أقول لها أن هدف البحث ليس أن أترك في ذاكرة الناس قصة مصنوعة من أنصاف الحقائق لمواصلة معركة عبثية للتمييز حتى وأنا ميت... أن الهدف اكتشاف معنى لحياتي وتبرير لكل ما تكلفت من معاناة... أن هذا البحث يقود آلياً للبحث عن معنى حياتها هي وحيات كل هؤلاء الذين يدفعوننا بالمناكب... أن كل الموجود في السوق الفكرية بخصوص هذا الموضوع جزء من المشكل لا من الحل... أنني لا أعجب لشيء قدر عجبني من عيش ملايين البشر وموتهم داخل أساطير رديئة تجعل منهم حيوانات خلقتهم الطبيعة صدفة أو دمي خلقتهم آلهة جشعة مستبدة لا لشيء إلا ليعبدوها... أقول لها أنني لا أريد أن أعبّر هذا العالم إلا داخل منظومة أفكار تجعلني سيد حياتي وموتي، إنه إذا تطلب الأمر أن أخلق أسطورة خاصة بي فليكن .

- قل وعليك الأمان.

- الخلود! صحيح أن هوميرو والجاحظ ودستوفسكي وتولستوي وبلزاك يواصلون رواية قصصهم الشيقة وكأنهم أحياء يرزقون والأجيال وراء الأجيال في حضرتهم تستمع وتستمتع. لكن صدقيني الخلود طعم كالذي تلوّح به الحياة للعشاق: المتعة لكم والبنون والبنات لي المهم تواصل النسل... كذلك طعم الكتابة.

-فسر، ما طبيعة الطعم إن أنكرت أنه بقاؤك في ذاكرة الأجيال؟

-كأن هناك قوة قاهرة تقول تمتعوا بالكتابة وإن كانت متعة مصحوبة بالوجع، المهمّ تواصل الفكر ربما لأن الفكر قوام العالم وأداة تواصله وخلوده هو ونحن مجرد أدواته.

تهزني مرافقتي من كنتفي.

- سهوئاً مجدداً، كلّي أذان صاغية لك.

- لا أحد يصغي لأحد، ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هنّ! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبتدئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظرا أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفني منه الكلمة بدورك. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطرّ لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

أيّ تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ شمستُ تدور حولها كل الأفلak، وذرّة من غبار تدور في فلك ما لا يحصى من الشمس؟ أيّ علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض هامشيته؟ تبتسم مرافقتي لذكريات تؤكّد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكلّ.

- معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبدا.

- أحيانا، أوقات الانتباه وهي جد نادرة.

- هل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا.

- طيب، أما أنا فأريد أن أعرف رأيك فيّ؟

- رأيي في الأدميين عموما والإناث خصوصا: كائنات يستحيل العيش معهم وكائنات يستحيل العيش بدونهم.

تهمس مرافقتي لنفسها بلهجة وأشلاء اللغات التي يتكلم بها أهل هذا البلد التعيس: ça va، كنت أنتظر ما أقطع.

ثم تعود للكلام المسموع: طيب كيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟

تلك الليلة وصل البيت أبّ مرهق وطفلاً متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيرا.

تفتعل "ما" السرور بما جلبا لها من الحلوى. يسارع "با" إلى كتبه ويرحل. يسارع الطفل إلى كتبه ويرحل.

تعود المرأة الوقور لغسل الصحون ثم تجلس على الحصير البائس تتصفح ببطء وبتركيز كتابا أصفر رتّاً، تطيل فيه النظر، ثم تغلقه واجمة.

تشيح المرأة التي عرفت جوع الروح قبل جوع الجسد ببصرها ولا أحد منتبه أنها مثل سجين في أضيق زنزانة والمفتاح شيء غير مادّي لا تملكه، أن الأوان لرواية ظروف سطوي عليه.

**

عالم الحاسة السادسة

تهمس أم في أذن طفل متمسك بحقه في مزيد من النوم وفي صوتها عصبية غير معهودة:

- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!

- إلى أين؟

- إلى الكتاب. هيا، لا تتناقل!

- الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.

- تغالب، ما” نفسها حتى لا تنفجر ضحكا.

- سندهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيّام ما عدا الجمعة والأعياد.

إنها نبرتها عندما تتحدّث عن الذهاب إلى الحَمّام، أي أنّ الموضوع غير قابل للنقاش والمساومة.

- لماذا؟ ألا تكفي مرّة واحدة؟

- لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتناكأ.

تجرّ امرأة طفلا أقلّ ما يوصف به أنّه كان فاتر الحماس للعودة إلى مكان ليس هو مركزه!

- تذكّر ما قلته لك البارحة: لا تتشاجر مع الأطفال، لا تنتشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام ناده

ب “سيدي”، كُن شديد الاحترام له ولا تعص له أمراً، استوعب ما يقوله لك، قبّل يده عندما يدعوك لتُمثّل أمامه، لا تكن وقحاً

ولا تتكلّم صارخاً أمامه، أطعمه في كلّ شيءٍ ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى، ولا تنس أنّ سيخرجك من الظلمات إلى

النور فهو من سيعلمك كلام الله.

إنّها عادة الأم الأزليّة المتماديّة في إغراق الطفل الأزليّ بنصائح لو كان لها أدنى تأثير لتحسّن الجنس البشري منذ زمن بعيد...

الدليل على تواضع دور هذه النصائح أنّ ذلك لم يحصل.

بقية الحوار كما تعيد صياغته ذاكرة الخيال أو خيال الذاكرة.

- لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جدّي لاصطياد الحجل بمقلاعي الجديد.

تجذب، ما” يد الطّف بشدّة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:

- لا تكرّر أبداً مثل هذا الكلام، خاصّةً على مسامع الناس.

يصل الطّف مجروراً من يده إلى الكتاب، وهو ركنٌ من جامع المدينة الصغيرة التي قذفتها على ضفافها أمواج النزوح.

تدفع الأم طفلها لتخطّي الباب وتمسك يده بقوة كأن شيئاً بداخلها يحدث على الفراق وآخر يرفضه.

آخر توصياتٍ إضافيّة بضرورة الجلوس قريباً من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل المباشر من نافورة علمه.

بخصوص هذا الشيخ تسترجع الذاكرة صورة كهل يلتحف ببرنس من الصوف البنيّ وعلى رأسه شاشيّة حمراء يلقها بقطعة

من قماش أبيض، له وجه لم يتعرّض كثيراً لوهج شمس الفلاحين، ويدان لم تمسكا فأسا أو مسحاة.

كان يفترش سجّادا مهترنا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتفاسمه الطّف مع الرّفاق الصّغار، وكلّهم جالسون أمامه

صفوفا متراصّة في أعجب فوضى.

يوم غامر الطفل بالجلوس قريباً من الشيخ ليصره عن كُتب فوجئ بنظرته الجانبيّة مصوّبة نحوه، وكلاهما يقدّر حظوظه -

خطأً كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين-في استعمال الآخر لمآربه.

لكن ألم يسمع من “، ما” أنّه يحفظ كلاللّ كلام الله، وأنه يعرف ما لا يعرفه حتى “با”؟

يداهم الطّف شعور بالتهيب. قد يكون الخوف ثاني أقوى المشاعر إذ كانت للرجل عصاً طويلة يلوّح بها طوال الوقت، ومن ثمّ

قرر الطّف البحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفيّة ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيءٍ رهيب آخر تسميه اللّغة “الفلقة”.

كان الشيخ يضعها قرب ركبته اليمنى، واضحةً لكلّ العيون، جاهزةً لكلّ الاحتمالات ولاستعمال واحد.

الفلقة!

أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أمةً برمتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مرّ التاريخ.

هي التي ربّتها منذ نعومة الأظافر على الخوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطّف لتسييره في قوافل المرؤّضين.

على ذكر وسائلنا البيداغوجيّة القديمة عن الجاحظ: “كان معلّم يعلم الصبيان ومعه عصاً طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا،

وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أو باش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصقّر لي فأضربه بالعصا القصيرة

فيتأخّر فأضربه بالطويلة، فيفترّ فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدّم إليّ الصغار كلّهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي

والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارة ذلك فيسارعون إليّ ويخّصوني منهم”.

نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتاب ولهذا الشيخ، طيّب الله ثراه وأسكنه في أفخم "سويت" في الجنة.

في بعض أقدم الملفات، يعود الطّف إلى البيت ذلك اليوم بقدمين منتفختين كأنه يمشي على الجمر لا على الأرض وكل همّه دخول البيت محافظاً على مشية لا تُلفت الانتباه.

كيف تقادى حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار "ما" على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟

كيف يعترف لها أنه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنه قام ليجلس بعيداً عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلا من نفسه، أنه لم يقل للعجوز: "سيدي الشيخ" وهو يخاطبه، أنه لم يظهر له من الاحترام إلا أقله، أنه لم يُقبل يده بعد حصّة العقاب بل عضّها، أن الضرب زاد إلى أن كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك.

ثم ماذا لو سألتها عمّا حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟

تتظاهر "ما" بأنّها لا ترى مشية الطفل. لا تلقي أيّ سؤال. تتغافل -على غير عاداتها- عن حصّة غسل القدمين الإجمالية مظهره مزيداً من الحنان.

ربما أهمّ شيء تعلمته منها فضيلة التجاهل. هكذا مررت أمام كم من خطأ وخطيئة افتعل أنني لم أرى ولم اسمع فيتعظ المخطئ من صمتي أكثر مما كان سيتعظ من صراخي. هكذا مررت أمام ألف حماقة واستفزاز وشتيمة أفتعل أنني لم أرى ولم اسمع فيسقط في يدي الخصم وأوقر على نفسي وعلى الغير معركة تافهة مع تافهين.

يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسويق، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصاً طويلة وقدمان دامتان فوق سحب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه يصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفوراً.

ومن الغد تهز اليد الرقيقة الطّف بحزم:

- انهض، حان الوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز الكريه بـ "سيدي"، قبلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تتشيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أما أنا فذهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاعي الجديد. لن أعود إلى الكتاب مهما قلتِ وفعلتِ.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان مؤدّباً؟! كم سيكون رائعاً أن تشبهه، وكم سيكون فخوراً بك يوم تُعلّم صبيّة قرينتنا كلام الله.

- لا أريد أن أكون مؤدّباً. أنا أكره كل المؤدبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبداً، أبداً!!

تأخذ "ما" طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمّة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلاً موجوعاً وإنما الرّجل النائم داخله.

- هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويل الطريق أمامك لتصل إلى المراتب التي يريدّها لك "با"؟!

نعم، كم هو طويل طريق الأدمي، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئُه منذ البداية أنه لم يأت إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع مُسبقاً.

تواصل الأم اقناع طفل معرض عن كل كلام

- رأيتك في المنام عالماً بارعاً باللسانين! نعم، جاءني في المنام -وأنا حُبلى بك-ملاك بشرني بهذا. هل تكذب ملاك الله وتخزيني؟

هل أتاها الملاك يومها منتفخ القدمين يمشي على الزجاج والجرم؟

المهمّ أنه أتاها واتفق معها على شروط العقد الذي سيجعل الطّف عالماً بارعاً باللغتين.

لم يَعد مطلوبٌ منه سيوى التطبيق، إذ لا حقّ له في إفسال مخطّطاتٍ سرّية تتوارى داخلها أحلامٌ ورديةٌ للأُم ورجبةٌ عارمة عند الأب في الثأر.

إنها القاعدة في هذا العالم. محكوم عليك أن تنخرط بإرادتك، أو بتوهمها، في القصة التي حدّتها لك طاولة القمار وأن تلعب -شئت أم أبيت- الدور الذي قرّره لك "البخت" أو سوء الطالع.

يستمرّ الطفل في عناده رافضاً مواجهة تجدد كابوس البارحة. هل من الممكن أن ينهار حلم "ما" وهو في البداية؟ تستخرج الأم من خوفها المفاجئ الحجة التي لا تُقاوم.

- تعلّمتُ بعض الحروف من أخويّ، لكنها لا تكفي لأفكّ رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيّني بالبقية. آنذاك سأقرأ كلام الله. هل ستخذلني؟
يحدق الطفل في وجه أمه وقد انتبه فجأة لما تقوله:
- أنت لا تعرفين القراءة؟
- في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكتاب.
تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتتلطف وتبارك:
- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محمّلاً بالحروف التي تنقصني.
يقفز الطفل من فراشه وقد تبدّلت كل المعطيات لديه:
- سأذهب لأتيك بها. وسأتوقّف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...
- كلّ ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكلّ قطعة الخبز هذه في الطريق.

*

ذلك الصباح لم يركض صبيّ في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد -بمحض إرادته- مكانا كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشدّه، وقد ألقت الأقدار الظالمة على كاهله الغضّ بمهمّة لم تخطر له ببال.
وهذا عالم نادرًا ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة سادية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مردّدا خلف المؤدّب كلاما لا يفهم منه شيئا، ولا أظنّ أن أحدا كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه.
تُداهمه وهو يردد كالبيغاء-أسئلةٌ بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الربّ، ما العالمين، ما الخناس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟
يغلبه التهور من جديد:

- سيدي، ما معنى خناس؟ ولماذا يوسوس الشيطان في صدور الناس؟ وكيف يفعل ذلك؟
من أين سيعرف بأنّه دخل عالم الفكر -وهو في هذا العمر- من باب المطالبة بالحجّة أي من باب البدعة في نظر كلّ الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تفتّن إلى أن الطّفّل من النوع الذي سيزعج أمثاله دوما بأفح ما يكرهون، فأراد أن يقوّم الخطأ في تركيبته الذهنية بأشدّ العقاب، علّه يكتسب أجرا في الدنيا وثوابا في الآخرة.
يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكرة والشيخ أحسن مزايا:
- سيدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخناس؟ ولماذا تبت يده؟ وما معنى تبت؟
أخيرا يستنطن أهمّ ما يعلّمه الكتاب والحياة بصفة عامة، أنّ تفادي العصا أهمّ من إشباع الفضول.
يتعمق كرهه للمؤدّب، وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جعل لمنع ظهور السؤال؟

كان الشيخ ينهض من فراشه لقضاء حوائج كثيرة يسلم إبانها العصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون -ككلّ سلطة- إلا بالفلقة والعملاء. كان همّ العميل هذا، وهو أطول الأطفال قاما وأكبرهم سنا، أن يصفّي حساباته مع من لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيده المفضّل.
لا العصا ولا الفلقة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعسف العريف، عقوبات كافية لتثني الطفل عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها "ما" ما ينقصها.

تواصل الحروف اللعينة رفض الحضور بين يديّ من هو بأمرّ الحاجة إليها.
يعود الطفل إلى حبيسة الدار كلّ مساءٍ متقلا بالأم غير مفهومة السبب، يردّد عليها ما علق في ذهنه من جمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

- "ما"، لا حروف في هذا الكتاب، لماذا لا نبحث عنها في كتاب آخر؟
- صبرا أيها الطفل العجول.

يتجدّد الموعد كلّ صباح مع العصا والصخب والحصير، وكلّ مساءٍ مع حرقه الإحساس بالذنب والقهر.
ها قد بدأت "ما" تتخوّف جيّدًا من صدق وعد الملاك. تتشجج أصابعها وهي تمسك بكتفيّ ابنها:
- لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إليّ مليّا. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خالتك هنا؟ رعي الجمال والماعز عند الأعمام، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبداً، هل تسمع؟

- ... ، ... ، ... ، ... ، ...
- يجب ألا يحصل هذا أبداً. أبداً!!!

- كم سأكون فخورة بك وقد حفظت السنين جزياً! كم سيكون “با” فخوراً بك هو الآخر وأنت تتلو عليه ما تيسر منها!

- ...
أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمزّق قلبي. غدا سنُفَرِّجُ بِإِذْنِ اللَّهِ. سأحمل للشيخ عصيدة بالسكر والسمن. وأنت أيضاً لا تكن سليط اللسان كعادتك. لا تكابر، فلست دوماً على حق. سأصلي الليلة كثيراً ليهديك الله.
ولأننا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإننا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصاً وأكبر فلقة تضعها حول أقدام البشرية جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كل سلطة تصنع الاهتمام ببعض التطلّعات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتدقّق العصيدة بالسكر والسمن، أمرت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتّى لا يكابر الطّفّل ويخذ طريقاً قد يقوده ليصبح عالماً بأحد الرّعين حسب تهديد أمه.
ربّما تدخّل حليف “ما” بحزم وإلحاح لدى مكتب التطلّعات الكونيّة. قد تكون علاقاته الشخصيّة مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطّفّل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم.
ربّما لم يحصل شيء من هذا، وكلّ ما في الأمر أن الطّفّل وجد أخيراً ضالته.
ذات صباح يتنحّج الشيخ بوقار:

- والآن إلى ألواحكم لتعلّم الحروف الأولى التي كُتبت بها كتاب الله.
أهم متطلّبات استكشاف الفضاء الحسيّ جسم سليم، حواس نشطة، ثياب تقي من البرد والحرّ، وحذاء متين يُستحسن ألا يكون ضيقاً. أمّا عن استكشاف فضاء الأفكار فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة وأربعة أشياء توقّرت كلها يومها للطّفّل: قصبّة مذبّبة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحي به الكتابة وتعاد. إنّ حاسوب ذلك الزمان. يا للأدوات المتواضعة لغزو أفسح فضاءات عالم الأمميّن!
يبدأ الطّفّل كتابة الأشكال التي أمر بها الشيخ، أو قُل رسمها. لا بدّ من التحكّم في تشجّج اليدين حتّى لا تنطلق العيصيّة الواقعة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم!
ها هو يتمتع برسم الأشكال الهندسية التي تصبح أصواتاً، فكلمات، فجُملاً، فصوراً، فأفكاراً تتراحم داخل عقل نهمٍ يقظٍ. يشهر قلم القصب وهو يقطر صمغاً كسيف دامٍ في وجه عدوٍّ شرس اسمه الجهل.
كم كان الطّفّل بعيداً عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعراً وغناءً وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصورات له لذاته وللعالم!
من أين له وهو راكع مُنكبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه-الوعى بأنّه وضع أولى خطاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم الفكر البشري! كم كان بعيداً عن تصوّر حجم ذلك الجزء من العالم الذي دخله ذلك اليوم، وكم كان سيصاب بالإحباط لو قيل له إنّ سيقضي في استكشافه جُلّ زمن الرحلة، وهو كمن يبحث عن بعض قطع اللؤلؤ المنضود في أعماق بحار لا تعرف لها بداية ونهاية؟

المهمّ في هذا الموضوع من النصّ السيطرة على هذه الحروف بما هي المفاتيح السحرية التي ستفتح أمامه أبواب كم هائل من الكتب وكل كتاب نافذة جديدة على عالم لا تحصي ولا تعدّ ابوابه ونوافذه.
يتعلّم الطّفّل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عيصيّة قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشكّل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها! يرمي لوحه ليرقص طرباً. لقد تعلّم من سيدي الشيخ، خمسة أحرفٍ دفعة واحدة. اكتسب أخيراً تزييد الجُمْل غير المفهومة معنّى، وكذلك حال ألم العصا. أليس الأمران ضريبة للحصول على معرفة الحروف التي تنقص “ما”، وأهمّ من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطّفّل من تفحص العيصيّة والنقاط لا بدّ من وضع الدوائر تحت السّيّطرة.
تداهمه أولى أفكار سيتواصل وصفها طوال رحلته من قبل القريب والبعيد، تارة بالغبية وتارة بالاستفزازية.
نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرتة وعصيه الراقدة على ظهرها ونقطته وكلّ هذا التّعقيد غير الضّروري الذي ستواجهه “ما”؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيه الواقفة خالية من كلّ تنقيط لا تنتظر هي

الأخرى إلا حَقَّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعا بوجاهة الاختيار. لم يبق إلا عرض اكتشافه على المؤدب.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقعة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهل كثيرا على

“ما” حفظ الحروف!

- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصببية الحمقى حماقة.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ!

- احرص يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البيدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم جلسة؟!

المهم أن الطفل تحسّل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها بذلك الشكل.

- “ما”، اليوم تعلّمتُ كلللك الحروف! إنَّها أجمل من كلام الله.

- كم مرّة قلتُ لك ألا...

- الليلة سأعلّمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس “ما” فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أنّ صديقها الملاك جدّي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطفل عُود حطب رقيق يلوّح به في وجهها، إذ كيف يكون معلّما ومُهابا إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثم يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهدية الهدايا.

- انظري مليّا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟

- نعم.

- نعم، يا...؟

- نعم، يا سيدي الشيخ.

- انظري جيّدا إلى هذا الحرف الذي هو عصا واقفة، إنّه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟

- هو هذا، يا سيدي الشيخ.

- حسنٌ جدًا. والآن الحرف الثاني. انظري مليا ولا تتبسّمي. إنّه عصا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلا إلى الأمام. إنّه حرف الدال. قللي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟

- هذا الألف وهذه الدال، يا سيدي الشيخ.

- والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فوقه نقطة. فهمت الفرق؟

- نعم، يا سيدي الشيخ.

- والآن إذا وضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟

- لا أعرف، يا سيدي الشيخ.

لا بدّ من التروّي في عقاب ولو كان خفيفا فهذه التي سنتال العصا هي “ما”، وعلى كلّ حال هي غير مطالّبة بمعرفة حروفه الخاصّة، علما بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث أنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرث، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبدا؟

- حسنا، لنراجع كلّ ما علّمتك اليوم.

كانت الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطفل سوى الانتظار إلى الغد، علّ “ما” تنسى حرفا أو حرفين وأنداك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التّمعّ بسلطته الجديدة.

-ستواصل تعليمي بقية الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟

ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادرا.

- إيّاك أن تبوح لسيدي الشيخ أو لأحد آخر، حتى لوالدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمك وأن يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!

- وفي المقابل أريد...

- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!

ينتظم تهريب الحروف من الكتاب إلى البيت في جوّ من التكتّم على سرّ “ما”، والطفل مسكون بهاجس طبع بقية الرحلة. هو لا يتعلّم لحسابه الخاصّ وإنما لحساب الآخرين لأنه صاحب رسالة ومسؤولية.

ذات يوم تغتتم “ما لحظة هدوء لثُخبر الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.

- غدًا سيكون يوماً أغرَّ في حياتك يا بني. ستذهب إلى المدرسة العصرية. إنَّها قريبة من محطة القطار ولن تتعب كثيراً في الذهاب والإياب. سأعدُّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكراسة وكتابُ قراءةٍ جميل.

- لن أذهب إلا إلى الكتاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغت السادسة، وعليك الذهاب إلى المدرسة العصرية.

- لكن هناك أطفال أكبر مني في الكتاب!

- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. ستري أنها أحسن بكثير من الكتاب.

أحسن من الكتاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلَّى عن لوحه وعن الماء والطين والصبغ؟ كيف يتنازل عن متعة معاينة الشيخ والسخرية منه، خاصَّة عندما يرتفع شخيره في حصَّة الظُّهر؟ كلاً، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما يجهل.

- لا، لا، أريد البقاء في الكتاب.

- لن تذهب بعيداً بالزاد الذي يوفِّره. جُلَّ خرَّجيه ليسوا سوى رعاة قرية جدِّتك.

تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجَّر العثرة خوفاً مبهم أن تكون عصا الشيخ الجديد أطول من التي تعود عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعا.

تستمع الأم إلى حجج الطفل الواحدة تلو الأخرى، تقلِّبها، تنظِّمها، توضحها ثم تفنِّدها، تخاطب في ابنها كأننا له عقل. يتسلَّل إلى عقله أنَّ العرض قد يكون في مصلحته حقاً، خاصَّة أنه من “ما”.

ثمَّة أيضاً أشياء جديرة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقِّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها “ما” بحرص شديد، لا تخرُّجها إلا نادراً، تسمح عنها الغبار وتقلِّبها.

- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...

كم من آلام ومصاعب لاستكشاف فضاء الرموز والأفكار وكم فيه من مصاعب ومطبات تقاطعات طريق لا تقل خطورة عن تلك التي تواجهك في الفضاء الحسي!

تصرخ المعلمة المرهقة بالضجيج لا تخفي ما بها من تشنج ونفاذ صبر:

- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابكم ثم نقلها على الكراس، وأريد أن يتمَّ ذلك بنظافة تامَّة. يصرخ الطفل المتهوَّر:

- إنَّها كلمات سهلة، أعرفها كلُّها، فسيدِّي الشيخ علمني كيف أقرأ.

تبتسم المعلمة ابتسامة صفراء.

- حسناً، اكتبها إذن وتذكَّر أنك تكتب على الورق وليس على اللوح.

ثم ذات يوم تتوجَّه المعلمة متجهِّمة لطفلٍ مرتبك.

- أريد أن يأتي وليِّك معك غداً. وبالمناسبة، من الآن فصاعداً عليك أن تجلس في آخر القسم.

تحدِّق الأم في طفلها كأنها تراه للمرَّة الأولى. تمرَّر يدها على شعره ببالغ اللطف. يتَّسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك البريق اللامع الذي لطالما أحبه الطفل.

- أريدك أن تعديني بعدم مضايقة “سيدتي”. إنَّها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظتُ كلِّللكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغباء.

- لا تقلُّ أبداً عن أقرانك أغباء وإلا كرهوك وأدوك.

يبلع الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمه له ولا امتعاض “سيدتي” منه وهي لا تبتسم إلا للأطفال الآخرين.

يزداد الوضع سوءاً والمعلمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

- والان انقلوا في كراساتكم الجُملة المكتوبة فوق السبورة.

الجُملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهره إلى الحائط هو لا يرى إلا أشكالا باهتة لا يستطيع التعرف عليها.

يغالب الطفل تردده، ثم يستجمع شجاعته وقد خرجت “سيدتي” لحظة فينهض من مكانه متوجَّهاً إلى السبورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بإعادة نسخها، لا يبالي بفهقهة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثمَّ يصلِّي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرته الجُملة الطويلة وهو في غُدوٍ وروح من السبورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبورة، كأنه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصَّيد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرّك مجدداً دون إذن.
- لكن يا سيديتي...
- عُد إلى مكانك وإلا شويت أصابعك بالمسطرة.
- يدخل الطفل مجدداً في فوقعته.
- تصرخ "سيديتي" في قمة الهيجان.
- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبي أم ماذا؟!...
- سيديتي!!
- كفى، أصمت ولا تتحرك!
- ليذهب المكتوب على السيرة إلى الجحيم. لتذهب سيديتي نفسها إليه. على كلّ حال لقد قرّر أن يطلقها بالثلاث حتى قبل الزواج. سوء الفهم المزمن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توفرها لهم اللغة. لمثل هذه الوضعية التي يتخبّط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بعضُ الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينغص عليه عزلةً موجعة لذيدة.
- يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنها بداية نهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود.
- تهزّ الأم طفلها من كتفيه، تجرّه إلى النور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله. تتوجّه إليه كل مرة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من "الواقع".
- كيف تقرأ كُتب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلمة، مستغرقا في خريشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سأخبره بأنك الأخير في القسم، كيف أقول له إنك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دام؟ يا إلهي، متى يعود، علّك تعود أنت إلى رشك؟!!
- يرفض الطفل الاستماع إلى أمه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تفيض بها الحقائق المرمية في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلمة وكل ما تقول. تُطأطي "ما" رأسها، تنكفي على حزن كأنه بئر بلا قاع، والطفل الغريب رافض لكل حديث فما بالك بمواصلة مدها بما يتعلّم.
- يا بني، كنتُ أظنّ أنني لا أتحمّل صخبك، والحال أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلم، قل لي بماذا سادافع عنك هذه المرة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟!!
- ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفاً، تمسك بيدها المبلّلة عرقاً يد طفلٍ يتملّص ضاماً يده الطليقة للصراع. مع من، ولماذا؟
- ما الذي يبيّر أن تكون آلامنا بمثل هذه الحدة والعمق؟ ولماذا يجب أن ندفع كلّنا مثل هذا الثمن الباهظ لرحلة الحياة، خاصة في هذا العمر؟ ربما فُتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدنيا لاستقبال الزوّار، وإلا فكيف نفسّر تعذيب الأطفال بالأم لا يعرفون لها سبباً أو معنى؟
- يتوجّه الرجل الفظّ إلى المرأة باحتقار لا يتكأف إخفاءه:
- طلبتُ حضور والده!
- أبوه... غائب يا سيدي المدير.
- غائب أم فاز؟ أم في السجن؟ معادٍ للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال إنّه إرهابيٌّ منظرٌف خطير ومسلّح.
- يا سيديتي...
- اسمعي يا امرأة. إنّ ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلف ذهنيًا. يضايق المعلمة ويعطل القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نازح من الأفاق أو من الصحراء تحديداً، الأحسن لك وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.
- أقسم يا سيدي، أنّه يقرأ طول الوقت كُتبا و.
- كفى! إنّه متخلف ذهنيًا، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.
- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلاً نهاراً، إنّه شبه يتيم يا سيدي.
- حسناً، حسناً، لا فائدة من البكاء. يُقال إنّ لإخوتك زيتونا جيّداً ينتج أحسن الزيوت! ليُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبداً.
- يبلع الطفل غصة بكائه ويتبع أمّا تغالب دموعها بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.
- ثمّة في أقدم الملقّات صيغة أخرى لنفس الحادثة.
- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيدي.

المدير، بصوت خافت

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيدي، هؤلاء الأغبياء لم يلاحظوا أنّ ابنك لا يرى جيّداً. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تفقّد مفاجئ للقسم ينتقل من مكانه إلى السبورة لينقل ما تطلبُ المعلمة كتابته. حقاً إنّه طفل غريب! لماذا لم يقل من البداية إنّه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركته يرسب. أما الآن فخذيه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستتحسّن نتائجه حالما يلبس نظّارات.

يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطباء الشبان: لا أريد أن يرسب طفل واحد لقصر النظر. أولى أولويات القسم - هذه السنة-الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى في جميع مدارس المدينة.

وفي قصّتي -بما فيها من حقيقة وخيال- يزمجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوّه من معركة ما:

- ابني أنا متخلف ذهنيًا، يوصى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل هكذا؟! ابني أنا يُهمل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!!

- إنّهُ تعلّم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكّموني يوما في رقابكم لترحمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمه تُذلّ وتُهان ولم تدبّحوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلا الإعدام رميا بالبصاق، وأنتم معه كذلك. هذا بلدٌ لم يعد فيه إلا عميل أو جبان. أنا أستقيل منكم، اذهبوا أنتم لتحزروا المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالنيّات!

- يا رجل، اتق الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وحياه يعطفه خائن وعميل هو أيضا؟

- بالتأكيد هو أجنبيّ مُتخفّ فضحتّه أخلاقُ انقضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسفروه خارج الحدود. من المتخلف ذهنيًا؟ هو أم الفاسق الذي نصّبوه مديرا لأنّه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلف ذهنيًا؟! أسألوه ما تريدون. قل لهؤلاء الجهلة أين صمّد الزعيم في وجه الغزاة الملاعين؟ في الفالوجة.

- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهتئا ومساندا؟

- قلت له: جنّناك من المقهورة إلى القاهرة طلبا لسلاح نقهر به أعداءنا وأعداءكم.

- أسمعتم؟! والآن علّم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.

- جومو كينياتا.

- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟

- الماو ماو.

- أرأيتم؟ إنّ هذا الطفل كاد يوما يُفلسني بطلباته من الكتب. أتعرفون أنّي وجدته البارحة مستغرقا في الضحك وبين يديه “البخلاء”. متخلف ذهنيًا يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنّهُ يلتهم كل ما في مكتبتي ويقرأ حتى التي لا يقدر على فهمها. ابني أنا يرسب؟ ابني أنا، يفعلون به ما فعلوا!!!! إلخ... إلخ...

ثمّ يلتفت إليّ. يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنس وجودي. هيهات، يجب أن أدفع مع البقيّة:

- وهذا المغفل الذي بقي صامتا عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود،

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنّه يغالب دموعه؟

- ابني أنا يبكي! ثمّ ماذا أيضا؟! تعتقدون أنّه من طينة أطفالكم! ربّيته على الشدّة حتى لا يشبهكم يوما، يا من إذا حكّمكم كلبٌ مدحتم الكلاب وإذا حكّمكم بغلٌ تغنّيتم بفضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبّين والعلف! سبحان من جعلني واحداً منكم! إلخ... إلخ...

ومن يوم وُضعت على عينيّ الطفل نظّارات أصبح كأرنب تُفرض عليه مسابرة السلاحف.

يصرخ المعلّم الجديد في تلامذة آخر سنة للتعليم الابتدائي: اكتبوا موضوع الإنشاء! جاءتكم فرصة للقيام برحلة يوم الجمعة، صِف ما فعلت وما شاهدت ذلك اليوم.

ينكبُّ الطفل المتهوّر بحماس على الورقة البيضاء يملأها سطورا وبقع حبر.

وفي أول نصوصه يفيق الكاتب الصغير على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيها الغبيّ ثمة يوم أغرّ أمامك، فأمرها ألا تُفُرق في الحرّ لأثّه على سفر. ثم خرجت السيّارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكلّ الإمكانات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقودها، الأمّ في قمة الإعجاب والأب في قمة العجب. فسارت السيّارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتتخّ عن طريقي. فقال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنذرتك وكفى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيّارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله ييسط حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت دماء الشمس هامات النخيل توقفت السيّارة قرب فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا، والمرضى يجب أن يكونوا دوما في فراشهم يتأوهون ويصرخون ويطلبون من أمهم أن تأتيهم بما يشتهون من المرطبات، إلا أنّه لم يكن للجدّ أمّ لأنّها سافرت إلى بلاد بعيدة وتركته وحده، لذلك جاءته “ما” بالحلوى فقال لها شكرا يا ابنتي، مع العلم أنّها ليست ابنته وإنما ابنة أبيها، جدّي الآخر صاحب البرنس الأبيض الذي توفيّ وأنا صغير. ثم قال الشيخ المريض: أه، إنني مريض جدّا، فقال له الطفل: ولماذا أنت مريض يا جدّي؟ فقال له الأب: اسكت يا مغفل، ألا ترى أنّك تضايق جدّك؟ فقالت الأمّ: أطال الله عمرك يا عمّي، إن شاء الله يكبر هذا الصبيّ ويصبح طبيبا يعالجك من كل سوء، فباركه وادع له. فقبّل الجدّ الطفل ودعا له وللجميع وهو مسموع الدعاء من الله. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أككككبير طبيب وسأتيك بكلّ اللّلال الأديوية التي تحبّ وستروي لي كلّ اللّلال قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعترة وعلي بابا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قَبِلَ الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بالسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبكين دوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوزه السابعة من عمره لم يبك رغم أنّه كاد يفعلها لشدة حبه لجدّه. فهو يحبه كحبه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا.

يختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيال من الكتّاب الناشئين أول نصوصهم: رجعتُ إلى البيت فرحا مسرورا. يضع الطفل قلمه لا هنا ماسحا عرقه وكأنه خارج لثوّه من معركة استنزفت كلّ قواه. هو بالفعل خارج من معركة ستتواصل طوال حياته والرهان فيها هو التحكّم في الجمل تركيبا وترابطا وتسلسلا وتشديبا.

إنها المرحلة التي يكتشف فيها الأدمي ما تختزنه الحروف والكلمات من إمكانات هائلة وكيف أنها تحرر فيه طاقات ستغير يوما مجرى حياته كما حررت من قبله طاقات غيرت مسار الأدمية جمعا.

يضحك المعلم .

- طلبتُ منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصّة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوما سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحت الشمس تأنم بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفّر مُبين؟! لا تُعدّ إلى مثل هذا الكلام أبدا.

يتنهد بصوت مسموع قائلا: هؤلاء البدو! كلّمهم شعراء بالسليقة منذ نعومة أظافرهم.

يكظم الطفل غيظه واعد نفسه أنه سيكتب يوما إنشاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد، فلا المعلم ولا حتى أعداء “با” قادرون الآن على تفكيك الحروف وهي داخل ذهنه ملكٌ نهائيّ غير قابل للاسترجاع.

ما من شكّ أنّ هذا النص مواصلة الفرض الأول، فالتميز الذي كبر كثيرا وبقي نفس الطفل، هو الذي اختار بكلّ حرّية موضوع إنشائه الأطول: أفقت في عالم الأدميين، صِف كلّ ما شاهدت وفعلت، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

وفي ملف آخر عن تكلفة الارتحال في أي فضاء يتوجه المعلم لقسم هائج على الدوام ولطفل استسلم لإرادة فوق إرادته.

- انظروا جيّدا لهذه الحروف الجديدة. إنها حروف اللّغة الأجنبية التي يجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون “با” في السجن كلّما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ لأن يكون هو أيضا واحدا من الحوّنة الذين يتوّعدهم “با” بالويل والثبور؟ مبدئيّا، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار.

يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليبدأ أول عصيان مدني في حياة ستكون حافلة بأكثر من تمرّد عقيم.

يفغر المعلم فمه وهو يسمع تلميذا يهمهم أنه لا يريد تعلّم اللّغة الثانية ولن يكتب هذه الحروف.

يكتشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تقفّ لأدى عن فلقة سيدي الشيخ.

بيني وبينك ما أسخف هذا الطفل وكم من صفعات مُحكّمة كان يستحق!

الأدلاء يُفتمون لهذا الجحش على طبق من فضة كلّ اللّلال حروف لغته الأمّ فيز عج من أهدها أعلى وأتمن الهدايا.

يُقدّمون له الآن على طبق من ذهب ككلمات حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكنزا إضافيا-فيتأفف ويُعلن العصيان. هو لن يُقدّر كم كان محظوظا إلا بعد عقود، يوم اكتشف قصة طفل عاش في عصر غير عصره، وبلد غير بلده عرف باكرا مثله فسوة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيفٍ لجنديّ غازٍ مخمور، شجّت رأسه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حياّ خلافا لأبيه الذي قضى نحبه أمام عينيّه. عقدة القصة أنّ والده كان يدفع أجرا لمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلم -الذي لم يكن مستعدا للعمل مجانا-ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث الحروف.

جنّ جنون الطفل همّه الأوحاد أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف z.

ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك -يا أبتاه-ماذا بعد حرف z؟ فيركله الأب صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟

يتوجه إلى عشيقته القسّ: من فضلك -يا سيدتي-ماذا يوجد بعد حرف z؟ فتركله صارخة: ألا ترى أنني مشغولة؟

يتوجه إلى من يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف z؟ فيصفعه هذا وذاك صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيرا من يستمع إليه، يسمح على شعره مشفقا: يا بني، اسأل القسّ، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.

كان بداخل اليتيم إحساس أنّه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكم عليه بالنظر إلى العالم بقية حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلاث الألوان.

لا تحكي القصة كيف وضع الطفل يده أخيرا على أصحاب الفخامة z, k, l, و الجلالة m, n, o, و القداسة p, q, r, s, و السموّ t, u, v, وأصحاب العظمة w, x, y, z.

المهم أنه تحصّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب الأمور... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان وفّراري وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوما برسم مسار الصواريخ.

يواصل بطل قصتنا الغيبيّ عنادا لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكرا نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

كيف سيخرجه النص بصفة مشرّفة من صراع غير مُجدٍ وميزانُ القوى ليس لصالحه؟

ألم يعد الملاك "ما" أنّ طفلها سيكون بارعا باللغتين؟ أليست هي التي أصرّت على ذلك؟ ربما دفعت الثمن مسبقا، وكانت كمية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقبل بأن يخدع الملاك "ما" فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تنهّمه بالغشّ والتحايل، وحتى -لم لا-تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويشهد المعلم ضده.

كم من قرارات هامة نأخذها في كلّ المجالات وفي أعلى المستويات يمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟

يتخلّى الطفل عن موقف كان بوسعه أن يدفعه في طريق مسدود ليسكن أضييق العوالم.

المشكلة الآن التحكم في الحروف الجديدة.

اللعنة! لماذا يكتب الكفّار من اليسار إلى اليمين؟ حدّث ولا تسل عن بخلهم بالنقاط لحروفهم. ما أغباهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالحقّة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيدي الشيخ.

لا بدّ في هذه اللغة اللعينة من ثلاث عصيّ، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصاّ ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلّب في اللغة الأم إلا عصاّ واحدة منتصبّة مكتفية بذاتها.

يتزايد انزعاج الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأوّل منتفخ كالطاووس بعصيّه الثلاث بالغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة بذيل قصير كذيل فأرٍ قضمته أنياب القطّ.

لا داعي إذن لإضاعة الوقت في تعلّم لغة غيبية كهذه، يكفي افتعال الاهتمام حتى لا يُفترطوا عليه بالضرب والنفي إلى الركن. تدفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل يأخذ بيد الطفل ليعينه على تجاوز تقاطع الطريق الخطر.

كان "مسيو فيدال" مدير المدرسة معلم اللغة الأجنبية حقا الوحيد ممن عرفت في تلك الفترة من حياتي الجدير بلقب المؤدّب. كان الرجل بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثر، يقوم اعوجاج أشباه الجمل،

يردّ على السؤال المحرج تلو السؤال الغريب، تلو السؤال السقيم، تلو السؤال السريالي، وغالبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجّع على السؤال، لا يملّ، لا يسخر ولا يزجر أبدا.

يصبح تعلّم الحروف الجديدة معه لعبة ممتعة. يكتشف الطفل أن هذه الرموز منطوقة ومكتوبة تسمح هي الأخرى بتكوين الكلمات وأنه يستطيع حتى تجميعها في جملة تأتيه بابتسامة عريضة وتهنئة وتشجيع.

تأتي مرحلة فكّ الأسرار التي تنطوي عليها أسطر طويلة من حروف تجمعت في كلمات وكلمات تجمعت في جمل وجمل تجمعت في صفحات كتب ملأنة أيضا بالصور الجميلة.

شهرًا بعد شهر، يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزبونه الصغير.

- هذه المرّة، القصة بلا صور، قل لي عندما تكملها، ماذا أحببت فيها؟

- سيدي! سيدي! هناك كلمات كثيرة لم أفهمها وجنتك بقائمتها. سيدي، سيدي، سيدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟

يتنحج الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل:

- لا أعرف يا بني كم في لغتنا من كلمات... لكنك ستتعلم الكثير منها إذ يبدو لي أنك ستكون من فئران المكتبات.

كم كان حدس الرجل صائبًا، اللهم إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدس وتوسم خير، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدها "ما" وهي تروي حلمها عن الملاك لتمرير مشاريعها بالإيحاء بدل الصراخ بالأمر.

**

في ملف محفوظ بعناية داخل الذاكرة يتواصل الهاجس جيلًا بعد جيل وتفاحة تلقي بسؤال بقي معلقًا ثلاثة عقود ينتظر الرد:

- "با"، كم هناك من الكلمات وهل سأتعلمها كلللهلها عندما أكبر؟

يحدق الطفل الذي أصبح أبا في ابنته بدهشة، تدافعت من ذاكرته كل الأسئلة الغريبة التي كان يطرحها على مسيو فيدال.

الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟

- سؤال وجيه، يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عنه. اكتبي كل ما تعرفين من الكلمات وسأكتب كل ما أعرف من كلمات وسنرى من يكون الأول.

تريني تفاحة قائمتها تترصد عبارات الإعجاب والتشجيع: بابا، ماما، لعب، جري، هرولة، كتاب، ضحك، دمية، عصا، رسم، أكل، نوم، خوف، حلوى، شكولاتة، ماء، طفلة، شريرة، أخت، كذابة، قط، حديقة، شجرة.

إذن هذه هي المعالم الكبرى للعالم الذي تتحرك داخله البنت.

تستعجلني تفاحة

- "با" هيا اكتب قائمة كلماتك.

قطعا لن أكتب أي منها وكل ما يتدفق من الوعي واللاوعي كلمات تتبارى بشاعة: خيانة، غدر، بوليس سري، كذب، نفاق، حب، بغض، انتقام، محاكم، محامون، سجن، مرض، قتل، موت، استبداد، ظلم، تعذيب، مخبرات، فساد، حماقة، غياب، هدر، ضياع، سلوى، سراب، وهم، خديعة، عبث، غريزة، وحشية.

إنها المعالم الكبرى للعالم الذي اتحرك داخله هذه الأيام ومزاجي فيها بالغ السوء كأحوال هذا الوطن الذي ابتليت به وهذا الشعب التي أصابني الانتماء إليه بالقرف مني ومنه.

تكشفنا تفيحة منهمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض. تحتج باكية لا تدري إلى من ستتوجه بالتفريع.

- "با"، تفاحة شريرة تأخذ دوما أقلامي الملونة، أنت تحاييها دوما لأنها الأكبر وتلعب معها أكثر مني.

وهذه البنت الكبرى التي لا تحرك ساكنا، هي التي تتهمني دوما بأنني أحابي تفيحة لأنها الأصغر.

- تفيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصا. هيا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسنين كتابة كل الحروف

تصرخ تفاحة:

- لا أريدها أن تقرأ كلماتي، لتقرأ كلماتك أنت فقط.

تتطور الخناقة بين الأختين إلى شدّ الشعر والبكاء الصادق والكاذب. يا إلهي، لم أغفل عن الشقيتين إلا بضع دقائق لتنخين سريع في الحديقة. يجب العودة إلى بدء المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...

تتوجه تفاحة إليّ لأنني الوحيد الذي يليق بمناقشتها.

- "با" أنت لم تكتب قائمتك.

لم يبق عليّ إلا كتابة أقل الكلمات بشاعة، لكن من أين لي وأنا في هذه الحالة النفسية أن أكذب على نفسي وعلى البنيتين.

تصرخ تفاحة وهي تنظر للورقة من فوق كتفي:

- قرأت ما تكتب... كلماتك قبيحة لا أحبها، لنحتفظ فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي.

الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة... فسح التي لا تروقنا؟ إعدامها؟ لعلّ وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة!

بربّك أي كلمات كنت تلغي من القاموس لو قيل لك إن ذلك يعني ألّا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟
اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس بقية الكلمات التي أبلغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية،
قانون طوارئ، فقر، تلوث، زعيم أوحده، مجلس الداخلية العرب، حرب، إمبريالية، عنصرية، عبودية، تعصّب، بورصة،
ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جبن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب.
أليست أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضاً من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل وأنها
تزيد الطين بلة.

تقول ماذا كنّا سنُبقِي من الكلمات لتكون اللبنة الوحيدة لعالمنا؟

القائمة الأولى: طبيعة، جمال، صحة، موسيقى، حبّ، فن، كسل، تعاضد...

تعال اسكن عالماً لا توجد فيه إلا هذه الكلمات وأخواتها اختفت كلّ الكلمات البشعة لغياب كل الذي تسمي.

نعم، لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تنظيفه، هو الذي يشنكي هذه الأيام من كل الأفات التي خلصته منها
بجزة قلم؟ ربّما علمه بتباين الرؤى بين الأدميين وخوفه من أن يقوّضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب
مع كلمات الآخر وأحياناً مع كلماته هو.

ربما أيضاً لأن الكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلاّ
وانهار الصرح بأكمله.

مواصلة اللعبة الممتعة.

- والآن، ماذا نفعل يا بنات بالكلمات التي رصدناها؟

تصرخ تفيحة:

- الكلمات تحبّ أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلم وتلعب وتتخاصم.

حقاً؛ ما ألدّ التفلسف طفلاً! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!

"عندما تعود الكلمات إلى بدايتها (روبرتو جيواروز)

يعود الإنسان إلى أصوله

ويبدأ كل شيء من جديد"

- نعم، الكلمات كائنات أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضاً بمشاكله. تفاحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات
التي تقبل بمجاورة بعضها البعض... كلمة طقس مثلاً؟

- الطقس جميل، الطقس بشع، الطقس بارد، الطقس حارّ، الطقس جافّ... "با"، أنا فهمت؛ الكلمة الثانية تزيد من توضيح
الكلمة الأولى!!

- بالضبط، إنه الوصف...

تتدخل تفيحة لاستعادة المبادرة:

- نعم، تفاحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفتعل تفاحة الترفع عن نقاش حمقاء لا تتجاوز سنتها الخامسة. ثم تنفجر:

- تفيحة ركيكة غبية، شريرة. "با"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

من الأفضل تجاهل الطلب وأنا في نفس الحالة من سوء المزاج وإن خفّفت عني اللعب مع البنّتين الكثير من الكرب.

لتهدئة القطنتين الشرستين لا بدّ من تركيز اهتمامهما على فصل جديد من اللعبة.

- تفاحة، تفيحة، ماذا نفعل بالكلمات وقد قبلت باللعب مع بعضها البعض؟

تصرخ تفيحة: نروي قصة لكن بالكلمات الجميلة فقط.

موافق لكن ماذا ينقصنا لكي نحرك الكلمات فتصبح قصّة؟

تصرخ تفاحة: الأفعال، الأفعال....

ثم تضيف حتى لا تفنك أختها... الكلمة.

- "با" أنا من سأكتب كلاللللل الأفعال.

أترك الطفلة تخربش أفعالها. تصرخ في أن أكتب أفعالي وأن أكفّ عن النقل عنها.

الأفعال!

كم اتيت قل ارتكبت منها ولا خطر ببالي يوماً أن أتساءل عما أفعل وأنا أفعل.

نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟

ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي: جرى، ركض، صارع، ناضل، صرخ، غضب؟
الأفعال؟ لو استطعنا رصدها كلها هي أيضا لكائنات بقية الوصفة التي نضع بها عالمنا... ترى أي فعل-بذرة تفرعت عنه
كل الأفعال؟ هل هو وُلد؟ لكن ماذا فعلت الذات قبل أن تولد؟ ما الذي ستفعله بعد أن تتوقى؟ كم غريب أن تبدأ قائمة الأفعال
بفعل غامض وتنتهي بفعل لا يقل غموضاً! فُكر؟ تكلم؟ أي دليل أن الكائنات الأخرى لا تفكر أو أنها لا تتبادل بينها المعلومات
بغير الكلام؟ مهلاً، فالنص ما زال في بداياته وعليّ أن أوصل الاستكشاف قبل أن أنشره بين المأ وأن أعلن بكل ثقة أن فعل
الأفعال في هذا العالم بما لا يترك مجالاً للشك والجدل هو...

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعالا لا بدّ من فعلها ومن الأحسن الشروع فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجاما
وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفت عن الهرج مع رجل يمّوّه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية
والوقار.

أوف، تخلصت من المصيبتين المتحركتين. هما الآن في عهدة أم أشك كثيرا في إطاعة أوامرهما بالنوم سريعا.
المهمّ استغلال كل هذا الصمت وكل هذا الوقت المتاح قبل النوم لترك الأفكار تنساب في فوضاها المعتادة علّ أفكار جديدة
تباغتني بخصوص الإشكالية المعلقة من زمن مسيو فيدال حول كم في العالم من كلمات وهل سيمكنني التحكم فيه لو استطعت
التحكم فيها.

*

عما نتحدّث؟ ما الكلمات؟

لنقل في مقارنة أولى أنها الاشارات المنطوقة والمكتوبة المتفق عليها بين البشر الذين يتقاسمون نفس اللغة للتعرف والتعريف
بما يحتويه العالم من أشياء وكائنات وأحداث وحالات.
المسألة الأولى ما علاقة هذه الإشارات بما تشير اليه؟
ثمة موقف من يمكن تسميتهم بالماديين - الموضوعيين - العلميين.

هم مؤمنون بأن العالم -موجود بصفة مستقلة عن الحواس الخمس وعن اللغة والدليل على ذلك أنه موجود للبكم والصمّ ناهيك
عن كونه موجود قبل ظهور الأدميين المتكلمين كل اللغات وهو طبعا لن يفرض بانقراضهم.
هم على قناعة أن الكلمات مثل أوراق النقد أي مجردّ علامات رمزية اتفقتنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخّر
الذهب الذي يغطي قيمتها والراقد في كهوف البنوك المركزية.

ألا يعني هذا أن هناك عالم مبهم غامض مستقل عن ذاتنا، وجدت الحواس الخمس واللغة أم لم توجد.
ما لا ينتبهون له أن هذا المبهم الغامض (الذي يسمونه الكون، الطبيعة، الواقع، المادة) كلمة من كلمات اللغة وأنهم لا يعرفونه
إلا بمزيد من الكلمات. ها هم يدورون في حلقة مفرغة وعوا أولم يعوا بأننا حبيس ولغتنا مثل نحن حبيسو اجسادنا.
هذا ما يقوي من موقف من يسمون بالمثاليين والذين يعتبرون العين لا تسمي إلا ما ترى ولا ترى إلا ما تسمي... أي أن وجود
الشيء بالنسبة لنا مرتبط بتسميته وإلا فهو والعدم سيان.
انتبهت للفكرة البديهية والعميقة أكثر من اسطورة مؤسسة. هكذا لم يخلق "يافيه" العالم إلا عندما سمى وكذلك فعل "رع" قبله
بقرون.

تطرح هذه الطريقة في تصور علاقة الكلمات بالعالم جملة من الإشكاليات الثانوية لكنها بالغة الأهمية.
ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا على
حالة يتيمة: الجليد. يضحك مرافقي ابن هذه الفيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والتلج. أعابته
بدوري: يوم تزور صحاريّ الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف
التي لم تراها.

تصوّر لو كانت أمامك قائمة فيها كلالللكلمات التي كان الطفل يحلم بامتلاكها. ألن يكون بين يديك وصفة العالم ومما هو
مصنوع في أدق التفاصيل. ألن تعطيك القائمة أولى الأدوات لفهم هذا العالم أي للسيطرة على هذا العالم.
المشكلة أن مثل هذه العملية مستحيلة بحكم طول القائمة وخاصة نتيجة تضخمها المتزايد سرعة في هذا العصر مما يجعل
للحاق بها أمرا مستحيلا. محكوم عليك إذن أن تقنع من البحر بقطرة ومن الغابة بغصن وأن يقبل بأن نصيبك من العالم نصيبك
من الكلمات.

كما ثمة قصر نظر عند بعض الأدميين يستوجب نظارات السطور ثمة منهم من يعبر العالم بقصر نظر لغوي.
أي نظارات لتندارك إعاقة بمثل هذه الخطورة غير مزيد من الكلمات، لكن هل ثمة أخطر من السراب الذي تصنعه الكلمات؟

تتعلق المسألة الثانية بطبيعة العالم الذي تبلوره هذه الكلمات أيا كان نصيبنا منها.

شبكية العين نحن نصير نفس الشمس، لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة الشكل برامة بالنور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان السماء نهارا وتختفي منها ليلا.

لكننا نرى عبر "شبكية" اللغة أشياء جدّ متباينة.

كانت شمس آدمي اسمه "أخاتون" إله يُتوجه له بالعبادة ونفس الشمس اليوم جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطيئة الانفجار بالنسبة إلى آدمي آخر اسمه "اينشتاين".

بهاذين المثاليين نرى أن الذهن ليست مرآة تنعكس عليه بفضل الحواس الخمس بعض خصائص مبهم أصلي يتجلى بألف صفة وصفة مختلفة في أذهان الكائنات الحية الأخرى.

أو قل -إذا حافظنا على الصورة -أنه مرآة نشطة لا تتوقف عن معالجة الصور التي تنعكس عليها أساسا بإضفاء المعنى وتحميلها وظيفة ما وهذه وظيفة اللغة.

تحت قدمي وسط غابة استوائية مترامية الأطراف بحيرة جبلية أعبث برميها بحصاة حتى أرى تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا.

بالنسبة لي هذه البحيرة الجبلية الجميلة ليست إلا...بحيرة جبلية جميلة ككل البحيرات الجبلية التي تأملتها في كثير من أماكن الفضاء الحسيّ. أما رجل "المايا" كان يرى في هذا المكان باب "الشيبالا" أو العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة.

من هذا العلوّ كان أجداده لا يرمون صفحة الماء بالحجارة كما أتلهى ولكن بالأطفال والعداري قربانا للآلهة.

هو كان يرى العالم، أو على وجه التحديد يفهمه ويفسره في أهم علاقاته معه بغير الطريقة التي أتفاعل فيها معه لأن شبكته من الكلمات التي تسمّي وتصف وتقيّم الأشياء غير التي أمك.

هنا يجب التركيز على أهم خصائص اللغة أي قدرتها على صنع صور لا علاقة لها مطلقا بما ينعكس على مرآيا الحواس من معطيات وكأنها تخلق معطياتها الخاصة تضيفها إلى ما ترصد أو تتلقى من المحيط.

ألا تضيف هذه اللغة للكائنات الحسية التي ترصدها بالاسم كائنات غير حسية مثل الكرامة والعدالة والتقدم والمدينة الفاضلة والنسبية العامة والماضي والحاضر والمستقبل والزمان والخلود وكلها غير موجودة في المطلق أو في تجربة الحيوان والشجر؟

الخلاصة أن اللغة مثل شبكة الصياد، لكنها شبكة تعيد تشكيل السمكة التي علقت في حبالها... بل وتخلق أيضا الأسماك التي تصطاد.

شبكية الكلمات هذه التي سنتبين في ذهن الأفراد والجماعات تمرّ اللغة من الرصد والخلق إلى البحث عن الوظيفة والمعنى.

هكذا يمرّ الذهن من الصور التي تصنعها الحواس الخمس إلى التصورات التي تصنعها الحاسة السادسة.

التصورات؟

هي طريقة فهمنا للصور التي نقلتها لنا الحواس الخمس عن كل شيء أو كل كائن نتعامل معه.

هي جملة من الأفكار تبلورها الكلمات المكتوبة والمنطوقة بخصوص كل المواضيع والاشكاليات التي نعيشها.

هي تنظيم معين لمعلوماتنا عنه نستقي أغلبها إما من تجربتنا المباشرة أو من الثقافة أي من نسيج الكلمات التي نتحرك داخلها.

هي منطلق الأفكار النظرية أحيانا البالغة التجريد في محاولة فهم واستعمال هذا الذي نتعامل معه بكل ما لدينا من أدوات التواصل مع العالم.

هي نسيج مؤقت لأفكار تبلورها الكلمات المكتوبة والمنطوقة، فالله والزمان والموت والأخرة والعفاريات والعدالة والقانون والتقدم والحضارة، لبنات فكرية لها نفس الأهمية في تشكيل العالم ما للبنات الحسية مثل الطرق والعمارات والجسور.

ألا نعبّر هذا العالم تحت تهديد الحرّ والقرّ والجوع وشتى أنواع السلاح، لكن أيضا تحت تهديد كلمات الكفر والخيانة والعمالة والردة والتطرف والإرهاب.

الفرق الأساسي بينها وبين الصور كما ترسمها حاسة البصر أن الصور للشمس ثابتة لا تتغير من جيل لجيل ومن ثقافة لثقافة ومن شخص لشخص بينما تتغير التصورات طول الوقت.

مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم أي داخل تصوراتهم، لكنت تسمع -خاصة ليلا-حفيف أجنحة الجنّ والعفاريات وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بالقرايين والصلوات، ولا أتحدّث عن العبيثة... واليوم أنت لا تسمع إلا طنين البعوض ولا يقلقك إلا ما يتسبب فيه من ازعاج ولسع.

ألا نعبّر هذا العالم تحت تهديد الحرّ والقرّ والجوع وشتى أنواع السلاح، لكن أيضا تحت تهديد كلمات الكفر والخيانة والعمالة والردة والتطرف والإرهاب؟

هذه التصورات هي ما نكره تغييره حيث ثمة ضرورة قاهرة لنصدّق تصوراتنا كما نصدّق الصور التي تنطبع على شبكية العين، وإلا استحال القرار أو تغير طول الوقت بصفة تزيد من أخطار الطريق. مجمل القول: التصورات هي ما نعتقد وكيف نقيّم في لحظة من تاريخنا ما نرى، ما نشعر به وما نعيش من أحداث. توقف عند اهم استنتاج لهذا...التصور. كل ما نعرف عن العالم تصوّرنا للعالم. أما العالم في المطلق والذي لا يعرفه إلا إله خلقه أو علماء سيفكون أسرارهِ يوماً فهو... مجرد تصور آخر للعالم. مواصلة تفكيك المفهوم واثراء التصور.

**

الفضاء الذي لبناته الحروف والكلمات والأفكار

لاستكشاف الفضاء الذي تخلقه وتتعهده اللغة ثمة طبعاً القراءة.

المشكلة الأولى أن كل كتاب نفتحه بمثابة مفتاح نعمله في باب، يفتح لنا فضاءً مغلقاً بسبعة أبواب وكل باب نفتحه بنص جديد يفتح فضاءً بسبعين بابٍ. مفارقة القراءة إذن أنها تزيدنا جهلاً بالعالم كلما زادتنا علماً، أنها تعمق وعينا بجهلنا فيأتينا يوماً الإحباط والهلع. لذلك يفضل البعض النصوص المغلقة التي يصفونها بالمقدسة لأنها تحميهم من الدوار. المشكلة الأخرى أن القراءة تراكم داخل الذاكرة كما هائلاً من المعطيات عن العالم الذي ترصده الصور وتصنعه التصورات. لكن لا مجال مهما طال العمر لاستنفاد الفضاء الذي تخلقه اللغة وهو مثل الفضاء الذي تخلقه الحواس بالغ الثراء والتعقيد ومتواصل التغيير.

لا يبقى لتخطي الصعوبة إلا اللجوء إلى بعض حيل الخيال.

تأتي ليلاً فكرةً لقصة ما قبل نوم البننتين لم تخطر على بال قصاص.

أليس الأدمي مصنوعاً من الكلمات والأفكار مثلما هو مصنوع من الدم واللحم؟

أتوجه لتفاحة تفرك عينيها ولتفيحه تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة والساحر.

- أنا الذي سأقود القصة. جاءت الساحر الخبيث فكرةً مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهر في وجهها كلمة نار.

تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه الساحر الخبيث: مطر، مطر!

- أشهر الساحر كلمة مقص.

- لنهرب جميعاً، نركب كلمة زورق.

تصرخ تفيحة: فتأخذنا كلمة نهر.

تأتي الأوامر من المطبخ بوقف الضجيج. لا أحد يحملها على محمل الجد. لا حتى صاحبيتها. تصرخ البنتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصاً يفتعل العراك وعراكاً يقلد الرقص. تحتل لهجة أوامر نافذة الصبر فأصبح البننتين بالحذر. تفتعلان الطاعة والصرخ المتزايد عصبيةً من وراء الباب يقترّب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوشةً وقرصاً وتجادبا بالأيدي.

أغمض العينين أغفو وأستيقظ على صراخ البننتين والزورق السحري ينساب على نهر الذاكرة يأخذني إلى فضاء جبّالته نصوص، غاباته نصوص، أنهاره نصوص، مستنقعاته نصوص، وجلّ مادة ما يقوله الأدميون عن الأدميين ومادا يفعلون في هذا العالم ومادا يفعلون به.

يتساعد التنفس البطيء من البننتين. أغوص في الأريكة واضعاً رجليّ على فراش البننتين، مستمعاً بتنفّسهما ورافعاً عن ذهني كل القيود، فأهم الأفكار لا تأتي إلا ماشياً أو على تخوم النوم واليقظة.

أخيراً المكتبة العظمى التي حلمت يوماً أن اقضي فيها ما يكفي من الوقت لاستكشاف أروع وأهم محتوياتها. أليس هذا

"المكان" الذي تتجمع فيه كل تصورات الأدميين لذواتهم، للعالم وللعلاقة التي تربطهم به.

للاستعمال أيضاً صورة السوق علماً وأنتك قلماً تعثر فيها خلافاً لسوق الفضاء الحسي على باعة لطاف. جلهم عصبيون متوترون يصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحليل على المستهلكين المساكين بل ويصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك والثبور.

لم أعد أبه لصراخهم منذ زمن طويل أشيح البصر عن اجتهادات تقادمت صلاحيتها منذ قرون تسمم الفكر كما تفعل الخضر الفاسدة عندما تصيب الجسم بالإسهال والحمى. كم تراكم على العصور من الفاسد والقيح والمضّر منها.

ثمة ولحسن الحظ منتوجات الحدس الصائب والرؤية الثاقبة هي التي سأعرف منها بكل امتنان ما سأحتاج يوم تتقدم أشغال بناء بيت الروح الذي اسميه الرؤيا.

المهم أنك تجد "هنا" كل أشكال الحروف التي اخترعها الأدميون لكتابة المنطوق و"هنا" كل الكلمات التي بنوا بها هذا "الفضاء" الذي يشكل الجزء اللامحسوس من عالمهم.

"هنا" الأسئلة التي انطلقت منها عمليات بناء تصوراتهم. من نحن؟ ما البشر؟ هل هم حيوانات أفرزتها قوة عمياء اسمها "الطبيعة"؟ أم كانتات نورانية خلقها إله لم تخلقه قصصهم؟ هل رمت بهم الصدفة العمياء في مجاهل هذا العالم؟ هل هم تائهون في محيط اسمه "الكون" ينتظرون بعثة إنقاذ لم تسمع بغرقهم ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأوا إليها؟ هل هم مستكشفون بعثتهم العتمة في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقدم في ربوعه ونحن كمن يمشي في نفق مظلم بيده شمعة، نوسّع دائرة النور

ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور؟ ولماذا نصرّ نحن على أن ننتقه ولا نظفر منه إلا بصدى صوتنا؟

هذا الفضاء هو الآخر ساحة معركة كالتى توجد في البعد الحسيّ لعالم لا يتخيّله خيال خالي من الصراع.

“هنا” يتناطح “صحيح البخاري” مع “الإعلان الشيوعي” وكأنهما ديكان غيوران على حريم من الدجاج. ما إن تكتشف كتب الفلسفة المثالية بداية تحرّك كتب الفلسفة المادية، حتى تقرّر الدفاع عن مواقعها ووقف زحف العدو ثم الالتفاف حول جناحه الأيمن والإجهاز عليه قبل التفرّغ لتصفية الجيوب الباقية. تأخذ كتب المادية بخناق كتب المثالية وترتمي كتب المثالية على كتب الجدلية وتنشيب كتب الجدلية صفحاتها المدرّعة بكتب الأساطير التي تبعث بجملها المسمومة في كل اتجاه، تقصد بالأساس مقولات الداروينية البيولوجية والداروينية الاجتماعية والداروينية الميتافيزيقية، فنصيب خطأ الهيكلية الأدبية، والحال أنه لا ذنب للهيكلية الأدبية في صراع العقائد حيث هي جنس مسالم من النقد الأدبي. تفتعل كتب الميكانيكية النيوتونية الحوار الهادئ البناء مع كتب الميكانيكية النسبية، ثم تفقد أعصابها أمام صلف العدو ووقاحتها لترطم الصفحات بالصفحات. تصرخ الكتب الصغيرة وهي تترنح تحت لجمات المجلدات. تهبّ إلى نجدتها المجلدات التي هي على نفس الموقف... إلى ما لا نهاية، ولا رأي يبرز إلا ووجد من يخالفه ويسفّهه ويهاجمه.

كأنني أسمع الصراخ المتصاعد من الوقار المتكفّف: يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو النقّم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلف، يا ملحد، يا عدوّ الله... الله من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله! ... أو من بما هو أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا تؤمن به... دياناتكم شهوات ومخاوف أطفال غلّفها بدائون بأساطير ساذجة واستحوذ عليها كهنة خبثاء وملوك فُساء لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يسلم إلا إذا أريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... من الغبي الذي قال اعرف نفسك؟ يا للهول لو عرفنا حقيقتنا، أيّ جحيم كنا نجرّب لو عرفنا ما يوجد حقا في أعماق النوات الأخرى؟ ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُول... أعيدوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيّدا وفهمنا كيف نُحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... أه يا أوباش، حقا لا نبيّ في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن - خلافا للأغرب- نَعلم عنك كل شيء.

في هذا “الفضاء” صحّياتُ الأهم نثرا وشعرا من قسوة العالم عليهم ومن قسوتهم على العالم.

“هنا” زبدة علومهم الصحيحة والمغلوبة سحرا وتنجيما وشعوذة... معادلات نيوتن وماكسوال وديراك وبوهر وأنشتاين وهيجز وهوكنز، لا تدري هل هي فعلا ملفات الله المسروقة أم قَمّة الإبداع الفني عند البشر.

“هنا” مخططاتهم للسيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.

“هنا” قوانينهم التي تعكس لهم صورة محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين مرتشين.

“هنا” تواريخهم، قُل أساطيرهم التي يمّوهون بها على أنفسهم وعلى الآخرين.

“هنا” تواريخهم، أي رواية المنتصرين لصراعاتهم بالكذب المفضوح والتضخيم والتقزيم والإسقاط والتّمويه، ناهيك عن الدسّ بأثياف لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفبركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمةً بها أو خدمة لمصالح ممّولّهم، وآخرون يفكّون بزكاء هذه الأساطير شماتة في زملانهم أو خدمة لمصالح ممّولين آخرين.

“هنا” رواق صور عظمائهم التي صقلتها دعاية محمومة متواصلة عبر العصور سهّرت على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعّشون من صيتهم.

“هنا” ما يسمونه مزبلة التاريخ حيث يتكسد كل الأدميين المكروهين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقترفوها في حق بني جلدتهم. كن على أتم الثقة أن أغلب المرميين فيها ضحايا صور نمطية معاكسةٍ روّجها الأعداء ومن يتمعشون من تواصل العداء.

ماذا عن طبيعة المعنيين بالأمر وراء ما ألبسوا من أقنعة الجمال والقبّح؟ إنه الغموض التام وقد ضاعت حقيقتهم من فرط المبالغة في التقديس أو في التدنيس. وحيث أنه لا يوجد آدمي يَحْتزن الخير المطلق وآخر يَحْتزن الشر المطلق، وأن كل آدمي مزيجٌ دائم ومتحرك من الخير والشرّ، فإن بؤسك أن تُراهن على أننا لو عرفنا القصة الحقيقية للتديسات لقلّ إعجابنا بهنّ ولو عرفنا القصة الحقيقية للمومسات لما كان حُكمننا عليهن بالصرامة المضمّنة في الكلمة الإهانة.

وهذا أيضا فضاء ليس فيه فقط مستنقعات ومزابل وإنما أيضا جبال شاهقة لا يقدر على تسلقها إلا كبار رواد القيم والمعاني.

عن آدمي اسمه غاندي قوله: “الله بمثابة قَمّة جبل وكل الأديان هي الطُرق التي تودّي إليه سواء من هذه الجهة أو من تلك.” هكذا يقدر ما ينمي ويلتزم بطهارة المشاعر ورفي الأفكار، بقدر ما يقترب من القمّة وأيضا من الأدميين الذين تسلقوا الجبل من جهاته الأخرى، ويقدر ما يبتعد عن الذين بقوا عند السفح سواء كانوا من ملته أو من الملل الأخرى يوحدهم جمود الفكر وغلظة القلب.

"هنا" أيضا المستودع الذي تتراكم فيه وتُحزَن وتُعالج وتُنقل الأفكار والقيم والتقنيات من جيل إلى جيل، الشيء الذي يمكن الأدمية من رفع طاقة التأقلم السريع في مواجهة عالم لا يثبت لا مزاجه ولا مناخه على حال.

"هنا" البيت الذي تسكنه عقولهم وأرواحهم، بكل آليات ومواد البناء، بكل ما بداخله من عفش متفاوت القيمة، بكل طبائع سكانه وعاداتهم السيئة

فجأة يتعالى الصراخ من كل حذب وصوب. إنه صراخ باعة المنتج الجديد الذي لا يكف عن التدقق والكُل يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: من هنا الصورة الصحيحة للعالم... تخفيض هام لدين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصافية غير المغشوشة... طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوه من الفرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من لا يشتري بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجدية على الأسئلة اللعينة... لا غش عندنا في الأمر مثلما يفعل الآخرون!

يقترِب أحد الباعة هامسا في أذني: لا تتردد، عندنا برنامج للرحلة وكيف تؤديها على أحسن وجه وبأرخص الأثمان. تعال، من هنا الصراط المستقيم. لم لا أتبعه؟ قد أعثر أخيرا على ما بحثت عنه منذ إفاقتي.

إنه الركن من "السوق" المخصّص لبيع رواياتهم المتناقضة المتناحرة لما يجب أن نفعل لكي نجعل من الأدمي إنسانا.

"هنا" سراقق الآلهة المتجهمّة وكهننتها الذين يعاملوننا كالأطفال، يصرخون فينا نوما: افعّلوا الخير وستكافؤون بكثير من الشوكولاتة، وإن عصيتونا سلخنا جلودكم دُنيا وأخرة. لا، شكرا لستُ معنيا بمثل هذه السلعة.

"هنا" سراقق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوه من ظهر الثور ليسلمنا أثنى الكنوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشورة عن أنيابها أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم.

"هنا" سراقق ديمقريط وبروتاغوراس وإبيقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا يحبون ولا يجبهم أفلاطون. هم أيضا يريدونني خيرا وحكيما ومعتدلا وعاقلا وصبورا ونافعلا! لماذا يصرون كلهم على أن أضيع وقتا ثمينا في مهمة بعثية استئصال جزء من ذاتي ولو كان حقا الأظلم؟ هل جننت لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي، وكأن الصراع مع الذات الأخرى لا يكفي؟

"هنا" الواجعة للمقاولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور ونجحوا في فرض بضاعتهم. أجيل البصر أقرأ لافتاتهم الضخمة: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكي للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيتاقرورون لعلوم الكهانة والحساب، هومير للأساطير.

هل سيجد الحالم ضالته في الأزقة الخلفية؟ مؤكّد أنها تعجّ بمزوري النصوص وبمهرّبيها، أنني سأجد فيها أشدّ من تتشوّق لهم نفسي. قد أسقط بالصدفة على طورانطيوس ولوحاته التي دمّرت أيادٍ مجهولة جُها لأَنَّ الرجل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان بهُدَى وتوفيقٍ من الشيطان.

آه لو أمكنني ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم -ذلك الذي كتب الرسالة الجامعة- أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسببه وأخبره أنني سأختم به نصّي أذن أو لم يأذن.

هل سيسعفني الحظّ بالارتطام بمؤلف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل -اللهم إلا إذا كان امرأة-تدبّر(ت) أمره(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إمطة اللثام عن هويته(ها).

كُتاب يركضون طيلة حياتهم النعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجذام.

قد ألقى صاحب مخطوطة "فوينيتش". كم من ليالي لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كل الذين سيستمتتون ستة قرون لفك رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر.

آه هذا أنت! آي وقاحة هذه؟ كل الذين يكتبون يفعلون ذلك لثُخّد أسماؤهم وليتناقل الناس كلامهم ويعلموا به وأنت! لا، لن أزيل القناع عن وجهك ولن أطلب منك ترجمة. هكذا يكون الكاتب وهكذا يكون أحسن ما يفعل.

ربما أكبر مقال في السوق -بساحاتها الكبرى وأزقتها الملتوية- ذلك الذي كتب أعظم نص، ولما أعاد قراءته ضحك ثم بكى ثم مرّق الورق ورمى بالقلم بعيدا عنه وتوقف عن التنفس إلى أن جاء الموت. نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية! هل من الممكن أن كل هذا الفضاء الفاض بكل هذه الثثرة مجرد قمة جبل الجليد، أما المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الأدميون الإفصاح عنها ويمنعونها من التبليور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور؟ أم لرعبهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟

كم صدق الحكيم:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال (فخر الدين الرازي)

وأرواحنا في وحشة من جسمنا وحاصل دنينا أذى ووبال

ولم نستقد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

نعم " هنا " كل ما قيل وقالوا بخصوص الأسئلة الثلاث التي تتحدى الذهن البشري منذ انطلاق الرحلة: ما هذا العالم، ماذا نفعل فيه وماذا نفعل به؟

تصرخ البنتان بالاحتجاج:

- "با"، لا تتلكأ، لنزاحم. يجب أن نبيع نحن أيضا بضاعتنا.

ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه! إنها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحملة ببضائعك التي لم يسمع بها شارٍ أو سمسارٌ، يحدوك -مع هذا- أمل كل المبتدئين أن تتحسن الأحوال يوما فتفتح لك دكانا صغيرا ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقاولي الفضاء.

نعم، لنزاحم أنا أيضا لعرض أحسححسن الأجوية عن أسئلة لا يهم أن تكون فاسدة الصياغة أصلا. ها أنا أدفع عربي الصغيرة، أصيح مغنّيا أو أغنّي صائحا: "الرحلة"، "الرحلة"، كل من يشتري نسخة نعطيهِ مجّانا "المدخل إلى الطبّ" شرط ألا يستعمله للفت السمك.

تنخرط البنتان بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: من لم يقرأ رحلة "با" مات غيبا، ها هي تفاحة تغنّي: تعالوا، اسمعوا قصة بينوكيو ترويهما لكم أحسن راوية، وأختها تصرخ بصوت أعلى: بل تعالوا لسماع " قصة سنديلا والأمير الجميل ترويهما لكم تفيحه المشهورة.

طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الأدميين الملاعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. أما ما يدّعون من أثره وعمل لوجه "با" أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايسة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطّ المكاسب ثمّن تحريك العضلة أنفة الذكر.

كل هذا الضجيج ولا مشترٍ أغشّه. إن بارت البضاعة فما عليّ إلا تركها للفنران.

فجأة أشعر بتفاحة تهزني من كتفيّ.

- "با" ارتفع شخيرك. نمت ولم تسمع قصتي. لن أروي لك ولهذه الغيبة نهايتها.

**

الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات

يلوذ الطفل أخيرا بفراشه متنفسا الصعداء. هو الآن مختلي بأهم ما يملك.

يرتفع صوت "ما"، وفيه الآن بعض نفاذاً للصير:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوة. إلى النوم. حالا.

عبثاً، لن تمنعه حتى "ما" من المواصلة.

القصة التي تشغل كل وعي الطفل هذه الليلة عن أمير اسمه "راما" رحل مع زوجته "سيتا" وأخيه "لاشكنا" إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجها على نفي ربيبها هذا ليخلو العرش لابنها هي. وفي "لانكا" تبكي "سيتا" قومها ووطنها، لا تخفي رعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

"سيتا"! "سيتا"! "خطفوا" "سيتا"، خطفها "رافانا" اللعين!

إنه أول امتحان للطفل وقد تقمص الدور، أو قُل تقمصه الدور. نعم، هو الذي سيحرر الفضيلة ويعيد المُلْك إلى صاحبه والأمرَ إلى نصابها والعالم إلى توازنه المفقود.

- "ما"، أرجوك. لا بد أن أنهي الفصل الأول على الأقل، أرجوك.

- طيب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تقبل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأمه أنه واثق أن قبلاته عبرت حاجز الورق وتسللت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد.

أه يا سيتا، يا "جاناكي"، يا ضفائر سودا على الظهر تدلت، يا عيون المها، يا بسملة الحياء والخجل، يا رقة الفجر، يا وداعة، يا طهرا، يا ملاكا على الأرض مشى. يا أول حب.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.

أنام وأترك سيتا في أسرها! إن "ما" لا تعي ما تقول. ألا تعلم أن الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسيتا ملقاة على خشبها مكممة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقهه وتوهم ما شئت. سأتيك بالخبر اليقين.

- يا بني، الكتاب لن يهرب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسيتا في خطر الموت، ربما تتهددها أشياء أخرى أفضح بكثير؟ لا تقدر "ما" كم هي حرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيداً، والقراءة بالليل تتعب عينيك، ولا بد لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزاً عليك فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟

- لا تكن سليلت اللسان حتى مع أمك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجأك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن "ما" تفهم أحسن منه. هل كانت لتقبل برأي حكيم يسر في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدريجي من "واقعتها": لا تقلمي، هو لا يعب، لا يضرب وقتاً، لا يبهك عقله، إنما يتمرّن ويتعلم أهم ما يجب تعلمه. اتركه، على كل حال هو لن يستمع لكلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماكرا ككل "الأبرياء"، وهم من نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث.

كانت تظنه نائماً وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبئه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة في فضاء داخل ذهنه والطفل المخرج والمنتج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه. ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماءً يطفئ كل لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولاً إرهابي، أصرخ فيه فتصطك فرائصه. ينطلق هاربان نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيق عليه الخناق في كل مجرة. تكثر السماء عن أنيابها وقد توسطتها شمس بلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفافيش بحجم الفيلة تهجم البطل من الخلف، فيصوب نحوها السهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرن في الفضاء البعيد صدى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قل نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم. أن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملف، فليس هناك رافانا واحد أظهر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقة وقوة لا تتركان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللعين: آه يا راما، قتلنتي لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرجاً بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره مبتسماً مديراً رأسي يمينا وشمالاً أبحث عن المصورين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص أخرى لمسيو فيدال. أووووووه،،، أنا راما. أنا سيّد الأسياد!!!

بالمناسبة، ماذا يفعل الكبار بعد إطلاق سراح الحبيبة؟

يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنه لم يقرأ إلا الجزء الجميل من الملحمة، وأنهم أخفوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الأدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع أنفك فيها وإلا صدمتك رائحتها النتنة.

لم يكن الطفل واعياً تلك الليلة المشهودة أنه دخل لأول مرة فضاء خيال أمة بأكملها وُلد هو نفسه من فضاء خيال شاعر عبقري اسمه فالميكي، أنه سيقضي جلّ رحلته يتجول في فضاءات خيال كم من شعوب وكم من أفراد فهموا أن هذا عالم واقعه خيال وخياله واقع.

في ملفّ آخر يصرخ "با": "ولذلك هذا سيذهب بعقلي، يا امرأة، أهكذا تربيين أطفالي؟!"

متوجّها إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلتُ لك: اخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكدّس "ما" في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكدّس "با" ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطعم للفأر.

كانت أولى محطات الإقلاع التي وجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سحري أصبح له الملجأ والملاذ.

يصرخ الأخ الصغير في أمه: "ما"، إنه يقرأ في المرحاض وأنا سأتبوّل في سروالي. قولي له أن يخرج حالاً.

تدقّ "ما" الباب بإصرار، فيخرج الطفل مُكرّها من مكان كان يظنه أماناً بعد طرده من "الوكر".

حتى أعصاب "ما" قادرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عُهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلم، قل له: سيدي، أطعه... إلخ.

يستثيب المعلم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مُصادر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مُكرّها، يواصل ووجهه إلى الحائط تخيل أحداث القصة التي كان منغمسا فيها.

تندافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها "الهند" لا يعرف عنها شيئا. ولأنه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدّث عنها القصة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعاً تصل إلى السحاب ومآذنها الشمس والقمر، تغلق ليلاً أبوابها في وجه جحافل الجنّ والعفاريت، لا يفتحها إلا طفل يعرف كلمة السرّ.

يكتشف الطفل يوماً بوابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري.

يتوجّه المعلم إلى أطفال الفصل وكلهم ذكور في العاشرة من العمر:

- يوم الأحد المقبل سنذهب جميعاً لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة سينما اسمها "الشرقية".

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عما يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما

سيخرج ذلك اليوم من قبعة مهرج ضخم اسمه "العالم" لا ينفكّ يُظهر عضلاته ليزداد به الأدمي تعلقاً وإعجاباً؟!

يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطا شاهقا تتجّه إليه الأنظار توجّه المصلّين للمحراب.

يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجياً وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبية، لا ينفع فيه صراخ المعلمين طلباً بالهدوء والصمت.

يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحركه، يواجه الطفل المشدود بحائط شاهق مُغطّي من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض.

تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصة كالتّي يقرأ في الكتب.

يا لدهشته وهو يرى فجأة مناظر لحقول وجبال تخرج من اللاشيء ثم لأدميين يثبون هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه

العفاريت، وهل للخيل أيضا أشباحها؟ يتعالى صياح التعجّب. هل ثمة ألد من الصباح جماعة؟

يتّضح لي اليوم، وأنا جالس وحدي أمام صندوق سحري حقّق الأدميون عبره حلما سخيفا بأن يكون لكلّ واحد قاعته المظلمة الخاصة، أنّ جمهور طفولتي ومراهقتي كان جزءاً من العرض بل أهمّ ما فيه. صحيح أنني لم أعد أتكلّف جهد الصراع مع

طابور طويل لا أدفع أحدا ولا يمشي على قدمي آمنيّ معتذرا أو غير مبال، ناهيك عن كوني لا أخرج من جيبتي مليما واحدا. لكن أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعة السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت في مثل هذه القاعات، هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصباح ملء حناجرهم في أماكن عرض أخرى. تأتيني أحيانا فكرة الوقوف بباب داري لدعوة المازة لدخول الصالون ومشاهدة آخر القصص معي، شريطة افتعال معركة حول احترام منع التدخين والالتزام بالصمت وعدم التعليق السمج على القبلية المطوّلة بين البطلين، وتبادل الآراء بصوت عالٍ حول هويّة القاتل قبل أن يكشف عنه مفتش لا تنطلي عليه حيل مجرم.

يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنّه لا يفوّت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأنّها العدوى.

تتوقّف الصرخة وقد فاجأه قلبيّ مبهّم، هل سيثب الفرسان من الحائط على القاعة؟ هل سيجد نفسه تحت سنابك الخيل؟ ترفع الفكرة ذراعها أليا يحمي بها رأسه من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمزّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا ينثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشائعات بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونهم من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم ينهبون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رماحا وسواطير. ينطلق من فوهة المسدّس ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. يكاد الطفل يشعر بألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أيّ أهمية للألم بالوكالة؟ هو مشغوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيل الصيد والصيد لحيل الطريدة. كأنّ غرائز قديمة قدم العالم تحركت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كأنّ رائحة دم آتية من أعماق كلّ ذات عبقت في القاعة تنكّر الأدميين بحلاوة القتل. ما هم يقتلون مع القتلة ويؤدون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهذّبين بالقتل.

لا شك أنّ "ما" لاحظت ذلك اليوم غرابة جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشيّة جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كان أول غنيمته له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض و هلع يفرّون من كرتّ طفل مغوار يستخدم في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهذّب؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومَن حوله: أين البشر والخيل الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغبي، هو أم هذا الذي يقول إنّ الكائنات التي رآها بأب عينيه مجرد صور محبوسة في علبه؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبه وأن تبرّز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بدّ من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إنه إدمان جديد يضاف لإدمان الكتب.

أيّ طريقة لإرضائه غير التكنّم والخداع، ف "ما" مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض - على ما كانت تسمع- قصص نساء سافرات متبرّجات و عنف و قتل. كل ما تكره، كل ما يحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من الباب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسيّ، كفضاء الأفكار، زاخر بما لا يتصوّره عقله، والأدمية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه أحلامها وكوابيسها.

يتهاشم الأطفال بأنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفرية اسمه "دراكولا" يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفقد من لهم أعناق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيذ يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على التي لا تكذب بخصوص المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإدمان على الأفلام والكتب والكذب على "ما".

يحتمل مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أجبر يزفر من الغيظ على الانسحاب. أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريات التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكولا هذا هو "العبيثة" التي ما زالت الجدة تهذّه بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بدّ من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار تريد الشيء ونقيضه، تجري وراء ما تقتل الهروب منه، والحدود بين ما تحبّ وتكره متحركة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض ويخرج مع أخيه من القاعة يفتعل اللامبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال.

المشكلة الآن هي ماذا سيقول لـ"ما" بخصوص أين كنان، وسبب ارتعاش الصغير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فكّ كائن لا يراه إلا هما. يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش "ما". هل يعقل أن يلتجئ نائب رئيس العائلة إلى ذراعي الأم كما يفعل الصغار؟ يجب، انصياعاً للأمر الأبوي الصارم التحلي بالشجاعة، أو على الأقلّ افتعالها.

لا منتص من الذهاب إلى الفراش وتنظيم وسائل الدفاع المتاحة. ثمة قراءة بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "ما" ولا يفهم لغتها، لذلك لا يمكن أن تتشكّل الفاتحة رادعا له.

هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. خيانة إله الأباء والأجداد مستنجداً بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "ما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفة طفلها وأنه أصبح نصرانياً؟ لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "ما" ثومها المنقذ؟ ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ بماذا سيرد طفلها وهي تضبطه حافيا في الظلام ويذاه منغلقتان بقوة على كم فصّ من الثوم؟

يغمض الإرهاق جفنين أضناهما أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطى في تابوته المبطن بالدمقس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيذ القمر بالله، ترتجف الأشجار فرقا وتبترأ البوم من التمرد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للأدمي.

ينطلق الكائن من قبره باحثاً عن عنق أملس تفتح فيه أنيابه شلّالا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفريت.

ما تفصح عنه الذات في خلقها لهذه الخرافات رعبها من الأموات الذين يطرقون الباب بقوة إما محملين بخصائص ستزيد من سرهم أو بالأخبار السيئة عما ينتظرنا جميعاً على الضفة الأخرى. وأيضاً أنّ العالم، كما عزّاه الشريط، مغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض، ولا نتحدث عن دم بقية الكائنات.

هل من الممكن أن يترك دراكولا أطفال قارته، وكلهم تحت ذمّته، ليقصد طفلاً من قارة أخرى لم يمسه بسوء وفتش عبثاً في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟ نعم، ممكن.

القاعدة هي، أنّ الخوف من خطر ليس دفعا له وإنّما دلّله على أقصر طريق إليك. أنّك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوماً. هكذا يجد دراكولا عندها منفذاً إلى طفل جالس على فراشه ورأسه على صدره فيتنقّق شلّال دم من عنقه وهو بين أنياب الفكّ المرعب. يحاول فتح فمه، فلا تخرج من حلقه سوى حشرة صامتة. يهبّ صارخاً والبول - لا الدم - قد أغرق الفراش.

ما كان الطفل عاجزاً عن فهمه أنّذاك أن الأدمي يُظهر عبر أسطورة دراكولا رفضه القاطع لمغادرة العالم وأهواله، أنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير متراجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة. ولأنه لا وجود لشيء أو فكرة في هذا العالم إلّا ولها نقيض كم من أسطورة ومن تصرفات تظهر رعب الأدميين من العودة إلى هذا العالم بعد أن خلّصهم منه الموت. هكذا ستسمع أن منهم من أوصى بحرق جسده وآخرون طالبوا بأن يوثقوا إلى القبر بالسلاسل. ثمة من الأحياء من يفتحون القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفاً من عودتهم لمصّ الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

شيئاً فشيئاً يكتشف الطفل قدرته على أن يخلق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره. ها هو يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفّازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقاً بسرعٍ سلّم الطائرة النفاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيّب التمنيات بنجاح المهمة. تتركب الذات مطيّة الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحرّكات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعان الشمس فلا يرفّ له جفن، وإنّما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرّك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئاً. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحنون متشبّث بصواربها المكسورة. الأمواج بعلوّ الجبال، لكن الإنقاذ ممكن. تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهور بأنّه أنقذ مرة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلة بمعداتها فوق القارب بالضبط فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراهة وكله امتنان لبعل ولدعوات "ما" وللطيّار الهمام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. التقط حنون المعدّات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمّة أخرى بانتظارك.

يخرج الطفل منتصرا كالعادة ببركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرت لحلها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرّفها رضاك.

يوصل الأدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعدّدة التنقل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بيدّ ثابتة غوّاصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعماق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة باحثا عن نبتة ينيمة يصنع منها الكسير الخلود.

كأننا لا نعيش حياة واحدة كما تقول الرؤى غير المتقنة وإتّما أكثر من حياة، منها التي نقضيها على الضفة الأخرى

لعالم اليقظة، ومنها التي نقضيها في فضاء الحواس وأجملها التي نعيشها في فضاء الخيال هذا.

تمرّ السنين. شيئا فشيئا يتغير ما بداخل الجسم وتحضر مع التغيير أحلام المرحلة الجديدة من الرحلة.

تنبت يوما للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مبهمة.

تهمس بغنج ودلال ذات محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سينا وبنات الجيران: الحبّ أجمل من الحرب.

يقهقه صانع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستيق الأحداث.

يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكّمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قبل لك بتصوّر متاعبها.

كفى من المعارك مع الشياطين واشباح الخصوم من أطفال وكهول.

ترفع حواجز الحياء والحرّج. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص.

ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زبونته الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

يهمس الصوت الساخر:

وبعد المفتحات ماذا يريد سيدي؟ ليطمئن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمة. بالكم والكيف الذي يأمر. الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الأدميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة.

أه حان وقت اشباع الحاجتين الأخيرتين.

يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزينة ومنقحة وفيه كل الأجوبة على كل هواجس كل آدمي.

يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقانون أنه "لا نبيّ في قومه" وأنّ تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الرابحة في اليانصيب، مع أنّ السوق زاخرٌ بالمتقدّمين لأقدم المهامّة، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدى نبيّنا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأعدت له الخشبة والمسامير وغيّن الجلاذ الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يديّ الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضالّين. يقرّر الإنقاذ لأنّه أصعب من التدمير ولأنّه لا بدّ من تواصل القصص. يغيب المصطفى عن الأنظار ونواح حواريه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلهم عن الأنظار هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف ملحق صحفّي يروّجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملة، وعلى طاولات المعارض للكتب البائرة، إلى أن يتعلم الخنازير اكتشاف الدرر التي نثرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السريّة لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على أكواخ المعدّبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في برائن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كالنار في غابات الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم ثائر إلا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أقدس الكتب، لا تفتح المرأة فخذها للولادة إلا وتتمتم ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلا إلا وسارعا إليه بتمايم مأخوذة من جملته المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكتاب الأزرق بدل محاربتة، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. يتسلّل داخلي حزن دفين على كم من ملهم وكم من برنامج طموح فشل وسيفشل في إصلاح هذا الجنس التعيس.

ها قد داهم خريفُ الحياة الأدمي المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحا تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكآبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحرنا، ووراءه يركض على حمار سيئ المزاج أصلع بدين. تتسائل الذات الراكبة على الحمار بسخرية وعطف وهي تنظر إلى جزئها الراكب فوق حطام حصان:

- أما أن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع. ضع حدًا لهذا التيه.

بهزّ الشيخ الكئيب كتفيه:

- عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوابيس الآخرين؟

يا للرجل الحكيم. فهم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كم من ديانات! تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبثية". تهتمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجدل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنّها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهتمز الحمار بدورها:

- لأعملنّ معك، يا سيدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمّى "الدنيا".

ينتهد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار ذكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربة من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبه القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل. الثابت أن لنا في هذا الفضاء العجيب الذي تصنعه المخيلة إمكانيات لا توفرها لا الحواس ولا لغة تطرح من الأسئلة أكثر مما تقدم لها من أجوبة.

لماذا كل هذا الشرّ والقبح يلوئان جمال عالم مثل عالمنا هذا؟

هل الأمر لخلل إبان صنعه من قبل آلهة لم تتعلم بعد صنع العوالم الصالحة للتشغيل؟ أم هل الأمر أخطاء يتحمل مسؤوليتها المخلوقات البشرية لجهلها كيف يدار عالم بمثل هذه الروعة والتعقيد؟

ماذا عن العودة إلى الماضي لإصلاح عطب مثل الذي تسبب في آخر حروب الأدميين ويقال إنها أودت بحياة عشرات الملايين منهم.

في فضاء خيالي، ربما في فضاء خيال أكثر من أمي، بهذه الصيغة أو بصيغة أخرى يتعالى الصراخ من ممرضات عنبر الرضّع:

- النجدة، النجدة!

تتدافع زميلاتهن من سائر اقسام المستشفى لتتسمرن مدهولات أمام المشهد البشع ثم ينطلق صراخهن.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!

- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

- انظروا، إنه المجرم، إنه يتسوّر الحائط لأنذا بالفرار!

فجأة يدوي عويل يصمّ الأذان من ممرضة ترتمي فوق الجسد الدامي لرضيع لم يتجاوز شهره الأول. إنها الممرضة المكلفة بالسهر عليه ولم تنغيب عنه إلا دقائق معدودات لقضاء حاجة طبيعية.

يصرخ فيها المفنّش حضر لتوه لمعاينة الجريمة:

- كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبيّة. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعية هنلر على اسم قط القسم واسمه الصغير أدولف، أه يا أدللفة، أه يا صغيري!

تتقيأ الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قبل أن يغمى عليها.

كان الرضيع المفضّل لديها في كلّ المحضنة، بل وكانت تنوي تبنيّ اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يمّت كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص!

في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريبا جدًا من ضفّة النجاة!

ثمة مشكلة في هذه القصة تبّه لها كل هواة الارتحال في الزمان.

من البديهي أنني لو تسببت في موت الرضيع الذي سيصبح الطاغية الدموي الذي عرفه التاريخ، لما حدثت الحرب التي جعلت "با" يلتجئ إلى القرية التي تزوج فيها "ما"، أي لما وجدت أصلا. كيف أوجد وقد الغيت من كان ولو بالصدفة وبصفة عرضية

سببا في وجودي. بغض النظر عن تناقضاتها، ثمة إذن من بين حزمة الأسباب التي أوجدتني وجود أكبر سفاح في تاريخ هذا العالم. للصراحة لا أحب إطلاقا هذه الفكرة.

هل من الممكن على الأقل اختيار وقت النزول لهذا العالم التعيس؟

لا بد -حالا ودون مزيد من التعطيل-خلق جهاز ضروري لتنظيم أزمة تدافع الزوار: المرصاد.

أنت في هذا العالم كمن يشق طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم و عفاريت وأشباح، أخطر ما يترصد بك ليس هراوات وسكاكين قطّاع الطريق الحسي وإنما أفكار ثبتت في أشداقها أنياب قاطعة. هذا ما يجعل من الضروري تطوير علم التنوّ بخلق المرصاد القادر على الإنذار السريع بقرب بروز عاصفة دينية جديدة أو إعصار استبدادي قادم، أو طوفان عنصري آخر، أو موجة طريفة من الجنون الجماعي، أو حرب أقطع من كل التي عرفنا. هكذا يمكن لجيل عاقل إرجاء ولادة الجيل المقبل لترك الوقت لتبخر الليبرالية والوطنية والقومية والعنصرية والأصولية وصراع الحضارات، وكم من ملوثات أخرى.

ثمة إمكانية الفرار من هذا العالم إلى عوالم ننتقيها ونشكلها على ذوقنا.

تعال اركب المرحال وما أدراك ما المرحال.

داخل الجهاز الذي تفتقت عنه كل عبقرية الذكاء الاصطناعي والعباب الفيديو يورّق المرتحلون "كاتالوج" زاخر بأجود الرحلات لأروع العوالم. تفضّل. كأنك غير مطمئن لخدمات الجهاز وتريدني أن أجرب أمامك؟ لا شكرا، والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف تصرخ أريد أن أخرج! أريد أن أخرج! هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنتى معاقة فقيرة سوداء دميمة والتي اختارت هذه المرة رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم وزّع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدل مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطاياه كلما دّع فيها أغلى الأثمان. وحيث أن كل الحلول اثبتت فشلها في اصلاح عالم بدهاءة غير جاهز لاستقبال الرحالة، لا حلّ غير إدارة الظهر له والعودة من حيث اتينا.

أداة آخر سفرة في هذا العالم جهازي السحري الأخير: المعكاس.

الزمان الآن يسيل من المصب إلى المنبع. غدي البارحة وبعد الغد ما قبل البارحة. عيد ميلادي المقبل الذي احتفل فيه بتناقص سنة لا الذي يوضع فيه على كاهلي عبء سنة إضافية. عما قريب سأقول للشباب ما فعل بي المشيب.

يوم ناقص بعد يوم ناقص يستعيد الجسم ليونته، خفته، قوته. ذهبت آلام الظهر والركبتين. ذاب الشحم الذي في البطن وفي الأوراك. نبت الشعر على الرأس فاحم السواد. عادت للحواس قدرة رصد أدق اختلاجات المحيط.

تتدافع من المصب إلى المنبع سنوات الكدّ والجدّ...، سنوات مراكمة التجارب...، سنوات اللقاءات الأولى مع الأدميين، مع فظاعاتهم وروائعهم. يا إلهي هكذا كانت "ح" وهذه الصبية هي "ما" وهذا الشاب الوسيم هو الذي كان في قصتي "با"! كل هذه الوجوه التي تمعننت فيها يوما والتي اختفت بلا أثر! ...

يصل الزمان الراكض القهقري منعطفا ضروريا. تقصر القامة شيئا فشيئا. تنسحب القوة من عضلات لم تعد مفتولة. يتقدم الطفل المشدوه بخطى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف داهم لا يكاد يصدّق ما يرى. كم هو عريض، كم هو متسع وكم فيه من ماء. هل ستصدق "ما" وهو يروي لها كيف هو البحر؟!

إنها مرحلة تأجج الانتباه والعالم كأنه خارج لتوه من ورشة الفنّان الأعظم يعرض مفاتنه على أول زائر. هي أيضا مرحلة الانخراط في أولى قصص الوجد والطفل جالس ساعات عنيده على باب المحطة يكفكف دموعه ينتظر من القطار الأسود الذي أخذ والده أن يرجعه له فوراً.

يتلعثم اللسان، تتفكك الجمل وقد فقدت الكلمات انضباطها ومعناها. ترتبك القدمان والرجلان لا تقويان على حمل. أنا الآن على أطراف الأربعة أحمو، تركت المشي ورائي مع كل ما تركت من مكتسبات زمان الاتجاه المعكاس.

يتعالى صراخ الرضيع وهو يدفع بقدميه البضتين قماطا يقيد حركته. إنها المرحلة من الرحلة والذات كالإسفنجة تمتص معطيات محيط غريب متقلب، تتفاعل معه أحاسيس بأحاسيس، مشاعر بمشاعر، لا تشوش على تفاعلها لغة قد لا تكون إلا تعويض خلل أفلنت منه بقية الكائنات. يطلّ عليه وجه مشفق يتساءل: من هذا الكائن الغريب الذي يلمع في عينيه شيء كأنه حضور جنّي أو كهل. صرخة الانبهار والرعب... الأخيرة هذه المرة لا الأولى.

يبدأ تسلق النفق المظلم للارتقاء أخيرا في مسبح الماء الدافئ. ما الذي دهانا لنغادر مكانا كهذا نصرّ على الخروج لعالم كانت تبلغنا منه كم من إنذارات التهديد وكم من صرخات الألم.

لنكتفي بهذا القدر من تفحص أهم منجزات مخيلة كاتب هذا النص وذلك لعدة أسباب منها أن هناك مناطق جد خاصة لا يرغب أن يطلع عليها أحد. وأيضا أن هذه المخيلة لا تتوقف عن ابتكار كل يوم جهازا عبقريا آخر. الأهم من هذا عبث المنهجية

والفضاء الذي تخلفه المخيلة مثل الفضاء الذي تصنعه الأحلام غير قابل للجرد أو للاستنفاد. حدث ولا تسأل عن شساعة الفضاء الذي خلقته ولا زالت مخيلة القبائل والشعوب والأمم وما راكمت فيه كما هائلا من القصص والاساطير والديانات تتبارى غرابة وطرافة.

البديل لتوجه لا فائدة كبرى منه التساؤل عن طبيعة هذا الفضاء وماذا نفعل به وماذا نفعل فيه. ثمة طبعا التنقيص عن الكبت بكل أنواعه ولهذا نفضله على ما عداه من مكونات عالما. رأينا قدرته على توفير كل ما نحتاج من الأربعة الكبار الجنس والثروة والسلطة والشهرة ثمة أيضا قدرته على تصريف ما بداخلنا من عنف لا نستطيع التخلص منه في الفضاء الحسي دون أن نتعرض لعنف مضاد قد يهدد حياتنا ولا نستطيع تصريفه في فضاء الأفكار والإقفا أمام المحاكم بتهمة التعدي على كرامة من لا كرامة لهم. انظر كيف يمكنك التمتع بالانتقام من ألد الأعداء والأصدقاء لا يهمك وصفه بأنه رخيص دون أن يطمك أو يقاضيك أحد. اعتبر بعض وسائلنا للذة الانتقام. المرشاف مثلا.

من هذا الرجل المكبل بالأصفاد، ما الذنب الذي اقترف، ما العقوبة التي يجزّ إليها؟ إنه مثقف مرتزق ارتضى لنفسه دور كلب ينبج ويعص كل من يتهدّد سلطان سيده. ولأنه تعلم في مدارس الشعب الغلبان وجامعاته واستعمل علمه في خدمة طاغية يسرق ويضطهد ويقمع ويحتقر هذا الشعب، فإن محمّتي العادلة حكمت عليه بعقاب المرشاف وهي مصاصة مهمتها استرجاع كل المعارف من ذهن رجل لم يكن جديرا بها. تقول: هذا يعني أن المسكين! ... بالضبط، مُسحت ذاكرته وعاد دماغه مثل الصفحة البيضاء. من هذا المجرم الآخر؟ إنه صاحب الكلب وملقّه أثقل بكثير لذلك حكمت عليه المحكمة العادلة بالعقوبة القسوى.

تعال معي إلى حيث يوجد اختراعي الآخر: "الأفورتوار". لا تسألني عن سبب هذا الاسم الغريب، فلست مضطرا أن أقول لك كل شيء وما عليك إلا أن تشغل دماغك وتتعلّم الكلام بلغة مسيو فيدال. الرجاء التزام الصمت، فهذا مكان له رهبة خاصة لأنه نهاية الطريق بالنسبة إلى من ثبت ضدّهم أنهم اعتدوا على الحياة ودنسوا قداستها. وحيث أنه لم يعد ممكنا وضع حدّ لأي حياة بشيء همجي مثل الإعدام شنقا وخنقا وتسميما وقطعا للرؤوس بالخنجر والسيوف والمقصلة، فإنه تقرر اعتمادي جهازتي هذا للتخلص من عتاة المجرمين مثل الذي جاءوا به للتو واللحظة من المحكمة. إنها ضربة حظا لأنك ستشاهد كيف يعمل "الأفورتوار".

هذه غرفة تنفيذ الحكم. وهذه الأنثى هي والدة المحكوم عليه. انظر كيف يمددونه برفق على الطاولة المصممة للغرض والرأس متجه نحو فرج العجوز الرائدة بدورها على الطرف الآخر من الطاولة. تشاهد الآن دخول الرأس واختفاه شيئا فشيئا بين الفخذين ثم دخول الكتفين والبساط المتحرك للطاولة يدفع بشيء من الصعوبة بقية الجسم، والأم تصرخ بألم الوضع المعاكس وتشتم القانون الذي حكم عليها باسترجاع ما ولدت بعد أن تبين أنه غير صالح للوجود. تسألني لماذا لم يخلعوا له الحذاء وهل من الإنصاف أن يعود الرجل إلى رحم أمه بحذانه وبقية الثياب؟ اعتراض وجيه لكنه ثانوي جدا فالأيادي الخفية التي صنعت الرجل هي الآن بصدد نزع الملابس والحذاء وإعادة تفكيك كل ما قامت به طيلة الحمل. هكذا يعود الجسم الضخم جنينا ثم نطفة ثم تفتق البويضة والحيوان المنوي الذي أخصبها ويذهب كل في حال سبيله، ثم يتواصل الطريق العكسي حتى العتمة حيث يقع تفحص الخطأ بتمعّن من قبل المهندسين المختصين.

ماذا قلت؟ كان بؤدك أن تراني الممدّد على هذه الطاولة! آه منكم يا أولاد حواء. والآن إياك من الأسئلة البليدة حول ما الذي كان يحصل لو لم يكن للمجرم أم حيّة، وماذا لو كانت الأم هي المجرمة، فأنت تعلم أنه ليس لكل مشكل من حلّ، بل إن القاعدة فيه أن أغلب مشاكله بلا حلّ... أعني بلا حلّ مرض لكل الأطراف.

حتى لا أتهم مجددا بالتجني على الأدميين اسارع بالقول إن فضاء خيالهم ليس فقط "المكان" الذي يشبعون فيه غرائز يشجبها الدين وتنكرها الأخلاق. ففيه أيضا يشبعون نهمهم لحاجيات أكثر رفعة من المال والسلطة والشهرة والجنس ورخيص الانتقام. هم يتمتعون فيه أيضا بالحكمة والسكينة والمحبة والزهد. ففي هذا الفضاء بلور كم من نبي وكم من مصلح وكم من سياسي نزيه (نعم يوجد هذا النوع من السياسيين أحب من أحب وكره من كره). كل هؤلاء البشر حلموا بعالم يرقد فيه الحمل بجانب الذئب وبعالم يتساوى فيه كل أبناء وبنات آدم وحواء وبعالم فيه من احترام حقوق النبات والحيوان ما فيه من احترام حقوق الإنسان.

يا للكارثة لو لم يكن لنا الفضاء الحسي نلهث فيه وراء رغباتنا لا نصلها إلا نادرا حتى نبقى يقظين متحفزين! يا للكارثة لو لم يكن لنا فضاء الخيال لا لتقاط الأنفاس والتغلب السحري على أكل أنواع لحرمان. لذلك ترانا نستعجل دخوله، استعجال التائه في الصحراء وصول واحة النجاة.

ثمّة من يرفضون مفارقتة، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية. إياك ثم إياك من طول المكوث وإلا كنت كمن يرفض مغادرة الرحم والنتيجة الموت تعفنًا.

هذا إذن فضاء وظيفته الأولى رفع مؤقت لاحتقان ذات تفصح فيه أعرق شهواتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها... فضاء يسمح لك براحة لا بدّ منها... براحة متقطّعة... براحة موعودة وكل المطلوب عدم الإدمان.

الوظيفة الأهم

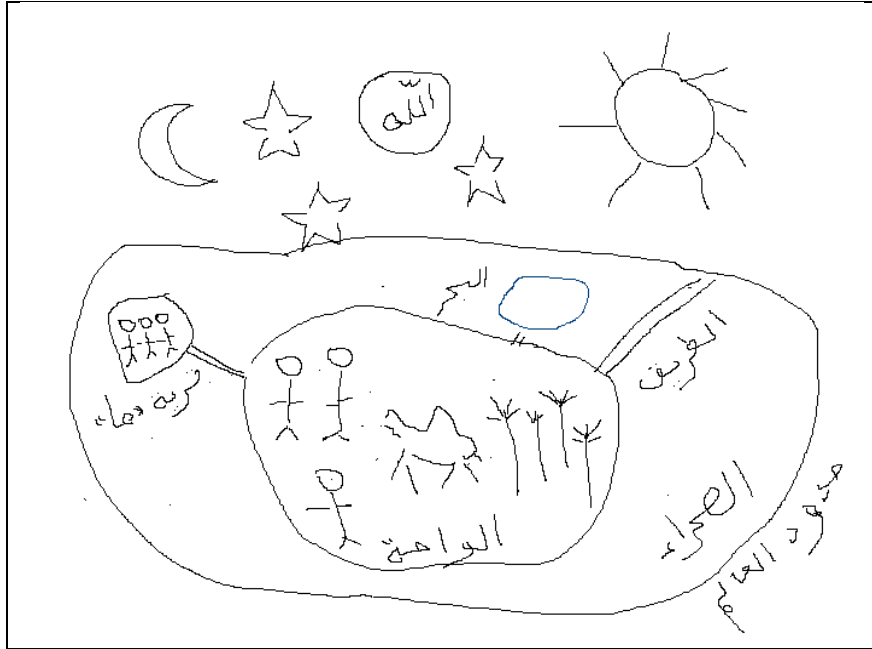
إنه الفضاء الذي يستعرض فيه الفكر كل الفرضيات الممكنة بخصوص هذا العالم الذي نعبر. داخله تطبخ التصورات التي ستعطينا كل الأشكال والحالات التي اتخذها العالم فيما مضى من الزمان والتي ستخذيها في أذهان الأجيال القادمة.

الطفل الآن في العمر الذي تحضر فيه الأسئلة الكبرى فيجد لها كل الحلول في خصب خياله كما فعل قبله وسيواصل أطفال من كل الأعمار ومن كل الثقافات البشرية.

ومن مشاغله تلك الأيّام أولى نظريّاته عن العالم لخصها في رسم كان يعود إليه طوال الوقت بالتلوين والتحسين.

العالم -مما لا يدع مجالاً للشكّ في هذه المرحلة من رحلة الطفل- طبق صلب أفتي جله أصفر اللّون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّته الدليلان عن وجوده، وبُقّع خضراء صغيرة متناثرة هي غابات زيتون أرض جدّته، ومركزه واحة الأب والجدّ. فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه هو وبقية الكائنات والأشياء ثمّة قبة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمّه صحنًا أجوف من البلّور على طبق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر. فوقها وبعيدا عنها يجلس على كرسيّ ضخم اسمه "العرش" شيخُ كلّ الشيوخ الذي هو الله. بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسيح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم "با" و"ما" والجدّ والجدّة والعمّات والأخوال والجيران وركّاب الحافلة والقطار تصحبهم القطط والكلاب والماعز والحمير والبعير والخرفان والبقر، وهم أنواع خاصّة من الجيران والأقارب. من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافتيه ثمّة مدنٌ وقُرَى لا يُعرف لها عددٌ. أمّا الحدود فنهاية الطريق، عندما يرتطم بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما العفاريت والأشباح، من بينهم "العبثيّة".

يُمكن الطفل النظر في رسمه فيعود إليه الشكّ لينعّص عليه متعة النصر.



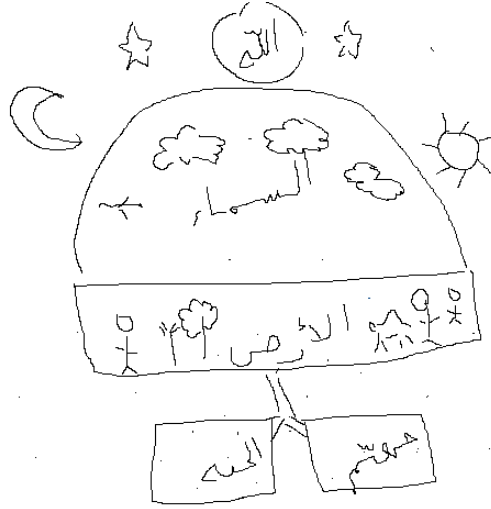
ثمّة شيء هامّ ينقص، لكن ما هو؟ أه، الآخرة طبعاً، التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه!

هل يُعقل أن ينسى معلماً كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله أم على يساره؟ يجزّب فكرته ثم يسارع إلى التخلّي عنها إذ لا تستقيم مع بقية المعطيات. يتذكّر فجأة أنّ الآخرة حسب قول "ما" هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميت حفرة في أديم الصلب، وهو ما قاموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللّعب معه وسرقة لوز الجيران؟

إذن، الآخرة موجودة تحت الأرض. ووفقاً لما سمع من "ما" التي لا تكذب أبداً، فهي مكوّنة من الجنة والنار.

يرسم الطفل مرتعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان الإقامة الأخير. المربع الأول أخضر اللون لأن الجنة كما تقول "ما" واحة خصيبة، ولو أنّها أكبر ونخيلها أعلى ومياهها أوفر وأعذب، يذهب إليها من عملوا الصالحات. أما المربع المقابل فهو أحمر بلون النار المخصصة لشواء لحم الكفار والمعلمات الشريرات.

يجيل الطفل البصر في عالمه راضيا عن عمله وقد اكتمل ووجدت فيه كل المكونات مكانها.



انتهي الطفل من حلّ مشكلة طبيعة العالم. لم تبقى إلا مشكلة الزمان. ما معنى أن يكون لليوم تاريخ هجري وآخر ميلادي؟ كيف يكون هناك زمان، والحال أنّه ليس هناك شمس ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرة من "الهجرة النبوية" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثم ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالم وكل الأحداث؟

الأهم من هذا كله متى ستقوم القيامة. وهل يا ترى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفار؟ حسب زماننا طبعاً، فالهنا هو الإله الحقيقي. ولكن في أيّ سنة بعد الهجرة؟ إجابة متروكة للكبار. وفي أيّ يوم؟ بالتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهّل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدأت البداية؟ طبعاً كما اتفق مع "ما" أول يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء. لكن أيّ يوم بالضبط؟ الجمعة مخصّص للقيامة، السبت يوم الكفار اليهود، الأحد يوم الكفار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيامٌ بليدة لكثرة العمل فيها ولا واحدٌ منها يستحق أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبق سوى يوم الإثنين، إنّه دون شكّ يوم الخلق، خاصةً أنّه أول أيام الأسبوع.

لكن، ما الذي كان موجوداً قبل أول يوم اثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان الطفل بعيداً عن فهم ما يفعل وأنه كان يعبت بجزء مما انتجه خيال القوم الذين ارتحل في ركبهم، وأنه سيجلس يوماً لنماذج أخرى للعالم الذي تبلور فيه لا يرضيه أي منها ولا حتى الذي جادت به مخيلته هو والذي سيسميه الرؤيا.

يجب الآن التعرض لأهم وظائف الفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم.

إذا كانت مهمة الحواس الست رصد الأشكال والحالات التي يتخذها العالم، فإن وظيفة المخيلة تفكيك وإعادة تركيب هذه المعطيات كأن هذا العالم خزان مواد أولية يعاد تصنيعها ليكتسب حالات أخرى وأشكال جديدة غير مسبوقة.

لا أحسن من الفنّ لكشف أبعاد هذه الوظيفة

مع بيكاسو، يدير الأدمي ظهره لمشهد العالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلفه هو، وقد أصبح إلهاً لحسابه الخاص، والعالم الذي ينتظر الخلق للوحة الفارغة.

يبقى الفنّ بصور مجرباً في كل رسم إعادة تنظيم ظواهر العالم المرئية، مروراً من أقصى الفراغ إلى أقصى الامتلاء، من النسخ إلى المسخ... والمبحوث عنه شيء مبهم لم تتضح بعد طبيعته، على افتراض أن له طبيعة سنتضح يوماً.

تنظر للوحات رامبرانت فلا تحصي ما فيها من أشكال وألوان وهذا أقصى الامتلاء. تتأمل لوحات الفنّ الصيني فلا ترى إلا سطراً ينغلق على بعض النقاط وهذا التجرد الأقصى.

تسمع فالسات شويان وسوناتات شوبرت فيشْتَف الأذان التناسق والنظام، لأن الموسيقى، وإن ابتعدت عن تقليد صوت العصفور ما زالت تقلد عالما من قوانينه النسق والنغم والجمال. ولما تنطلق عملية استكشاف النقطة القصوى من ممكن الصنع، تعطيك موسيقى ستوكهاوزن لعالم ليس فيه إلا النشاط والفوضى.

يأتي الشعر ليصف جمال العالم كما ترصده الحواس لكن أيضا لكي يعيد تصنيعه وقد أصبحت الطيور "تشدو" على قبر الشاعر النَّسِيم فوقه "يهمس" والفصول "تمشي" حوله كما كن في غضارة أمس" (الشابي)

وراء الجهد الجبار لتشييد اهرامات مصر أو أمريكا الوسطى ولع الأدميين بهندسة الفضاء الحسي على هواهم وذلك منذ بدأوا تزيين الكهوف المظلمة... ولسان الحال يقول للخالق الأعظم انظر ما الذي نقدر عليه نحن أيضا.

ثمة ميدان آخر يعاد فيه تصنيع معطيات الحواس الست

يقرر الطفل أنه يريد أن يربيه ناطقا.

- أريد أن بنا يتكلم.

تستجيب القوة المجهولة التي تسكنه فورا

- حاضر يا مولاي.

- أريد كائنا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي.

يقلّب العالم شفثيه وتلمح في عينيه ابتسامة مأكرة.

- حاضر يا مولاي.

- لا، بل أريد كائنا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبه جناحان.

تنصاع القوة المجهولة كأن لا هم لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستقرّ فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود. يكبر الأطفال وتتعدّد مطالبهم. هو يريدون شفاء كل الأمراض بمرامهم سحرية. هم يريدون الطيران في أعلى طبقات السماء أحسن من كل الطيور والغوص في أعماق البحار أحسن من كل الدلافين ناهيك عن المشي على سطح القمر. هم يريدون اكتساب قدرات خارقة لم تسعفهم بها الأقدار.

إنها فترة سطوة السحرة وكل ساحر يبيلور في فضاء خياله أعمق شهوات الأدميين ويحققها دون المرور بأي وسائط جدية. تأتي أخيرا التكنولوجيا لتحقيق اهداف السحر بوسائل العلم والقاعدة التي لا تتغير أبدا أن كل الأحلام التي تتبلور في فضاء الخيال لا تتحقق لكن كل ما تحقق من أروع إنجازات البشر كان يوما أحلاما في فضاء الخيال.

معنى هذا أن فضاء الخيال ليس فضاء الأوهام او كما يقول البعض بلهجة الاستخفاف فضاء أضغاث الاحلام. لا شيء أكثر موضوعية من الخيال وكل ما نصف بالموضوعي مشبع بالخيال مصنوع منه وعينا ام لم نعي.

خاصية بالغة الأهمية للفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم: الحيوية المذهلة التي تجعلك تقف مشدوها أمام ورشة لا تتوقف فيها الأشغال أبدا بحثا محموما عن الجدة والطرافة والتنويع والابتكار في الديانات، في الأساطير، في الفنون، في الشعر وفي كل الميادين التي تلعب فيها المخيلة دور المحرك الرئيسي والتي تعطى التكنولوجيا الحديثة أدوات غير مسبوقه قد تسمح يوما بفسخ كل الحدود بين الفضاء الحسي والخيالي.

فضاء الخيال إذن هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحة الفنان وفرضيات الباحث وتقنيات المهندس وأحلام الأديب ومشاريع الثائر.

هو أولا وقبل كل شيء مختبر المختبرات الذي يتواصل داخله خلق عالم يبدو كأنه لم ولن يكتمل أبدا.

**

فضاء الصفر والواحد

نحن في هذا العصر مثل رحالة فوجئوا يوماً بظهور قارة جديدة في الفضاء الحسّي لم يعرفها لا المشرقي ابن فضلان ولا المغربي ابن بطوطة ولم يتخيّل وجودها يوماً أكبر علماء الجغرافيا.

حقاً إنّها لضربة الحظ أن أكون من الجيل الذي عايش بروز هذا الفضاء الجديد الذي تصفه اللّغة بالافتراضي. الجديد فيه أنه ليس مصنوعاً من الحواس الخمس، من اللّغة أو من الخيال وإنما من رمزين لتعريف الأول عليهما قصة طريفة. من إشكالياته ذلك اليوم الذي بقي راسخاً في ذاكرة الطفل عن أولى دروس الحساب معضلة كانت بداهاة فوق طاقاته وحتى فوق فهم من كان يسأله.

- سيّدي، ما معنى صفر؟

- الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.

- كيف يوجد شيء غير موجود؟

- قلت لك كَفَ عَنِّي أسئلتك؟

يعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرّقه.

- سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفر إلى واحد!

- طبعاً، وفي كلّ مرّة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثمّ مئة، ثم ألف ثمّ عشرة آلاف، إلخ.

- سيّدي، سيّدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به الصفحة؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العيب؟

- اضفت كما قلت لي صفراً بعد الصفر ثم صفراً آخر وآخر وآخر... سيّدي!! سيّدي!! يؤسعي أن أملأ الكراسة بأكملها بالأصفر!

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجدّداً أمام صديقه الحميم: الحائط. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعاً سلسلة من الأصفر تخرج من الصفحة، من الكراس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلّق كل جدار يضعه في وجهها لتتساب كالسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفر جديدة تخرج من العدم وتدفع بالطابور يوماً إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟ يصاب بالدوار وهو يكتشف أن لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفر. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكراً بمعضلة اسمها "اللانهاية" دوّخت قبله كمّاً من عقول أطفالٍ كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنّ "كانطور" من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنوناً من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرّك؟ لم يكن الطفل واعياً أنه لا يرتطم بأصعب المشاكل التي يواجهها الذهن البشري فقط وإنما أنه يلهو بجزء أساسي من اللبّات التي تشكل عالمه.

في ملفّ آخر محفوظ بكثير من الحرص في أعرق طبقات الذاكرة يتوجه المعلّم المرهق إلى قسم هائج على الدوام:

-والآن تمرين الصباح: اشترى حسن برتقالين بعشرين مليماً للبرتقالة، ودفع مائة مليماً للبائع. كم يجب أن يُرجع إليه البائع؟

- سيّدي، هل البائع نزيه أم كالذي يسرق أمّي؟

- تسخر مني يا وقح! ركّز على التمرين.

كم هي مثيرة هذه الرموز عندما تتسبب في قصص عن برتقال يُباع ويُشترى، وقطارات تصل في الوقت ولا تصل، وسيارات تركض وراء بعضها البعض، وبيساتين زيتون يجب أن تُقسّم بين الورثة، وكم ينال زيد وعمرو بعد أن أوصى أبو زيد بالثلث لزيد وظلم عمراً فلم يترك له إلا الجزء العاشر من الحقل. يا لغرابتها وهي تتدافع من المجهول لتفعل أفعالاً خاصة بها مختلفة عن أعمال الحروف، إذ تستطيع أن تتجمّع وتتناقض وتتقسم على بعضها البعض، وتلد أرقاماً أضخم وفق قواعد في غاية البساطة.

تنبّه الأرقام الطفل لكون العالم يزخر بأشياء متباينة تنتمي إلى مستويات مختلفة يجب عدم الخلط بينها، حيث أنه لا تستطيع أن تضرب برتقالة في قطار، أو أن تقسم القطار على البرتقالة، أنه لا يمكن أن تشتري قطارين بعشرين مليماً للقطار الواحد، وأن البرتقال لا يتسابق فيما بينه للوصول إلى المحطّة.

يكتشف الطفل أيضاً أنّ لهذه الكائنات العجيبة قوانين لا مناص منها ولا علاقة لها ببرتقال أو ورثة.

- هيا يا أطفال، افتحوا الكراسة وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب.

يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعاً بعيب فيه ما هو موروث وجّهه مكتسب.

- سيدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في اثنين ثمانية؟

- هكذا. لا جدال في جدول الضرب.

- لماذا هكذا، سيدي؟

- أتريد العودة إلى الركن؟ قلت لك لا جدال في جدول الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح.

فعلا هذا عالم بحاجة لجدول ضرب ثابت لا يخضع لضغوط السياسة أو تقلبات سعر صرف الدينار ومحافظ طول حياتنا على توازنه وسلامته الذهنية.

تخيل أنه جُن جنون جدول الضرب فجأة فأصبحت نتيجة 3x3 مرة 99 ومرة أخرى 999 ومرة ثالثة 3!

تصوّر تغيير ابسط القواعد التي تعلمناها في الثانوية مثل أن ضرب السالب في السالب ينتجته إيجابي لتصبح القاعدة أن

ضرب السالب في السالب يؤدي مرة إلى صفر وأيام الأحد والعطل إلى سلبى مضاعف!

تصوّر أن الأرقام رفضت الاعتراف بالصفر أو بقواعد القسمة والطرح!

تصوّر فيروسا لا يقهر حكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض.

لو استولى كاتب من الخيال العلمي على هذه الفكرة وطوّرها إلى ابعده نتائجها لوصف احتضار عالم استشرت فيه فوضى

عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واحتراق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيارة وخروج الأقمار

الصناعية والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعائلات والأفراد. حدث ولا تسأل

عن انهيار البورصة وشلل جل دواليب الإنتاج الصناعي والخدماتي وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا

يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

معنى هذا ان عالمنا ليس مصنوعا فقط من الحروف والكلمات وتصورات المخيلة وإنما من لبنات لا تقل أهمية اسمها الأرقام.

الأرقام!

إنها جزء من غرابة العالم نفسه فلا اتفاق بين خيرة العقول حول طبيعتها والجدل متواصل بينها منذ قرون.

هل هي كائنات يخلقها الذهن وموجودة داخله ام هي كائنات هلامية موجودة خارجه ومحكوم عليه باكتشافها في مخابئها

السرية واستكشاف كل ما تزخر به من خصائص وإمكانات عجيبة؟

الثابت أنها هي التي ترصد للعالم حدوده الحقيقية فلا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معين ولا حرارة تنزل تحت رقم آخر ولا

مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث... الخ

هي التي تصف هذا العالم أدق وصف، تحصى، تقيس وتصنف جلّ مظاهره. لا أكثر طموحا عند كبار الباحثين في أسرار

قدر طموحهم أن توضع اكتشافاتهم في معادلات حسابية انيقة دعماؤها الأرقام.

هي التي تصنع ملامحه التي نعرف فلولاها لما حأقت الطائرات في السماء ولما ارتحلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو

المريخ ولما انتصبت ناطحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكّن الدول من إدارة مساحة الأرض التي تحكمها بإحصاء سكانها وحساب ما يتكلفون من خدمات وما يمكن

اعتصاره منهم من ضرائب.

هي التي تحدّد للأشياء قيمتها في المتاجر وللشعر قيمتهم عند البنوك.

هي التي تساهم في إعطائك هويتك أي مكانك داخل قافلة المرتحلين وأنت معرف لدى الأمن والضمان الاجتماعي ومصالحة

الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع.

هي التي تفتح لك الأبواب أو تغلقها أمامك إن جهلتها أو نسيتها.

وأیضا هي مظهر من جمال العالم إذ تبلور في المعادلات الحسابية البالغة الأناقة جمالا كالذي يبهرك في أروع اللوحات أو

السمفونيات. كم من علاقات وطيدة مخفية بين الموسيقى وبين الأرقام انتبه لها أكثر من موسيقي عبقرى.

أهمّ ما في الأرقام أنها اليوم أدوات طفرة من الخلق غير مسبوقه على كثرة من عرف العالم من تغييرات جذرية.

أيّ آدمي كان قادرا زمن طفولتي على التنبؤ بالثورة التي سيحدثها في عالم الأدميين الصفر والواحد وأنها سيبنيان أعرب

فضاءات العالم لن تكفي حياة إضافية لاستكشاف كل ما يزخر به من روائع وأخطار.

بخصوص الأماكن التي يعجّ بها والتي قد تودّ شدّ الرحال إليها، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد

“ياهو دوت كوم” أو “اكساييت دوت كوم”. لن تجده على أي خريطة جغرافية. إن حاولت، كنت كمن يبحث عن جزر واق

الواق في الفضاء الحسي... حتى ولو كانت “واق الواق دوت كوم” موجودة بل يسعك أن تخلقها أنت بالذات.

يتغيّر أيضا بصفة جذرية مفهوم آخر بئينا عليه بديهياتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

في فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في الفضاء الافتراضي فالأمر فيه كما لو كان يوسع ماجلان -وهو جالس في جوف باخرته بلشبوننة- الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الفيليبين -حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين- والتوقف في جوا وعدن للتبضع ثم العودة إلى لشبوننة... كل هذا في دقائق معدودات.

في هذا الفضاء أنت مثل زائر يدخل متحف اللوفر بحثاً عن لوحة مونا ليزا، فيُفاجأ بجدران قاعات المتحف تتباعد واللوحات والتماثيل تتزايد عدداً بسرعة مذهلة وفي كل الأركان وكَم من ليونارد دافنشي جديد عاكف على الرسم يناقسه كَم من بيكاسو في الطرف الآخر من المتحف.

خاصية أخرى أن المشي فيه لا تعب فيه ولا منعصات. المغامرات المثيرة التي واجهها مستكشفو الفضاء الحسي مثل بعوض المستنقعات الاستوائية ودببة القطب الشمالي وأسود الأحرش الإفريقية وضباط طارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضاً أن تعرّض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقيّ يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلا أخذ حياتك. هذا لا يعني أنّه خالٍ من المطبات والأخطار. كل ما هناك أنّها من أنواع لم نعهدها في “الفضاءات” الأخرى.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من الفضاء الغريب أطلق مجهولاً فيروساً طائشاً أصاب منه مقتلاً. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليلالٍ وليالٍ لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

من هذا الذي يدّمّر بصفة دورية الجزء من “الفضاء” الذي اقتطعته لنفسني، والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أتخطى رقابة الورق؟ لا مجال لأن أضع عليه أيّ صورة أو أيّ اسم على العدوّ الخفيّ. هذا ما يقودني إلى الحديث عن الأدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكاناً كما لو كانت من جنس الأشباح والعفاريت التي يحفل بها فضاء الخيال، والفارق الهامّ أنّ لهؤلاء الأشباح فعلٌ لا يتوقف في أخصّ خصائص حياتك. ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني أمني بجسد وروح وفكر، لما أفتعني أحد أنّه ثمة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمة إذن، للأدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجعله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما شاء من الأقنعة، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثر من أبعد نقطة في “الفضاء” الحسيّ، يدخل البيوت كالروح الهائمة لا يتفطن لتطفله أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يُحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كلّهُ أن هذا “الفضاء” بصدده ولادة جنس جديد من الكائنات الذكية يسمونها الروبوتات يحركهم ذهن استوعب أحسن ما في أذهان البشر يسمونه الذكاء الاصطناعي وسيلعبون في حياة الأجيال القادمة دوراً لا تقدر خطورته. لمن لا يعلم، بدأت في بعض أصقاع الأرض الأكثر تقدماً في ميدان التكنولوجيا الحديثة، قصصُ الحب والغرام بين آدمي من لحم ودم وروبوت جميل يعوّض الأدمي المسكين كلّ ما لم تُعطه أمه من حنان وصديقه من وجود دائم يخفف عنه آلام الوحدة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الأدمي في نسخته القديمة والأدمي الافتراضي. كلّ التهاني وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

ما يشدّ الانتباه أن هذا الفضاء الافتراضي هو أيضاً -مثل الفضاء الحسي- ساحة حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جنزالات بخمسة نجوم يُعدّون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيب فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصواريخ برامجٌ محمّلةٌ بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

هو مجال يلوّثه المرتحلون بنفاياتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانهايار عصبي أمام فضاة ما يتزاحم فيه، أمام بفونوغرافيا أطفال ورضع ومضاجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وألهة دموية وقرابين تُقدّم لها والذبح على الهواء مباشرة.

هو أيضاً قمامة تُصبّ فيها مجاري صرف صحيّ تفيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماماً كما هو الحال في “الفضاء” الحسيّ، حيث يختلي كل واحد بمراحضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركاً لمجاري الإسمنت مهمّة التخلّص منها بعيداً.

لكن مهلاً، أيّ حكم كنّا نطلقه على الأرض لو دخلناها وهي ما زالت سهولاً سوداء لفظنّها البراكين لتوّها لم تُعطّها بعد الحشائش والأزهار، ولم ترتفع فوق سطحها الأشجار وما يصيح على غصونها من عصافير؟ أيّ حكم كنّا نطلقه على “فضاء” الحروف وهو أولى العلامات على لوحات طين يتبادلها كهنة أارات وتجار أوروك؟

ظاهرة هامة أخيرة تميّز هذا الفضاء العجيب عن بقية الفضاءات.

حدود فضاء الحواس ثابتة أو صعبة التحريك حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار ما نستعين به من أجهزة مثل المجهر الإلكتروني أو التلسكوب الفضائي. لا قدرة لك لا اليوم ولا غدا على تلمس الذرات، على استنشاق عطر النجوم أو رؤية مظاهر الطبيعة كما يراها الدلفين والنسر.

على العكس من هذا تفاجأ بالسرعة العجيبة في توسع الفضاء الافتراضي وهو يراكم في جيل واحد من معطيات وقدرات ما لم تحقّقه كل الأجيال التي سبقتنا في فضائي الفكر والخيال. هل سيعيش أحفادنا داخل عالم مصنوع بالأساس من الخوارزميات وبصفة ثانوية من الحواس الست؟ أي معنى للرحلة في هكذا عالم بل أي نوع من البشر سيرتحلون فيه؟ الثابت أن الفضاء الافتراضي في بداية تشكله وأن الرحلة ستعرف فيه قصصا غير مسبوقة لم يعرف لها تاريخ المرتحلين مثيلا.

ثمة سؤال محيّر آخر يُثيره ظهور هذا الفضاء الذي لم تعرفه آلاف الأجيال التي سبقتنا هو هل ما زال هناك فضاءات أخرى ستتمخض عنها عبقرية الذهن البشري؟

سؤال لا أحبّه كثيرا: هل قطعك كل هذا الشوط من الطريق لأكتشف وأنا في آخر مراحلني كنت مجرد رحّالة بدائي حبيس جسد بدائي بحواس بدائية ولغة بدائية يتحرك مَشيا على قدمين،...وأنتي وسأغادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا يتخيلها أخصب خيال لأنبغ كتاب الخيال العلمي.

ليكن، وهنيئا للأحفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات مستقلّين على ظهورهم في صناديقهم البلورية وخبوط غير مرئية مزروعة في أدمغتهم، يتجولون داخل المجرات وشوارد الذرات. نعم، هنيئا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص. لكن أيّ لذة يمكن أن تضاهي لذة المشي حافيا على العشب المبلل بقطر الندى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟

هل ستعطي البرامج التي سيضعونها في المستقبل أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر، وما على الأجيال المقبلة من الرحالة إلا النقر؟

لينقروا ما طاب لهم من النقر، أما أنا فأفضّل الأصل على صوره، ولو كانت أحسن من الأصل.

الأصل؟ الصُّور؟ وهل لهذا العالم أصلا أصل، أم أن له ما لا يحصى من الصُّور و"الأصل" نفسه واحدة من بينها.

**

النموذج المؤقت لعالم لا يستنفذه نموذج

الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه في هذه المرحلة من رحلتي أنه لا الشمس مصنوعة من ذهب قرطي " ما " ولا القمر قُد من فضة خلخالها وإنما هما مصنوعان مما صنعت منه ظواهر العالم الأخرى.

السؤال مما صنع هذا العالم الذي صنع الشمس والقمر وهذه الظواهر الأخرى؟ مواصلة لخريشات طفل منفي لآخر الصف ومنشغل بوضع أولى التصاميم، وبعد أكثر من نصف قرن وأكثر من محاولة لم تذهب بعيدا، إلى رفاق الرحلة التصور الأخير.

العالم مصنوع من فضاء تصنعه الحواس الخمس وسميناه فضاء الحواس، من فضاء تصنعه اللغة وسميناه فضاء الأفكار، من فضاء تصنعه المخيلة وسميناه فضاء الخيال ومن فضاء تصنعه طاقة -أداة أخرى للذهن هي الحساب وسميناه الفضاء الافتراضي.

شيء من التوضيح قبل المواصلة.

المعتاد عند استعمال مصطلح الفضاء انه "الامتداد" الذي تتحرك داخله أجسامنا بالحد الأدنى من الأمان والحرية. إنه فهم لا غبار عليه عندما يتعلّق الأمر بالفضاء الحسي إذ هو فعلا الفراغ النسبي الذي يحفّ بنا من الجهات الأربع ومن فوق ومن تحت. هذا الفراغ هو الذي يسمح لنا بالتحرك داخله نشق طريقا بين محتوياته وكلها لحسن الحظ لا تحنلّ إلا أجزاء جد صغيرة منه. تخيل لو كانت تملأه كما يملأ الماء كل الكأس، هل كنا نجد مكانا لتحريك عضلة واحدة؟

تصبح الصورة عديمة الجدوى عندما يتعلق الأمر بوصف فضاءات غير محسوسة.

لمواصلة استعمال المفهوم لا بدّ إذن من تطوير معناه التقليدي، كيف؟

بالتذكّر أن ظاهر الفضاء الحسي الامتداد والفراغ الذي تتبعثر فيه ما لا يحصى ولا يعدّ من الكيانات والكائنات، لكن باطنه الذي يهمننا هو أنه جملة المعطيات عنه التي يبلورها الذهن عبر وسائط خمس اسمها البصر والسمع والشم والذوق واللمس. بنفس الكيفية يحقّ لنا الحديث عن فضاء الأفكار بما هو ظاهر يتمثل في المكتبات وما تحتويه من وثائق وباطن هو جملة المعطيات عن العالم التي يبلورها الذهن عبر حاسة سادسة التي اسمها اللغة.

كذلك الأمر مع فضاء الخيال، هو ظاهر تجد فيه ورشات الرسم وقاعات السينما واستوديوهات التلفزيونات وباطن هو كل ما تبلوره المخيلة من معطيات جديدة وكلها إعادة تصنيع تلك التي ترصدها الحواس الست.

أما الفضاء الافتراضي فظاهره ملايين الحواسيب وباطنه جملة المعطيات التي يبلورها الذهن وأداته طاقة جبارة اسمها الحساب في تناغم مع بقية طاقت الذهن الأخرى.

للاستحضار طول الوقت أن المعطيات عن العالم أيا كان الفضاء ليست صورا على مرآة. هي نتائج أفعال تأتيها الذات أحيانا دون ضرورة الوعي وأخرى في كامل هذه الحالة. من هذه الأفعال التي لا تتوقف، رصد سمى، تصوّر، تخيل، حسب، أي أتى عملا ما له طبيعته ووسائله وأهدافه حسب الفضاء المعني بالفعل.

المهم أن هذه الفضاءات الأربع -التي هي بمثابة الهيكل الأساسي للعالم- ليست مثل غرف البيت وكل غرفة بحدودها الثابتة ومساحتها المنفصلة. هي مثل ألوان قوس قزح التي تشكل النور. هي تصنع بتمازجها شيئا واحدا هو هذا الذي نسميه العالم. كم من إشكاليات صعبة يطرحها هذا التصور!

إذا قبلنا أن العالم معطى أفعال الذات ألا يعني هذا أننا لا نستكشف إلا ما نخلق؟

طبعاً. من أين للعالم أن يكون شيئا موضوعيا مستقلا عن الذات متقدّما على وجودها، أوجده إله أعمى لا واع تسميه "الطبيعة"، أو إله واع مبصر له من الأسماء ما للبشر من لغات.

هو ليس مصنوعا فقط من معطيات حواسها ولغتها وخيالها وأفعالها وإنما أيضا من مزاجها.

ألا نجرب عند الاكتئاب أنه يفقد كلّ مذاق وحين نرقص طربا تراقصنا السماء والأرض!

ماذا عن الاعتراضات القديمة قدم الفلسفة لهذا التصوّر الموصوف بالمثالي مع نكهة من السخرية والاستهجان؟

بالنسبة لبشر يصفون أنفسهم بالموضوعيين والماديين، لو كانت هذه النظرة صحيحة لكنا اشباه الهة تصوغ العالم حسب أهوائها والحال أن اكتشافنا مقاومته لتصوراتنا هو الذي يولد ما نسميه العلم فنسعى لعدليها على واقع بالضرورة مستقل عن أذهاننا.

نحن لا نفعل بالعلم سوى اكتشاف هذا العالم الحقيقي وتبسيط بعض من الضوء على جوانبه الموجودة من الأزل مثل الذرات والثقوب السوداء والنسبية العامة والانفجار الأعظم وباقي فتوحات علماء الفيزياء التي كانت عقول الجمال والذرية ستصل إليها لو كانت في مستوى أدمغتنا.

من مشاكل هذه الرؤيا أنها نفسها تصور من بين كل التصورات التي يطرحها الذهن البشري باستمرار... وأن فتوحات الفيزياء التي يفترض أنها ستعطينا بطاقة التعريف الحقيقية للعالم الموضوعي في تغيير مستمر والذي يغيرها هو... الذهن البشري. بدهة العالم مشروع لا معطى بما أن محتوياته لا تثبت على حال وحدود كل فضاءاته كما أسلفنا لا تتوقف عن التمدد حتى وإن تباينت السرعة بصفة كبيرة بين البطء النسبي في الفضاء الحسي والتوسع المذهل في الفضاء الافتراضي. ألا يعني هذا أننا لا نصل لأرقى تصوّر للعالم إلا ويفاجئنا حراكه المحموم بتغييرات تجعل دوما تصورنا هذا متقادما تتجاوزه الواقع الجديد؟

حجة أخرى للموضوعيين الماديين المؤمنين بأننا نعيش في عالم مستقل عن الذات. يقولون لك إذا كان العالم معطيات حواسي ولغتي وخيالي فلماذا لا أستطيع التحكم فيه أفعل به ما أشاء؟ لماذا يقاوم ما أريد مثل الطيران بذراعي أو اختراق الجدران أو العيش قرونا؟ لماذا عليّ اكتشاف القوانين التي تحركه حتى أستطيع التحكم فيه ولو بعض الشيء؟ نعم ثمة في هذا الاعتراض وجاهة كبرى لكن أليست هذه " المقاومة" التي يظهرها العالم لأذهاننا وأجسادنا نتيجة تركيبة أذهاننا وأجسادنا وتبعية من تبعات الخصائص القسوى للذات مما يؤكد ولا ينفى أن الذات والعالم وجهها نفس قطعة النقد. ثمة دوما منهم من لا ينسى تذكيرك أننا نرث العالم عن كل الذين رحلوا وإنه سيتواصل بعد موتنا مما يؤكد من جديد أنه موجود بغض النظر عن وجود الذات.

صحيح أن عالمي الخاص الذي تشكل طوال رحلتي بما فيه من تجارب حسية/ شعورية/ فكرية/ خيالية سيرحل برحلي وينتهي بنهايتي.

لكن ماذا عن عالم الموضوعيين هذا يوم يطلق آخر الأدميين أنفاسه؟

كل ما نحن متأكدون منه انه سينقرض كما انقرض العالم الذي تبلور وبلورته الديناميات وكم من جنس حي آخر رحل نهائيا ورحل معه عالمه.

معنى هذا إن صدقت هذه الرؤيا اننا لسنا أمام عالم في المطلق كما يتصوره هؤلاء الموضوعيون وإنما أمام عوالم بعدد الأجناس الحية التي وجدت والتي ستوجد في المستقبل.

حدّث ولا تسلم عن تباين نسخ العالم داخل الجنس البشري أي داخل الفضاء الخيالي للحضارات، للأديان، للشعوب والقبائل. توقف عند المستوى الفردي.

اعتبر الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الاربعون كيلومتر انطلاقا من مكان الوصول. داخل هذه المساحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للأدميين، يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود قاهرة رسمتها له الضروريات والصدف أولم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل.

خذ الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يزرع الأرض طولا وعرضا وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القسويتين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفا.

شأن أيضا بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم... بين الذي يرتحل في عالم دعاماته " فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتكز عالمه على " فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

ألا يعني هذا أن العالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها؟

أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟

وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على معرفة ما يدور داخل كل ما وجد وسيوجد من الذوات البشرية وغير البشرية ناهيك عن استيعاب كل ما في الكون من معطيات... ونحن لسنا هذا الكائن... المشكلة الأعمق أن حتى هذا الكائن موجود كمصطلح من صنع اللغة وخصائصه كلها من صنع الخيال، لا أدل على ذلك من كمية الإيمان المطلوب أي التسليم المطلق بحقيقة التصور دون مراجعة أو نقد وكمية العنف الضرورية لفرضه على من ليس مقتنعا.

مواصلة الحفر في مفهوم يبدو أنه مثل بئر بلا قاع.

إذا كان العالم معطى حواس/ فكر/ خيال / الذات ألا يعني هذا أنه موجود داخلها؟

لكننا نعيش فيه كما لو كان أكبر حاوٍ يحتوي على كل الموجود من المحتويات كالمظاهر الطبيعية والحيوانات والنبات والأشياء

والكائنات الأدمية مثلنا. ألا يعني هذا أنه موجود خارج الذات؟

كيف يكون العالم موجودا داخل الذات وخارجها؟

كأنتنا نقول إن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف منغلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجان والحشائش... وفي نفس الوقت أن نفس المحيط موجود بكل اتساعه وتعقيده في جوف هذه السمكة!!! من تبعات هذا التناقض:

إذا تناولنا مفهوم العالم كالوعاء الحاوي لكلّ المكان والزمان، لكل الكائنات وكل الأحداث، أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟

إذا تناولناه الآن كمحتوى داخل ما لا يحصى ولا يعدّ من الذوات أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟

وحيث أن الفصل بين التصورين مستحيل، لا يبقى للنص غير مواصلة رواية الرحلة والعالم تارة المحتوى الذي تخلقه أذهان أغرب المخلوقات وتارة أخرى الحاوي الأكبر المنغلق على كل الكيانات والكائنات.

أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟

هل الخيار بين الوهم والإحباط؟ وهم المعرفة المطلقة وإحباط استحالتها!

كل ما نحن متأكدون منه أن في هذا العالم الذي أفقنا فيه ثوابتٍ ومتحركاتٍ... أنه محكوم بقوانين أولية كتواجد الأضداد... أنّ من خصائصه التعقيد، التغير، الخلق المتواصل، المفاجأة تلو المفاجأة... أنه دوماً أغربٌ من أغرب تصوراتنا له... أن الأجيال وراء الأجيال من الباحثين سنتتالي وكل باب تفتحه من كهف الأسرار يفتح على سبعة أبواب وكل باب من السبعة أبواب يفتح على سبعين باب وكل باب من السبعين باب، الخ.

ومع هذا نحن نعرف هذا العالم أحسن ما تكون المعرفة نفرّق بين الوانه واشكاله نرصد تغييراته لا نخطئ ابداً في التعرف على ما فيه من روائع ومن أخطار.

حتى لا نتواصل ضحايا وهم المعرفة المطلقة لنتذكّر دوماً حدود الذهن البشري وأنه لا مجال لاستنفاد ما لا يُستنفذ.

حتى لا نسقط ضحايا الإحباط لنتذكّر دوماً أن أروع ما في العالم أنه قبل أن يكون لغزاً للفاك هو الوليمة ونحن كبار المدعوين.

**

الكتاب الثالث الطريق

قال أرجونا: إني أتحرق شوقاً لرؤية وجهك المقدس، إن كنت ترى ذلك ممكناً فأرني-يا إله الألهة-ذاتك الأزلية. فردّ كريشنا: تأملني-يا أرجونا-في أشكاله القدسية، إنها بالمئات والآلاف نوعاً ولونا وشكلاً، تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في الريح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهجة جيتا

مقدمة الكتاب الثالث

حتى لا تعبر العالم كالأمي التائه في أروقة متحف اللوفر غير واع بالكنوز التي يعجّ بها المكان، لا بدّ من حالة تمرّ بها الذات بصفة متقطعة هي التي نسميها الانتباه.

أستمع إلى الشعر بأي لغة. لن تجد في أجمل قصائده شيئا هاما إلا وكان انتباها لغرابة العالم، لجماله الأخاذ، لحيرة الأدمي وهو يتأمله يتقاسمه الانبهار والرعب.

من ينتبه غير الشاعر لهذا النوع من العلاقة بين الذات والعالم؟

"أحصد القمح (ناكاتسوكا)

وفوق ظهري

كلّ السماء "

الرسّامون هم أيضا من كبار المنتهين. موني Monet، مثلا، وهو على امتداد الشهور يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغيير الطقس وتبدّل اتجاه أشعة النور للعودة إلى الأشكال والألوان... ولا شكل يشبه شكلا ولا لون يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين التي أمضى في رسمها سنوات طويلة. فنانون أيضا من ينقبون سنينا في الغابات والبراري عن أعشاب ولحاء أشجار نادرة لخلق بهارات جديدة تقاى نوق مرتادي أفخم المطاعم...

وأیضا اللذين يبحثون عن أغرب الأصوات داخل الحواسيب لموسيقى لم تشنّف أسمع أحد من الأوائل...

ناهيك عن اللذين يقضون عمرهم بمزجون رحيق الأزهار لخلق روائح لم تجد بها قريحة الطبيعة نفسها.

أكبر ما يميّز الشاعر أو الفنان عن بقية خلق الله أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل.

حتى تعود إليك انطباعاته البكر، اخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنك أنت الذي دوت الطبول تدعوه إلى الترحيب بالرعد.

ارصد كل أحاسيسك ومشاعرك وأنت على أشدّ الوعي بما يجري حولك وداخلك.

افتح عينيك كما لم تفتحهما يوما لتتأمل-عبر ومضات البرق الخاطفة-ما تتخذة جبال السحب السود من غريب الأشكال.

لا تغفل عن متابعة تشكّل نهر من نور يقسم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا من قنطرة فوق شرخ النور.

اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسلّل بين الثياب والجلد.

تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات ألذّ قشعريرة.

أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسامّ جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشى وهناك في أعماق أعماقها، أيقظ داخلك وداخلها كل البراعم.

لم يبق إلا رصد كيف تتسلّل من بين الروابي السود أشعة الضياء وكيف تعود السّماء إلى صمتها على استحياء كأن الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها التّعالی...كيف تخرج الطيور من مخابئ لا يعرفها أحد... كيف يتسلّق بسرة خاطفة الفراغ الأزرق قوس من الألوان سرق أفكاره من لون الورد، من لون شفاه النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج... كيف يرتفع قوس النصر بلا أعمدة، يمشي تحته الأدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلّل له وتزغرد... ثمّ كيف يختفي تدريجيّا كأنّ اليد التي رسمته قررت محوه من سّورة السماء؛ لا تريده-لسبب مجهول- علما ثابتا كالشمس والقمر.

هكذا هو الانتباه: الحالة التي تستنفر فيها الذات كل وعيها لتكون حاضرة كليا لدى العالم، لكي يكون العالم حاضرا لديها بكل ما فيه من وضوح ومن غموض.

أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في الذات... أنك أفقت فيه مرة أخرى... لما تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس.

لما تنتبه إلى رائحة الأرض بعد المطر أو رائحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرة.

أن تكون منتبها يعني أيضا أنك أنعي فجأة كم من ثراء مخفي وراء المألوف المبتذل وبما وراء الفوضى من نظام وتعقيد.

أهمّ فضل وخاصة للانتباه نجاحه في دحر مشاكل الماضي بعيدا وطرد هموم المستقبل من ساحة الوعي لتتفرّغ الذات للحظة وقد تخففت من كل الأعباء.

إنها حالة الاكتمال وقد تداخلت الذات مع العالم بعد انفصام لم يكن في صالح الطرفين.

ليس من باب الصدفة أن يسمّى مؤسس دين كبير "بوذا" المنتبه.

ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكوّنا من "الساتوري" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم داخل هذه الرؤيا.

على الطرف النقيض من هذه الحالة المباركة التبدّل.

إنها الحالة التي تجربها الذات وهي أمام خوارق العالم ومعجزات انطفأت داخلها الأحاسيس اليكر، تبحّر منها الإعجاب والتعجب، زال التهيب. هي أيضا الركون إلى شعور الألفة نطمئن عبرها أنفسنا ونوهمها بأن العالم سيبقى على ثبات نفس الوجوه ونفس المناظر ونفس الأحداث.

"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)
إلا أن الحياة لا تتنوّقها كل الأنفس"

دوريا أنتبه لضرورة استعجال الخروج من تبدّل متكرّر يكاد يصبح كبعض الهواجس مزمنًا.

هذه غابة عبرتها كم من مرة لكنني أفهم فجأة أنني لم "أرها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بالنا سؤال أو ردّ.

فرصة للعودة إلى التمارين التي أحرص عليها لترويض النفس على الانتباه حرصي على ترويض الجسد بالجهد والمشي.

دوما على مقعدي أتأمل الأشجار.

أغمض عينيّ للتمعّن بكل خلايا جلدي في أحاسيس بالغة الدفاء، بالغة الرقة، بالغة المتعة تبتّها في الغابة العجيبة.

مما يقال هذه الأيام أن أوراق هذه الأشجار الصامتة لا تكف عن تبادل الأخبار وأن جذورها لا تتوقف عن تبادل العون.

من أين لي حتى ولو شحذت أقصى ما لدي من انتباه سماع تقاوض الجذور والفطريات حول أحسن السبل لاستغلال الثرى في صالح الطرفين.

فجأة يتسمّر البصر على ورقة انفصلت لتوّها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفرّ. ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟ ها هي معلقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. ينفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تندافع كالعصفير أطلق عليها الصياد وابل الرصاص. هي لا تتسلّق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودّع. تحطّ بهدوء على حدائي فأخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس. ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبتي ثم أغيّر الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتعفنة السوداء التي فقدت قبلها وقبلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الموت التغذي بالحياة وقدر الحياة التغذي بالموت.

تلسعني بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والكائن الصغير لا يريدني إلا أن أنتبه لوجوده هو أيضا.

كم كائنات حية تختبئ في السننيمترات المربعة تحت قدمي؟ دوار.

أفتح العينين استعيد موقعي داخل واقع مألوف مطمئن مكتشفا كما هو الحال بعد كل الحوادث الطارئة التي ترفع درجة الانتباه لأعلى الدرجات أن "الروتين" الذي ينقده بشدة أمثالي ليس بالبشاعة الكاذبة التي تنتهمه بها.

ربما هناك ضرورة قاهرة وحتى حكمة في التبدّل. أنت لا تتخز عضلة لتتقبض المرة تلو الأخرى دون أن تترك لها وقتا كافيا للارتخاء إلا وأنت لحظة تضرب فيها العضلة على الردّ احتجاجا على كثرة الخبز.

كذلك الأمر بالنسبة للذات. عليها أن تتصرف كالعضلة وإلا وهنت. نعم، أليست حدّة الأحاسيس والمشاعر وكثرة المعلومات منهكة للروح والجسد؟ نحن لا نستطيع البقاء طوال الرحلة فاغرين أفواهنا دهشة أمام عالم رائع ومرعب في حالة أشبه ما تكون بالتعبّد وإلا لما استطعنا مواصلة المهمة التي جننا من أجلها هذا العالم.

هكذا قدر علينا أن يكون نبض الرحلة انتباه فتبدّل فانتباه الخ وذلك إلى نهاية الطريق.

ومن ثم ضرورة إعادة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجّه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين إن لم يكن كل زمن الاستكشاف فعلى الأقلّ أغلبه.

**

مأدبة الله

في أقدم ملفات استكشاف الفضاء الحسي تقول "ما" للطفل، تغريه بالطريق:
- نسيت أنك ولدت هناك حتى وإن كبرت في هذه الصحراء الملعونة؟ نعم هناك بعيدا نحو الشمال توجد أرض مباركة كم
ستحب الاختفاء داخل أعشابها العالية.

في هذا الملف ينتبه الطفل للفرق الهائل بين الصحراء والسهل وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضرا رفضه
لأرض الأعمام ووشحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا.
ها هو يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع
واللامتخيل. صورة أخرى له وهو يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله
على كائنات ملّت الطفوليين أمثاله.

سريعا تطفنه لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكورة شفاقة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد
التأني يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها في التقاطها بذبابة اللسان.
لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجارح للعشب.

أه، العشب! ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بفمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل ليصق
بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر.
يأتيه أخيرا ألدّ إرهاب فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنصوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق والساعات. الاكتشاف
المذهل الآخر في يوم فاض بالخوارق والمعجزات أن سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحباً تتخذ
كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد
طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.

كالعادة تدافع أسئلة التي لا يجد لها جوابا: أين يفّر السحاب، هل من وسيلة ليجلس فوقه يأمره بحمله إلى حيث يريد؟
شيئا فشيئا يتسلل الهدوء إليه فتثقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية أمّ وجدة تتحركان بقلق بين الحشائش العالية تبحثان عن
طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.
يتردد صدى صوت لم تنسى الذاكرة أبدا ما فيه نبيرة الحزن.

-أرض جدتك يمشي فيها المرء أياما بين حقول البرتقال والزيتون والعنب إلى أن ينتهي به المطاف إلى البحر.
أه البحر! يا إلهي، كم ينقصني هو الآخر! كم كنت أحب الذهاب إليه طفلة مع جدّتك وخالتك حميدية لغسل الصوف بداية كل
خريف!

يسترجع الكهل أول لقاء الطفل مع البعير المبهّر المرعب وهو يتقدّم بخطى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف مبهم.
تلك الليلة -وقد أصبحت العائلة تسكن على مرمى حجر منه -سألت "ما" ابنها ألا يبخل عليها بتفاصيل تعرفه على البحر الذي
قاده إليه "با" بنفسه.

فتح الطفل ذراعيه عله يبلغ كم هو عريض هذا البحر، كم هو متسع، كم هو ملآن بالماء ... فسقط الذراعان والعجز هو
الشعور. من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى الأفق؟ كيف يصف هيبه دويّ البحر
وأواجه بين مدّ وجزر؟ كيف يقنع الأمّ أنه رأى بأمر عينيه سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضانها ثم اختفائها فيه!
كم يكره أن تظنه "ما" مبالغا أو كذّابا!

تلك الليلة أب الطفل إلى ممدعه يتساءل هل سيلفظ البحر الشمس مجددا أم هل سيحتفظ بها نهائيا فتغدو كل أيامه ليالٍ بأشباح
وكوابيس.

من الغد ثواجه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكّد لها، أنه اكتشف أين تذهب الشمس عند المغيب ولماذا تبدو لامعة نظيفة
كل صباح.

تتعمق الفناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلّق الأمر بالبحر.
يتجدّد اللقاء بين العاشق والمعشوق والطفل يكتشف لذّة العوم في موج هادئ أيام الصيف وكم رائع أن يحرك جسده وسط
المياه الشفاقة في الاتجاه الذي يريد كما لو كان هو الآخر سمكة جاهلا أن الأسماك خلافا للبشر لا تموت غرقا.

ذلك الصباح المشؤوم والعطلة الصيفية في آخر أيامها يغافل الطفل المتهور أمه مصرا على مواصلة التمتع إلى آخر لحظة
بالبحر رغم رداءة الطقس وخلوّ الشاطئ من رفاق اللعب.

يلقي الطفل بجسده النحيل وسط أمواج صاحبة قليلة الرفق على غير ما تعود.

ما هي إلا دقائق معدودات إلا وهو يشعر أنه لم يعد يقوى على إبقاء راسه فوق السطح، أنه يختنق بالماء المالح، أن البحر بصدد ابتلاعه.

يتعالى منه الصراخ: النجدة! النجدة!

ذلك اليوم شاء حسن طالعها وجود رجل يجيد السباحة في المكان الضروري واللحظة الواجبة انتشلته من أشدق البحر يرتجف بردا وخوفا ويسعل كما لم ولن يسعل فيما بقي له من العمر.

هكذا تواصلت القصة التي اكتب وكان بوسعها أن تنتهي بخبر في بعض الصحف الشعبية من نوع " غرق طفل في التاسعة في شاطئ حمام الأنف، أمه تعلق باب البيت على نفسها منذ أيام ترفض تسليم جثة ابنها للدفن".

كم من قصص انتهت عند أولى صفحات كتاب واعد... وأخرى عند أولى الجمل... وبعضها انتهت في سلة المهملات والكاثب لم يخط عليها حرفا واحدا.

المهم أنه منذ ذلك اليوم وفويبا البحر ساكنة في وعي ولا وعي الطفل والكهل والقرار مأخوذ أنه لا عودة أبدا للبيع المخيف لا سباحة ولا سياحة.

حقًا! ما أكثر الوعود التي نأخذ وما أقل التي نلتزم بها. خاصية أساسية للعالم ألبس قناع البحار أو الجبال أو الصحاري أو القطبين أو الفضاء اللامتناهي: إغراءه الذي لا يقاوم هكذا يتسارع الأدميون إلى أخطر حالاته وأشكاله يرتمون في أحضانه جاهلين أو متجاهلين أن ضمة الحبيب مثل جماع انثى حشرة يسمونها فرس النبي والمعشوقة تلتهم رأس عاشقها جامعة بين لذة الأكل ومتعة الجنس.

أخيرا عرض المحيط غلب شوقي إلى أروع مظاهر العالم أعمق المخاوف.

يحدثك الأقارب بتهديب ورجل عن عواصف بحر كانت تذهب لها الطفلة "ما مع جدتي لغسل الصوف. أي رعب مقدس كان سيداهمهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المحيط الذين يسمونه لسبب عجيب... بالهادئ!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلق جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع ذلك لأن الخاصية المميزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكف عن الصعود والهبوط. لمن لا يقدر أهمية هذه الملاحظة الثاقبة ما عليه إلا تصور حالته وهو يمشي والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، يغور به فجأة نحو أول حفرة ثم يغير رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه ليعود به اللعين إلى مستوى الأرض المنبسطة، يواصل مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه. النتيجة أنك ستنزّل منه أمام بيتك تترنح فيصقك الجيران بعرييد وضح النهار.

هل تقدر كم أنت محظوظ والطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحية دوار البر والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمّله أي مسافر.

يتسارع الطلوع والهبوط وتتسارع إلى الذهن المتزايد قلعا أن قاع البحار لم يتوقف منذ آلاف السنين عن استقبال حطام ما لا يحصى ولا يعدّ من سفن الأدميين... وأنه مستعدّ لإيواء حطام آخر ليس له مشكلة اكتظاظ.

أن يخرج حانون من ثبات قرطاج إلى حراك البحر مرة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مرة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمدمن! نسي غرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربانا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُجّي من ذاكرته كل ما عانى، عائدا للغول بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، ولركضت إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالجبال وبالبراري.

لله درّ فرسان الريح والموج الذين ركبوا ظهر هذا الحصان الجامح الأجيال وراء الأجيال لا يثنيهم كم من مرة ألقى بهم في غياهب اليم. حقا إن شجاعتهم حقا أضرب من التهور أو الجنون! لم تكفهم أهوال البر ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البيع المخيف، وحتى لمواصله حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟ ... الملاعين المحظوظين، عرفوا أروع وأخطر وجه العالم... اخترقوا البحار والمحيطات لا خارطة ولا بوصلة، عرضا وطولا على مراكب بدائية ولم يتركوا لي إلا هذه الباخرة السياحية المجهزة بكل وسائل الراحة لأجرب فيها فقط الدوار والغثيان والتقيؤ...

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبت عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلتنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

يحتدّ الدوار والغثيان. تتحرك السوائل المشبوهة تريد التفجر من الفم قنباً كريها.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخلني لدى سمّيك السائل! اللعنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان المرعب وأي معنى لوجود بدوي في عرض المحيط؟

عندما تقلّب الموضوع من كل الجوانب ليس من الصعب القول بأن البحر هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل وبدؤه الدلافين والسلاحف وكل أجناس الحوت والحوت.

هم أيضا يرحلون هم أيضا بحثا عن واحات مبعثرة في كل هذه الشساعة المرعبة يجدون فيها الكلاً والمرعى وجماعا يُجدد الحياة.

ما يقال أيضا إن هذه الواحات حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كائنات تنبارى في الغرابة والإعجاز تتدافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان.

مما عاد به الرحالة الذين ذرعوها هذه المساحات الشاسعة من قصص لا تكاد تصدّق، إن الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض.

قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك.

تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، لبتلعها في طباق أعمق الأخطبوط العملاق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكّي الحوت الخرافي لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الأدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إربا إربا.

أنا الآن الطريدة والبحر الصيد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفاره.

أي قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية هذه السفينة السياحية الصغيرة رأسا على عقب؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

لا يبقى عليّ إلا أن أغمض العينين وأن ادفن رأسي بين ذراعي مستسلما لأفكار تتدافع في فوضاها المعتادة.

ومع هذا... ومع هذا... فضل البحر على البشر لا مثيل له وهو يثير فيهم أكثر الأحاسيس والمشاعر حدة وعمقا ورهافة وتتوعد وهو يستنفر فيهم أقصى طاقات التحمل والصبر وهم يواجهون التحديات التي يختبرهم بها بشحذ كل ما في جعبتهم من مهارات، من نكاه، من فضول لا يقاوم ومن جرأة لا تتراجع أمام كل ما في جعبة هذا العالم من مهالك وأخطار.

عاد إليه حانون كما عادوا كلّهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح... ربما عاد لأنه لم ير أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف روعة أروع من سطح البحر ليلا عندما يوشحه طلوع القمر بنهر من النور.

فجأة تصرخ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

أه، الحوت الذي ركبته هذه السفينة الصغيرة عليّ أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأت له رحلته في هذا العالم تحت اسم موبيديك.

أرفع رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرج من بين ذراعي أغلقنا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعوداً وهبوطاً.

تعود المرأة إلى الصُراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان!

كُفّي عن الزعيق لوجه هرمان ملفيل. نعم، لقد رأيت الذيل الجبار في خيالي بعد أن أفرغْتُ كل ما في معدتي على فستان عجوزٍ أخرى أشبعتني نظرات ساخطة.

أليست هذه السفرة أحسن رمز لرحلة الحياة بما هي مغامرة طائشة على أمواج هائجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشداقها لالتهامنا كل لحظة غير قشة طافية نركبها ونحن لا نتوقف عن التخاصم فوقها نتقياً على بعضنا البعض؟

أخيرا المرفأ. انتهت السفرة اللعينة التي دفعت فيها ثمنا باهظا لأقضي يوما من أثقل وأغبي ما عرفت من الأيام. أخرج من السفينة الصغيرة أمشي على الرصيف وكأنني خارج لتوي من الحانات التي يتهمني أغبي خصومي زورا وبهتانا أنني من روادها بل حتى من ساكنيها.

أدير الظهر للبحر وقد أخذ القرار. نعم لن أعود له ما حبيت....

ما أكثر القرارات التي نأخذها وتتكفل الحياة بالسخرية منها.

ها أنا مجددا بعد عقود في جوف سفينة صغيرة أقوم نفس الدور والغثيان والبحر الهائج يعبث بالسفينة عبث القطّ بالفأر قبل التهامه. هذه المرة السفرة ليست سياحة بريئة وإنما مغامرة قد لا تحمد عقباها والحرب برّا وبحرا على قدم وساق.

والليل في آخر ساعاته يتعالى الصراخ من البحارة السويديين وهم يقاومون بأيديهم العارية وحدات عسكرية مدججة بالسلاح هاجمت السفينة واستولت عليها في عملية مسرحية خاطفة كالتي لا تراها إلا في الأفلام الرديئة.

مرة أخرى الطريدة والبحر الصياد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفاره. أي قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية السفينة الصغيرة فما بالك أن يطلق عليّ وأبل من الرصاص كما حدث لبعض من سبقوني في مثل هذه المغامرة؟ أليس صحيحا أن ما نهرب منه طوال حياتنا لا بدّ أن يلحقنا يوما ما؟
تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.
فجأة ينكب عليّ رجل ملثم يحمل مدفعا رشاشا ليقول لي بعربية سليمة ولكنة مغربية واضحة: سيدي، لا نريد بك شرًا ولو أحببنا لسلمانك للبحرية المصرية التي تنتظر الهدية على بعد ميل واحد. سنجرّ السفينة إلى ميناء أسدود ثم نرحلك إلى حيث تريد.

على متن الطائرة أهدق طويلا من النافذة في قوافل السحب متمتعا بشعور الأمان والوحش الرقيق تحتي بما لا يقل عن عشرة آلاف متر. التفت للراكب الجالس بحذوي لأتأكد أنه مشغول بهاتفه النقال ثم أخرج لساني للبحر ولسان الحال يقول أفلتت من برائتك للمرة الثالثة، لا تعوّل على فرصة أخرى لست مثل المجانين الذين يحبون استفزازك طيلة رحلتهم.
من قال إنني سأفي بنفس الوعد الذي قطعته على نفسي أكثر من مرة والبحر معلم من أروع معالم هذا العالم؟
نعم سأواصل استكشافه لكن على طريقتي الخاصة.
بالمناسبة، من قرّر أنّ على الأدمي شقّ الطريق على سطحه؟ أليس من الأسلم المشي على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هائمين على وجوههم آلاف السنين يتبعون الشاطئ لا يحددون عنه إلا اضطراراً، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون؟

نهجا على سنة أوائلنا كرم الله وجوههم وتيمنا بسيرتهم المباركة وانتفاعا بحكمتهم وحنكتهم فإنني سألتزم من هنا فصاعدا باستكشاف البحر لكن مشيا على رمل شواطئه.
ليُسمح لي بملاحظة تهمّ كل المرتحلين فاتني التركيز عليها وهي أنه لا أصلح لاستكشاف هذا العالم من المشي.
من مزاياه الكثيرة أنه مجاني وتحت الطلب في أي وقت نشاء، وأنه فرصة للاختلاء بالذات.

لا أتذكر أن فكرة هامة أتتني إلا وأنا أمشي، ولا أن الفوضى التي بداخلي، اكتسبت بعض النظام إلا إبان المشي.
ومن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبة" وهي أقل إثارة للعوانية، الغريزية عند البشر. الأهم من هذا كله أنه يعطي للذات المنتبهة الوقت الضروري لرصد بعض ما يحفل به الطريق من عجائب وغرائب. كم كان أوائلنا محظوظين والعالم يكشف لهم روائع خطوة بعد خطوة، وهم كمن يتذوقون أفخم مآدبة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غصّوا ببعضها أحيانا.

هكذا سأطوف حول البحر الذي عشتُ سنينا على ضفافه وتعلّاي بيدي بنظوني مرفوع إلى الركبة وقدمي في الماء الدافئ إلى الكعب، أملاً عيني من موجه ومن زبده دون حاجة لتذوق طعمه.
يوم أكمل تأملي له من كل الشواطئ التي تحيط به سأشرع في طواف حذر حول الذي يصفونه بالأحمر، ثم اكنفي من رحلة الاستكشاف بمحيط أو اثنين نظرا لضيق الوقت وكثرة المعالم الأخرى التي تستأهل التوقف عندها. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمّد من يتوجّب له الحمد أنني لسْتُ الغريق بل وفي مأمن حتى من البلل.

*

يجذبني من ذراعي ريفي ومضيقني، ابن المدينة التي تُشرف عليها هضبة طبقت شهرتها الآفاق.
- هيا، ما زال أمامنا بعض الوقت لفسحة قصيرة على النهر.
- لا تستعجل عليّ، لا أكاد أصدق أن بشرا عاديين تجمعوا في هذا المكان بالآلاف طيلة ثلاثة عقود لرفع هذه الجبال من الأحجار بأيديهم العارية. يا للمهندس العبقري الذي أمر الصخور أن تتخذ أشكالاً هندسية لا وجود لها في الطبيعة كأنه يريد أن يزايد عليها في فنّ خلق الجبال.
- الأغرب أن اللذين هندسوا وشيدوا هذه المعالم الجبارة التي تتحدى الزمان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحملوا كل ما تحملوا من جهد، من عناء، من ألم من حوادث مروعة، فقط ليتمتع بعض الفراعنة بالخلود أبد الدهر.
ليس الأقرب للحقيقة أن الذين شيّدوا هذه المعالم الفخمة الضخمة لم يفعلوا ذلك إلا لإثبات نواتهم وسعيها لخلودهم هم...
أما الفرعون فكان مجرد واسطة مهمته توفير موارد الأرض وضمان بركة السماء؟

أروّع ما في هذا المعلم القار من معالم العالم، أنه ككل نهر يحترم نفسه لا وجود فيه لظاهرة مزعجة اسمها دوار النهر.
تأتي عليّ حالة من الارتخاء اللذيذ وأنا أستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبّر الحياة: جلوسا على كرسي مريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء، نتأمل من بعيد -وفي أمان- روائع العالم وفضاعاته.

- هيا يا رجل، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.
- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوره بهذا العرض!
- لهذا تسميه اللهجة العامية "البحر". أهم تحدّ طرحه على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضُهُ هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أمامه تتعقبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة. حدّث ولا تسل عن طوله وكم أرق أكبر المغامرين وهم يبحثون عن منبعه.
- المنبع! لماذا لا تدير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فلماذا لا نغتنم سماحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث وُلد وولدت معه حضارتكم.
- يمازحني مضيّفي:
- كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. أخشى أن نتأخّر كثيرا على العشاء فنزعل "الولية مراتي". ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.
- رحماك، اترك لي بعض الأوهام.
- تدكّر أن الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كأن ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيويته. هذا النهر شيء جد مختلف في شبابه وطفولته أو هو يتشكل في رحم المجهول.
- نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالم لا يريد بنا أبسط إزعاج.
- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرك وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.
- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلتُ لنفسِي: أخيرا وجدتُ الجزء الآمن من الطريق وتقول لي: لا شيء من هذا القبيل موجود. حرام عليك. طيب، ماذا سنفعل الآن بالأدميين في بحثهم عن المنبع وقد توقّف بهم النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحاب من البعوض، تترصدهم تحته التماسيح وعلى ضفته ينتظرهم البشر أخطر الكواسر.
- لا خيار لهم سوى أن يسبحوا بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظرهم أسد فارغ المعدة نافذ الصبر، وإن نجوا بجلدهم، عليهم مواصلة التوجه دوما نحو المجهول.
- يا رجل، رحمةً بالمساكين! اختصر. ما الذي حصل للمغامرين الأشاوس وهم يواصلون بحثهم عن أصل الشيء؟
- ضاعوا في ألف اتجاه. لكنهم لم يكفوا عن التردد: ما هي إلا بضعة آلاف من السنين قبل أن نكتشف هذا المنبع اللعين، ماذا يظن نفسه هذا النهر؟
- من أين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هذا السؤال الذي أوحى به النهر أبا لكل الأسئلة التي تلاحق الأدميين: من أين أتى الأدمي، من أين أتى العالم؟ من أين أتى الزمان؟ ... أليس النهر من تثبت لنا تصوّراتنا الساذجة عن هذا الزمان، وأنه مثله يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، لا قدرة لأحد على تثبيته في نقطة ولو أوثقته بكل سلاسل الدنيا والآخرة.
- لا تقل لي أن الرّواد لم يفكوا اللغز ولم يكشفوا السرّ؟
- بلى، كتبت عشرات الكتب في الموضوع وتمّ منذ قرن تقريبا اكتشاف منبع النيل بعد ما لا تتخيل من مغامرات.
- الملعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي هربتُ منه أخذ المترو كل صباح لأسمع تقاهات الناس يصرخون في نَقّالهم!
- كأنّي بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتّ عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري والمستنقعات والأدغال لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما سُنت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.
- أعود لممازحة مضيّف كريم.
- لا تُطل، يقال إنه ينبع من بحيرة لا أتذكرها ... اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟
- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. يُقال إنها الخزان الرئيسي لكل ما يصلنا من مياه. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قطع "البوزل".
- متأكد أن كل القطع جُمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه يحرمّ أمرا كهذا.
- ثمة صور التقطت من الفضاء وكم من برهان آخر.

- طيّب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به البحيرة الأم وما تفرع عنها من بحيرات لتلد نهرك المقدس؟
 - من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها معروفة وموثقة.
 - وقبل ذلك.
 - ماذا تقصد؟
 - فهمتني، أين كان ماء ثلوج قمم الجبال؟
 - يضحك مرافقي.
 - في السحب طبعاً.
 - وقبل تجمعه في السحب، من أي بحر تظن أنه انطلق؟
 - أتصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.
 - إذن أنت تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوماً منبع هذا النهر ولا أي نهر آخر. محكوم علينا أن نهمل دوماً بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولّد من الأسئلة.
 - والآن رحماك، بعد شهوة المنابع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تقدّر عليه والبحر الحقيقي ليس بعيداً وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر. في طباع هذا النهر شيء يذكّرني بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسمّى "أوكافانقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من وثقوا أنه يعرف طريق البحر.
 - لست متأكداً أنه مستعجل للذوبان والتلاشي في مياهه. ألم ترّ على الخريطة حبه للتعرّج واللفّ والدوران. هل رأيت يوماً نهراً يرسم لمساره خطاً مستقيماً؟
 - طيّب، لننّبع بتعاريفه. ما زال أمامنا بعض الوقت حتى وإن كنت غير مستعجل لرؤية البحر لأسباب ربما أشرحها لك يوماً.
 - أمامه هو كل الوقت وقد قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلينا الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن "الولية" تزفر من الغيظ أمام أكل برد منذ ساعات.
 " هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)
 ميقات كل العصور
 راحل أبداً باتجاه الشمال
 هو النيل
 يعبر هذي التخوم... وتلك البحار
 وذاك الغمام... وحدّ الخيال
 يسافر في اللانهايات
 ويبقى على شفّته السؤال
 عن نخلة يتناهى إليها المساء ويطلع منها الصباح
 وعن تعب غامر يتساقى به الطهر فوق الحقول الفساح"

*

قبل امتطاء الطائرة، يمطرنى شرطي بزّي مدني بأسئلة غريبة وهو يقلب أوراق الجواز:
 ما سبب سفرك لحرّيتستان؟ زرت قمعستان وفسادستان وقبحستان وإرهابستان. ونفاقستان أيضاً! ماذا فعلت في هذه البلدان؟
 كنت كمن يسمع الأسئلة التي لا يريد الجهر بها: من تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل تنوي قلب نظام الحكم؟
 هل أنت إرهابي، هل تصلّي؟ هل ستخطف الطائرة؟ هل أنت مشبوه في بلدك؟ هل تحمل قنبلة؟ لماذا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقانون؟ التأشيرة حقيقية أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكّد أنك لا تحمل فيروسات أو قنابل؟

تُطيل شرطية مطار الوصول تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحدّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهّم هذه المرأة بدهاءة تقديرٍ مدى خطورتني على أمن شعبها ووطنها المفقدي.
 تتوجّه إليّ الموظفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقلبياً وتمعناً.
 - أنت لا تنوي زيارة مزرعة؟ أنت لم تأت بفواكه مشبوهة وبذور غير مرخص بها؟ انتظر سأسأل رئيسي.

من حسن طالعي أن هذه المرأة لا تقرأ في الأذهان لا تعلم أن شعبي كل من أقاسمهم ويقاسموني نفس القيم أيا كان عرقهم ودينهم وأن وطني الأرض وما وسعت... لو علمت من هذا المائل أمام سلطتها البيروقراطية المطلقة لقادنتي مباشرة لغرفة الإيقاف بتهمة الانتماء لتنظيم سرّي والتآمر على الوضع الفكري-السياسي-الروحي العام.

كان الأوائل عندما ينزلون بشاطئٍ مقفر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفينتهم. داخلها ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر آدميون أكثر منهم خوفاً يقتربون من بضاعتهم يقبلونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون بدورهم ليعودوا يوماً -إن عادوا- بأعلى ما يملكون يبيغون تبادل الأشياء وخاصة حقن الدماء.

بالكاد تغيرت الطقوس والحذر الخائف من الشبيه المختلف قارّ ثابت.

تعود الشرطة بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والنقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:

- تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعلنا نحتاجك في أمر ما.

أخيراً هذا البلد... أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جئته متعللاً بالبحث عن العلم والحبّ والحال أنني لم أقصده إلا للضياع في غاباته.

أخيراً يمكنني أن أذرع غابة فيها من الأشجار المذهلة علواً وتنوعاً ما يشئت انتباهي لا اعرف على أي أعجوبة اركز.

أتوجّه لرفيقة المقطع الجديد من الطريق مداعبا ومستقرّاً.

- من الظلم أن تتمتعوا وحدكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري الفاحشة. بدأت أخطط للغزو والنصر المبين.

المشكلة أن جماننا لا تعرف السباحة. كيف لها عبور هذا المحيط الذي حفرتموه -من الواضح- تحسباً لغزونا؟

فجأة أصرخ بشتائم من حسن الحظّ أنّ مرافقتي لا تفهم كلماتها.

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!

- حذار، هذا الذي دقت أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دماً. ألا زلت مصراً على غزو غاباتنا؟

- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قل لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد؟!

- إنه حشرة كلفت شعبنا من الموتى ما لم يكأفنا أصحاب الأرض الأصليين. أقدم لك البعوض الأكبر ونسميه "المارنجوان".

- بعوض! تسمون هذا الفيل الطائر بعوضاً؟ طمئني. هل النزل محمي ببطاريات صواريخ مضادة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجدداً إلا مسلحاً ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى. سأحتج على وكالات الأسفار.

ما هذا الغش؟ من تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجثة والحال أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش بأنياب تقطر دماً على نصف البطاقة -على الأقل- ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايل موصوفة.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال.

- لا تعجل بالاتهام واللوم. كل ما هناك أنك أتيت في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

- تقصدين أنه انتظرتني حولاً كاملاً وأنه ترصدت قدومي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم.

إنه عالم رائع حقاً، لكن لا موطئ قدم فيه إلا وحوالك كائن يחדش أو يقضم أو يعضّ، وإن لم يجد ما يمتصّه منك، أصدر طنيناً مزعجاً أو رائحة كريهة لمجرد المضايقة. القاعدة هي نفسها أينما وأبيت وجهك: قناع جميل آخر لنفس الليث البارز الأنياب وأنت كالعادة تحسبه بيتسم.

تهمس المرأة في أذن رجل قادم من صحاري ما وراء البحار وضعته الصدفة على طريقها ووضعها الأقدار على طريقه:

- كفاك تأمل هذا الشلال.

ترفع من صوتها، تهزّ الحالم اليقظان من كنفه:

- تعال؛ مضى من النهار نصفه وثمة أماكن عدة أريدك أن تراها.

- لن أتحرك من هنا حتى...

- حتى ماذا؟

- حتى ينتهي تدفق هذا الماء. لا أصدّق أنه سيسيل دون توقف... اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه

تضحك رفيقة الطريق إلى أن ينهمر الماء من عينين بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

- لن تموت من العطش فترة الانتظار... جو عا بالتأكد. لا تقلق الماء في هذا البلد متوقّر في كل مكان، وعلى كل الأشكال وله كل الأصوات، تعال الآن.

وفي أقدم ملفات الذاكرة عن أولى العلاقات بالماء.

زارت العاصفة أم لم تزار يجب أن يخرج الطفل لأحبّ أماكن الواحة. يصرخ في أمه محتجا، مهددا، مبتزا ومتوسلا
 - أريد أن أذهب للعين حالا... حالا... الآن... الآن أريد السباحة في العين مع اصحابي.
 - نعم ستذهب للعين بعد سكون الريح شريطة أن تعديني أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.
 - وهل يجب أن أقتل الماء كما تفعلين عندما تلتئمين الخبز قبل أكله؟
 يتعمق ربع الابتسامة. تنفجر "ما" ضاحكة إلى أن تسعل:
 - حقا أنت "حلوف" كبير، لا يفوتك شيء. لا، ليس عليك أن تقبل الماء، أكرمه فقط بعدم تبذيره. انظر ما يتكلف جدك حمد
 وحماره عنتر من عنتر ليكون هناك دوما في القرية والجرة ما تشرب.
 تهزني مرافقتي من كفتي.

تعال، ثمة أماكن أخرى أريدك أن تراها.
 - لنبحث عن أصغر جدول وتحملي صمتي وجلوسي عنده ساعات. حتى الموسيقى لا تطربني مثل ما يطربني خرير الماء.
 أليس صاحب أروع الأصوات وهو زمجرة الشلال، رقرقة الجدول الشادي، خرير نافورة وسط الدار، صرير الثلج
 تحت الأقدام، نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم... هل النوتات التي تنطلق من البيانو غير محاولة لتقليد
 موسيقاه! ... يقولون أنه بلا طعم ولا أطيب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون أنه بلا لون
 هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان... يقولون أنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف،
 وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء... ويقولون أنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشم... إنه مصدر
 الأحاسيس الأشدّ عمقا... الأبقى في الذاكرة منذ بدأت تسبح فيه داخل الرحم... هو الذي يستحم فيه الحجاج وبه يعمد
 الأطفال... معلّنا لمفهوم تدفق الزمان وهو النبع والنهر والبحر... الذي خلق الله منه كل شيء حيّ حتى وإن وضع فيه كل
 أسباب الموت... قنوتنا ونموذجنا لكل مكارم الأخلاق.

وشاهدت كيف النهر يبذل ماءه فلا يبتغي شكرا ولا يدعي فضلا (إيليا أبو ماضي)
 وكيف يزيّن الطلّ وردا وعوسجا وكيف يروّي العارض الوعر والسهلا
 تجيء إليه الطير عطشى فترتوي وإن وردته الإبل لم يزجر الأبل
 ويغتسل الذئب الأثيم بمائه فلا إثم ذا يمحي ولا طهر ذا يبلي
 أنظر إلى الماء إن البذل شيمته يأتي الحقول فيروبيها وبحبيها
 فما تعكر إلا وهو منحيس والنفس كالماء تحكيه وبحكيها

أفقر من جديد وأفزع الشنائم تتدافع مجددا على لساني:
 - بجدّ، كأنّ لهذا اللعين مشكلة شخصية معي، عجلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيرت رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى
 الطبيعة.

- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.
 - تمزحين!
 - الظاهر أن "المارنجان" مصرّ على بقائك تحت تصرفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي
 يؤشر لاتجاه النزول. انظر مليا لعلك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر
 بعض الوقت.
 - وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار قد أكون مضطرا إلى مصّ دمك أعود ما يأخذني مني فيلكم الطائر.
 - من هنا الطريق.

تشير مرافقتي إلى الخارطة بأصبعها لتفتعني بصواب القرار، لا تعلم أنه لا أجهل مني بقراءة الخرائط علما وأني لا أعرف
 حتى بسطها في الوضع الصحيح.
 - ما نحن بأمس الحاجة إليه بوصلة وخريطة مفهومة.

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبوقنفيل وكوك وقليلهم بحارة العرب والفيكينج وجزر
 المحيط الهادي بوصلة جدية وخرائط صحيحة لاستكشاف أصقاع عالم لم تكن لهم عنه أدنى صورة واضحة؟ كلهم
 مع ذلك توغّلوا في الأرض ذات الطول والعرض وفي البحار والمحيطات اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق
 مجهول إلا القليل من المعطيات والكثير من التهور ووراءه أجمل خصائص البشر: الفضول.

أعود لمداعبة امرأة لم تعد واثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف مشينا فيها جلّ النهار.
- على ذكر الخرائط، هل تعلمين أن الأوائل- غفر لهم أمون رع وسامحتهم آلهة كل أساطيرنا-كتبوا دليلا مفصلا اسمه كتاب الموتى حتى لا يضلّ آدمي طريقه في الآخرة ولا أحد منهم فكّر في كتابة كتاب الأحياء حتى لا نضلّ نحن طريقنا في هذه الدنيا؟ نُقصُ فادح قررتُ أن أضع له حدًا.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

- بربك من تسلّم عند الإفافة مثل هذه الوثيقة الضرورية للرحلة؟ أليس وضع المرتحل في هذا العالم شبيها بوضع سائح يفيق في مثل هذه الغابة وهو عارٍ، جائعٌ، خائفٌ، جاهلٌ من يكون وماذا يفعل في هذا المكان وما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يُؤكل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي تتحدث عنه كل أساطير الأدميين.
- يا عيب الشؤم، حرام عليكم يا أوائل، والله عيب عليكم.

-ثمّة مشكلة أخرى إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الأدمي وكتاب الحياة لحُسن التعامل معه: غياب الأدلاء أصحاب الكفاءات العالية. أين هم؟ الغالبية العظمى مبتدئون يتعلّمون بالتجريب على الزبون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية-من يتسلّم القادم الجديد فيرميه خفية في مَصَبّ البلدية، أو يدخل به أول سوق يبيعه بمقابلٍ بخس، أو يجعل منه عبداً، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نفضي جلّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟

-حدّث ولا تسل عن الأدلة الكاذبين وخرائطهم المزيفة مثل التي كان ينشرونها الاسبان في عصر الاكتشافات البحرية ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أسواق أوروبا.
- أه تعرفين هذه القصة، من حسن الحظ أن هذه الخرائط المزيفة أوصلت أجدادك هذه البراري لبيدوا الهنود الحمر المساكين بدل أن توصلهم إلى برارينا لنكون نحن من يبيدون.

تهزّ رفيقة الطريق كتيها وهي تطوي بعصبية لا يخفيها خريطة لا نفع منها.

- لنتنقّس إذن بهدوء، ولنعمل الفكر لتحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي اخترنا؛ لا نحيد عنه قيد أنملة.
-كفى. انتبه على الأقل لعلامات الطريق. لقد رسّمته، بل قلّ نقّسّته على أرض الغابة الخُطى المسرعة لأجيال من المغامرين الحمر والبيض. أشعرُ أنّه قريب جدًا منّا.

- إن رأيته فسأقتل أنني لم أراه.

- لا تتهكّم. نحن فعلا في ورطة.

- أنت في ورطة، أمّا أنا...

- لوجه الشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مقترقات الطريق.

أكبر مشاكلنا مع هذا الطريق اللعين. أذهبُ يمينا أم يسارا؟ أرجعُ إلى الوراء أم أبقى ساكنا بانتظار المفترق المقبل؟ كيف الخيار وجلّ ما تعرفُ عن الطريق وتقاطعاته مصدره تائهون أكثر منّا.
يتواصل المشي وسط أليافٍ وأغصانٍ شرّعت في الوجه سيوفا.

-لا تخشي شيئا، خدامك سها عن إعداد تعويذة ضد "المارنجان" لجهله بوجوده، لكن جعبته مليئة بكل التعاويذ الضرورية لمواجهة أخطار الغابات.

- التعاويذ؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: "ابرا دابرام باتو باتتي يتاي متغقى".

هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف العفاريت ويصلح أيضا ضدّ العبيّة، وجد الثوم أم لم يجد.

أما تعويذتي رقم 543 "بلبلا بلبلا" فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه.

ثمّة أيضا التعويذة رقم 798: "لايناعي لايس". هي صالحة ضدّ وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة الميتافيزيقية وحبوب البشرة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن عمرا معيّنًا.

- وتعويذة... لنقل 987؟

- أه هذه ضد الشرق الأوسط.

- الشرق الأوسط!

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء وأنا أمثل لها نقاش من وحي الحفيظة والخيال.

- غريب، لم أعد أسمع أخبار الشرق الأوسط وهو في كل نشرة منذ نصف قرن

- الشرق الأوسط؟ لم أسمع يوما هذا الاسم، هل هذا ملهى ليلي لا أعرفه؟

-أتسخر مني؟ الشرق الأوسط منطقة جغرافية، أنظر على الخارطة.

- أنظر أنت...

- اللعنة، أين ذهب الشرق الأوسط؟ أنا متأكد أنه كان هنا بمشاكله المقرفة التي لا تنتهي.

- هل جننت؟ هذه محمية طبيعية لا يوجد في صحاريها إلا البعير الوحشي وغابات الأرز فوق القمم، وهي ممنوعة على السكن منذ قرون بقرار الحكومة العالمية.

تبتسم مرافقتي.

- إذن أنت تعبر العالم ملغيا بتعاونك كل ما لا يعجبك، يا لك من محظوظ.

- المشكلة أنني ربما خاطرت بمستقبلي فيه وقد تجاوزت كل الحدود بالسخرية من الشرق الأوسط. تصوري إفاقتي في العالم الآخر لأكتشف أوزيريس وهو يحدّق فيّ بحقد: ماذا فعلت بالشرق الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين قانونيا والمعترف بهم دوليا؟ تتجاسر على أربابك يا نزق! لن يأخذ وقتنا طويلا في وزن قلبي والقرار مأخوذ حالما شاهد اسمي على القائمة: إلى الرببة أميت لتمزّق أشلائي وتلتهم روعي رامية بها إلى الخواء.

بدل الابتسام، تعود مرافقتي إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد. ثم تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في فتح "الترموس" وارتشاف القهوة الدافئة جالسا على جذع شجرة مينة أتأمل الأدمي وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج لا يُرجعه إلى نقطة الانطلاق أغلقت عليه الغابة قبضتها وتجرّ الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهم.

ظهور العلامات التي تسبق نوبات العنف عند أشبع أنواع الرجال ونوبات الهستيريا عند أشبع أنواع النساء.

يجب تحويل الاهتمام بأي وسيلة.

- أقصّ عليك طرفة عن آخر مرة ضعفتُ فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعاد بلدان الشمال، كسبًا لما يسمح بمواصلة التوغّل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، اقضي يوما ممتعا في الغابة وعد بقلعة مليئة بثمره، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومرّبي.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا -لا بدّ أنه أخذ عن أبيه وجده كل تقنيات الجني والقنص- أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدت لي بالقلعة مبتسمة، فقلتُ في نفسي: يجب أن أطلب رُمحا وقوسا ونبالا. بماذا ساقاقل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ أثرتُ الصمت وتوكلت على إله الأباء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستقرّ آلهة الربوع.

خرجتُ إذن، بفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألعتها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبت مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها- على غصن تمّد إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبت على شجيرات قزمية ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري.

مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصل. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكّر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و "ما" في طرفها الآخر لا قبّل لها بمساعدتي في شيء. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الأدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطوّلا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتتُ على قدمي منطلقا في كل اتجاه، منتفسا ببالح السرعة، والعرق يتصبّب مني، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلاً إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلها آخر!

- ووجدك البوليس بعد أسبوع تتماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟

- يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوائل. الملاعين، استكشفوا واخضعوا أكثر الغابات اتساعا وغموضا وخطورة ولم يتركوا لنا إلا التجول أيام الأحد في الحدائق العمومية المكتنّزة وبعض أشلاء الغابات المبعثرة بين الحقول.

كأني بأشباح توّغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

- سهوٲ. واصل.

-كانت الغابة التي ضعتُ فيها مكانا مرّوا شقّ فيه الأدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفستُ الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعذار. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة من لا يعرف في أي جهنّم كان الآخر يتخبّط.

- مالك ممتع الوجه؟ لماذا تأخّرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟

- أخذهما الدبّ. لا أخرج إلى الأسود والفيلة في جبل بوقرنين إلا مسلحا بما تعدّه لي "ما" من رماح وسهام، وترسلونني هنا لكل الأخطار أعزل. سأقول كلّ شيء لـ "ما".

يومها ضحكت المرأة الطيبة:

- آه منكم يا أهل المدن، تضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصقارة وقبّعة صفراء.

ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة ثم تنفجر بضحكة لا مرح فيها:

- هذه ليست غابة صغيرة تحاصرها الحقول. إنها تمتدّ مئات الأميال في كل اتجاه. إنها، غابة حقيقية وحظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه معدومة.

- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حادث غبي؟ قد ننجح في تربية هذا "المارنجوان" السمين لتغذية أطفالنا، ففيه ما يكفي من الدم والبروتينات. تصوّري ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب؟

- سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية السنديشات وأنداك حدثني مجدّدا عن رغبتك في العودة إلى جنّي ثمار الغابة وليس جلود الحيوانات. حدّسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى شيئا عما قريب.

- اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطنبول الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء من عالمك المجنون.

أي مكان أحسن من الغابة للاختفاء وهي منذ الأزل ملاذ السحرة وآخر معاقل الثوار.

تهزّ المرأة كتفيها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.

- الليل يداهمننا، يا يسوع!

- نعم، لنصلّ ليسوع. سمّره ثم اعبدّه. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلّينا، ماذا نفعل؟

- عمّ الظلام وهذني التعب. لم يعدّ لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا إلهي، الغابة ليلا ولا نار تدفع عنا أنياب البرد والدبّ.

مما يقال ان الكلاب لا تهاجم الا من تشمّ عليهم رائحة الخوف. من حسن الحظ انه لا سباع في هذه الغابة والا لكانت الرائحة التي تفوح من هذه المرأة كفيلة بجلب كل ما فيها من اصحاب المخالب والانياب.

الخوف! هو مع الحزن والفرح والفضول والالام على قائمة التجارب التي لا مناص منها لكل ذات... مثل الالام هو انذار بخطر داهم على الوجود أو بعض أهم مكتسباته... هو لحظة فارقة يمتحن فيها العالم الذات يكشفها لذاتها والخيار أمامها بين الفرار والمواجهة، بين مخاطر الجبن ومخاطر الشجاعة.

على يساري امرأة جالسة على العشب تحاول النوم علّه يختصر ليلة لم تكن في الحسبان. ظهري مسنود إلى جذع شجرة فارعة الطول والانتباه على أقصاه لا أريد اختصار ليلة جادت بها الأقدار.

إنّ هكذا هو العالم الذي جرّبه الأوائل كل لياليهم طيلة آلاف السنين... هكذا هي الأحاسيس والمشاعر البكر التي عاشوها بين أحضانها وكلها رهبة وانتظار قلق ومن حالة لا أشدّ منها إذلالا اسمها الخوف... إنّ هكذا هو العالم عندما يليس أوحش قناع... عندما يلتزم صمّتا متجهما... عندما يلوّح بكل ما في جعبته من تهديدات مبهمّة.

نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلّل فجر طال انتظاره.

أخيرا، تعود للعالم ملامحه المألوفة للنفس طمأنينتها المحبوبة.

تبادرني امرأة منهكة سعيدة بأن الليل قد انجلى فعلا وليس فقط في قصائد الشعراء.

- هيا، يجب العودة للبحث عن الطريق اللعين.

ما هي إلا سويغات قليلة قبل أن تصرخ فجأة في قمة الجذل:

- أخيرا، من هنا، هيا أسرع، يكفي ما ضيعنا من وقت.

كأنّ الغابة أصابها ما يشبه القرف من آدميين غير منتبهين لما توفره من روائع وأسرار فقررت أنه أن الأوان ليغربا عن وجهها.

- آه، عادت الابتسامة إلى شفّتك. مهلا، ما هذه العجلة؟

- تمت المرأة ببعض الكلمات ساهمة والحديث موجّه لشبح ما.
 - يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!
 - أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكل الحقيقي لكل طريق؟
 - كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دشّ ساخن وفنجان قهوة ومرطبات وسجارة.
 - شهية طيبة، أما أنا فعائد أدراجي. ما زال لديك وقت كافٍ في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الورا. -
 - خذ أنت.
 - يا امرأة لا تفعلها فيّ. تعالي، كوني بنتا طيبة. من سيطلب لي "المار نجوان" ويكوي جلود الحيوانات التي سألبسها؟
 - لو كنت تعرف على الأقل كيف توقد النار!
 - لم أتمنّ في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف الأعظم.
 - شكرا على دعوتك، والآن تدبّر أمرك إذا أردت قضاء ليلة أخرى في العراء.
 - كيف أتدبّر أمري هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من ضلعي.
 - هذا شغلك، أما أنا فمُهرولة إلى النزول. واصل أنت الطريق الذي تختار.
 - تقصدين أوصل الطريق الذي اختارني.
 - إلى هذا الحدّ تؤمن بالجبر؟
 - موضوع قد نخوض فيه أمام فنجان القهوة الساخنة. آه منكم يا أهل المدن، تضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة صفراء.

*

خاصية الطريق المتوجه للمعلم الذي احجّ اليه أنه ليس متّجها إلى الأمام أو الخلف كما هو الأمر على سطح الأرض أو البحر وإنما إلى فوق.
 ما ينتظرك على هذا الطريق ليس الدوار وإنما تنفس يزداد صعوبة وكأنّ العالم يعطيك بالتنقيط ذلك الهواء الذي كان لا يمتنّ به عليك وانت تستكشف وجوه الأخرى.
 من قال "لا وجود للطريق، كل الموجود هو المشي"؟ الحقيقة أنه لا وجود للمشي، كل الموجود هو الماشي والماشي الآن أصبح عاجزا عن دفع الطريق بعيدا رغم أنه لا يحمل إلا ثقل جسمه.
 تداهمني صورة الذين يتسلقون جبالا بعيدة أعلى من هذه بكثير وأيديهم في جيوبهم. هم عادة من الرياضيين المحترفين أو من أثرياء أثري البلدان تتبعهم جحافل من أفقر فقراء الوديان الموحشة يننون بأحمال تصل أحيانا مئة كيلو غرام تكدست فيها كل حاجياتهم. للأسياذ الذين يدفعون لهم بعض النقود الرحلة مغامرة ومتعة وتحديات يرفعونها ليفاخروا بها عند رجوعهم بيوتهم.... ولحملة الأثقال الرحلة مشقة وعناء وإذلال الحاجة لأن الموت جو عا هو البديل.
 إنها الصورة الكاريكاتورية لرحلة الأدميين في عالم يعيشه المحظوظون كنعمة ويعيشه كنقمة كل من سخرت منهم طولة القمار.
 خلفي وفوقي الشمس، تحتي وأمامي ظلي أشرف عليه أتأمله بفضول كأنني أرى لأول مرة أن لي ظلّ.
 شيئا فشيئا تنمرّد الرنتان وكأنهما تننفسان الماء بدل الهواء.
 يصرخ القلب أنه على وشك إعلان الإضراب العام. يحدّد الصداع والقمة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس وكأنها على سطح كوكب من مجرة العقرب. يجب رفع الساق بعد الساق وكل واحدة يتّقل عمود من الرخام. أرمي كل مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثّر، مرددا لنفسه ما تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى أقسم أنها الأخيرة.
 يا إلهي ثمة رحالة طلّوا إلى قمم تتعالى على هذا الجبل بآلاف الأمتار!
 يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الأدمي، وكلّ عقبة مألها التذليل والإذلال! لكن يا للأوباش، تنعموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقا مكتظا بباصات السواح!
 كأني بأشباح توغلّت بعيدا في فضاء العتمة تبتث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون على قمم الجبال المرعبة، نكاد نهلك فيها إرهابا وجوعا وعطشا... وخذ ما سُتت من انبهارنا البكر.

لا خيار غير التوقف طويلا هذه المرة لألتقط ما بقي لي من أنفاس وتجديد الانتباه للمشهد الفخم. ترى كيف هو الطريق من هذا العلوّ؟ أحاول تخيّل شبكة آثار خطوات الأدميين الذين تتابعوا على السهل الذي انطلقت منه... وأيضاً الآثار التي رسمتها خيل وبغالٍ وحمير سحينة تتنّ بأثقال سجانيتها... ناهيك عن آثار دبيب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طيّ الكتمان والسرّ.

أيّ مخيِّلة قادرةٌ على استحضار كل من تتابعوا على الطريق وأعطوه الوجود والشكل. مستلق على الظهر أسترجع أنفاسي أحرق في السماء متابعاً سرب طيور دخل فجأة مجال بصري. قد لا تختلف رحلة هذه الطيور في مشاقها ومكافأاتها جذريا عما تعرف كل الأجناس الحية التي ترتحل على سطح الأرض أو في أعماق البحر.

فجأة ترسم طائرة نفاثة خطاً أبيضاً يقسم السماء إلى اثنين. تبرز طائرة ثانية هي الأخرى بخطها الأبيض الطويل. تبدو الطائرتان كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد تتساقط أشلاؤهما فوق رأسي. لكنهما من حسن حظي وحظّ ركابها على غير نفس المستوى من الطريق. يحصل التلاقي فقط بين الخططين ليرسما قاطعا ومقطوعا لم أره يوماً على سبورة السماء.

ترى ما الشكل الذي يتخذه الطريق في أعلى طبقات السماء وأي أنواع من المرتحلين يتبعونه جريا وراء أهدافهم المجهولة؟ ممّا يقال إن هذا الطريق أنهار جبارة صاخبة، لا من المياه المتدفقة وإنما من الرياح الهوجاء، تدور حول الكوكب تحمل على متنها كائنات حية مجهرية يسمونها الجراثيم والفيروسات والفطر أضف لها غبار اللقاح رسل أشواق الأشجار للأشجار.

والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار سأقطعها ولو زحفا على البطن. أخيراً المكان الذي أوصيتُ، قُل أمرتُ بالوصول إليه وكلُّ من حملهم الطريق إليه لم يرجعوا منه كما وصلوه. كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسم عندهم صلاة المؤمن!

قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات، والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذ له من رسوم.

أروع ما في هذه اللوحات تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة.

العنصر القار الآخر أشجارٌ متفرقة لا تكاد تلحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب.

ثمة دوماً شكل لا يكاد يُلاحظ لأدمي يفضّل التوارى، أكتشف أخيراً حجمه.

جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه بيتسم (كيبوكسي)

جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطراً

جبل الخريف ساطع المعان كأنه يتزيّن

جبل الشتاء بعيد لا مُبالٍ كأنه نائم

كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياماً بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجدداً بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة.

منهم من جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعداً بحاجة إلى شيء أو أحد. بعيداً عن الأنظار، مشدوها أمام جمال الجبل/ انبهار بكر. انبهار كل البدايات. هل ثمة فنّان أكبر من هذا الذي تفتقت عبقريته عن مثل هذا المشهد! أضم راحتي كأنني أصلي ثم أنطلق في التصفيق وداخلي صراخ صامت يتعالى من الأعماق: برفاؤ الله!

*

والآن كيف هو المشهد من فوق القبة الزرقاء؟

لا خيار غير السفر بالوكالة والحظّ لم يسعفك بأن تكون من اللذين أوصلهم الطريق لأبعد نقطة في الفضاء الحسي.

ها أنت تتتابع على شاشة عملاقة ما يراه المحظوظون من المحطة الفضائية.

يخيّم الصمت على قاعة العرض بانتظار وليمة للبصر والبصيرة.

فجأة يدوي انفجار يصم الأذان. يخيّل إليك من فرط دقّة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهب النار يلفح وجهك وبراءة الذخان تخنق منك الأنفاس.

تدخل رؤوس بعض النظارة الأكتاف والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به التصاق الرضيع بأمه.

تتابع كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الدخان وهو يتلاشى رويدا رويدا.
ثم يفصل المكوك. انتهت عملية القذف وتمركزت الكاميرا في موضع يمكّن الأدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصح تسميته البحر.
لا يغرتك انه اتخذ لون هذا البحر فقد ارتدى طوال تاريخه العاصف أكثر من لون. هو توشح بلون حمم البراكين عند ولادته... ثم باللون الأسود وقد هدأت هذه الحمم... ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحه تدشن عصور انتصار الحياة... ثم باللون الأبيض في أزمان سؤدد الجليد والثلج... أخيرا لونه الحالي منذ غطت المياه جل مساحته.
بخصوص الشكل، كم ظلموا ذلك الرجل المسمى قاليبو فالأرض فعلا كوكب فعلا كروي الشكل مستدير استدارة البرتقالة والتفاحة والشمس والقمر.

على ماذا أركز والذهن مشدوه مأخوذ بجماله المهيب؟ على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟ على البياض وهو كقرو دب ألقى على كتفي غانية؟ على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟ على الصفرة تضيق الخناق على النهر الخالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟ على الحمرة استقرت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟ إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين، لا إمكانية لتحسس ندى عشب الصباح أو لسماع أي صوت والحال أن كل ما يتدافع على السطح لا يكف عن التثرثرة والصراخ.
ومن هذا العلو الشاهق يستحيل عليك تبيين شبكة الأثار التي ترسمها من القدم الأقدام والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعانف على أمواج البحر فما بالك بالشبكات غير المرئية التي تتحرك داخلها البضائع والأفكار.
فجأة تحتل بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إحصار مرعب يستعد للاعتداء على الأدميين المساكين.
تدرجيا يمحو السواد باقة الألوان. يرسم النور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الأدميين ومن هذا العلو الشاهق يمكنك وأنت تتابع تحرك المكوك التعرف على حدود هذه القارة أو تلك.
تنظر لشكل القارات فتحسبها قارة موجودة من الأزل على شكلها الحالي والحال أنها-ومقياس الزمان بملايين السنين- لم ولن تكف عن التغيير انقسامًا ثم تقاربا ثم انقسامًا جديدًا إلخ.
كم من ألواح على سطح هذا الكوكب تقاربت وتباعدت لتخلق وتدمر قارات ومحيطات تظهر وتختفي وعداد الزمان بملايين السنين!

كم شهد هذا الكوكب العجيب من زلازل، من انفجارات براكين، من أنهار سالت وجفت، من صحاري تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القاتل!

كم من جبال انبتقت من قاع بحاره وكم من رياح وأمطار أحنث هامتها لتسويها بالهضاب وبالسهول!
كم من أحداث، من حوادث، من تقاطعات طريق، من فرص جاءت بها الصدفة وذهبت جعلت منه كوكبا يتيما، فريدا، لم ولن يشبه يوما كوكبا آخر على اتساع الفضاء اللامتناهي.

هو لم يكن مقدرًا، حتميا، متوقعا، محتملا أو ضروريا. كان مجرد إمكانية من بين ما يحصى ولا يعد من الإمكانيات.
يا للصدف الرائعة التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت.
كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار!
يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد ومن وجوده توجد الحياة بكل ما أبدعت ولا تزال من خوارق ومعجزات.
كم تتابع وتفرقت على سطح هذا الكوكب، في أعماق بحاره وفي اتساع السماء من أجناس حية كلها تتبارى غرابة وإعجازا!

كم من بشريات شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوما تلفها الغرابة والأسرار!
تحتي أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات ومن الأجناس.
تحتي أكبر مقبرة لا ترفض جنّة كبرت أو صغرت، لا تلعن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنو الحياة.

ثمة من ينتبأ أن سماء الكوكب ستطلى يوما بالأخضر لتشرّف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجذوع المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية مأزها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون. صور مرعية لكوكب يحتضر وقد نفثت براكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين. آه تريد طرد مثل هذه الصور من فكري. ليكن. ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويتكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك إلى نهاية النهاية.

يا ترى كم من أجناس حية ومن بشريات جديدة ستتابع على الركح قبل ان يغلق هذا المسرح أبوابه نهائيا وقد انتهت كل العروض!

كم هي بدائية تلك التصورات التي لا ترى في هذا الكوكب المستعرض مفاتنه أمام الأنظار المنبهرة إلا ديكورا وخشبة مسرح تتابع عليه كائنات من طبيعة أخرى برزت من اللاشيء أو من إرادة مجهولة والحال أننا أمام كائن حيّ ينبض قلبه قبضا وارتخاء، حرًا وبردا، خلقا وتدميرًا يتتابع على سطحه كم من أجناس حية أشكال-حالات من أشكاله وحالاته، كما هو شكل-حالة من أشكال-حالات ما تسميه اللغة الكون.

كيف لا ينتابك حبّ جارف لهذا الذي تدرك انه الوطن الحقيقي...الوطن المشترك لكل الكائنات...الوطن الذي لا مكان فيه لغريب.

نعم، كم هو فريد، يتيم إذ قد لا يكون له شبيهه على الاتساع المذهل للكون! لكن كم من ملايين السنين قبل احتضار يحوله إلى حمرة ثم جفاف المريخ وبعد الموت الى كتلة من الصخور المذابة عادت إلى جوف الشمس!

لماذا القلق من مصير ما زال بعيدا بمئات الملايين من السنين بينما الكوكب العجيب في أوج حيويته. الثابت أننا أمام مشهد العالم كما هو كمن يدعى لمشاهدة فيلم وسط العرض ليرمي به خارج القاعة قبل ان يفهم العقدة ويشهد الخاتمة.

شيئا فشيئا يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة الزرقاء إلى الصندوق الحاوي لكل المجوهرات، إلى الفضاء اللامتناهي. تغفر فاكّ دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف. كأنّ الفنان الأعظم-أراق بلا خطة مسيقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الأشكال ثم رصّعها بقناديل الشمس وفوانيس المجرات...والنتيجة متحف ربّاني يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل. كم غريب أن يثير الجمال فينا إن فاق حدّا، شعورا يقارب الألم!

تتضح أبعاد الفضاء الحسي الذي ظنناه يتوقف في البداية عند حدود القرية ثم عند حدود الوطن واليوم عند حدود الأرض. هو في الواقع صحاري مترامية الأطراف كتبناها مجرّات من كل الأشكال والألوان ورملمها كواكب وأقمار وأحجار من كل الأحجام تدهل العقل.

أمام كل هذه الشساعة المرعبة للفضاء اللامتناهي وكل هذا الزمان الذي بالكاد ينتبه ليروزنا واختفائنا تتسوّح كل القامات وكل الأحداث وتتضح لكل الكيانات حجمها الحقيقي.

حقا لا أتفه من قصتنا بمقياس كل هذه الشساعة، لكن هل ثمة أهمّ منها بمقياس الآن وهنا؟

هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟

حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟

ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفّض عن ظهره آخر راكب. مجدّدا إلى أين؟...إن بقي في مستوى كهذا معنى لسؤال ووجود لسائل؟

ليواصل اللعين إلى حيث يتوهّم هدفا، أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة من أبعد موقع على ما تركت ورائي أو تحتي. هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من المجرّات توجد حبة الرمل التي هي بيتنا، الجوهرة الثمينة التي اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة اليشم، سواد درة الفونيكس، خضرة الزمردة، بياض اللؤلؤة وزرقة البياقوت، الجوهرة الثمينة الموضوععة على ستار لا متناهي من فاخر الدمقس الأسود المرصّع بالأنوار الآتية من أرجاء الفضاء اللامتناهي.

هل من جوهرة مثل هذه تدور حول شمس من شمس هذه المجرة أو تلك يمكن أن يصلها الطريق يوما لنكتشف فيها ما لا يتصوره خيال؟ إنه هاجس عصر مشاريع سفرات الفضاء وسؤاله المتكرر: هل نحن وحدنا في هذا الكون؟

مع كامل الاحترام لكل العلماء والفلاسفة والشعراء الذين طرحوا ولا يزالون هذا السؤال أقول إنه مصنوع من كمّ هائل من الغرور والتبذّر والجهل.

طبعنا لسنا وحدنا. كيف نلقي على أنفسنا مثل هذا السؤال وحولنا وبقرنا وحتى داخلنا ما لا يحصى ولا يعدّ من كائنات تتبارى روعة وغرابة هم في هذا الكون أقرب الجيران.

**

طوافا حول العوالم المحرمة

- يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعد يوم لا كسائر الأيام.
- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحمية أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث.
- أسرّ في أذن رفيقة المقطع الجديد من الطريق:
- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألا ترفض هي الأخرى تحمّل أدنى مسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميّتها الكبرى حتى وإن كنا ننوهم أننا أئمن حيواناتها؟
- شتّ، لا تخلق لنا مشاكل مع قوَى نحن في أمس الحاجة إلى حيادها، خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.
- يهمس الدليل: رجاء لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.
- يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من الحيوانات الحرّة التي جننا نتطلّف عليها في عقور دارها.
- تُبادرنى المرأة بلطف لأننا ما زلنا في بداية الجولة المثيرة:
- الظاهر أنك لن تكون أسعد حظًا من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".
- كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:
- انظر إلى هناك.
- لا أرى شيئاً.
- دقّق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟
- الحقيقة أنني لم أر من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبتُ البحر حذو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام، ونزلتُ من السفينة الصغيرة أترنّح كأنني شربتُ كل الخمر التي حرّمها الدين وحرّض الشعر على تناولها.
- تمدّ لي رفيقتي بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:
- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.
- أيّا كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها - على ما يبدو - لا ترغب مطلقاً في لقائي. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القردة احتفاء بمقدم الصديق الوفيّ.
- نعم، كيف لا تتزاحم للسلام عليك وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل البذيء الذي يسمونه "الصيد الرياضي" وأنك من كبار الأنصار والمعجبين؟
- رجاء قولني لهم هذا الكلام لعلهم يعقلون.
- تقطع المرأة عليّ انتباهي لما يمكن أن يختبئ وراء بعض الشجيرات وهي تنهر الدليل:
- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟
- يردّ الرجل متحرّجا:
- المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحيانا وحشا واحدا طوال اليوم. وحش؟ لله دركم أيها الأدميون. ما أبر عكم في قلب الحقائق. من عرف منكم جنسا فيه جلايون باستثناء جنسكم؟ من سمع يوما بنمر نكل ساعات طويلة بنمر آخر؟ لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات التي يسمونها أيضا حيوانات وكل مصطلح سبة وشتمية؟ طبعاً بنو حرية والأشجار آل ثبات.
- أخيرا يتسمّر الدليل مشيرا إلى مُبهم ما:
- سيدي، انظر هناك!
- لا أرى شيئاً.
- دقّق النظر يا سيدي!
- في ماذا؟
- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!
- أه، تقصد هذا الخطّ.
- إمضاء فهد. لا أحبّ فكرة وجود حيوان كهذا بمثل هذا القرب. هيّا بسرعة لكن دون هرولة.
- تختفي رغبتني في ملاقة السكان الأصليين لهذا المكان، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتني أن يتركوا في مثل هذا الإمضاء.

نعاول التحرك إلى الأمام والطريق يتوغل بين أعشاب تحتضر عطشا. يهمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:
- من هنا فصاعدا المشي ورائي فقط. ممنوع منعا باتا دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، تَوَقَّف فوراً دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهم هنا سبع سائحة انجليزية متهورّة.
أهمس في أذن امرأة متزايدة التوتر:

- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حادّ.
- كن جدياً، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.
- وهل المدن التي جننا منها حقاً جدّ مختلفة عن هذا الغاب؟
يأمر الدليل باستراحة قصيرة. يخفي وراء أكمة من الأشجار الهزيلة مؤكداً على ضرورة عدم التحرك.
نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوع الدليل بقلق متزايد لطول غيابه وقد اتضحت لنا فجأة ضرورة التأدب معه وحتى مداهنته بلا انقطاع.
تتوجه إلى مرافقتي بسؤال لقطع الصمت القلق.

-ماذا تفعل بهذا العود؟
- أعابت هذه النملة التي غامرت بتسلق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بدهاءً ليس أسهل من وضعنا.
- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تفترس الحشرات التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيحرق قلبك على الأدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم -على الأقل- خلقوا على هامش معاركهم شيئاً اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقرّزة.
- تكلمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله حتى وإن جهل الأدميون الأغبياء قيمتها والدليل ألا أحد منهم جاء خصيصاً هذه المحمية من أجلها.

- هذه الكائنات المقرّزة أنجح مخلوقات الله؟ تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.
- يا امرأة أيّ جنس يفوق النمل انضباطاً، شجاعة، تضحية و عملاً دؤوباً لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوماً؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرق والحرب. أيّ جنس آخر لا قائد فيه ويسير أموره على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حاجة إلى شرطي أو نبي؟ أليس هذا سرُّ بقائه منذ مئات الملايين من السنين؟ صدّقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل.
تهزّ مرافقتي كتفيها تخالني أمزح.

أخيراً يبرز الدليل من وراء أكمة الشجيرات وهو يواصل اقفال أزرار سرواله.
تبادره المرأة المتزايدة نفاذ الصبر عاد الصلف بعد إن انحسر الخوف.
- افترض -بعد السرّ عنك- أنه وقع لك مثلاً أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعاً. كيف كنا نخرج من هذه الأحرش؟
- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي بأن أردّد ما قلته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحرش بلا بندقية وخارطةٍ ودليلٍ محض انتحار. آسف، ممنوع دخول الأدغال حتى للتبول، في الخلاء فقط.

أقترخ على مرافقتي رفع الحرج فلا تستقطع الفكرة.
-أديري لي ظهرك وأدير لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.
نعود إلى المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ متقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المجنّح؟ إلى من توجّه بالتهديد أو بالغزل؟ هل يُغازل نثراً أو شعراً؟ هل تكون -يا طير- أكبر شاعر في هذه الأدغال؟ الحيوانات لا تقول الشعر؟ ألم تسجّل الميكروفونات المزروعة في أعماق المحيط لتصيّد غواصات العدو وجود سجع في ثرثرة بني موبيديك. ربما يوجد بين هاواي وألاسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء الهادي يسمونه "أبو الطيب الحوتي"؟ بماذا تشعر وفي ماذا تفكّر هذه الكائنات وهل ثمة فلاسفة من بني حرية وآل ثبات تساءلوا هم أيضاً ماذا نفعل في هذا العالم؟

أفبق على همس صراخ للدليل:

- انظر هناك!
- أين؟
- تحت قدميك!
- لا أرى خدشا.
- هناك، هناك!!!
- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسائحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.
- أثر آخر سينمجي قريبا. هو والآثار التي تركتها كل الكائنات على الطريق.
- لا يا سيدي إنه لوحيد قرن. لنتنبه، قد لا يكون بعيدا.
- وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأجناس التي تتبخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة. هم السابقون ونحن اللاحقون. التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وُجِدَت يوما. على كل حال المحمية نفسها من الآثار. ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدّي عالم اختفى أو هو بصدد الاختفاء.
- سيدي، انتبه للبراز اليابس. هذه علامات وحيد القرن الذي رأينا آثاره. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.
- انتباه متحفّز ثمة توتر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.
- ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العالم إلا بالخيال والظل؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر وقلمنا نجد صاحبه؟
- لا شيء خارج عن المعتاد في ركضنا وراء حيوانات تتمنع وتفرّ منا.
- فجأة يتوقف الدليل مشيرا إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:
- انظر هناك!
- هذه البقعة السوداء.
- نعم، إنه قطع من الثيران الوحشية.
- نقترّب لنرى بوضوح.
- يا سيدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقى في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما تودّ.
- تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار. يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.
- حصان هنا وبمثل هذا الحجم!
- يا سيدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "امبالا"، والمتوسطة الحجم وتسمّى "نيالا"، والضخمة وتسمّى "كودو". ما رأيت واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.
- تقصد أنني رأيت خيال كودو.
- يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرهقه طول افتعال التأدّب وكبح ما به من سوء مزاج.
- كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدرّون ضرورة التحلّي بالصبر.
- نعم يجب أن نتحلّى بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصرّ على تفادينا.
- استجار المسكين بأعماق الربع الخالي فتبعه الصياد لا يصده الحرّ. استجار بأبعد أماكن الصحاري البيض فهول وراءه لا يخيفه الجليد. استجار بعرض المحيط ففتش عنه وراء كل موجة. استجار بالجبال الشامخة فوضع للإمساك به الأوتاد على الجبال. استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلا. استجار بالصنّغر فخلق له المجهر. من الفضاء تجسّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رشق على ظهره وإشيا إلكترونيا. كم من سيّاح ومصوريين وطلاب دكتوراه يركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين! أترى كل هذا الإصرار على تعقبه لإدراكنا أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟
- تعود رقيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.
- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعتُ أن فيها قطعان قُرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستتبخّر هي الأخرى.
- يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقا صفيرا عجبيا باتجاه كدس رمادي يطفو بعيدا على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكا:

- نعم أنكلم "الهييو"، أعرف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيفقترب، آنذاك قَدِّرُوا المسافة. إن بقي بعيدا عن الشاطئ يتأملنا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلق أقرب شجرة. تحدق فينا الكائنات بتقزز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيدا داخل البحيرة.

- هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوما أن أنكلم الجملي والجماري والحصاني والكلابي والقططي وحتى البعوضي. للأسف، لم يسعني الوقت لتعلم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلمني. لأجرب أولى كلماتي بالهييو. فففففففففوووو. يستغرق الدليل في الضحك:

- يبدو، يا سيدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

- حسب ما رأيتُ لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني، ماذا لو ضيّعني في هذه الأحرار؟

يدخل الرجل قوقعته والطينُ يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلا لا يعرف يمينه من شماله.

والشمس تتأهب للرحيل نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا.

- هل تعلمين أن الفيلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركز قبل ألفي سنة في البراري التي جنّت منها؟ لكنّ بشرا اسمهم "الرومان" قرّروا أن تكون تلهية الشعب أساس السياسة، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هانجة للتمتع بمذبحة تدوم أحيانا ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات الملاعب الرومانية على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين -نعم الملايين- من الفيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلِق "بزنس" كامل كان يدّر الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئا فشيئا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوغلون فيها جيلا بعد جيل هربا من الوحوش الحقيقية. هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناهم فيها. لا غرابة أن تتوارى عن الأنظار ترتجف رعبا وقد شمت من بعيد روائحنا الكريهة.

تُفضّل المرأة المرهقة عدم التعليق خاصة والدليل يدعوننا إلى مواصلة المشي.

ساعات لا أكثر منها متعة وعمقا لا ينذرني بنهايتها إلا صوت دليل لا يعرف أنه بالنسبة لي أدى مهمته على أحسن وجه

- آسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

تهمس المرأة الغاضبة في أذني.

- نهار كامل من المشي من أجل خدش وكدس خرا وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.

هذه المسكينة لم تتعلم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لوتسو.

"لا هدف ولا وجهة.

يعغم كل لحظة

ما تقمّه له الحياة"

سمر الليلة الأولى

حول النار والليل أرخى سدوله على مخيم وسط أحرار منسية من كل الخرائط هذا الحديث أو ما يشبهه بين آدميين وضعتهما الصدفة جنباً لجنب.

-أي حصيلة بائسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلي ما يأتي إليه الناس.

- لا تكفين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جننا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكّري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الحيوان الذي قُتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أرعبناه في أحلى أوقات القيلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الغزاة التي لا نعرف كيف اغتيلت ومن قاتلها.

- هل أغلق عينيّ لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع الأسد؟

- استحضري أيضا ما في هذه الغابة من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفرا لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقرضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا يقبل لنا بتخيله.

- كفي، أصبّنتي بالدوار.

- انتبهي لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجاة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحدثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هبّ فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظارتني فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتتسرّب من فوق إلى تحت ببطاء مثير، لكّل هذه الأشجار التي تحفت بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حرك... انتبهي ل... أشباح الأوائل... كل الأوائل الذين مروا من هذا المكان .

- ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لعلهم يتكرومون بإشارة.

-لست بحاجة لطقوس بدائية كهذه، لي طقوسي السرية تغنيني عن كل ضجيج.

- بجدّ كأنك تعوض سحرنا ما نقصنا في الواقع هذا اليوم، اصدقني القول، هل ندمت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

- أبدأ، أفضلها على خيار الأغبياء الذين يتجولون في عرباتهم شبه المصفحة يزعمون سكان هذا المكان. يتصورون هذه المحمية حديقة حيوانات. لكن لو فكّرنا قليلاً: محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط.

هذه المحميات "بانتوستانات" للحيوان، لا غير. كم تذكّرني بتلك التي وُضع فيها بشر سُموا "الهنود الحمر".

- بانتوستان حيوانات! انتبه لما تقول عن بلدي، قد أضطرر للوشاية بك للبوليس.

- آخر محتشد حيواني زُرته اسمه طارونغا بُني على هضبة غناء تشرف على البحر. كل السجناء -حتى في ذلك الحبس المتحصّر وفي ذلك البلد المتقدم- كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي! أتذكّر جيداً أحد سجناء ذلك البانتوستان الصغير. كان كلب بحر، جُوع عمداً، يرمي له المروضُ بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الأدميين، والأطفال حول المسبح يصفقون له فيقلّدهم سجين الحرب يتسوّل غداء مُنع بالقوة من البحث عنه في لجة المحيط. إنها نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز، وفيلٍ مخطوف على الرقص وجواد مخصّي على المشي إلى الورا. ألا يثيرك أنه لا وجود لأي منظمة تطالب بوضع حدّ للآلام الرقيق بأربعة قوائم وهم أسرى أطول حروب الأدميين مع سكان العالم الأصليين؟

ثمة مفترق طرق في تاريخ هذا العالم قد نصل له يوماً نقرّر فيه أنه بعد الغاء رِقّ البشر قررنا الغاء رِقّ الحيوان وأنا سنعيد للحمير والماعز والخرفان والبعير والخيول والبقر وباقي الحيوانات المستعبدة حريتهم ليعيشوا أحراراً في فضاءات هي نصيبهم الشرعي من عالم كلنا فيه ضيوف سواسية.

- حدائق الحيوانات والمحميات الطبيعية سجون ومحتشدات لمساجين حرب؟ هل نسيت أنك أنت من طلبت هذه الزيارة.

- طبعاً، لذلك ومن واجب التمسك بنفس المنطق، يجب فتح سجون الأدميين هي الأخرى للزيارات السياحية. على الأقلّ ستمكن مداخلها -بعد خصم رشايو الإدارة والحراس والقضاة- من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلاً. ما أنا متأكّد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحاً منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات ستندافع للضحك على السجناء ورميهم بالحجارة وبالبدن.

- تُبالغ. تُبالغ. تُبالغ.

- أبدأ، صدّقيني ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا يرتطم السجناء وهو يدور في الفضاء الخانق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ثم مجدّداً من القضبان إلى الحيطان، ومن القضبان إلى القضبان فألى الحيطان فألى الحيطان.

- انتبه، بدأت تتكلم وحدك.

- ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان.

- أعراض ضربة شمس؟

- وجع ذكريات عن شهوراً طويلة قضيتها في غرفة أكبر بقليل من خزانتيين.

- عد إلى الموضوع.

-أذكر أنني وقفْتُ طويلاً أمام قفص كائن تسميه اللغة "غوريلاً" بنكهة احتقار وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئاً باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب. يوماً تلاقت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و" الشيء" بما لا يدع مجالاً للشكّ يحدّق في يسألني: عرفنتي، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها. يوماً حدثت معجزة بالغة الندرة اسميها.... لا عليك، إذن..

اللقاء! تجربة فريدة عابرة كلمح البرق تمر بها الذات وهي تكتشف فجأة ذاتها في مرآة ذات أخرى... وهي تعي كم تتشارك في نفس الآلام والأمل وكم تتعطشان لنفس الحب والطمأنينة والاحترام... وهي تنتبه أن وراء الصورتين صورة ذات الذوات... وهي تفهم أخيرا أن كل ذات ليست إلا الشكل-الحالة-اللحظة لهذه الذات القَتوس.

- وفي الأخير انصرفت مُضيفا إلى جعبتك من الأوجاع حزن الغوريلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضا أنه ثمة أكثر من غزاة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وَجَدَتْ في هذا السجن حياة آمنة لا يتهدد نومها زئير الأسد؟

- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تعب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوريلا الكئيب، وحتى ذلك الأسد الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

تُرى كيف هو حس الكرامة عند الأسود؟ ما أعمق تبذّر من يعتقدون أنه ليس لبني حرية وحتى لآل ثبات أحاسيس ومشاعر، أنها لا تعرف الحب والكره، اليأس والألم، الحزن والفرح، الاستنكار وربما حتى السخرية. يا إلهي من ذلك الفيلسوف الشهير الذي طلع بأغبي فكرة عن الكائنات التي تقاسمنا الوجود مدعيا أن الحيوانات آلات بيولوجية لا وعي لها، لا لغة، لا ذكاء ولا أفكار... وتام العكس هو الصحيح.

تنتهد رفيقة الطريق وهي تشير إلى الدليل بصدد إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغبي يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها ألدّ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية، أنت الذي يحاول إغرائني بالادعاء أنك طبّاخ ماهر.

- ذكّرتني، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحببة بنا. نحن سنتعشى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميز إنائها بصبغ الشفاه بالأحمر وذكورها بلبس ربطة العنق وأن هذا ما يجعلنا نعتقد أننا نسوى أكثر من بقية الكائنات.

في مثل هذا المكان يكشف لك العالم أحسن من أي مكان آخر وجهه المبهر وأنت تتأمل الطبيعة وقد لبست كل ما لديها من حلي وحلل... وايضا وجهه المرعب و قدر الحيوانات أكلة اللحوم التي تسكن هذه الربوع أن تقضي جلّ رحلتها جريا وراء اكلة الأعشاب والجوع يعتصر أمعائها و قدر الحيوانات أكلة الأعشاب أن تقضي جلّ رحلتها هربا من الأظافر والأنياب والخوف هو الذي يعتصر امعائها.

تعود رفيقة السفرة المثيرة لما تظنه مزحا.

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

- يا امرأة، رحماك... لا تقحي جروح طفل ذبحوا واكلوا أمامه أعزّ أصدقائه.

تهزّني مرافقتي من كنتي:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم النيئ.

- المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لاعنا في سرّي كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أر في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلّقة في واجهة دكاكين الجزّارين.

- خاصّة إذا تكدّس عليها الذباب.

- لأنني منصف، سأسمح لك بسبّ قومك وخذي راحتك، أما سبّ قومي فحقّ لي أنا وحدي. أواصل. هناك ما هو أفظع من دكاكين الجزارين ببلدك وبلدي: محطات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أم أو أخ أو أب.

- ارتفع صوتك والدليل ينظر إليك باستغراب.

- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجزّار والشوّاء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحها؟

- لذت بالفرار بكل شجاعة وروح مسؤولية عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تأتيني صور عابرة ممتعة لقطع من الأدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزّار، ينتظرون أن تنفذ لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.

- غريب، أنا أيضا "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل أدميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان.

- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح!

تضحك رقيقة الطريق إلى أن يملكها السعال. أغتتم الفرصة للتنفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.

- أذكر يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الأدميين طبعاً). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطف الواحدة وراء الأخرى في ممر لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادله القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرّد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكاتم للصوت. يضغط على الزناد فتھوى على الأرض كأنّ ساعة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلّقة في الهواء ميتة - أو هذا ما يتمناه لها المرء - وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كتلك التي تشاهد في الموانئ. يتقدّم آنذاك الجرّار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندقق شلالات من الدم والرّجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. توصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزائرين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضعة دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين.

ألم تنتهي يوماً إلى أن الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحدائي يوماً وأنا في حالة هستيريا ثعبانا، أو فأراً، أو سرب نمل، فصدر منه سبّ أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُدبح. لمّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حنجرة الغزال - يقتل الأول ويموت الثاني - يحفّ بهما وقارّ الصمت. أما عند الأدميين فيرفع القتل عقيرته بعويل يجمّد الدم في الشرايين والقاتل يصيح كالمجنون يحيا الامبراطور أو عاش الوطن وحتى بلاهة من نوع يحيا الموت.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء - إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات - أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدّعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟

- ربما معك حقّ، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعاً الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟ تسحب المرأة المتوترة هاتفها النقال من جيبها لتعلمني بأن صبرها نفذ. أبادرها أفتعل لومها.

- ألم نتفق أننا لن نحمل معنا هذا الهاتف اللعين؟

- لا تعلق. هو مغلّق من البداية وسيبقى مغلقاً بإحكام إلى نهاية هذه المغامرة الركيكة. فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقلّ لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا ننتظر خبراً ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي من أنا، ماذا أفعل في هذا العالم وما الهدف الذي يجب أن أحققه لكي تعتبر رحلتي أدت مهمتها.

- ولم تصل لحدّ الآن! يا عيب الشؤم.

- تصل أو لا تصل هذا شغلها، أما أنا فسأكتب أحسنها امضيها بتوقيع مزيف وأسلمها بيدي اليمنى ليدي اليسرى للتأكد من أنها لن تسرق أو تضيع في الطريق ثم سأرقص طرباً بعد قراءة ما كُتب فيها من أخبار طيبة.

تبتسم مرافقتي ثم تفضل انهاء حوار يقطر الما.

- ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟

- موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا تتصدّ بنا الكوابيس على الضقة الأخرى.

إنها ليلة تشبه كل ليلة ولا تشبه أي ليلة. ليلة أرق تنتظرنني رغم إرهاق يوم طويل، ليلة ستنتصّر فيها الأسود جوعاً هي التي لا تصطاد إلا في حالك الظلام. ليلة تنام فيها الطرائد نصف مطمئنة والبدرُ المكتمل يدفع عنها رعب الأظافر والأنياب.

"الليل وطوله (شيكوي)

والقرد يرنو إلى السماء حائراً

كيف الإمساك بالقمر؟"

على خط التماس بين الوعي واللاوعي يصبح صراخ الكائنات مفهوماً. تتحقّق أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن ضرائب جديدة سيفرضها العالم على الكائنات، عن شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة، فتصرخ جحافل النمل الممتطية ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القتل.

فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلاً لعبةً تتزايد إثارةً وتعقيداً. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بذاته.

من الغد توقظني رفيقة السفر:

- انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

- صبرك، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

ما أرقّ هذا النسيم. ما أروع هذا الهدوء. ما ألطف هذا الجوّ. يا ما في هذه اللحظات من سحر! صدق من قال: إن استطعت، فاجعل كامل حياتك فجرا (المسعودي).

أي شيء أهم من التمتع بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء. كم صدق أيضا المثل الصيني: اغتتم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر.

نزدرد فطور الصباح لننطلق مجددا بحثا عن أصحاب الآثار الذين يقول عنهم الدليل إنهم يتدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا.

ساعات أخرى من المشي ولا شيء مما يريد الدليل ابهارنا به.

بدأ الحرّ والفراغ يؤثّران على أعصابي.

(رافعا صوتي متوجها إلى الدليل المكسوف)

- طيبّ والآن، لا أرى خدشا ولا آثار أقدام ولا خرا!!

- انظر هنا، هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار. انظر الآن إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حگها، وهذه طريقة الثيران للتخصّص من الهوامّ التي تسكن جدها.

الأشجار!

أه لو كنت قادرا على الأقل على فهم الثرثرة الصامتة لكل هذه الأشجار؟

لا زوّار هذه المحمية ولا حتى هذا الدليل المصّر على ابهارنا بالكائنات العجيبة التي تعج بها المحمية يعيرونها أدنى اهتمام وهي أعجب وأغرب كائنات هذا المكان على الإطلاق. يقال هذه الأيام إن من سخّروا حياتهم بحثا في أسرارها لا يكادون يصدقون ما يكتشفون. هي تتبادل بينها المعلومات عن الأخطار التي تهددها. هي تدافع عن نفسها تسمم الحيوانات التي تبالغ في قضمها. هي تتعاون مرة مع الفطر ومرة أخرى مع النمل وتستعمل الطيور والرياح وحتى النار للحفاظ على النسل. كل هذا الذكاء الصامت الرهيب في مواجهة غباء كائنات منتصبة على طرفين تتصور نفسها أنكى الكائنات وقد تكون أغياها.

تطيل مرافقتي النظر إليّ ثم تسألني لا تخفي سخريتها.

-ماذا تفعل؟ أراك تحمل كالأطفال طول الوقت كل شيء لأنفك أو لفمك!

- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحسّرا على عجزني عن استنشاق رائحة الشمس وتدوّق طعم السحاب.

فجأة يتوقف الدليل ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمّة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. ماذا بالضبط؟ ألتفتُ إلى المرأة فإذا بها باسمّة مفتوحة العينين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجذل:

- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

- أنت، أمّا أنا فلم أصل يوما مكانا أو وضعا إلا بعد الأوان أو قبله.

- أنتكون رأييها وترفض الاعتراف؟ فاجأئك أكثر من مرّة تخلع نظّاراتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ. عمّ تتحدّثين؟

يهمس الدليل: قرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ برؤية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة أسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

تهزّ المرأة كتفيتها.

- سيكون يوم زفت مثل الذي انقضى.

- أمّلنا الأخير في الكسالي، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأيّ أسمع صراخ الزوجة

أو الأم: يا ولد انهض، سيشرّبون كل الترعّة وسيداتك تغطّ في النوم. أه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو

كوكو...

- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جمال صوتها أمةً بأكملها. كوكو كوكو تعجن في البديرية!!

يضع الدليل مجددا إصبعه على شفثيه قافزا كأن ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمية.

هذه المرّة وصلت حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول.

تنتصب أمامي عن بعد عشرة أمتار على الأكثر أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقها بالغة الطول تثبتت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جعلت لرعي السحاب.

ها هي تصطف على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة.

تنجح أخيرا في إنزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال ثم ترفع رؤوسها بسرعة كأنها تخشى مفاجئة غير سارة.

فجأة تتواجه زرافتان فينقطع عنق الأول مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نباتا في اتجاهين معاكسين. ثم تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تخفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.

من جديد، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه منذ مدة غير بعيدة "الشيء".

هل من حدّ لخيالك! هل هذه الكائنات التي جننا نتعقبها وتلك التي تعودنا عليها وتعودت علينا مشاريع تجرّب عبرها إمكانيات خلق لا تنضب أبدا؟ في هذه الحالة ما الذي تجرّب في الأدمي بعد أن استنفذت الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال دون توقف من قطب إلى قطب؟

تصرخ مرافقتي:

- اللعنة، لم تترك لي الوقت لأخذ أي صورة.

يتوجه إليها الدليل بنبرة من نقد صبره من الأبلهين:

- يا سيديتي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أيّ من هذه الحيوانات المقام.

لا، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان. كل ما في جعبتك اللعب على تنوع الأشكال وتغيير المقاييس. هل لك حقا من

جديد تبهرني به؟ مثلا عالم بلا كواسر وطرائد، ومع هذا لا يختل له توازن.

تتوجه إليّ امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

- على فكرة، سيادتكم لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتمّ بالتقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفارغ.

- هل انتبهت أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.

- وحده شخص سيء الظنّ بالبشر وخاصة بقومي يظنّ أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المنكّم ورؤيته للعالم وتعامله معه.

تغير المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

- أفضل صورة مع الفيل والثور والكركدن ووحيد القرن، بمحض الرضا وكلنا أحياء نرزق. إذا رفضوا لي الأمر، فسأكتفي

بصورتني أتوسط العنزة والبقرة والحمار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخفي الحصان والجمال

يعبثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت عليّ جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون.

أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي تترصد وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أنبهاها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

- انتظر تنوّقها وستعرف تكلفة بطء الأدميين في الركض هربا من الأدميات.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات أليفة قرّرت أن تمنع عنه بقشيشا

يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق "فلاش" الكاميرات أو رصاص البندقيات عليها.

يلتقط الذهن الشارد آخر جمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقا، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادة رؤية البعض منها حتى أول يوم.

أندخل في الحديث:

- ققط هنا في الأحراش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبر

حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقا، إنها حيوانات عجيبة.

تهزّ مرافقتي كنتفيتها.

- قطط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أشبع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد من المازّة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقتبل العمر لطرارة لحمهم.

- يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطّ جائع من قطط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظامي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، أه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجفقه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أفضع منه مذاقا، مالح، تتكسرّ عليه الأسنان وهو بطرارة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قرّرت إناثنا لسبب لا أعرفه ولا أظنّ أنهن يعرفنه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

يتسمّر الدليل من جديد مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجتو مرافقتي على ركبتها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟

- أه طبعا رأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.

- اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهامس متوجها إلى الدليل:

- عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

يتقطن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كنتفیه مفضّلا متابعة الحيوان وهو يدخل ببطاء الأحراش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟ تقطع عليّ رقيقة الطريق خواطري.

- بريء أقلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

- لكنه لن يفلت من حنوكم عليه فردا بعد أن دمّرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

- هل جرحك؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألسنت من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟

- كل الأمر تورّعني بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، و. الحرج. هل كنت تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الأدميين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته السميكة؟

على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على ماذا أركّز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.

تستعيد المرأة حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهنئ صاحبة البقشيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلا رميم غزال طومسون.

الصيد! أهمّ حدث يشهده العالم منذ الأزل، باق أبد الدهر... نوعان أساسيان منه... الأول صيد الأسد والنمر والفهد للغزال والكودو والحمار الوحشي... من خصائصه ضراوة انقضااض الصياد وأناقّة مراوغة الضحية، الحسم السريع بالخاتمة السعيدة للأكل والفطيرة للمأكل أو بتجدّد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد... على طرف النقيض النوع الثاني: صيد تنّين الكومودو وهو نوع من الحرباء يكتفي بعضة بسيطة في جسد ثور راقد في الوحل متسببا له في جراح بسيطة تعقب بها الأجواء تدعو بقية القطيع من الزواحف الكاسرة إلى التجمّع وملاحقته بصمت طيلة أسابيع لا تضيق لحظة، تنهشه هنا وهناك وفي كل عضّة تحقنه بمزيد من السمّ الموجود في لعابها إلى أن تخور قواه فيسقط لقمة سائغة تمرّقه المخالب والأنياب نصف ميّت نصف حي... من خبر البشر يعرف أن صيد الأدمي للأدمي يأخذ من تقنيات الأسد ومن استراتيجيّة الكومودو، والظروف وحدها من ثملي الخيار... لا وجود في هذا العالم غير الأكل والمأكل، غير القتل والضحايا، أهمّ فعل فيه بجانب أحياء قتل والباقي من الأفعال تعاليق وهوامش.

يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل، وهل من الممكن أن يكون الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة. كلاً! فالفاعل لبوة لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني أوى. حتى هنا كائنات يسرق بعضها البعض وتحتال لوضع الغنيمة خارج شره المنافسين، كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات جائعة، المسكينة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو تمنعت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسدنا عليه... المعاناة قدر كل الأحياء الاختلاف فقط في أشكالها وتباين حدتها حسب الظروف.

فجأة تتحرك بعض الأغصان فوقنا يتعالى منها صراخ منكر.

يهمس الدليل: لا تهتمّا، مجرد خصومة قرده الشمبازي.

أهمس في أذن مرافقتي:

- على أي شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكتنزة العجز على خلافة طاغية مسنّ، على الشهرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى الذي تهدد حدوده المقدسة جحافل الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان. تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوما هكذا. تذكر ما يقال عن طبائع بني عمومنا الآخرين: البونوبو. عندهم يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما أن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى لشعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتنزحها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصليح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

في آخر المطاف ما الخاصية أو الخصائص التي تميز الأدمي عن كل هذه الكائنات الصاخبة والصامتة التي تحاصرنا بوجودها وغيبائها هنا وفي كل مكان؟ ما الأدميون بالنسبة لها؟ أخطر الوحوش التي يأتي منها موت خاطف مُدَوّر من بعيد لا تطالها أنياب ومخالب؟ من يعرف منها أن هذه الوحوش تسيّر دوريات من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتها! بغضّ النظر عن رأي هذه الكائنات فينا، ما معنى أن تكون أدميا بالمقارنة؟ كيف يمكن التعامل مع سؤال كهذا. لننطلق من كيف نحدّد ما معنى أن تكون رجلا. تفحص المعطيات التي تعرّف هذه الحالة وستكتشف أنها تتعلق بالاختلافات الجسدية مع المرأة، بالاختلافات النفسية الثابتة والخيالية مع المرأة، بالخصائص المنشودة في الرجل التي تنشدها المرأة، أخيرا بالوضع الاجتماعية دوما بالنسبة للمرأة سواء في المجتمعات التي تكفهرّ فيها الوجه لولادة البنات أو في المجتمعات التي تحكّمها النساء. يُضاف لهذا ما تعيش الذات في أعماق أعماقها من تجارب لا تُقتسم. من أين للرجل أن يعرف ما تمرّ به المرأة من أحاسيس ومشاعر وأفكار إبان الحيض والحمل والولادة والإرضاع؟ ثمة قبول الدور الذي فرضته الفيزيولوجيا والثقافة، وتقمّصه بكل سهولة وبسرور... أو عدم القبول به مع كل التبعات الموحجة والرجل يريد أن يكون امرأة والمرأة تريد أن تكون رجلا: المثلية نموذجاً.

وفي المحصلة تكتشف أنك لا تفهم ما معنى أن تكون رجلا إلا في علاقة بنفس السؤال في المرأة: ما معنى أن تكون امرأة؟

هل أخطأنا الطريق ونحن نبحث في مرآة أشباهنا من الأدميين عمّا يجعل منا الكائنات التي نحبّ ونكره، التي نأمل منها كل الخير والتي نتوقع منها كل الشرّ؟

ألا يكمن سرّ هويتنا فيما يفرقنا عن الكائنات غير الأدمية التي تعيش على تخوم عالمنا ونعيش على تخوم عوالمها؟

طيب، لكن أن تكون أدميا لا يُختزل في كونك لا تملك ذيل القردة وجناحي العصفير وأنياب الليث، فالاكتفاء بهذه

الخصائص الظاهرة كالفول بأن الرجل هو الكائن الذي لا يصبغ أظفاره بالألوان الزاهية والمرأة الكائن الذي ليس له لحية وشارب. نحن إذن في ورطة: لكي نفهم ما معنى أن تكون أدميا، يجب أن نفهم ما معنى أن تكون حيوانا أو شجرة.

لكن من أين لنا دخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساء بالكاد يفهمن ما يختلج داخل الرجال والرجال بالكاد يفهمون كيف هي تجربة النساء؟ أضف لهذا أن سؤالنا يُحيلنا، إن تمعنا فيه إلى أضخم إشكالية يمكن للفكر طرحها: هل ثمة ضرورة،

فائدة، إضافة، غاية للوجود أدميا مقارنة بالوجود "حيوانيا" و"حتى" شجريا؟

سمر الليلية الثانية

قالت والنار تلتهم آخر الأغصان وشخير الدليل يعلو ويهبط:

- يا رجل، قلت لك انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر؟

- في الكائنات الوحيدة التي لم تلتفتي لها لحظة ولا أقصد النمل ولا البعوض... الكائنات التي لا تتحرك لم يعد لها حاجة للهولة من مكان لآخر.
- تقصد الأشجار، لو كانت على الأقل بالجمال والعلو للغابات التي حدثتني عنها هناك بعيدا في بلدان الشمال.
- إنها نفس الكائنات، ما يهمني ليس طولها أو جمالها وإنما ضرورة العودة لعبادتها أيا وجدت وعلى أي حال.
- العودة لعبادة الأشجار! ... يا رجل يبدو أن الحرّ أثر عليك أكثر مما كنت أتصور.
- ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موفى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدّعي أنه ابن الرب! بربك هل في الأدميين ما يُعبد؟
- ثمة كثير من العنصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصر من معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.
- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا يتقدّمون لها بالا عتذار عندما يضطّرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تبكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلنا نأمل بمستقبل للبشر أن منهم من يتجمعون ألقا يحتفون بالشجر المقدس، يتعبدون للقوى التي ترقد في الجذور والجذع.
- هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويّا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنث الثلاث وعشرين سنة تقّات بما يرفعه إليها من مؤونة حفنة من العقال-المجانين مثلها. لم تقبل بالنزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها "لونا" لن تقنّت حطبا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول "نحن لا نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قابلا للسكن"
- الثابت أننا نعيش منعطفا هاما من تاريخ علاقتنا بالكائنات الحية... أننا بصدد التخلص من التصورات الفطرية التي أشاعها عنها الجهل مغلفا بثياب العلم وأن العلم المعترف بجهله يكتشف اليوم منبها كل ما تتغلّق عليه الكائنات الحية من عجائب وغرائب... وأن هذا التحول في مجمله عودة للعصور السحيقة حين كان الأوائل بحسبهم المرهف يعرفون أن كل الكائنات وإن اختلفت شكلا مسكونة بنفس الروح الإلهية.*
- كأنك تستجمع ذكريات بهذا الخصوص .
- أذكر يوم مشيئ وراء النخلة المقتلعة لحينها، وجرّار البلدية البطيء يسدّ الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه. كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات.
- أحيانا أتساءل الطريقة التي تموت بها الأشجار. على فكرة ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة. عشرة آلاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتدييح تقرير له الحد الأدنى من الجدية. آه، لو علّمتني سرّها.
- بربك، ماذا لو فقدت الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث إليها الأطفال والعذارى نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدسات التي لم نقدّسها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئا باستثناء أن تمنحنا مجددا ظلّها وجمالها.
- هل عليّ أن أفهم أنك تحاول أن يمتلئ قلبي بالإيمان القديم؟ لكن قل لي قبل أن أقبل بدينك الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة مثلا، كيف تقيمونها أنتم عبدة الشجار.
- كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أردي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الذراعان إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحراس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلّص من كرش غير أنيقة. ما يدشنني تزايد صفوف المؤمنين.
- وبعد الصلاة؟
- مُنقطع الأنفاس أجلس في حضرة المهابة والجلال مردّدا في سرّي: يا سيّدي جونا، يا سيّدي جونا!
- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.
- جونا، الاسم الذي أطلقته -هكذا دون سبب- على الكائن غير الأدمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البطّ ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيّدي الخافي وسيّدي محرز وبقية أسياذ وسيادات الأب والأم.

- أشجارك ومنها هذه التي تتبرك بها - إن سمحت لي باستعمال المصطلح المجمع عليه-فيها من يسمّ الحيوانات ومن يخنق أشجارا أخرى وكلها تتصارع بينها على الفضاء والشمس.
- ممكن، لكن هل رأيت يوما شجرة تقول كلاما بذيئا، أو تغني "أهواك وأتمنى لو أنساك؟"
أسف للخبر المفزع وهو أن أعلى درجة سلّم الكائنات الثابتة وبعدها تأتي الحيوانات وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

- لا بدّ أنك كنت في حياة سابقة قردا مشاكسا ومعارضاً ففّر لك أن تمسخ آدميا في هذه الدنيا كأشدّ عقاب.
-تفسير منطقي. لهذا حاولتُ في هذه الرحلة أن يبقى ملقيّ نظيفا علّ السلطات العليا لعلها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.
نعم، لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاوري نيوزيلاندا أو سيكوريا كاليفورنيا، شامخ الجذع، وارف الأغصان، رام بجذوري بعيدا في أغوار العتمة... في شرابييني تتنقّق عصارة الحياة، محمّل بكلّ البثور، بكلّ الأزهار، بكلّ الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد... محميا بظليّ يفكر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشرد، يتسلّقني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطمع من هبّ ودبّ لا انتظر جزاء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو أمل شيئا... صلب، لثين، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدمر... الريح والفرش والنحل رسل أشواق... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل... منتبه، شارذ الذهن، أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علويّ تلثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

سمر الليلة الثالثة

نهار آخر من الغبار والفراغ والحرّ انتهى ومعه العذاب اللذيذ.
في المخيم تصرّ مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت وهم جنبا لجنب.
- لننسن هذه الحيوانات اللعينة التي تصر على مواصلة لعبة الغمضة معنا. تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مُسَلِّية ورقيقة كنتك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الأدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووثام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. احك لي مثلا عن دبّ النسيج الذي كنت لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.
- ليس لنا دبية في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرين.
- ربما كان لك دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.
- أخشى أن تضحكي مني إن حدثتكَ عنه، عديني بعدم فضح الأمر.
تعدني مرافقتي بالأمان وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة من بدايتها.
كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجة الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي.

كان جديّ لا يملك غير حوش متداعٍ وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقاتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلًا. باءت كل محاولاتني لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجدته باركا وقفرت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنّت باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قرّرتُ تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكن معهم. من يومها قطعْتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة مغرقة في القدم بين قومي وقومه.
لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أدقنّه إياه من أصناف التعسّف والدلال. كان عنترُ سهل الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأنني فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثم أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.
- هل كان جدّك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغّل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى -من فرط تسرّع- فكّ الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جديّ، كان ككل جدّ يحترم نفسه ودوره، ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطان عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبيّ الشديد لعنتر، لذلك كنت

المكّلف الرسمي والوحيد بأن أخذه ليشرب من العين، والمشرف الأول على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.

- توقّف، ستيكيني. لا أتصوّرك تحدّثت يوماً عن رائحة حبيبة فرّقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثر.

- يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحديّني عن النساء! أه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حراً طليفاً تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرّد كل حمير يُحضّر انقلاباً وقد اعتقد مبكراً أنك لم تعد من تحنى الأذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! أه يا عنتر، رحمك الله أوسع رحمة، رزقني فيك جميل الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جنانه، في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا تشاركينني استهجاني الشديد أنه لا أحد من مفكري الأدمية وحكائها، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. أقولها ولن أعود إلى القضية ثانية. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الأدمية الثابتة منها والمتحرّكة، فسأنحمل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في خيال الثقافة البشرية لجنة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجازى في الشرّ اسمه الأدمي. الاستثناء الوحيد الفئران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة أخرى في خيال من يعشّقها.

- الخلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح. الحيوانات لها روح!؟

- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فبالتأكيد له روح. لا يجادل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية إناث الأدميين. على فكرة ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشدّكنا إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدّث ولا تسلم... هل كنا نتعلم الصيد لولا أسانذتنا الذئب وحلفاؤنا الكلاب؟ هل كنا نصبح مزارعين وبناء قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاة وفرسانا لولا مُطّهم الخيل؟ ألم تشكل الحيوانات النموذج والقُدوة، ونحن نتشبه بهيئة الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب ونكاه الغراب؟... على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد... أما نحن أحفادهم الأغبياء فنضعها في الأقفاص أو نسومها خسفاً بلا حياء أو عقدة ذنب...

- واصل رواية قصة حبك الأول ...

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيت محاصراً قلت: لم لا أشتري حماراً أسكنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعاً من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمير المجهول الذي تكّلت به البشرية على مرّ العصور؟

- أخيراً عرفتُ ما سأهديك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكّلف المشقة فبلدي يعجّ بالحمير، بل منهم من تيوّأ أرقى المناصب.

- ذكّرني بذلك الأرسقراطي الذي نشر إعلاناً عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على الرجل. جدّ، ما الذي كنت ستفعل بحمار بطّال يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحه. كان المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس السياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيتُ جيراني وكلهم ميسورون لا يركبون إلا المرسيدس؟ ماذا لو تقطّن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحف السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلاً كانت حظوظك لإقناع مواطنيك بروك دوما معدومة. لكن لو كمشوك في الثالثة صباحاً على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.

- خاصة مع قرابة الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من التعقّل؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. ديدن أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبن قوام الأفعال. المهمّة، تخلّيت عن المشروع برمته ولم يبق لي للتفيس عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحياناً على دخول بيتي لإعانتني على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسدك. لا أستهي شيئاً قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ

تحت ستر الظلام. حدّق فيّ الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيّرتُ موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط حماره أوأصُرُ نَسب بحمير الجنوب وربما -لم لا-بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون -هكذا بمجرّد الصدفة دائما-من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما أقصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الأدميين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجذباء التي حُكم عليّ بالانتماء إليها، أصبحتُ أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جناح الظلام حيث لا يمكن للبوليس أن يتصورني فارا إلا على متن سيارة. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أوصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمته. تصوريني على عنتر الثاني متسكعا بين المجزّات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرًا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقبني، لا عدوّ يهدّدني، لا خصم ينافسني، لا نصير يبتزّني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تدخّلا ولا بنت تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقايضة رابحة مسبقا بين طبيب برجوازي من الأحياء الراقية وريفي ماكر. تنحنح بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عينيّ فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مئة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوى هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الأدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم. يومها جمع الرجل فأسهه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعقبونني على حق في مراقبتي. ماتزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلّما تذكرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجّانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

- لا تفتعلي عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعا لا. من يقدر؟ مائة وخمسون دينارا لكائن له ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها!، ذلك الجلد الأعجوبة!، ذلك الجهاز المناعي العبقري!، تلك الحواسّ الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان!، تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الأدميون! حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تُطأب ابتكارها وتجربتها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمة تعقيد مخيف يكتشفه الباحث، فاغرا فمه من التعجّب والإعجاب في كلّ خلية، في كل نسيج، في كلّ عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون يفرزه هذا الكائن تُكلف الملايين، ويقول لي هذا الأدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين دينارا!!!

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعّر الحمار بمليار راند.

-لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر.

-تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعا قديمة.

- في ماذا تفكّرين؟

- في غباء تكلفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والدجاج وباقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أقلّ غرابية من هذه التي أتينا نتعقبها.

- لا تغتمني، غدا يوم آخر سنرى أخيرا الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.

- غدا يوم آخر ستواصل فيه استقرازي. ليلة سعيدة.

- أي نوم بكل هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خفّضتم الصوت قليلا لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود.

- تُرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الأدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديدا: Go home، Go home، Go home

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعا إلى الضفة الأخرى من هذا العالم. لربما تلاقى فيها الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة.

آه يا صمته صحرائي الغالية!

سمر ليلة الرحيل

نهار آخر من الغبار والفراغ والحرّ انتهى ومعه العذاب اللذيذ.

في المخيم تصرّ مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت وهم جنباً لجنب.

- لننس هذه الحيوانات اللعينة. كلّمني.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أول نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكارني، وترتخي أعصابني، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟ ما أروع أن يكون لكل يوم نكهته، الذي ننتظر بفارغ الصبر، الذي نترقبه والقلق يعتصر الأحشاء، الذي نبكي منه، الذي نبكي عليه، الذي أحسن ما فيه أن له نهاية، الذي أسوأ ما فيه أن له نهاية، نعم ما أروع أن يكون لكل يوم طعم جديد ولو كان أمر من الحنظل.

- يجب أن يقتصر اليوم على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصات العيش الأخرى. برّبك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غيبية مثل الحادية عشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ من بحاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكارى ومدبري الانقلابات؟

- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمان على هوانا، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحتفظ إلا بالسبت والأحد.

- السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محمّل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعقّمة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحبّ برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من المشاكل المقرّفة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلاً. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوماً وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراماً للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكنوبة ولا أظنّ إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحرّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلّص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحاً والسادسة مساءً ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك ألن يكون حقاً زمناً رائعاً وقد طهرناه من كل وقت مضبّع للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتكم؟

- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشّنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء المائة ألف سنة الأخيرة. قبلها ولملايين السنين كان العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراءه الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوّري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجدادنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصلية. تصوّري الفضاءات العذراء وكم كان البحر هادناً على السطح زاخراً في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحاراً بصدد التصخّر بجبال من البلاستيك. بصراحة ألا تعتقد أننا نوع من الفيروس الخبيث داهم هذا العالم المسكين كما يدهم الأيدز أجسام المصابين بالمرض الخبيث؟

تواصل مرافقتي حتى على الكلام وهي بين فضول واستنكار.

-مسكين هذا العالم وقد تورّط فينا ورطة لا أدري كيف سيخرج منها. نعم، كيف سيحلّ مشكلته وقد أصبح وجود البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم.

- كيف؟ فسّر.

- يوجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختقاء البشرية مثلاً بوباء لا يبقى ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قنابل بطينة الانفجار تبتّ سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبتترول، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.

- إذن سيتحملنا العالم طويلاً لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من باب "مكرهٌ أخاك لا بطل." ألم تخالجتك الفكرة يوماً أننا بالنسبة إلى جَلِّ كائنات هذا العالم عفاريت مثيرة للترقُّز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرآة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لستُ العفريئة التي تصف بالنسبة إلى كلبى وأني لو متُّ غدا لَحَمَل الحداد عليّ.
- كل الحيوانات ومنها كلبك ستُقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا لما افتقدنا إلا الجراثيم والطفيليات والفطور التي وجدت فينا مرتعا خصباً، خاصة القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كم من آدمي ينتبه لكونه عالماً بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصي ولا تعدُّ وأغلبها ترتحل طيلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها... كم غريب أن نكون في آن واحد رحالة في عالم وعالم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- ما لك سكتٌ يا عدو الله والبشرية
- دقيقة صمت حدادا على كل الكائنات التي نكل بها الأدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر. يجب إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كال الصاع صاعين للأدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.

- ما نسيته أو تناسيته أيضاً هو أن حيواناتك التي تمجّد وتتباكى على مصيرها لا تملك ذرّة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصارع على الأنثى وعلى الغذاء بكل عنف. ثم من أدخل في صراع البقاء الشفقةً غير الأدميين؟

- من قال لك إنني ضدّ كلللال الأدميين أو إنني متعاطف مع كلللال الكائنات غير الأدمية؟ أبغض -دون حرج أو عقدة ذنب- الذباب والبعوض وكل هذه الهوام التي أطلقتها الإدارة العامّة وكأنها الأظافر المقصوصة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفاة. أرايت أقبح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الأدمي الجديد -بالمقارنة- آية في الجمال. والجراد، من أي مخيلة مريضة خرج كائن كهذا؟

تبتسم مرافقتي وكل ملامحها تفصح تأثراً تريد اخفاءه. ثم تغير الموضوع كما يفعل المحرّج دوماً.
- افترض أننا... انقرضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.

- الأوفر حظاً للإرث النمل، لكن دعني غير المشروط للودود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الودود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعدّ لتكون حاضنة الحياة.

تنتهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعترافاتها للقسيس أيام الأحد.
- بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستندارك حتما خطأً تغيبك عند وضع التصاميم.

- لستُ ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيت في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العابسة غير الأدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبيكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم من أقحموا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. قد تكون هذه الأسباب الوحيدة التي تجعل السلطات العليا تواصل المراهنه على تجربة لا أحد قادر على التنبؤ بمآلها.

تجذبني رفيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.
- والان وهذه آخر ليلة لنا هل لك أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟

ألا يقول أهل العلم في روايتهم الخاصة لقصة القصص أن أوائلنا انطلقوا قبل أكثر من مليون سنة من أماكن قريبة من هذا الجزء من القارة، أنهم ارتحلوا في موجات متتالية طوال مئات الآلاف من السنين جريا وراء الطرائد والمطر وإغراء ما وراء الأفق، أنهم تبعوا الشواطئ والأنهار ثم توغّلوا في الأرض ذات الطول والعرض ليصلوا أبعد أنحاء القارات الخمس إلى أن قاد الطريق أحفادهم إلى القمر وغدا إلى ما بعد...؟ ألا تجمع كل الروايات الجديدة لبداية الرحلة أن الأوائل لم ينطلقوا حبا في المغامرة والمعرفة وإنما ركضا وراء قطعان البقر الوحشي والغزلان وكل الحيوانات الطيبة المذاق... أن هذه الحيوانات هي نفسها كانت تركز وراء الكلاأ أرهقها الجفاف في قارة لم ولن يتوقف فيها المناخ عن التغيّر... ما أغرب أن رأس قافلة بني سفر لقرون طويلة لم يكن الدليل الأدمي وإنما غزالة خائفة أو جاموسة تائهة... أقول لها أنني جيئت ابحت عن نقطة انطلاق الطريق.

- مرة أخرى ولن تكون الأخيرة: لماذا أصررت على هذه السفره؟
أقول لها إنني جيئت حاجاً لمكان ولادة كل ما يميزنا عن الكائنات الحية الأخرى... ففي هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكلت النماذج الأولى للدين والسحر وقد ظهرت الحاجة الماسّة إلى حماية قوة غيبية تحميها من أهوال عالم مبهر

مرعب... في هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والساحر يروي ملاحم كبار الصيادين... وفي هذه الأرض وما جاورها اخترع الأوائل السياسة والقانون والتقاليد ومنظومة القيم لفض نزاعاتهم حول نصيب هذا وذاك من الفرائس وتوزيعها الأقل ظلما حتى لا يصبحون فرائس بعضهم البعض.
كلّي أذان صاغية.

- الحقيقة أنني جئت لإثراء نص يتطلب استجواب سكان المكان حتى أعرف كيف هو العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبنى عمومنا المتأرجحين على الأغصان.
- خمس دقائق من الجد لا أكثر.

- لم أكن جديا في حياتي أكثر من هذه اللحظة... نعم كم بؤدي استكشاف كيف هو العالم بعيون الدلافين والفراس والنورس... كيف هي صورته داخل ذهن الفيل والنمر... كيف هي الطبيعة عندما ينظر لها النسر من القمم السماء بعينه التي تُثبِت داخلها مجهر يبصر أدق التفاصيل... هل كنتُ سأفضل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟... يا ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكركم جميعا إلى "ما"... للأسف حتى هي لن تستطيع لي شيئا... محكوم عليّ وعليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الأدميين. أما هذه العوالم المغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمنا، فمحرمّة إلى الأبد... أليس بديهيا أننا نُسافر داخل عالم على تخوم ما لا يعدّ من عوالم، قد تكون بعدد قطرات ماء المحيط، قد تكون بعدد حبات رمل الصحراء، قد تكون بعدد النجوم في السماء... ربما حتى هذه الصور عاجزة عن تقدير عددها. دوار، دوار، دوار!
- وماذا أيضا؟ أفرغ كل ما في جعبتك.

- جئت أيضا على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشافه وراء كل الأشكال القدسية التي يلبس.
- جئت تبحث عن... الله... هنا، في محمية حيوانات برية؟

أضاعنا الفلاسفة والمتدينون والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي، بعيد، ملتحف بالغرابة والسر ولا يمكن لعين أن تراه. انظر للمولود الجديد وستراه. انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه. انظر لتفتح الورد وستراه. كم غريب ألا أحد يركع ويسجد وهو لا غير الذي في كل لحظة وفي كل شكل أمامنا يتجلى. نعم كم صدق الحلاج في قوله وأي أرض تخلو منك حتى تُعالوا يطلبونك في السماء.

- أين تريدني أن أبحث عنه؟ في معابد تفيض بموظفين يتمعشون منه دون حياء وبشحاذين يتسولونه دون كرامة
- ابحث عنه أين تريد أما أنا فلا أعتقد بوجوده أصلا.

- لا أغيب عنكم أنتم معشر الملحددين. تخلصون بين حاجتنا إليه وبين تصوراتنا البدائية له، بينه وبين الفضاءات المرتكبة باسمه، ترمون كما يقال الرضيع مع حمام الماء القذر.

- أما أنتم معشر المؤمنين فلا أذكى منكم. تتخيلون كائنا يعرفكم واحدا واحدا، يستجيب لطلباتكم، يقتصر لكم من أعدائكم، يا للكسب السهل!

- أنت لا تدفعين نفودك لشراء البرامج التي تخرب حاسوبك. لا تختارين إلا أجودها والتي تتماشى مع حاجاتك. هكذا ما فعلته الأدمية منذ البداية. شحنت دماغها بالبرنامج الذي يكفل لها كل مصالحها في فضاء الواقع وفضاء الخيال. طبيعى أن يلقي النجاح الباهر حتى بالأسماء والتصورات الساذجة التي يسخر منها أمثالك.

- وما هي تصوراتك غير الساذجة له؟

...

- تكلم وعليك الأمان.

- التي تكفت عن إصاق الصفات وإضفاء الطابع الأدمية على ما هو غير قابل للتوصيف بأي لغة آدمية... خاصة التي تستحيي من إقحامه في صراعاتنا الدمية.

- يبدو أنك تنتمي لدين لا أعرفه.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سِوَى اللِّصِّ مُنْسَلًا (إيليا أبو ماضي)

وَيَا حُسْنَ مَا اخْتَارَ الغَدِيرُ وَمَا أَحْلَى

وَإِنْ وَرَدَتْهُ الإِبِلُ لَمْ يَزْجُرِ الإِبِلَا

فَلَا إِثْمُ ذَا يُمْحَى وَلَا طُهُرُ ذَا يَبْلَى

وَقَالَ وَفِيهَا مَا يُجِبُّ وَمَا يُقْلَى

أَرْوَى الأَقَاحِي أَمْ سَقَى الشُّوكَ وَالدِّفْلَى

"قَدِينِي كَدِينِ الرُّوضِ يَعْثُقُ بِالشَّدَى

وَدِينِي الَّذِي اخْتَارَ الغَدِيرُ لِنَفْسِهِ

تَجِيءُ إِلَيْهِ الطَّيْرُ عَطَشَى فَنَرْتَوِي

وَيَعْتَسِلُ الذَّنْبُ الأَثِيمُ بِمَانِيهِ

وَدِينِي كَدِينِ الشُّهْبِ تَبْدُو لِعَاشِقِي

وَدِينِي كَدِينِ الغَيْثِ إِنْ سَخَّ لَمْ يُبَيْلْ

- تكلم وجئت إلى هنا لعلك تقابل شينك هذا؟

- نعم، جئت أجد تجربة تحصل تلقائيا ودون سابق إنذار أسميها اللقاء ... معجزة لا أفهم طبيعتها.

- ومتى عرفت آخر مرة مثل هذه التجربة؟

- عشية وصولي هربت للأسواق الإفريقية التي أعشق. كيف أصف طفرة الألوان والروائح والأصوات! مادية حواس فاقت كل توقعاتي. انتهى بي التسكع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال محتشم وقور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعضا ولا شيء أمامها. لما انتبهت لوجودي حدقت في باسمة ثم بادرني بإنجليزية أسلم من التي أتكلم: أنتشترني مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبته دون تردد: ليكن. التقطت المرأة الغريبة بعض الحجيرات من حولها. اجنثت بعض الأعشاب المحترقة. مدت لي الكل في خرقة فذرة واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه. - لما مدت لي المرأة الغريبة حجيراتا وبعض العشب المحترق أطالت النظر إلى وعلى وجهها ربع ابتسامة حنونة مرحة... تلك اللحظة شعرت بأنه "هو" الذي ينتم لي.

- انتبه، بدأت أغير.

- أن الأوان للعودة إلى الهزل.

- لا داعي للغيرة، هل تنزويجيني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضررون نساءهم.

- احذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضررن أزواجهن، ثم هل ستقدر على مهري؟

- كم؟

- مائة بقرة ببيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.

- للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة. تبقى السخرة عنده لبضع سنوات. هذا أيضا كان معمولا به عند الأوائل.

- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

- قد لا أكون أحسن من يصطاد له، لكن يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن ألمع حذاءه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض أحسن مني.

- التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أراجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدك بقائمتها الطويلة.

- هل سمعت بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المذبية والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتمائيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفن أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كثر يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مساكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاق لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أنثاهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.

- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، دية من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

- تعادل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أس البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادك أنتن لا غير، ولا أتحدث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أس البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة فالتجارة فالغنى فالفقر فالسرقة فالعدالة فالشرطة فالسجون،

- فقط؟

- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة وال ستريت والمافيات آكلة السوشي وآكلة السباجيتي وآكلة الهامبورجر وآكلة جناح القرش.

- يا لله!

- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حل أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سوادهم سنوات طويلة عند عمهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البليدة. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقامنا منكن رهيبا. - بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سميناها -وبصوتنا رنة فخر كاذب وتأثر مفتعل- تحرر المرأة. هل لاحظت أن أهم دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شغلي دماغك الأنثوي الصغير. تأملي أهم التغييرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل، من واجب الشغل -ومن التعليم الذي يعد له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين". ستكتشفين أنذاك أنه

بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فُرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا. لَمَّا حَظَبْتُ أُمَّ تَفَاحَةَ وَتَفِيحَهُ، كُنْتُ لَا أَمَلُكَ شَرُوى نَقِيرٍ وَمَعَ هَذَا أَعْطَانِي الرَّجُلُ الطَّيِّبُ ابْنَتَهُ لِأَنَّهُ كَانَ تَقْدُمِيَا كَمَا كُنَّا نَقُولُ تِلْكَ الْأَيَّامَ، بَلْ وَدَفَعَ فَاتُورَةَ الْغَدَاءِ الْعَائِلِي الَّذِي كَانَ احْتِفَالُ الزَّفَافِ الْوَحِيدِ. أَنْثَى بِالْمَجَانِ وَأَبُوهَا هُوَ الَّذِي يَدْفَعُ تَكَالِيفَ الْحَفْلِ! عِنْدِي شَعُورٌ مُبْهِمٌ أَنَّ الْأَوَائِلَ سِيرِكُضُونَ وَرَائِي هَذِهِ اللَّيْلَةُ فِي فِضَاءِ الْأَحْلَامِ وَأَنَّ أَحَدَهُمْ سِيْمَسُكُ بِي يَطْرَحُنِي أَرْضًا وَيَشْبَعُنِي ضَرْبًا بِجِزْمَتِهِ.

- سَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ طَرَفِي وَبَلِّغْهُ تِضَامَنِي وَتَشْجِيعِي.

- كَلَّ مَا أَتَمَّنَاهُ أَنْ يَتَوَاصَلَ التَّقَدُّمَ فِي هَذَا الْمَجَالِ. تَخَيَّلِينَا بَعْدَ عَشْرَةِ آلَافِ سَنَةٍ وَقَدْ وَصَلَ الْمَشْرُوعَ الذِّكُورِي الْخَبِيثَ إِلَى هَدْفِهِ الْخَفِيِّ. سَتَأْتِينِ أَنْتِ تَخْطِيبِينِي مِنْ "مَا". قَدْ تَخَيَّرْتُكَ بَيْنَ مِائَةِ نَاقَةٍ بَيْضَاءَ أَوْ السَّخْرَةَ لَدَيْهَا لِعَشْرِينَ سَنَةً. أَنْصَحُكَ بِالْعَرَضِ الْأَخِيرِ بَدَلَ جَمْعِ ثَمَنِ النُّوقِ سَنِينَ بَعِيدًا عَنِّي. الْوَالِدَةُ امْرَأَةٌ طَيِّبَةٌ لَنْ تَضْرِبَكَ إِلَّا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَسَنَقْتَنُصُ كَثِيرًا مِنْ لِحْظَاتِ الْحُبِّ وَرَاءَ ظَهْرِهَا. بَعْدَ نَهَايَةِ الْعَقْدِ تَأْخِذِينِي عِنْدَ أُمَّكَ مَعَ بَقِيَّةِ الْعَفْشِ، لَكِنْ انْتَبِهِي، لَنْ أَقْبَلَ أَنْ تَضْرِبِينِي فَأَنَا ابْنُ "مَا" وَمَا أَدْرَاكَ، وَجِدَاتِي يَنْحَدِرْنَ مَبَاشِرَةً مِنْ بَلْقِيسَ وَعَلَيْسَهُ وَالْجَازِيَةُ الْهَلَالِيَّةُ.

تَضْحَكُ مِرَافِقَتِي إِلَى أَنْ يَأْتِيَهَا السَّعَالُ. مُؤَكَّدٌ أَنَّهَا سَتُكْتَشَفُ -طَالَ الزَّمَانُ أَوْ قَصُرَ- أَنَّني كُنْتُ أَطْرَفُ حَيَوَانَاتِ الْمَحْمِيَّةِ الَّتِي زَارَتْهَا تِلْكَ الْأَيَّامَ، أَنَّهَا لَمْ تَنْتَبِهْ لِلْأَمْرِ إِلَّا وَهِيَ تُوَدِّعُنِي عِنْدَ بَابِ الْمَطَارِ. ثَمَّ تَسْتَعِيدُ جَدِّيَّتَهَا.

- تُذَكِّرُنِي بِجَدَّتِي جَائِثِيَّةٍ فِي كَنِيسَةِ قَرِينَتِنَا، مَعَ فَارِقٍ وَاحِدٍ. أَنْتِ طَوَّلَ الْوَقْتِ جَاثٌ أَمَامَ شَمُوعِ الْقَدَّاسِ وَالْعَالَمِ كُلِّهِ مَعْبُدُكَ. وَالْآنَ كَفَى تَهْرَبًا مِنَ السُّؤَالِ الْوَحِيدِ الَّذِي يَهْمُنِي.

- وَهُوَ؟

- هَلْ حَصَلَ الْلِقَاءُ بَيْنَ أَدْمِي وَأَدْمِيَّةٍ تَائِهِيْنَ وَضَعْتَهُمَا صَدْفَ الطَّرِيقِ وَجْهًا لَوَجْهِ.

-نَعَمْ حَصَلَ وَنَحْنُ نَتَبَوَّلُ فِي الْهَوَاءِ الطَّلَقِ طَبَقًا لِتَعْلِيمَاتِ الدَّلِيلِ، أَنْتِ تُخْفِينِ حَرَجُكَ وَأَنَا أَكْتَمُ ضَحْكِي.

**

الأشياء

لا توجد سفرة تُجدد فيك أقدم تجارب الأوائل وهم يصلون مكانا غريبا قدرَ التي تقف بك في مدينة نائية والليل أرخى سدوله. تبثت في ساحة المدينة شبه المقفرة قلعا متزايدا. تتلاطم داخلي مشاعر مغرقة في القدم، عن أخطار مُبهمة تترصد، عن وجع الشعور بفقدان التحكم والأهمية.

كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمى "ليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تصل بلدا لا يعرفك فيه أحد فإن أكثر ما يتغير ليس المكان وإنما المكانة.

بغرابة سحتي وجهلي المطلق باللغة ها قد أصبحت في أدنى درجات سلّم مجتمع يتصارع أفرادُه باستمرار على أعلى الدرجات.

والآن إلى أين؟ حتى العلامات لا تعني شيئا وحروفها مجهولة عندي.

هذا مارٌّ ربما يدلني. أتوجه إليه بلغة يُفترض أن أغلب الناس يعرفون بضع كلمات منها.

يعرض عني الرجل وكأنّ الذي خاطبه عفريت خرج لتوه من القبر.

هذا آدمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيته المترنحة ما يجعلني أشكّ في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيّعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يُعرض الرجل عني بدوره لا يُخفي انزعاجه.

من الظلام تبرز امرأة لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتفادي أن أحرك داخلها أعمق غرائز البشر.

الخوف! كل انواعه حاضرة على طول الطريق: خوف الطفل من الظلام، خوف الكهل من الضياع والآن خوف الغريب من الموت لا بواكي له في أرض لا يعرفها ولا تعرفه.

ماذا سأقول لها؟ سيدتي، أنا أجنبي مزمن، غريب محترف، لاجئ بالوراثه، منبوذ بالطبع والتطبع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض.

من الأحسن الاختصار والدخول مباشرة في صلب الموضوع.

-سيدتي أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دليني، جزاك بوذا ألف خير.

المرأة بابتسامة عريضة:

- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أهبّ أهرام كثيرا، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- آه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات لذة هذه المرأة الصالحة.

تخيلتُ أو سمعتُ المرأة تتنهد هامسة لنفسها: آمين.

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدونك بها.

أخيرا النزل في ابتداله، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأعراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار وذرّ الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتبهت أن الأماكن الأدمية، شُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي وسطح خارجي، أن اهتمام الأدميين انصبّ دوما على السطحين يتكفون ما يتكفون لتزيينهما لكنهم لا يقدرّون على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه كل الأسطح.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قصرٍ مزركش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش.

تقول لي: نسيت يا مسكين أن فراغ بيوت الأغنياء ملآن بما يتكفون من أموال طائلة لتعبيته بأجمل الأثاث.

طيب، لكن قل لي كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتمائيل واللوحات التي تضاهي قيمتها ما يوجد في أكبر متاحف العالم؟ لا بدّ من الفراغ الفارغ وإلا في ماذا ستمدّ رجلك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور،

كل هذا التبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض لوحات التصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين!

يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع.

رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل الجسد من مكان إلى آخر بالطائرة، ويقطّر يكاد ينتظر تحت سَلْمها، ثم بسيارة لدفعه أخيراً داخل قفص حديدي بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهفك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الوسائل اللعينة التي اخترناها لتسهّل علينا السفر فألغّت متاعبه ومُتعتّه ! لا يبقى عليّ إلا إلقاء نظرة خاطفة على غرفة كبيرة فيها برّاد زاهر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُدقّعونني فيها ثمنا موجعا عند المغادرة.

يجب أيضا تعديل المكّيّف حتى لا يضايقتني التبريد بنصف درجة زائدة. ماذا تصرخ فيّ أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر. أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

من الغد سيرنّ المنبه منذراً أنه أن أوان نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث ستتبادل نفس الوجوه منذ سنين نفس الخطب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفاً. كم من حيلٍ للتجديد على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيم يحتل بنفسه، يستمع لنفسه، يهنئ ويكافئ نفسه داخل حلقة الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاها لا منتبّه ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق. أن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددت به عبثاً كل السلطات ودعوتُ إليه كل المتمرّدين دون أدنى نجاح؟ ألسنت القائل السيد من يعطي المثل وليس من أعطي الأوامر. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحيّ، وسكان هذه المدينة، ولم لا العالم بأسره؟ ستفنيق السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوء مريباً في شوارع أفقرت وبيوتٍ أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة على أنها ستغيّر جذريا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة في التعامل معنا.

تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضات تحت الضغط، وأنها أصرّت على عنادها خوفاً من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاجئ وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيّعه في الجري وراءنا واحداً واحداً!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين. أسارع لوضع لافتة "عدم الإزعاج" على باب الغرفة، والمعني بالأمر العالم كله، وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح. بدأ الإضراب التاريخي وسنرى موقف كل المعنيين به.

السؤال ماذا سأفعل بكل وقت الاضراب التاريخي وأنا رجل لا يكفّ عن الحركة؟ ماذا لو نسجت على منوال ذلك الأرسنقراطي المعادي للثورة المدعوّ دوماستر والذي حُكم عليه بالإقامة الجبرية اثنتين وأربعين يوماً في غرفته عقاباً على خطأ ما، فتوكّل وجَهّر نفسه لخير استغلال للوقت: استكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها؟ ألم يكن الرجل على حق في سخريته من الرحالة المغامرين -قرنان قبل المسمّى ليفي شتراوس- إذ لا يوجد فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غاليينا في التهور؟

على فكرة، ألم يكن من العدل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقريّة؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كُتِب وسيُكُتِب في أدب الرحلات؟ وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقاً ألفاً في المائة من عدم افتضاح أمري، وحيث أن هذا اللعين دوماستر شبه مجهول بين قرّاء لغة موليار فما بالك بقراء لغة المتنبي، وحيث أن احتمال ظهور ناقد مغرض يفضح السرقة شبه معدوم، فإنني قرّرت بكل أريحية نسبة الفكرة إلى نفسي.

ها هي إذن رواية أول رحلة الهدف منها ليس استكشاف الاتساع وإنما استكشاف الضيق، ليس البحث عن الأدميين وبقية الكائنات وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه، ليس التفكير في كبرى القضايا وإنما تناسيها. خير البر عاجله وأفضل الاستكشاف الذي ينطلق حال أخذ القرار.

تبدأ الرحلة المثيرة بتفحص ما يوجد داخل الحمام. إذن حنفية، دشّ، ستار، مناشف، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، موس حلاقة، معجون أسنان، كوب ماء. أوف! لا شيء مفاجئ أو غريب أو مثير للانتباه أو الحيرة. بالضبط كل ما أريد من رحلتي الميمونة هذه. يجب الآن استكشاف غرفة النوم والصالون الصغير الذي يجانبها.

ثمة السرير، الخزانة، المنضدة. رائع، لا شيء يحرك داخلي مشاعر الرهبة والخشوع والانبهار أو التقزز والخوف والرعب. يتوقف البصر مطوّلاً عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقاً موقف الأرسطراطي الفرنسي الكسول وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الرجل والحال أن المرء مضطر لتسلقها والنزول وراءها للدخول أو الخروج من الحمام. اللعنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء -حتى بأدراج المكتب- أكثر من ربع ساعة، وذلك الأدمي ارتحل في غرفته اثنتين وأربعين يوماً كاملاً!

كم من مرة سأطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوماً؟ (لكسر الرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

أضيق في حساباتي ومراجعة نتائجها وكلها دوماً متناقضة. فكرة صاحبنا، إذن، ليست بالعبرية التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف، فأدمي نزيه مثلي لا يسرق أبداً ما هو ليس بأدنى حاجة إليه.

أستسلم بهذه السهولة! لأن وفياً للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل. أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسانلاً عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة. ما العمل بكل هذا الوقت المترصّد بي؟ استعمال الهاتف لإزعاج الأحباب والأصدقاء؟ لا أكره شيئاً من بين كل الأشياء التي تحيط بنا قدر كرهني للهاتف الثابت منه والمحمول.

الأشياء! يا إلهي، لم انتبه يوماً أنها هي أيضاً من أهم مكونات العالم الأدمي! فجأة يتملكني الجذل وأنا على يقين أن اثنان وأربعين يوماً لن تكفيني لاستكشاف ما في هذه الغرفة من أشياء وما تنغلق عليه من معطيات عن الأدميين ورحلتهم.

يجب التأكّد في البداية أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أيّ سبب" موضوعة في الوجهة الصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ من منكم انتبه للتناقض؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟ تقول: لكن الشيء لا يغلق فقط وإنما يفتح أيضاً ومن ثمّ جواز تسميته بالمفتاح.

تخلّص سهلٌ فهذا الذي أقصد صنّع وطوّر وحسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترسانات والسجون والمكتبات والثكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سرّي للغاية"، كل هذا خوفاً من جشعكم وقلة أدبكم وفضولكم، أيها الأدميون الخطيرون.

الوظيفة الأساسية لشيئك هذا بما لا يدع مجالاً للشكّ إذن هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرّفْع المؤقت للإغلاق- فمن المهام الثانوية، ومن ثمّ دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح بالمفهوم الواسع الذي أريد فيؤسّني القول إننا لم نخترع بعد شيئاً من هذا القبيل. كم كانت الرحلة تسهّل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وأخرُ لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

ثمة إذن قصور لغوي في تسمية الأشياء. يمكنني المرور الآن لاستكشاف منظم لكل ما تنغلق عليه هذه الغرفة من أشياء ولنرجى لما بعد الكشف مسألة معنى وجودها. يبدأ العدّ مباشرة بتفحص محتويات حقيبة السفر المفتوحة على السرير: جواز سفر، بدلة، قميصان، وشاح، دفتر، ديوان المتنبي، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، باقة ياسمين، علبة تمر من الدقلة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتفطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ ليس داخل العلبة إلا تمر لذيذ يمكنني أن أكله كله بما أن أيّاً من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام.

والآن ماذا داخل الأشياء التي أخرجتها من جوف الشيء؟ أه ثمة في جيوب البدلة التي طويتها بسرة وحشرتها في الحقيبة هاتف نقال مغلق منذ أيام وبقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة. المال!

لا شيء يلعب دوراً أخطر من هذا الشيء في رحلة الأدميين. ان حضر هو الذي يفتح أمامهم كل الأبواب، إن غاب هو الذي يصفقها في وجوههم. هو الذي يرفعهم، هو الذي يخفضهم. هو الذي يكرّمهم، هو الذي يذلّمهم. هو الذي يخدمهم، هو الذي

يستخدمهم. هو الذي يعرّي كل قبحهم، هو الذي يغطّي كل عيوبهم... وهو على الدوام مخلوقهم وربّهم وهم إلى الأزل أربابه وقرابينه.
مواصلّة الجرد.

طبعا السرير الذي بعثرت عليه محتويات الحقيبة.
بصراحة من مَنّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثا فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر"، والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنرتاح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوفّر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت.
مظلوم كبير آخر هذا الحذاء الذي سينتظر ثلاثة أيام كاملة قبل أن أعود الى خدماته.
بخصوص هذا الشيء تحضرني قضية شائكة: قيمة الأشياء المقدرّة بكمية المال الضرورية لاكتسابها.
إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها؟
مثلا كيف نقرر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجارة الملونة أشياء تدفع فيها مبالغ خيالية ويتقاتل البشر أفرادا وشعوبا لاقتنائها؟
الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النبيلة مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبقات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شرهم التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخا في وجه كل هذه النظريات مستخفا بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عبقرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه قلادة حول العنق تثير حفيظة الرجال وغيره النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتمّ باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء!
تصوّر كم كان مشي الأوائل عذابا صرفا قبل أن يضع الحذاء حدّا له. لا غرابة أن يكون هذا الشيء من بين الأشياء الأولى التي خلقوها، بل وحتى قبل الهاتف النقال، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستقزالية. نعم، هل كان بوسعنا تحمّل الطريق لولا الحذاء صاحب الأيدي على قدمينا؟
ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدرأء تلصق بالمسكين. كم تُظهِر للأشياء من عقوق أفطع ما فيه لامبالاة، هي أقسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات.
تداهمني صور عشرات الأحذية التي أبلّيتها على الطريق وتخلصت منها رميا في الزباله لا يعنيني من مصيرها شيء، والحال أنها سهّلت عليّ الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى.
"وحده الحذاء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحتقر الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أو اصل حافيا"

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص.
ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحب الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأنني راهب مسيحي يصقل الصليب قبل القداس. يا له من منظر مهيب والأدمي المعترف بالجميل أخيرا ينظّف الحذاء ويلمّعه لأجله، هو الحذاء، لا لأغراض لايسيه. المشكلة أنني سأكون بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة عاجزا من هنا فصاعدا عن حشر قديمي داخله رفقا به، أي خوفا عليه من العفس والروائح. لكن كيف سأواصل الطريق حافيا بكل ما عليه من الشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخر الكلاب وقشور البطيخ وبقع النفط على الشواطئ؟
نقطة أخيرة بخصوص هذا الشيء العظيم.

أذكرُ أنني فتشت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطء في الفهم وفي المشي على طريق الحلّ، وهو دوما متخلف عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صدّق أو لا تصدّق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقيير الذي لا يليق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلا

خاصة بالنسبة إلى مشاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور. إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من الطين والقش حتى الصنف الجيد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا.

على السرير أيضا البيجاما وقمصان وجوارب وبدلتان وملابس داخلية أي جملة الأشياء التي نسميها الثياب. من يقدر قيمة هذه الأشياء التي نلبس إذا استثنينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جد بعيدة. كان المرء يومها لا يستبدل جيبته إلا عندما يستحيل ترقيعها للثمن المريع للقماس والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حل انتهاء المعركة إلى الجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغام. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الأدميين -خاصة الإناث- من ينتبهون أكثر، لكنني أشك أنهم يُظهرون لها من الامتنان أكثر مما أظهر.

فالثياب دوما مجرد منسوجات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتمويه أو لإبعاد الشبهة، أو للتميز، أو لأداء مهمة قدرة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخادمة أو تُلقى في المزبلة. من أقم لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطواها بعناية ووضعها على رفّ نظيف بعيدا عن أنياب الفران. ثمة أودم يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرد منديل، مثل المدعوة هرتا مولر التي تسأهل جانزتها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

“هل لديك منديل؟” سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحبّ مقتعا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصداق نضعه على الجبين مبللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلًا فإنه يلفّ منديله حول يده. نحرك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفّ منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطّي وجهه بمنديله.

كيف سأتجاسر مستقبلا على الاستعمال العادي، والشيء يوضع على عيني من خراف صريع الموت؟ من هنا فصاعدا إن أصببت برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائل الأنفية اللزجة الخضراء، أو أمسح فيه يدي لأننا كائنات لا تحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتى منديلا.

يقطع علي تفحصي الدقيق لكل ما هو مبعثر فوق السرير رنين مطول لشيء غير عابئ -على ما يبدو- بازدرائيله. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة.

تحضرنى قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الأدمية بالسراح الشرطي وبالغفو الإلهي الشامل وبتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة الفاسدين الذين عاثت منهم كثيرا، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دفعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تنقصه المنغصات. نعم لا عدوّ لي بين الأشياء إلا هذا الشيء ولأسباب كثيرة منها المعركة في القدم.

في ملقات الطفولة تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صارخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "با".

في ملفّ آخر تهزّني "ما" من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء. كم من ذكريات بشعة بطّلها دوما هذا الشيء اللعين وهو يلاحقني بمضايقاته طوال الرحلة.

يرنّ صوته في غرفة الحراسة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا. تصرخ الممرضة في السماعة: الرجل يفرغ من دمه. عجل. من يستطيع الاطمئنان لشيء كهذا؟ تقول بأنني أتجنّى على جهاز يؤدّي خدمات جليلة، نعم؛ للأخرين، الذين يستطيعون مغازلة حبيبة أو الثرثرة مع صديق بلا مخبر يسجل كل كلمة يقولونها أو زميل له مكلف بترهيب.

أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلق الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهرول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلتها صمنا

بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخطب تمرّ الدقائق كالساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضل عدم رفعه. يلطخ الساعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

تمرّ السنوات والعقود وهو دوما نفس الشيء السمع الحامل لكل خبر سفيه: سيدي، هجمات حاقدة في صحف المرتزقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم. أغلق الشيء وأهز كتفي: معاقبة؟ لماذا أكلف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحد لا يدمر إلا الحقد والحسد لا يُذلّ إلا الحسود؟

يرنّ الشيء مصرا على نفس النهج في تنغيص حياتي: أسف سيدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا. المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلته، تهادى في المعاصي. فعوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أبى إلا أن يصغره إلى حجم علبة سجانر، مما شجّع كل آدمي بالغ -وقريبا كل طفل- على حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب.

هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع. أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الأدميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكلتي من تهاة وكم مضحكة هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدين نقّالهم معهم مواصلةً لعادة مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صفير وحشجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوطات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجمل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تفاعلة وتفيحه بحشو أذني بكل الممكن من القطن والصمغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوت كم أزعجني في الحياة.

ربما تنتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكرهه وأذاك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطا ما. ألقبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحى بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا أصدّق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ و عليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأدّب وما عليّ إلا أن أطلب نفسي وقد نسييني الجميع. لم لا؟ سيمكّنني تنسّم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدسّ لتحطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوالي من التلفون القارّ؟ غريب هذا الصوت! "شكرا على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلتي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب". الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتها. أه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف ألوم الآخرين! كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟ الساعة!

تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك، تيك، تيك، تاك. الشيء على أذني أتوهم أنه يحمل لي صوت الزمان. ليس في هذا الصوت إلا خبر مؤكّد. ثانية بعد ثانية تتوارى البداية، تقترب النهاية. حاول التوقف عن المشي وستكتشف أن بساط الزمان الذي تسير فوقه، هو لن يتوقف. حقا لنا حرية الثأر: إيقاف التيك تاك بمحض إرادتنا بحيل حول العنق أو رصاصة في الصدغ أو كيلوغرام من حبوب النوم بالنسبة إلى الإناث. لكن ممّن سنثأر والعالم بالكاد منتبه لقدمنا أو لرحيلنا؟

"نهار يزورنا كعابر سبيل (محمد برهان)

يفرغ ضوءه

فوق عقارب الساعة

يقضم شيئا من أحلامنا

ثم يمضي

حتى قبل أن نشعل

نار المضافة"

ها هي الساعة موضوعة الآن على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "الللمبة" أسلطها عليها كما تعلّمت من المحققين في الأقبية المخيفة. لا بد من محضر مستفيض لكل جرائم الشيء وهي لا تحصى ولا تعدّ ويمكن اختزالها في جريمتين. أولا

التعدي على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوانٍ وهو سيل متدفق. ثانياً، ادعاؤها تمثيلاً، لكن من منكم توقّف همره عندما كسّر ساعته أملاً في إيقاف شيخوخته.

والآن التهمة الدامغة: أي زمن تقيس هذه الساعة الغبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدول؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الأدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جريح ينزف أم الزمن المستنقع لأيام العزلة الانفرادية في الزنانات القذرة؟

نقرأ لأئحة الاتهام قبل الإدلاء بالحكم الجاهز سلفاً. "وحيث ترفض هذه الساعة -شأنها في هذا شأن كل الساعات- الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نيّة لا يُعرف حتى عند النقال، وحيث يتبين من عدم توقّف الزمان عندما تتعطلّ أنها تكذب في ادعائها تمثيلاً ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطاً متواصلًا بحجة الوصول في الموعد فارضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنازات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابنا وطفولتنا، وإنما لا تنفكّ عن دفع الزمان قُدماً بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفاء. وحيث أن زمانها الذي تدّعي قياسه زمنٌ ركيك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهر جليد جامد مغلقٍ على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمعن في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث...

يرنّ الشيء المسمى "هاتف" الغرفة مغتتما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرنّ إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يغتم لسان الدفاع الفرصة: نرجو من الجنب التسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليّة فلولها لاستحال التنسيق بين أعمال الأدميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الأدمي لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثمّ نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علماً وأنا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمراً كلما سنحت له الفرصة.

تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك. متى انطلق العدّاد؟ ما ميزانيتي من الزمان؟ كم وُضع منه في رصيدي لحظة الصرخة الأولى؟
ما أقصر هذا الليل (شيكي)

تُرى كم بقي

لي من ليالٍ؟

حقاً يا شيكي تريد أن تعرف؟ قد تعضّ أصابعك نادماً لو فاجأك جئي خبيث بالردّ.

أن أوان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعي عليه، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حكّمنا على الشيء المائل أملمنا بالجنون المؤبّد.

كيف يمكن للساعات أن تُجنّ؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيتها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن لخبط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-2-3-4-5-6-7-8-9-10-11-12-13-14-15-16. تأمل ذولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الوراء، والزمان لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا تمني نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرته منذ ساعتين وعندما تحتجّ بينهك بنفاد صبرٍ أنه ليس مسؤولاً لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات.

أين القلم لأمضي به الحكم؟ أه القلم! الشيء الذي كتبتُ به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سأكتب به لتفاحة وتفيحه وصيبي! أين الورقة البيضاء؟ أه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

لكن أين النظارات لأعيد قراءة ما كتبتُ؟

أه النظارات! كم من مرّة أسرت الأم في أذن الطفل المتهور، وبعد تجدد الكارثة تحاول إخفاء دموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كفّ عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئاً بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلولها لعبرتُ عالماً ضبابه خارجياً أكثر من ضبابه داخلياً.

كم كنت أفصّل أن أرحل وفي حقيبة السفر نظارات تدقّ في ملامح روح وفكر كل ذات ترافقتني على مقطع من الطريق أو على الأقل لا تُكسر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحنفية في سيلان الماء، قلم يقرأ أفكارٍ ويكتبها

مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل وكَي تكون لي جلداً ثانياً، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكّني من القفز فوق الجبال البحار، وخاصة هاتفٌ لا يرنّ وإن رنّ فلخبر سعيد.

انتهينا من كل الأشياء التي هي في متناول اليد. يجب مواصلة الاستكشاف والانتباه لكل التي تحاول الإفلات من الرصد... أو التي لست مستعجلاً لرصدها.

أه طبعاً هذا التلفزيون الذي لا ينفع فيه مزيد من التجاهل.

لو كان هذا الشيء حقاً ابن حلال وصديق الناس الطيّبين أمثالي وعزّيفاً بأقدار الرجال، لما بخل عليّ هذه الليلة بما تشناق إليه روحي: الأخبار الطيبة عن عالم مصاب بتتابع نوبات الصرع.

لنقترب منه بشديد الحذر نفتح مع قطع الصوت لعلّ وعسى فيه ما يشجع على المشاهدة. لا شيء على الشاشة غير نفس الوجوه المضحكة، العابسة، الجميلة، القبيحة، المخيفة، المرعبة، الساخطة، المتشجّة، الهادئة، الحائرة على شفّتها ربع ابتسامة بوذا ومونا ليزا.

يا شيء فلنا لهذه السهرة نريد فيلماً وثائقياً بالغ الدقة والمصداقية عن رحلة الجنس البشري. أه غير متوفر حيث حجّبه رقابة كل الدول بالإجماع. ماذا؟ ليس لديك إلا فيلماً عن حرب طروادة ضدّ الاغريق ومشاهد مذهلة عن صراع هكتور وأثيل. فيلم هوليوودي آخر عن القيادة هومير لا شك أنه سيفعل بها الأفاعيل كما هو الأمر دائماً عندما يتناول السينما كبرى روائع الأندب الإنساني. لا شكراً.

هومير! ما الذي نقصك حتى لا تنتصب اليوم في جبال اثيوبيا وسهول بريطانيا معابد زوس بدلاً من كنائس المسيح؟ ما الذي جعل اسطورة مريم وعيسى تغلب اسطورة أكامنون وافيجيني؟ لماذا هيكلت أذهان أمم بأسرها مأساة الأم والابن لمأساة البنت والأب؟ أه يا هومير، يا نبي بلا بخت، لو كان لك حسن طالع شاعر فدّ آخر اسمه فالميكي ولو وضعت الأقدار في خدمة الاللياذة مدير أعمال من طينة القديس بولس... لكان للعالم وجه غير الذي نعرف!

على فكرة، ما الذي يحاول هذا الشيء تقليده أو التلميح به للمنتهين من بني آدم؟ أن العالم شاشة ونحن صور تتدافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما باستغراب، أو استهجان أو بياس متعاطف؟ حقاً هل توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب تقيم جودة تمثيل أدوارنا.

اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن ساذجاً. أعود للعمل بعصبية لاكتشف كل ما سهّوت عنه: قنينة عطور، شامبو، علبة شكولاتة، أريكة صغيرة منزوية أفلتت من الرصد.

فجأة أنتبه لإناء موضوع على رفّ. يبهرني لمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جرياً وراءه جرّفيون صعدوا إلى الجبال يُقّبون عن المادة العجيبة التي سيصنعونها منها، الشيء الذي استقرّ طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار، الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبال والبحيرات والأنهار، الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرافئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدّين العواصف والقراصنة قاصدين مرفأً في أقصى الشرق محجّر عليهم مغادرته ينتظرون أشهراً حمولات قوافل أشباه العبيد. الشيء الذي رجع به جشعون غرق منهم الكثير وغرقت معه أثمن بضاعة، الشيء الذي مثّل سرُّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسلين.

هنا نغتنم الفرصة للتذكير بأننا نفعل مع الأشياء ما نفعل مع باقي الكائنات سواء قدت من لحم ودم أو من هذا المعدن أو ذلك: نكره ونحبّ، نطمع ونعدّل، نبالغ في التحقير وفي التكريم.

اعتبر شبه التقديس الذي يوليه بعض الأدميين للأشياء التي تصلح في هذا البلد لحفظ الشاي وإعداده وشرب يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال كأنهم يجاهدون لإنقاذ مريض عزيز من الموت يفضلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل؟ لا تنسى ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء القديمة وحرصهم على وضعها في مخازن ومتاحف على أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يداً إليها؟

لا تنسى حب الإناث للأشياء التي تتدلّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأدميين عموماً على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تلبس ولا تصلح حتى لنقل الكلام الفارغ.

استحضر ما تكلفه من مشاقّ سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفنّوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبد لها، ناهيك عن كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها.

طيب، ليكن أننا أمام حالات تُطرّف في عبادتها، ولنعد إلى تلك التي تأخذ منا قسطاً من الاعتبار ليس فيه إفراط.

اعتبر الكتاب مثلاً. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المرّي، الدليل الصديق، السمير والمنبّه الأكبر! كيف لا يكون المسافر ممنوناً له، وهو الذي يأخذنا إلى كل زمان ومكان.

تصوّر حرج الوضعية لو خُيِّرَت عند الإفافة بين الحذاء والكتاب، وتحديدًا بين فرديتي حذاء سميك وبين كتاب طاو تي كنج. أجمل هدايا "ح"!

ماذا بقي مخفياً؟ لا شيء؟ أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئاً وضعه في الصدرة، في الواجهة، على مرمى حجر.

لا بدّ أن يكون الشيء أضخم ما في هذه الغرفة وواضحاً للغاية وكثيفاً للغاية. آه إنه جهاز التبريد طبعاً. هو لم يكفّ بضجيج المتواصل عن محاولة الاختفاء لكنه على رأس القائمة.

حان دور الالتفات للشيء المختفي في صغره البالغ؟ علبة الكبريت؟ هذه المشبكات لمنع الأوراق من التناثر؟ أم هذا المسمار المسمى "بقة"؟ يا لي من غبي وشكراً للخادمة على قلة عنايتها. إنه بالطبع الغبار الذي تسميه اللغة أيضاً "الهباء" وتصفه بصفة الية بأنه "منثور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل كل الفراغ بما فيه فراغ الكون.

لسبب ما تثير فيّ هذه الخاطرة قلقة غامضا. أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مُقدِّراً كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. تصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لأدمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبخّر في سحب خفيف! كم سيتطلب كس هذه الوساخة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب! بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلّدت تبحث في المشاكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنطلق كلّ شكل والشكل الأخير له. ربما الأمر ليس سهواً وإنما جُبناً. أعدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، قناعتي أنه لا موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّ للغبار وإنّا إليه راجعون.

*

بداهة ثمة في طبيعة الأشياء جزء من طبيعتنا ومن ثمة ضرورة الانكباب عليها والتفكير فيها من خارج الصندوق. الانطلاق من البديهيات التي لم تعد تسترعي انتباه أحد. دون أدنى شك لا يُعرف لا للأشجار ولا للجراثيم أو الفطور أو القلط الرغبة أو القدرة في صنع أشياء تعينهم على البقاء وتحسين شروطه. يقال لك لكن الشمبازي تستعمل الأحجار والأعواد بحثاً عن القوت. صحيح، لكن أين هذا من قدرة البشر على صنع واستعمال هذا الكم الهائل من الأشياء التي لا تتصور قدرتهم على العيش بدونها؟

لاستعادة الانتباه لأهميتها في وجودنا ووجود العالم الذي نعبر، تصوّر أن جنياً ألقى بتعويدة 7432 المختصة في الغاء كل الأشياء في ثانية واحدة. هكذا ستجد نفسك عارياً بدون نظارات وحتى الأسنان الصناعية اختفت من فمك. الأخطر من هذا أنك ستجد نفسك في عالم لن تعرفه وقد اختفت منه السيارات والطائرات والدراجات والعبّارات والهراوات والكمنجات والحفارات والسماعات والحفاظات وكم من أشياء أخرى كانت من معالم العالم الذي تعرف.

حتى لا تهزّ كتفك مستخفاً بفكرة تبدو لك في منتهى السخافة اعلم أن أخشى ما يخشاه علماء الطقس والفلك انفجارات جبارة في الشمس تحدث كل إحدى عشر ألف سنة تؤدي لظهور رياح كهرومغناطيسية تجتاح كوكبنا وتدمّر شبكة الكهرباء على كامل الأرض. حدث هذا أكثر من مرّة مما أدى في بعض مناطق الأرض إلى توقف المصاعد في العمارات والطائرات في المطارات والتفئة في العمارات وسلسلة طويلة من الكوارث نتيجة توقف جملة من الأشياء كالحواسيب عن الاضطلاع بالمهام التي جعلت من أجلها.

بداهة وجود الأشياء مرتبط بوظائف حيوية تُلبّي حاجيات طبيعية ماسة ما للأدميين، بل قل هي حاجياتنا هذه بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصور، ثم لمشاريع تحققت في أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط. لولاها لما ذهبنا بعيداً. فالأدمي، خلافاً للدب بفره، للبعل بحوافره، للنمر بأنيابه وأظافره، أفاق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه. هكذا أُجبر على تشغيل خلايا دماغه ليعوّض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها. مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوّقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟ ألا يُقاس الكمال في كائن باكتفائه بذاته؟

*

أن الأوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة أغالب به تسلّل النعاس. فرصة لأتمعن فيه كأني أراه لأول مرّة.

بداهة الشيء الذي بين يديّ كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا وذوقاً. هو يُحدث صوتاً إذا ضربت جداره بالمعلقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسان الذي جعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كان عليّ للتأكد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكأف مشقة جمع كل هذه القطع؟
“على حافتي الطريق (ارنستو قاردينال)
مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بل
أشلاء صحون
مواسير معوجة
أسلاك
علب سجانر فارغة
حطب، بلاستيك
أوان مهشمة
تنتظر البعث مثلنا”

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الآدمي وبقية الكائنات مسربل بالغموض، مخلوقات كما يحبها كل خالق لا تعصي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها. مواصلة الجرد.

طبعاً إضافة حاسوبي النقال وهو أول ما أخرجت ما حقيبيتي. ربما تناسبته من فرط الغيظ . منذ أكثر من ساعتين وأنا أدفع القطعة تلو الأخرى على شاشته فتسقط بسرعة لا تصدر أي صوت. كل مرة أقرأ على الشاشة رسالة: أتريد اللعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمّني نفسه باستعادة كل ما خسر في الجولة الماضية. عبثاً، والرسالة دوماً نفس الرسالة: كشّ مات. أعود لصراع يبدو أنه بلا أمل. مرة أخرى يعلن الحاسوب بسرعة نهاية المباراة: كشّ مات. خليط من المهانة وشهوة الانتقام. أجرب التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروسا فتصاب بالجنون مما سيضطرني إلى رميك في سلّة المهملات. كشّ مات.
- يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أيّ جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوسا في هذا القفص. إن ألححت، سأكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلكم في كمبيوتر نَقال أرقى لفسحة نهاية أسبوع. كشّ مات.
- وماذا لو زوّجتك تقيحه. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هذا؟
- كشّ مات.

المشكلة الكبرى مع هذه الأشياء اللعينة تزايد ذكائها ومن ثمّ وخطورتها. من يتنكر أن الفكر الذي يسكن داخل هذا اللعين كان لحدّ هذا الجيل موجودا داخل أدمغة متحصنة بحف عظمي يحميها من الرضوض؟ ألم تعدّ تسعه فقّر أن يسكن أجسادا جديدة لأنها تمكنه من التفكير بطريقة أنجع وأسرع؟ هل سيبقى هذا الفكر مجرد امتداد وتحسين للطاقة الذهنية التي تسكن أدمغة الخلايا العصبية والشرابين، أم هل سيستقلّ يوما مُعلنا انتهاء صلاحية أدمغة الجماجم والأجساد سريعة العطب؟ تقول: لكن الحاسوب لا يحس ولا يشعر مثلنا، ربما انتبه الفكر المخفي الذي يبحث فينا وفيه أنه من الأحسن خلق عالم بلا عواطف بعد أن اتضح أن أضرارها في تسميم حياة الكائنات فاقت منافعها في تنبيهها السريع للأخطار. ربما هو بصدد العمل على أحاسيس وعواطف أكثر صقلا وتشديدا، ربما سيأتي يوم يصير فيه متيما بحاسوب المكتب المجاور فتحدث مشاكل لا قبل لنا بتصورها إذا كان هناك حاسوب ثالث يريد أحد الحاسوبين لنفسه. ها قد بدأت تتزاحم على حدود ما نسميه "الواقع" أصناف متفائمة التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيبورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تفكيرٍ أسرع وأصفي من الآدميين، ولم لا على مشاعر أرقى وأفعالٍ أذكى؟

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزوا خارجيا لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير

القابل للتصرف في تقرير المصير. آنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيما تمهيدا للانقلاب الأكبر الذي سيحيل المدن إلى محميات من نوع امفلوزي تأتيها الكائنات الجديدة للتسلية والتفلسف.

الثابت أن هذه الأشياء الجديدة بدأت تثير فينا قلقا مبهما وخوفا متزايدا. نحن لا نعرف اليوم هل فيه مبالغة أم أنه لم يرتقي لحجم الخطر الذي يتهددنا. هل هذا الذكاء الذي نسميه الاصطناعي والذي صنعناه بعقولنا وايدينا ووضعناه في كائنات من معادن وأسلاك نحن أيضا من خلقناها هو نهايتنا كجنس متحكم (أو هكذا يعتقد) في عالمه هذا؟ ثمة ارتباط وثيق بين وجودنا ووجود الأشياء بل يمكن القول إن مصيرنا ومسارنا واحد.

اعتبر تاريخ هذه الأشياء وسترى أنها يتحرك وفق ثلاث خطوط قوة هي نفسها التي يتحرك عليها تاريخنا: تزايد العدد، تزايد التعقيد، تزايد الاندماج.

اعتبر تاريخ البشر في علاقته بهذه الأشياء وسترى أنه يتحرك على ثلاثة مسارات: تزايد القدرة على صنع أكثر الأشياء تعقيدا، تزايد الإمكانيات التي توفرها هذه الأشياء و... تزايد تبعيتها لها قد تصل بنا يوما لحالة نصبح فيه عبيد عبيدنا.

يطرح ظهور هذا النوع الجديد من الأخطار إشكالية ضخمة تتعلق بهويتنا نحن البشر. تساءلنا من نكون وماذا نمثل بالنسبة للحوانات والأشجار؟ يجب التفكير من الآن في مسألة من نكون وماذا سنمثل بالنسبة لكائنات ستسكن ذهنها شرائح تربطها بأضخم الحواسيب ولها أجسام تحاكي أجسامنا في كل التفاصيل وهي ليست أجسادنا في أي شيء. هل من الممكن أننا لسنا إلا حلقة في سلسلة من الكائنات مهمتنا اعداد التي سنأتي بعدها لمغامرات خلق عوالم أطرف وأجمل وأخطر من العالم الذي خلقنا؟

كم مؤسف أن " طماي" لم يأخذ الوقت لكتابة مذكراته وأن " لوسي" لم تترك لنا شهادة مفصلة عن رفاق رحلتها.¹ إنه تقصير في حق بشر-سيبورغ ملايين السنين القادمة لن أساهم فيه ومن ثم الشهادة المفصلة عن الأدميين في ما سيأتي من النص لعلها تعمق فهمهم بالكائنات البدائية التي كانت أوائلهم وآلهتهم.

الرابعة صباحا! أرهقت الحاسوب المسكين ومن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضته عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب. صباح اليوم الثاني يُدقّ باب الغرفة بلطف لكن بالحاح. أقفز من فراشي أفرك عيني لا زلت لم أخرج تماما من أغرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول مبتسم.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. ينتظرك في " اللوبي" كثير من الأصدقاء ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضل بسرعة.

وكانه تمّ الاتفاق بين أكثر من طرف على عدم تركي لحالي، يرنّ الشيء في ظهري. يصمت بسرعة. يعود إلى الرنين ثم يصمت عائدا بعد ثوانٍ لرنين طويل. إنها "ح" وطريقتها في إعلامي أنها هي التي على الخط. أجزم أنها تريد التأكد أنني ما كنت سأنتسى دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا.

كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك أينما كنت، مباشرة أو عبر ما يخلقون من أشياء، بكرهم وبحبهم!

**

¹ "طوماي" اسم أطلق سنة 2000 على قحف عظمي لكائن عاش قبل سبعة ملايين سنة ويعتقد أنه كان منطلق الطريق الطويل الذي سيصل عبر كثير من الأجناس المندثرة إلى البشرية الحالية. "لوسي" اسم أطلق في سبعينيات القرن الماضي على رميم انثى من الأسترالوبيتكس وهو الجنس الذي وجد قبل ثلاث ملايين سنة ويعتقد أنه كان حلقة الوصل بين القردة والبشر الحاليين (الناشر)

الكتاب الرابع بنو سفر

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن.
ستصبح صومعة الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن.
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن.
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن.
حافظ

مقدمة الكتاب الرابع

قد تكون أصدق صورة لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحارة على متن سفينة تطفو على سطح المحيط الأهوج والصراع داخلها بين الركاب على أشده حول من يأكل على طاولة الريان، من يأكل من القمامة وحتى من يكون المأكل. في مثل هذه الظروف والهاجس هو البقاء، آخر المشاغل التمتع بمنظر القمر على سطح البحر واستكشاف العجائب التي تتحرك في أعماقه المظلمة. كل المطلوب أدق معرفة بمن هم الركاب للعمل معهم بغية تفادي الغرق وفي أسوأ الحالات تفادي شرهم أو حسن استغلالهم.

ها أنت في وضع شبيه بوضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار بخارة سفن سانتا ماريا وبنتا ونيبيا.

المشكلة أن استكشاف رفاق الرحلة، رهائن السفينة والعاصفة والمحيط مثلك، ليس هيئا لجملة من الأسباب الفاهرة أسارع بعرضها تنصلا من مسؤولية محدودة هذه الشهادة وإبراء الذمة بخصوص كل نواقصها وحدودها.

أكبر عقبة بخصوص فهم الأدميين العدد والتنوع والتعقيد وهي الظاهرة التي وصفها الشاعر أحسن وصف.

'صغيرٌ يطلُبُ الكبرا
وشبيخٌ ودّ لو صُعرا (العقاد)

وخالٍ يشتهي عملا
ونو عملٍ به ضجرا

ورب المال في تعب
وفي تعب من اقترا

ونو الأولاد مهموم
وطالبهم قد انفطرا

ومن فقد الجمال شكي
وقد يشكو الذي يُهرا

ويشقى المرء منهزما
ولا يرتاح منتصرا

ويبغي المجد في لهفٍ
فإن يظفر به قترا

شكاة مالهم حكّم
سوى الخصمين إن حضرا

فهل حاروا مع الأقدار
أم هم حيروا القدر"

كيف يمكن في هذه الحالة فهم هؤلاء "الذين حيروا القدر" نفسه.

التجربة المباشرة؟ لكنها محدودة بحكم استحالة معرفتهم واحدا واحدا.

الصور النمطية التي يُشيعها الأدميون عن الأدميين؟ كلها أحكام مسبقة يسوّقها البشر للدعاية لأنفسهم كما يسوّق الذكوريون لصورة الرجل-السيد في المجتمعات البدوية.

أراء الفلاسفة والأدباء والفنانين على مرّ العصور؟ أغلب الوقت هي غلاف لمزاج المتحدثين يُخفون -وراء ما يسوّقون من نظريات- تشاؤمهم أو تفاؤلهم بخصوص البشر وذلك من منطلق تجاربهم الذاتية وأزماتهم الشخصية.

مراقبتهم في أماكن خاصة تبرز جزءا مُعيّنا من طبيعتهم كساحات المعركة، والأسواق والمحاكم والمعابد والمواخير والمعامل والسجون والتكنات وبيوت التعذيب؟ نعم لكن هذه الأماكن كثيرة ووقت الملاحظة جد محدود.

ثمة استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة والفيل والنملة والقطة والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود.

تصوّر كل ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها.

ربما كنا سنرفع ضدها قضايا في التلب والتعدي على الأعراس؟

أهم عنصر يمنع المعرفة المطلقة قصر زمن الملاحظة.

كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة بمشاهدتهم منذ انطلاق أول مرتحل إلى انقراض آخرهم، ناهيك عن معرفتهم واحدا واحدا.

إنه موقع لا يحتلّه إلا من تسميه اللغة الربّ. لست متأكدا أنه حتى هو كان سيصبر على متابعتنا واحدا واحدا وتحمل مشاكتنا التافهة. محكوم عليك إذن أن تنتظر للأدمي، مثلما تنتظر لباقي تظاهرات الوجود من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها تتأمل ذاتا أخرى أكثر منها غموضا وضياعا.

أخيرا أكبر الصعوبات: استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راوٍ يُنتظر منه أن يقدم المعلومات وليس الأحكام.

أي كلام "موضوعي" يمكن أن أقوله عن الأدميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت؟

كيف لا وهم يسمّون حياتي منذ ارتطامي بهم. لكن لماذا أتحمّل وحدي وزر هذا الاعتراف؟

بربك ألا يسمّون حياتك إناثا بالادعاء عليك أنك تقلب الحمام مسبحا كلما أخذت دشا، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظاراك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ؟!

ألا يسمّون حياتك وهم رضّع لا يحلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل مع المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات؟!
 ألا يسمّون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنانيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التافهة التي لا تنتهي؟!
 ألا يسمّون حياتك وهم مرافقون يكلفونك مصاريف تقصم الظهر أجره أطباء الأمراض الجلدية والنفسية؟!
 ألا يسمّون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالحجارة يدعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة،
 وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سدّج مغرورون جهلة؟!
 ألا يسمّون حياتك وهم كهول ينافسونك في كبرى المناصب والحال أنك أنت وأمك أعلم الناس بأنك بها الأجدر؟!
 ألا يسمّون حياتك وهم شبوخ يرتعشون ويهزون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوماً، أو ما أنت عليه، لم
 تنتبه لفرار السنين؟! !

ألا يسمّون حياتك حتى لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطرّ للوقوف في الحرّ وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق
 الأدميين وهم يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال الفقيد الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو
 على وشك الانزال إلى الحفرة؟! وكأنه لا يكفي أنهم أفسدوا عليك يومك يجب أن تدلو بدلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي
 وأنت تقدم التعازي مفتعلا الأسى والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منهم واحد.
 بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة وأساطير
 مقدّسة يؤدّي التعرّض لها للوقوف في أحسن الأحوال في طابور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محاكم
 التفتيش ليأمر بحرقك حيّا بعد ما تيسر من التعذيب.

هنا تصرخ فيّ والشرر يطاير من عينيك: يا ناكر الجميل، أليسوا هم من فتحوا لك الطريق، من اعطوك كل ما تحتاج، من
 علموك كل ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ أليست "ما" و"ح" و"تفاحة" و"تفاحة" من الجنس البشري؟
 طبعاً، طبعاً، معك نصف حقّ، لكن اعلم يا هذا أنك تؤكّد نظريتي، فسواء نظرت لهم بعين السخط أو بعين الرضى النتيجة
 دوما نفسها: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. هذا ما يجعل من مروّجي إمكانية
 الكلام عن الأدميين بصفة موضوعية مجرد فصيل آخر من مسمّي الحياة.
 في كل الأحوال لماذا عليّ أن أتحمّل وحدي تهمة سوء الظنّ بالأدميين (حتى ولو كنت غير بريء تماماً من التهمة)، هل أنت
 من قلت فيهم؟

" فيا ربّ إنّ الناس لا ينصفونني
 وإن كان لي شيء تصدّوا لأخذه
 إن نالهم رفدي فلا شكر عندهم
 وإن وجدوا عندي رضاء تقرّبوا
 وإن طرقتني نكبة فكهوا بها
 سأمنع قلبي أن يحنّ إليهم
 فكيف وإنّ أنصفنهم ظلموني (أبو العتاهية)
 وإن جئت أبيغي شيئهم منعوني
 وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
 وإن نزلت بي شدّة خذلوني
 وإن صحبتني نعمة حسدوني
 وأحجب عنهم ناظري وجفوني"

شنت أم أبيت كل ما تقول وتكتب عن الأدميين ووصف للحالات الموضوعية والنفسية التي تمرّ بها في علاقتك معهم.
 هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسمٌ لصورتك في مرآتهم ولصورتهم في مرآتك، ولا علم آخر بك أو بهم خارج هذا الانعكاس
 المتبادل.

أكبر خطر يتهدد فهمهم التباد الذي يأتيك يوماً من طول حبههم ومن طول كرههم. لذلك عليك انتظار الأزمات لتتفاعل معهم
 بكل جوارحك ثم الإسراع لشهادتك لتقطر الحروف حبا وكرها.

المطلوب إذن من كل شهادة الصدق وليس الموضوعية. على اعتبار قدرة التزامي طول الوقت بفضيلة الصدق هذه،
 وانطلاقاً من كل المحاذير التي نكرتها أعلاه، هذا كل ما أعرف عن الأدميين والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروتهم.

معطيات الحواس الخمس

التزاما بقواعد أسلافي الميامين كَتَّاب الرحلات ونسجا على منوالهم في وصف البشر الذين يرتطمون بهم بعد طول الإبحار أو التيه في الأرض، سأحاول -ولو بكثير من التأخير- وصف الكائنات التي ارتطمت بها -ولا أزال -منذ إفاقتي والتي حكمت علي الأقدار بمرافقتهم على طول الطريق.

وسط اللغط المتصاعد من المارة والباعاة يصرخ الطفل في أمه: "ما" ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟ تداري الأم حرجها وجهلها بما يفعل كل هؤلاء الناس في هذا المكان. تضحك قائلة إن البعض ذاهب ليتسوق أما الآخرون فهم بصدد قضاء حوائجهم التي لا تعرفها. إنه نفس الحرج الذي سيواجهه الطفل عندما يصبح أبا يمسك بيدي طفلة في الرابعة أو الخامسة من العمر وهي تصرخ أمام تدفق الناس وسط ساحة عمومية: "با" ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟ من أين للأُم أو للأب أي ردّ مقنع ولا أحد يعلم بالضبط ما الذي نفعل كلنا في هذا العالم. إنه السؤال الذي سيلاحقنا طوال النص والذي سنعود إليه مرارا بل وسنحاول الردّ عليه. على كل حال نحن ما زلنا في بداية الاستكشاف فلا ضرورة للتقدم بإجابات سنتضح مرارا كم هي ساذجة.

في بعض أقدم ملفات الذاكرة يشدّ الطفل طرف أمه صارخا:

- "ما"، انظري كم هي سميئة هذه المرأة!
- يفهم من التفاتها يمينا ويسارا في حالة انزعاج واضحة أنها محرّجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ لسبب جهله.
- أسرع، بيت العرس ما زال بعيدا وأخشى أن نصل متأخرين.
- "ما"، لماذا تلبس النساء "البخنوق" ولا يلبسه الرجال؟
- قلت لك: هذه مواضيع سنتحدّث حولها لاحقا، ليس الآن.
- "ما"، تقولين نوما إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟ "ما"، متى سأكون طويلا مثل كل الرجال؟
- ...، ...، ...، ...، ...، ...

- "ما"، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدّي سوى جدّي؟

يفرح الطفل لأن في ضحك أمّه نبرة استحسان.

- أصبت يا بنيّ، ولو أن هناك استثناء سَأَحَدُكَ عنه يوما. والآن، توقّف وأمسك بيدي حتى نعبر في هذه الزحمة.

يجيل الطفل البصر لا يعرف على ماذا أو من يركّز أكثر.

ثمة شخاذ بلا رجلين يزحف على البطن، والناس تتقادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتقادى به النظر إليه.

هذه أنثى بثياب ملوّنة كالتاووس أيام الربيع، وهذا أحذب مضحك الشكل، وهذا شاب مفتول العضلات، وهذه عجوز تتكئ على عكاز، وهذا وجه مفلطح يعلو قمته شعر أحمر، وهذا وجه آخر كأنه حُفِرَ في خشب بئّي بسكّين، وهذا وجه ثالث غطّته لحية كثيفة، وهذا وجه يحمل خيوطا غائرة عميقة تحت العينين، وهذا رأس شعره بلون القمح، وهذا رأس ثان شعره بلون الليل، وهذا آخر اختار لشعره لون اللين.

هو لا يعلم أن أغرب الأدميين مظهرا ينتظرونه في منعطفات الطريق الكثيرة القادمة: اللواتي تلبسن أغلى أنواع "الكيمونو" وكلّ "جايشا" لوحة فنية أجمل من الأخرى، الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أنيقة كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، الخلق لكل شعرة تنبت فوق الرأس، المخفون قساماتهم داخل أدغال من الشعر، الرسامون على جلدهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانونون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

هو ما زال يجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقارنة باختلاف سلوكياتهم.

على أقصى الطيف الذين يقدمون الأضاحي الأدمية لألهتهم وعلى الطرف النقيض الذين يرفضون ذبح بقرة.

كم من إخراج لفكرة واحدكم من تقاسيم لا نهاية لها للحنّ يتيم!

ينتبه الطفل إلى أن وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كرّاسه وأقلامه حال وصوله البيت ليحاول رسم كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشى. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان آخران. على قمة الجذع هذا انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون.

- "ما" هل يوجد بشر برأسين؟

- لا يا بني، يكفيننا وجع رأس واحد.

- لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى أن تشتغل.

- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثاني والثالث؟

يجرّب الطفل أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإضافيين على

الكتفين. يفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتدلى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار.

يكتشف الكهل يوما أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا أبدا عن نفس اللعبة.

“كلهم في هذا العمر يريون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال” (بيكاسو).

ربما واجه الإله النحاتّ الرسامُ نفس المعضلة، ليكتشف الحلّ الذي كان الطفل أصغر من قبول بساطته وأناقته وتبعاته. أليس

أكثر الحلول اقتصادا خَلقُ كائن برأس واحد لكن بأعداد رهيبه؟ آنذاك، ما الذي يضير المجرّب الأكبر أن يمرض أو يتعطلّ

هذا الرأس أو ذاك وهو يتوقّر على كمّ هائل من الرؤوس لمواصلة تجارب لا يعلم إلا هو هدفها!

في أقدم الملفات عن الأدميين ما توفره حاسة الشمّ تفضح ما يريدون التسرّ عليه بخصوص ممّا هم مكوّنون.

ذات ليلة يصرخ الطفل متوجّها إلى “ما” وهي مضطجعة حنوّ “با”:

- أف! هذه الرائحة، “ما” أخرجي الكلب بسرعة!

كان في ضحكها المكتوم ونحنة “با” - حرج واضح خاصة وأن الكلب لم يشاطرنا ليلة غرفة النوم.

أول انتباه للطفل أنّ ربّ البيت -وربّما حتى ربته- يضطر أو تضطر كما يضطر هو، تخرج منه أو منها، روائح كالتي تصدر

منه. كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دويّ قنبلة تنفجر تحت الماء.

انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال -وأنا أدأوي نفس الحرج بسعال حادّ انتابني على غير سبب:

طيب غطيت على الصوت بالسعال، بماذا ستغطي عطر هذا الذي غمرتنا به؟ لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكا.

البشر أكياس مليئة بسوائل مشبوهة ذات روائح غير عطرة تقلت منهم عند عجز التكم فيها؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى

ذات بها “أنف أن تسكن اللحم والعظم” فما بالك أن تكون قمامة متجوّلة. من المؤكد أن هذا سبب ولع الأدميين والإناث منهم

على وجه الخصوص بالبخور والعطور يدفعون فيها من قديم الزمان أغلى ثمن للتعطية على ما لا يمكن انكاره؟

ماذا الآن عن دور حاسة اللمس؟

هي تعطي عن الأدميين أروع الانطباعات خاصة عندما يلتصق الرأس بصدر الحبيبة أكانت أما وأنت طفل أو المعشوقة وأنت

العاشق. لكن حذار من لمسهم خاصة في مواضع حساسة إن كنت لست على أوثق صلة بهم فقد تفاجأ بصفعة جدّ محرّجة.

طقس المصافحة هو الحالة الوحيدة التي يقبل بها الآخر الذي تعرف بملامستك وملامسته والهدف لما تتغلق اليد على اليد

للتأكد من أنها خالية من السلاح.

تبقى حاسة اللمس فقيرة بالمعطيات التي تحتاجها لتفادي خطرهم أو للنفاد لما يعتمل داخل ذواتهم. يمكنك أن تقضي ليلة كاملة

تتمسك جلد وشعر الحبيبة. لن تعرف ما تضرر أكثر مما يعرفه عنك الطيّاب في الحمام أو المدلك في المستشفى وهو يفرك

جلدك وعضلاتك.

على العكس من هذا يمكن القول إن للذوق إمكانيات أوسع أو هكذا افترض البعض.

أليست أصدق أدوات المعرفة وأولها لدى الأدمي الشفتان والأسنان واللسان؟

خذ مثلا المعلومات التي تأتيها والفم مطبق بعناية حول حلمة ثدي منتفخ بالحبّ، والسائل الدافئ الرقيق يُبعد عنّا الجوع أبغض

حالات الشعور.

النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تنوّق وابتلاغ لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمّله.

هكذا استنتج بعض الأوائل أن النقطة القصوى في أي مشروع لمعرفة الأدمي... أكله.

كان ديوجان -المسمّى سقراط المجنون- لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري، بل كان يدعو بحماس إلى تدوّقه باستمرار ودون

أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما يتمازج الباحث والمبحث فيه فيصيران شيئا واحدا.

كان كهنة "الأزتاك" يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخائفة للأصاحي البشرية وسط أهازيج الشعب وبعد انتهاء

الذبح كانت الأشلاء الدامية لقلوب ما زالت تنبض تُقدّم إلى مادية السادة يتذوقونها بمزيج من اللذة والخسوع.

قيل -والعهدة على المؤرخين- إنه كان لقوم في منطقة اسمها أوروبا، إبان عصر يسمّى النهضة، ملك عظيم راع للدين والفن

والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالته يحمل على التّوام في جيبه قنينة صغيرة من مسحوق اللحم الأدمي يمضغه متأنيا.

وفي أوروبا المتحضرة هذه، وُضعت أصول وقواعد لتذوّق اللحم البشري. فبعد قتل الأدمي شنقا باسم الانتقام الشرعي الذي

يسمونه “عدالة”، تُترك الأجساد معلقة على هامات المشانق أطول وقت ممكن حتى يتعفن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادةً تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك تجهزون الميت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطري ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين. قصص متوحشين وكفار نحن " خير أمة أخرجت للناس "منها براء؟ عن الجاحظ، طيب الله ثراه، بعض الأشعار التي تنبؤنا أنه ثمة من أوائلنا من تنوق مع الضأن والماعز والجمال لحم ابن آدم وحواء.

وأنتم أكلتم سحفة بن محدّم
تدا عوا له من بين خمس وأربع
وقال شاعر آخر:

إن سرك الغدر صرفا لا مزاج له
قوم تواصلوا بأكل الجار بينهم

ثمة من قال في قبيلة تُدعى بني فقفس:

عدمت نساء بعد رملة فائد
وباتت عروسا ثم أصبح لحمها
وقال شاعر يهجو قبيلة اسمها باهلة:

إن غفقا أكلته باهله
وأصبحت أم غفاق تاكله

يبدو أيضا أن أجدادنا كانوا ذواقا يعرفون أطيب أجزاء الأدمي:

أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم
هذي الخصى فكلوها من نفوسكم
كلبا فلا تجتروا بعدي على أحد
كما أكلتم خصاكم في بني أسد

تقول لتفسير الموقف وحتى لتبريره إنها الضروريات التي أكل فيها آدميون جثث رفاقهم وقد تقطعت بهم السبل في أعالي الجبال الموحشة أو في أعماق الأدغال.

لكن كيف تبرّر أكل ارسقراطية المكسيك أو الملك الفرنسي للحم الأدمي؟ يقينا أنه كان مؤمنا بأن هذا الذي يمضغ ويبتلع يحتوي على القوة الغريبية التي تغذي البركان الذي بداخله.

ألم يكن نبلاء “الأزتك” يبحثون وراء طعم اللحم الأدمي عن طعم الذات نفسها وحتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟

ألم يكن هنود غابات الأمازون ينقلون سحريا زخما من المأكول إلى الأكل؟

لهذا يمكن القول إن أكل الأدمي كان وما يزال في العقل الباطني أكمل الوسائل لمعرفة هذا الذي نرى فيه أنفسنا أخرى نخترل بالعملية زمن البحث في أسرار نكائه وقدراته ونحن ندمجها كلها داخلنا.

في حال اقتناعك بالفكرة كأقصر طريق للمعرفة، من أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرا وأوقات المجاعات فقط؟ ثمة إمكانية نشر إعلان على الإنترنت كما فعل أحدهم: “أرغب في أكل آدمي، فهل من راغب في أن يؤكل”. فجاءه متطوع مدّ عنقه للذبح ليشبع “الباحث” من البحث.

أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الإنترنت قادرٌ على تعقبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من “بروكسي” ناهيك عن صعوبات التخلص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير آدمي من بلد اسمه أوكرانيا، قتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة، والحال أنه كان مجرد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تحدان من استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلا أن بعض الأدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض يشع يسمونه مرض الكورو، لا نتمناه حتى لألدّ الأصدقاء. لكل هذه المحاذير الصحية والقانونية ننصح بترك جانبا فكرة أكل البشر للتعلم في دراستهم ربما إلى أزمان أخرى قد تنتور فيها العادات والقوانين.

ما الحلّ إذن والحواس الخمس لا تنفع لسير أغوارهم أكثر مما تنفع لفهم كتاب تأمله ولمسه وشمه ومضغ غلافه وأوراقه؟ طبعاً هناك التجربة المباشرة بكل مكوناتها الحسية/الشعورية/الفكرية/الخيالية وغير كل أنواع العلاقات التي تبنيها معهم (وحتى هي... لكن هذا موضوع سنستأنفه بعد تفحص أهم الملفات بخصوص هذه التجربة)

**

أو كيف أنهم أخطر وأشرس الكائنات التي تسدّ عليك الطريق

تسألني "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربة. انفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الأوجاع المترسبة فيها:

- يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أيّ محكمة تتصفنا منك؟

تبهت ربع ابتساماة الأم. تقطّب جبينها. تتردّد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب ثم تقرر الثبات.

- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟

- تسأليني كيف؟ اسمعي يا جاهلة كيف كان عليك إعداننا لمواجهة الأدميين.

أثبُ أمامها لأمثّل الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، ويدها الأخرى تمسح دمعة.

- اسمعي وانظري يا أسوأ أم كيف تتصرف الأم الجديرة بهذا اللقب. هي تدخل عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا

يفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حادًا أمرًا نافذ الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني

سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندلل أحدًا.

يثب الأطفال من فراشهم مرعوبين. فيزداد صراخها: يا الله، بأسرع من هذا. تفتعلون عدم سماع ما قلت. اللعنة! من تشاءب؟

من؟ أنت، إلى العزل، تبكي! والله لأقطعنّ عنك هذه العادة ولو تطلب الأمر أن أقطع لسانك. انتهى العهد الذي كنت أريكم

في الشارع دون إعداد مُحكم. وأنت يا بنت، خمسة جلدات هذا الصباح لتتعلمي الوقوف السريع عندما أصرخ بالأوامر. أنت

الطفل رقم 2، قلت: ممنوع مواسة الأخت. ستذهب مباشرة إلى الخزانة تقضي فيها النهار مباشرة بعد نهاية التمارين. وأنت

كبير الأطفال ازحف على بطنك حتى الباب إلى أن تتعلم عدم رسم مثل هذه السحنة على وجهك.

بعد توضيح المقاصد يمكنك رمي قطعة خبز جافة للخمسة الوحوش الصغار وبعدها مباشرة التمارين.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليوود.

يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: "هايلى هايلى هايلى"، نحن للألم مستعدون، نحن

للهوم متأهبون، نحن للأعداء متحفزون، الويل للذي منه كل نقمة، إننا منه لمنتقمون.

مباشرة تمارين الجودو والكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت.

بعدها التمارين النفسية للصبر على الأذى وحسن استعماله ضد الآخرين، كل الآخرين.

إذا بدأت بضرب أصغرنا ضربا مبرحا تشجيعيني على الضرب. الويل له إن ارتمى في أحضانك مدفوعا بعبادات قديمة ما

زالت مستحكمة. لا بد أن يأتي ردك لا لبس فيه: دافع عن نفسك أيها الغبي، لا أمّ لكم في هذا السيناريو وإتّما دليل كفاء يعلمكم

العالم على حقيقته والأدبي على طبيعته.

آخر دروس الصباح تعليماتك بخصوص فنون القسوة والخديعة. بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى

كل أصناف الخصوم والمنافسون والأعداء وهم في كل منعطف من منعطفات الطريق. نعم، هكذا كان عليك أن تربي أطفالك

أيّتها الأم الفاشلة.

لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "ما" تضحك إلى أن يأتئها السعال.

- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما أن أفشّ في أول أدمي يعترضني غيظي ضربا بالحذاء ولم لا برصاصة في صدغ

بعض الأوباش.

- كم أخفّنتي ذلك اليوم عندما وجدتك بين غلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدّس. يا إلهي، لا أصدّق إلى

اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به إلى المدرسة! كيف وجدت هذه الأسلحة اللعينة؟ طلبت من خالك أن يأخذها إلى القرية

وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقا تحت إحدى شجرات توت البستان.

- ماذا فعل "با" عندما اكتشف خيانتك للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عيني "ما" مرح خفيف، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوثاته سخرية خفيفة

يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.

- هل تظن أنه كان يتدكّر أنّ بيتنا كان من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحتة؟

لحسن الحظ لم يكتشف الطفل تلك الأيام كيف تُستعمل المسدّسات، وإلا كان طريقه أخذ اتجاهها جدّ مختلف. تصوّر عنوان

جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقتل زميلا ويجرح المعلم الذي حاول التدخّل. البوليس

يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون".

لكن ألم يكن من حقّ الطفل امتشاق السلاح لدخول قسم فيه ذلك الكمّ من الراسبين الأزليين يسومون من هم أصغر منهم شتى

أنواع الأذى.

- لا بدّ أن تكون أكثر لطفاً وبشاشة. نعم، هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم هو رائع أن تتصالح مع رفاقك وأن تستمتع باللعب معهم من جديد.

تهمس "ما" في أذن جارة جاءت تسلي عنها همومها.

- إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح بمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.

يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيجان والمرح، يصف يومًا من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.

- أعملتُ في أولاد الكلب قبضتيّ. صمدوا بعض الوقت، ثم قرّوا يستنجدون بالمعلم. كنتُ كسيدنا عليّ في هجومه على الكفار. على فكرة، السيد المدير يطلبك غداً لأمر يهّمك.

تدير "ما" ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف يفسّر لها أنّه وقى بوعد، أنّه ذهب طالبا السلام، أنّهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عداوتهم.

- أرجوك، اسمعيني. يدعون أنّ "با" يأتي للمدير بالهدايا كلّ يوم لذلك أنا أولهم. كلهم لهم أب إلا أنا ويقولون إن لي أب يأتي بالحلوى للمعلم ليفضلني عليهم!

تفتح "ما" فمها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس ببنت شفة. يستسلم كلّ واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بالبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.

سبحان من جعل أطفال الأدميين ملائكة أطهارا يفقدون براءتهم بتقدّمهم في العمر، والحال أنه لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشدّ أنانية ونرجسية من الأدمي وهو طفل. لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش موزّع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية للأطفال مع بالغ الأسف. أليس جلّ ما نعانیه من بعضنا البعض تواصلُ الطفولة فينا؟ أليس كلّ طاغيةٍ طفلاً رفض أن يكبر محاولاً إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمة يريدّها أمة؟ نكبر كلنا في العمر بتعاقب السنين، لكنّ عدادَ النضج يتوقّف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة فنبقى نعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أزدل العمر. كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيديني مرحاً، وأنا الوحيد الذي يسمع -في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة- أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول والزمان اكتفى بتغيير القشرة لكن النواة لم تتغير.

بربك، ألم يأت الوقت ليتملّ أخيراً أحداً مسؤولية قول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطرهم الرضع؟

لا أحمل أيّ واحد منهم -وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقله مفتعلاً الإعجاب بجماله ونباهته المبكرة- إلا على مضض. هلعي الكبير أن يتبول عليّ اللعين أو أن يغتتم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة.

للمدافعين عن حقوق الطفل والمستنكرين لكلّ عنف ضدّ فلذات الأكباد، أقول نعم، نعم، كل حُججكم هذه أعرفها جيداً ورددتها في أكثر من محفل. لكن، بيني وبينكم وبعيداً عن الأذان المتطفلة، وعلماً أنني دقتُ الفلقة أكثر منكم بكثير، أيّ وسيلة غير بعض الصفع المحكم للتعامل مع هذه الوحوش الصغيرة وهم بهذا الكمّ الهائل من النزق والطيش والغباء والعنف؟

ثمة أسباب أعمق لخوفي من الأطفال عموماً ومن الرضع على وجه الخصوص.

بالله عليك، هل وُلد هولوكو، أو تيمورلنك، أو هتلر، أو ستالين، أو بشار الأسد بشوارب وحذاء بمهمازين؟ ألم يكن نيرون -ولا أحدث عن كاليجولا - هو الآخر ملاكا كانت تدوب القلوب لرؤيته واستبشر بقدمه أبّ وأم وجدّة وأعمام وأخوال لا يعلمون ما يُعدُّ ملاكهم هذا من فظاعات ما زال التاريخ يتذكّرهما مرتجفاً من الهول؟

أكبر المشاكل مع الذي منه كل نقمة - أنه يلبس كل الألقعة وحتى قناع أحبّ الناس إليك.

يشندّ صراخ "با" مخاطباً أشباحاً لا يراهم إلا هو وهو المصيبة إن غاب والمصيبة إن حضر:

- هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غصّ الطرف يا ابن الكلب. غصّ الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تبكي.

لقد كسرتُ شوكة من هم أصلب منك عوداً ألف مرّة. أنا سيّدك -يا كلب- وستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.

هل من باب الصدفة أن يسألني الأهل عن أحوال "سيدك" لأن لهجة القرية تسمي الأب "سيدا"؟

تشتدّ سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.

- رحماك، رحماك، ستقتله.

- سأقتله وأنت معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!

يوصل المراهق الراضخ الخضوع لمتسلط -أبا، حاكماً، أو إلهاء- التحديق في الوجه الغاضب المحمّل بالأم السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب بيتسم لبيت شهير غير منه كلمة واحدة:
أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للعصا نهّي عليك ولا أمر.
يجنّ جنون، "با".

- تبتسم، تواصل الاستهزاء بي، سأكسر شوكتك مهما تنطّعت يا متمرّد.
يخطر للمراهق أنّه أن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليّها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل
أشباهه بين العنف والقوّة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض، لكن من
أين له تحمل تبعات كسر ذراع من يحبّ أشدّ الحبّ؟ إنه فصلٌ من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا
تضاهيها في الصعوبة - وإن بأشكال مختلفة- إلا علاقة الأم بالبنات، الأخ بأخيه، الزوج بزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد
بخالقه.

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو
الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي سيواصل هذا الطريق؟
يصرخ الرجل في أوج الغضب لا هنا ماسحا عرقه متوجّها إلى مُناصر مجهول:
- قتلني بتحدّيّ الدائم. قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي بعصاه على الأرض وبجسده المرهق على الأريكة منتظرا أن تأتيه "ما" بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما
يريد أن يسمع، مثل أنه دوما على حقّ وأنه أكبر من أن يعبأ بشطحات مراهق.
قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحديّ؛ فالذات لا تتشكّل إلا باعتراف تفتنّه من
أب أو غير أب، افتكاك اليد العارية للّقمة من فم السبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالاعتراف، وهي
وحدها القادرة على تدميرها برفضه. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية. اللهم
اجعلني دوما من بُناة الذوات لا من مدمريها.

وفي آخر ملفّ عن صراع الإرادتين، يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفّ له جفن، نافخا ببطء مدرّوس في غليونه الجديد،
وحركائه تتضح بما مفاده أنّه سيّد نفسه، أنّه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.
يعود الصراع بنفس الحدة وكأنّ الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تدخّن أمامي؟ خسنت يا كلب. ما زلتُ السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.
يتسمّر البصر على البصر. تتضح للابن المروع فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرفقه
الجري في كل اتجاه، لرجل مقهور من تجددّ منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محليّ ورث عن الغازي
الأجنبي نقاط التفقيش، لرجل محبّط هزمته الدنيا وأشبعته سخريّة من محاولته تفصيلها على دوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه
فشّل حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عينيّ "أين في الناس" كأنّه ذهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبّه طفلي؟
تبقى العصا معقّقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى غمده سيفاً لم
يعد له نفع. ثمّ يحدّق في ابنٍ لم يتقطّن أنه أصبح شاباً وفي عينيّه شيء من البغض وشيء من الحبّ، شيء من التقهّم وشيء
من الإنكار، شيء من الاستفزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء
من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكآبة ثمّ تجددّ المرح.
ينفجر "با" ضاحكا: لله درك إنك رجل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعاش أسدان في قفص واحد.

يفتح لك العالم ساحات المعارك الواحدة تلو الأخرى كأننا لم نأت هذا العالم إلا للصراع لا يتغير من "الذي منه كل نقمة" إلا
القناع.

يحدّق فيّ كبير الشرطة السرية طويلا يظنّ أنني أوّل من سيحوّل اتجاه النظر:
- نكتفي هذه المرّة بالاستجواب. أذرنك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمور الجديّة.
يريد مني هذا المستخدم الخُصوع للتهديد، والغريزة عندي الهجوم على كلّ من يهددني!
لم يكن الرجل المخيفُ يهدّد في الفراغ.

يصبّ البوليسي المكلف بدور البشع مخزونه من الشتائم البذيئة عليّ: قل لنا كل شيء. يحدّق فيّ زميله المكلف بدور الطيّب
بابتسامة فيها تصنّع التعاطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيرا به من قسوة الآخر ومعترفا له بكل شيء. هذان الغيبان

لا يعرفان أنني لا أكف عن تقييم الأدوار التي يلاعيني إياها الناس، بحسّ الناقد المجرب، أبحث بلا كلل عن الجديد في ميدانٍ -للأسف- فيه القليل من الابتكار.

أرفع الصوت وإصبع الاتهام.

- ما زلتُم تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا! أتوجه إلى المكلف بلعب دور الشرير، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعن يعرف من الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم. بيتسم المكلف بدور الطيب. مؤكّد أن طرافة الوضعية جدّدت لديه الانتباه. يفتح المكلف بدور الشرير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحته بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يُفسدوا الطيبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا التي تشوّهه. ينفجر الرجل في وجهي:

- أنا الذي ألقى الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأنني أسمع لسان حاله يستعطفني: لا تكن سمجاً، أنت المتهم الخائف الفلق الذي يجب أن يكذب محاولاً إخفاء أسرار نعرف جُلهَا، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعب الذي لا يرحم أحداً. برأس أمك العنكبوت لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى. نعم، لا بدّ من أن يلعب كل دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء إنني لسْتُ المكلف بدور المحرّض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطقات كل تجديد.

هذا عالم مسرح ليس فيه إلا نوعان من الممثلين. هناك اللذين يمثلون أدوار غيرهم يمارسون مهنة تمكنهم من أكل الخبز وخاصة من التخلص دورياً من ذواتهم مدة تقمص ذوات أخرى. هناك اللذين لا يمثلون إلا أدوارهم يجاهدون لأدائها أحسن أداء وقلماً يُفنعون. منهم هذا التعيس الذي يريدني أن ألعب دوري كما يراه هو والحال أنني لا ألعب إلا الأدوار التي أختار. ثمة دوماً ثمن باهظ لرفض لعب الأدوار التي قررتها سلطة مخفية هي نفسها كمشة من الممثلين الرديئين.

ذات صباح وأنا مستغرق في افكاري ماشياً في الطريق تصرخ في ظهري ساقلة: أيها السافل، ألا تخجل في عمرك من معاكسة شريفة مثلي. يتجمّع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون فيّ أنني من تجمّعت فيه كبائر الموبقات. أصبح الشارع كأنه لا نهاية له والأوباش ورائي تُوَزَّعوا الاستفزاز في نظام محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية، وذاك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أكن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن.

تتسارع وتيرة الشتائم. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تتقيأ منه رذاذاً من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أمي. يفتح المارة أفواههم دهشة ثم يُطاطئون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية.

في مستوى حديقة الحيوانات تفتعل حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القردة.

تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستاراً أبيض لرجا يسيل على النظارات نازلاً على الجبين والوجنتين نحو شفتين مغلفتين باشمنزاز. تتدافع الأيدي بحثاً عن نصيبها من جسد استحلّ حرمة الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال-صارخاً: من تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك.

كيف أحمي نفسي من عاصفة حقد داهمتني على غير انتظار، رعدُها الحقد وبرقها الغباء والجهل؟ الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ ممّن؟ أجبل البصر حولي باحثاً عن هبة من "الشعب" الذي ندّعي كُننا أننا على استعداد للموت من أجله لفرط علو الأخلاق والهمة فيه. يطأطي المارة رؤوسهم ويُسرعون الخطى.

فجأة انفجر ضاحكاً وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة ممتعة سيضحك فيها عليّ الفجار ويتشمتون.

من أين يأتي النور؟
(البياتي)

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور

بيبعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

في ملف آخر ونفس الغوغاء المأجورة تهاجم سيارة تحملني مع بعض الأحرار أصرخ في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلم السجن الذي جننا من أجله أننا لن نخذله أبداً.

يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة بإرهاب دولة صادرتها العصابات، مثل زورق تتقاذفه الأمواج.

يصرخ أحدهم فيمن يبدو قائد العصا: يا نبيل كفى.

فجأة تكفّ الرياح عن الصفير وتتفرق الأمواج لحظة الغرق. آه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما الأخير.

نبيل؟ النبل في مثل هذا الكائن كرائحة الياسمين تتضوع بها جثة كلب مرمية على قارعة الطريق منذ أيام.

تغلق المدينة أبوابها في وجهي مجدداً كأنني لم أسكنها يوماً ولم يكن لي فيها صاحب.

يشيح بوجهه من يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ أنّ غبارا شوّه لمعان حدائه. يفعل من كنتُ وليّ نعمته وهو يمرّ أمامي أنه لم يرنني وأنا أول من رأى مصدوماً ومتضايقا. إيه والله هكذا هم البشر.

ما أكثر الأحباب حين أعدم لكنهم في النائبات قليل (الشافعي)

لم يبق لي من مكان أمشي فيه طولا وعرضا، ولا خشية فيه أن ألقى أدميا يغيّر الرصيف، غير بيت فارغ ومطوّق. الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الأدمي أنه دوماً في وضع أحسن مما يتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أفلت منها، مثلما لا وعي له بالتّي تترقبه.

ذات يوم تمسك بي من الخلف أيدٍ عصبية وتدفعني أخرى بغلظة نحو سيارة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيرا أمسكني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلا. كم أظهروا من طول النفس طوال هذه السنين والعقود. نفس لا يضاهايه إلا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدّهم. لكن أين "ما" هذه المرة لتحميني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطبّ الجبين من حام؟ يأخذوني إلى مركز إيقاف مرعب الصيت.

كم من فظائع يرتكبها الذي منه كل نقمة في مثل هذه الأماكن هنا وفي كم من مكان على سطح الأرض! أظافر تُقتلع، ابنة تُغتصب أمام أمها وأبيها، سياط تسلخ الظهر إلى العظم، حوامض تراق على الجروح، كيّ القميص على حامله، أطراف تبتتر تباعا.

إنها عيّنات مما يقدر عليه الذي منه كل نقمة، عندما يتعامل مع أعدائه بالتفصيل.

أما بالجملة فالحصيلة أكوام من الأجساد تُحرق لاستخراج ذهب أفواهاها، تلال من الجماجم، أنقاض مُدن سُويّت بالأرض وقوافل لاجئين يتكدسون في مخيمات الذلّ والجوع.

طوال رحلتهم يواجه الأدميون ثلاث آفات من صنع الطبيعة: تقشي الأوبئة، جنون الطقس، زلازل الأرض وبراكينها... وثلاث آفات من صنع أخطر الأدميين: الاستعباد والاستعمار والاستبداد... في آفة الاستعباد يتخذ الذي منه كل نقمة شكل النحاس وزبونه يتصرفان في الأدمي الآخر كما لو كان حيوانا أو شيئا... في آفة الاستعمار يتخذ الذي منه كل نقمة شكل الغزاة وعملائهم يتصرفون في الشعوب كما لو كانوا قطعانا من الخرفان أو البعير... وفي آفة الاستبداد يتخذ الذي منه كل نقمة شكل الطغاة وخدمهم يتصرفون في حقوق الناس كما لو كانت ملكا لهم يمنعونها عن يرييون ويمنحونها لمن يشاءون. قد لا يعرف الأدمي حالة أكثر مرارة من العجز، وهو الآن وهنا في أوجه، وقد أُطبق فخّ الصياد الخبيث على الطريدة الساذجة. كل الفضاء الآن زنزانة نتنه، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير. لا شيء تفعله سوى المشي طولا وعرضا كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأن لكل زنزانة ذاكرة ملقأها جدران ملطخة بالبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتخيل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصابة وهذا السعيد الذي لم يترك إلا أربعة عصابات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش: صبر.

قدر الأدميين في هذا العالم أن يقضوا جُلّ رحلتهم والطريق يتلوى بين مسالخ الحيوانات ومجازر البشر، بين مدن الخراب ومدن القصدير، بين أوراش السخرة وأسواق العبيد، بين بيوت الدعارة وقصور الطغاة بين مراكز الشرطة ومحاكم الظلم بالقانون، بين غرف التعذيب وغرف الإعدام، أو أن ينتهي بهم في مكان كهذا أو أي فخّ من نوع آخر.

أنت لا تجرّب الوجود بكل حلوه ومرّه إلا من خلال العلاقات التي تربطك بالأدميين، التي تربطهم بك، التي تربطهم ببعضهم البعض... وهذه العلاقات دوماً شبكة بالغة التعقيد ومن التفاعلات والأفعال متواصلة التحرك على طيف واسع من الحالات طرفه الأقصى أنت من يعطي الأوامر والطرف النقيض أنت من يخضع لها لا حول لك ولا قوة. في هذا المكان أنت لست فقط في أسفل السلم الاجتماعي وإنما على أقصى طيف حالة التبعية والمهانة.

فجأة ترتفع من الزنزانة المجاورة صرخة سئلاحتني سنوات، في النوم وفي اليقظة، بين يدي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجدّ، تُدكّرُ بأعمق وأرهب ما تعلمتُ عن الطبيعة المخفية لأدمي يلاقيك في الطريق مُسلّما، تضمّه لصدرك لا تدري ما الغول الذي تُقبّل.

أي كائنات رهيبة هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب بل وجعلته أداة سُلطة في الدنيا وحتى في الآخرة!

يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلا ثم صغيرا ثم حشرجة. كفت الرجل عن الصراخ. ربما هو بصدد النقاط أنفاسه. ربما هو يتوجه باسمنا جميعا إلى من لا يهّمه الأمر: خذ استقالتني على وجهك واذهب للجحيم أنت ووجودك، أنا عائد إلى العدم. صدق من تنهّد: أي مكان تشاؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدق منه من صرّخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل في المحطة القادمة. أصدق منهما الذي سنّ القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد. نعم، إنه السجن، السجن الأكبر الذي لا منفذ من لأحد.

شيء بداخلي يستهزئ: بل أنت السجن وقضبانه مخيّناتك القاصرة وفكرك الضيق وروحك المشبعة بالضغينة وفؤادك عندما يفرغ من الحب.

تتردد فهقهة عاهرة وأوامر صارمة بالصمت وأخرى بالكلام. كيف يمكن أن يكون للذي منه كل نعمة حبيبة أو طفل؟ بل كيف يمكن أن يكون له أم أصلا؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ هل هو كائنٌ جاء من عوالم أخرى لتدمير الأدميين بغيرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ هل هو شيطان طُرد حتى من جهنم؟ فرضية رهيبة وأفظع منها أنه آدمي، بل وله أم.

كم سيصعب علينا أن نثبت لله أنه لم يخطئ في خلقه جنسنا الشرير أو على الأقل أنه ارتكب خطأ ما زال قابلا للتدارك! لم يضعوني في هذه الزنزانة صدفة. اختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على دك حصوني. لا ينفع أن أجلس في أبعد ركن من الباب وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي داخل أذني، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت.

فنون ردائك يا دنيا	أعمري فوق ما نصفت (أبو العتاهية)
فأنت الدار فيك الظلم	والعدوان والسرف
وأنت الدار فيك البغي	والبغضاء والشنف
وأنت الدار فيك الهم	والأحزان والأسف
وأنت الدار فيك العدر	والتنغيص والكف
وفيك الحبل مضطرب	وفيك الببال منكسف
وفيك لساكنيك الحين	والأفات والتلف

لا يُعرف عن أي كائن حي أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدمي كما لا يُعرف تفننه في طرق القتل. عند الحيوان هو عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياته ولو بثمن حياة المقتول. أما الأدمي فقد اخترع الذبح والحرق والخنق والشنق والصلب وضرب العنق، والقطع إربا إربا والسلم والدفن حيا وحتى نبش القبور للتمثيل بالجنث. أي طريقة جديدة ستخترع الأجيال المقبلة لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم؟ اللعنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكف عن الرجل، ولهم مني كل ما يريدون. سأقلب الموقف رأسا على عقب.

ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفال. فيتساءل الصغار ويوشوش في أذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصد. لا، لا، تبالغ حقا، يا رجل ستقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أحدثك عن صحتك وتحذرتني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحملة القلب. يا رجل، من يحدثك طبيب كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيرا. تعب الأذنان من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرئتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكون بصدد مسح دماثة والتفكير في الأعداء التي سيتقدمون بها لتبرير زلة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلف في خرق قدر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لئيم، لتراه مرتخيا يتصبب عرقا تغلو محياه ابتسامته الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصديغين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأس مدفون عميقا بين الركبتين.

آه لو يعلم الخرفان الذين يملنون الطرقات أي ذئاب تسكن بعض القصور الرئاسية والبنوك وأبنية المخابرات التي تُسير منها حياتهم! عبثا تتراكم منذ آلاف السنين كم من صفات لمحاربتة والاجرام في أعلى المستويات وأدناها ثابت على ازدياء ما تدعي وتحاول. هو يذهب لأبعد من هذا في تحديها حيث يتسلل لكل ما يخلق البشر من مؤسسات لمحاصرته. هكذا تجده في

قلب الدين والسياسة والقانون. هكذا تصيح الدولة التي يفترض أن وظيفتها الأولى محاربة الإجرام أكبر منتج له عبر التعذيب في الداخل والحرب في الخارج. المحبط كمية الشعوب التي تحتفي بكبار مجرميها تقيم لهم الأضرحة لا يهتمها كم تكلفت بطولاتهم المزعومة من آلام الشعوب الأخرى. والمحبط أكثر أن للأجيال المقبلة موعد شبه مؤكد مع كم من تيمور لنك وكم من بشار وكم من نيرون وكم من هتلر ناهيك عما سيتوفرون عليه من وسائل فتاكة ستعطي لجرائمهم أبعاد لا يتصورها أي خيال مهما كان مريضاً.

العقبة الكأداء الآن، ليست كثرة مفترقات الطريق وكثرة قطعاه ولا حتى اكتظاظه، إنما توقفه غير المتوقع. يصرخ ورائي الحارس بصوت خشن فيه ملل لا يخفيه: قف؛ وجهك للحائط. انتظر أن يأتي دورك. لا تتحرك. لا تتكلم إلا إذا أذنت لك. اغمس الإبهام في الحبر الأزرق. ابصم يا حيوان. انظر إلى المصور دون هذه الابتسامة الغبية. تظن أننا نأخذ لك صورة العرس؟ والآن إلى الزنزانة ركضاً، لا تنتظر يمينا أو يسارا.

تتداخل الفضاءات والأزمنة. في مشهد ما زال بعيداً في غياهب المستقبل يهمس في السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: من هنا سيدي، حذار من دخول الزنانات ففيها بعض المجانين الخطرين. يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرى الخبر سريان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصم الأذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناءك! سيدي الرئيس أرجوك. انظر إلى هنا!

لأنظر لنفسي أولاً وقد انشطرت إلى ذاتين، ذات شبح سجين جالس على الاسمنت البارد الرأس مدفوناً بين الركبتين يحاول استحضار صورة تفاحة وذات شبح أت من مستقبل لا زال بعيداً يراقبها بسخرية مزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماتة يهمس فيه: تريد إصلاح مثل هذه الكائنات! حقا يا لك من غبي.

المضحك المبكي في هذه المآسي المهازل التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل الممثلين يعتقدون أنفسهم اختياراً في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة. تمنع عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أختيار-أشرار وأشرار-أختيار، بين جلايين-ضحايا وضحايا-جلادين، بين خطرين أغبياء وأغبياء خطرين، بين مهووسين بهذه العقيدة وهاذين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على جلّ فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الاستيلاء على ما أخذ منهم، وسرقة ما لم يسرق بعد، وكل آدمي على النوام كذاب مفترى عليه، سارق ومسروق، ظالم مظلوم.

يُفتح باب السجن الضيق يوماً ليتلقفني سجنٌ أرحبُ اسمه الوطن. يأخذونني إلى بيتي في سيارة الشرطة. داخل السيارة حديثٌ مع راكبيها.

- تظنوننا وحوشاً؟، ماذا تريد؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

يواصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت:

- هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركتَ فيها؟ التي حصلتَ أمام مقرِّكم؟ ... طالبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسسك أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلتَ زميلتك؟ أتعرف؟

الصوت الآن مختنق يغالب عبرة صامتة:

- قل،

- فتحتَ القهبة بنت الكلب التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خذي الأيمن، انظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعابها المقرّز لا يكف عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني.

تتدافع إلى الذاكرة صورة "با" ویده على خده وغضبه لم يخمد بعد عقود من صفة الضابط الأجنبي، قد تكون سبب الصداق المزمّن الذي لم ينجح في تخفيفه حتى دوائي. يا رب، كم من آلام عبثية يلحقها الأدمي بالأدمي!

دون وعي ترتفع يدي، أمررها برفق على الوجنة الملتهبة، أمسح ببالح العناية والبطء آثار بصقة لم تجف منذ شهور.

- عفواً، وقبّل صغارك من طرفي.

إذا أردت ألا تُخطئ أبداً في حق إنسان، تساءل أمام أيّ تصرف يلفظه القلب ويرفضه العقل: ما المصاعب التي يتخبط فيها هذا الشخص؟ ما المشاكل التي تجاوزت قدراته على حلها، ما الآلام التي يعاني منها؟ لن تجد إجابة أغلب الحالات، لكن مجرد إلقاء السؤال على نفسك سيمنعك من الردّ على الخطأ بالخطأ وعلى الخطيئة بخطيئة أكبر منها.

ها أنا الآن وسط أوسع سجن وحلبة الصراع الكبرى ما يسمونه الوطن.

من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المذبوح، والذابحون رفاقي.

تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثيا على ركبتيّ. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدو جاثيا على ركبتيه، لا أعرف هل أخطُر جرح الذي أصابه به الصديق أم العدو. يهمس فيّ:
- أتعتقد معي حلفا ضد أصحابي وأعتيك بالمقابل على أصحابك؟
أهزّ رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقه، حتى ولو خان هذا الأخير.
يصرخ فيّ أحدهم قبل أن تدوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:
- يا مغفل، من يبحث عن الوفاء يستثمر في الكلاب لا في الأدميين.

لا أحد فهم الحقيقة المرة قدر ذلك الأعرابي الذي تزوّج وهو في أرذل العمر، فعاب عليه أصحابه الأمر يُخفون حسدهم وراء اهتمام كاذب بذريته: هلا فكرت في أطفال صغار سيكبرون بلا عائل. فجاء الردّ مفحما وحكيما: "أبادرهم باليتم قبل أن يبادروني بالعقوق".

بربكم، أليس مضحكا أن تلتحم الجيوش ببعضها البعض وهي مثخنة بجراح المعركة التي لم تكف لحظة داخلها، أن تنشب بين جيوش من المعاقين والجرحى أنهكتها تنافساتها الداخلية وأكملت المهمّة حروبها الخارجية مع جيوش ليست بأحسن حال؟ مشكلتنا الكبرى معارك الصديق الذي يختفي وراء ملامحه المنافس المزمّن. فالصديق الحقيقي هو آخر من يصدّق ما يُروّج عنك من إشاعات وأوّل من يغفرها لك إن صدقت. في هذه الساحة اللعينة التي يسمونها السياسة، الصديق هو أوّل من يصدّق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك فيها عن الخلّ الرفيق كبحثك عن أم لأطفالك في ماخور. كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فأنا بهم كفيل.

القانون الأوّل في السياسة: ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة و عدو اللحظة و حليف اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة. لذلك ما تحتاجه الحلبة السياسية ليس محاربا ساذجا يعتقد أنه مسنود الظهر بحليف وليس أمامه إلا من يبارزه، إنما راقص باليه صيني في معركة سينمائية يدور على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حنجرة العدو في الوقت الذي يسدّد فيه ضربة قاضية بساعده لحنجرة الصديق يردي الأوّل قتيلا ويترك الثاني جثة هامدة.

السؤال أمام أي حليف -منافس تصيبك به الأقدار ليس هل سيغدّر بي يوما وإنما أي يوم سيغدّر بي؟
كما لا افلات لأحد من قانون الجاذبية لا افلات له من قانون التناظرية أي أنه لا وجود للشيء إلا بنقيضه... مما يعني أنه إذا كان لك محبوبون لا بدّ أن يكون لك كار هون، أنه كلما ارتفع عدد المحبين كلما ارتفع عدد الكارهين، أنه كلما وصل الحب عند محبيك أعلى درجة كلما وصل الكره عند كارهيك قمته... أن الصدق والضروريات هي التي وزعت الأدوار أي انه كان بوسع كم من كارهيك أن يكونوا من محبيك وبوسع كم من محبيك أن يكونوا من كارهيك... ويا لعبث محاولة قلب الأعداء اصدقاء! هم سيتركون حتى ولو نجحت في الأمر الفضاء شاغرا لينبت لك كم من أعداء جدد ناهيك عن التسبب في فقدان كم من أوفى الأصدقاء... أي حلّ تجاه وضع لا خروج منه ولا خروج عليه غير قبوله كما هو والكفت عن الجري وراء وهم المدينة الفاضلة التي ليس فيها إلا اخوة متحابين وفي اسطبلاتها يرقد الحمل بجانب الذئب.

تعديل هام بخصوص الأعداء: ثمة الذين لهم شرف -وهؤلاء للتعهّد لأن الصراع معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر- والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم حَوْض في الوحل و صلحهم من نكد الدهر.

نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهّد لأن صداقتهم نعمة النعم، الذين لا شرف لهم وهؤلاء للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء.

وفي كل الحالات لن تصل قمة تظن نفسك في مأمن من هؤلاء الأعداء إلا أتعس أنواعهم يتنفّس في ظهرك والسكين الشهير بين الأسنان.

القاعدة أن الذي منه كل نعمة عندما يضع على وجهه قناع المنافس على يقين أنك حجرٌ عثرة في وجه ما يريد، أنك أخذت منه ما لا حقّ لك فيه أو أكثر مما تستحقّ، أنك لم تُعطه حقّه من هذا الشيء أو ذاك، أنه سيفتلك منك ما هو أحقّ به منك كلف ذلك ما كلف. هو يريد الدنيا له وحده وحتى في الآخرة لا يريدك إلا عبدا له.

"ومن يُنقّ الدنيا فإني طعمتها
وسيق إلينا عذبيها وعذابها (الإمام الشافعي)

وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همّهن اجتنابها

فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها
وإن تجتنبها ناز عنك كلابها"

قدر الأدمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهي هذا الآخر. هو يريد السلطة التي نريد ويريد المجد الذي نريد ويريد الثروة التي نريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهي كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحالة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لننسج على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه

على امتداد الرحلة، من غيرة وحسد وصراع وظلم. إنه العيب الهيكل في طبيعتنا، الذي لم ولن تفلح في إصلاحه أو تجاوزه تربيةً أو فلسفةً أو ديناً أو سياسة.

هذا ما يجعل تسيير شؤون الأدميين مثل تربيع الدائرة. إن حكمتهم بالعنف خضعوا ثم تمردوا، إن حكمتهم باللين تمردوا مباشرة والرقاص يقفز على مر الأنظمة والأحقاب من الفوضى إلى الاستبداد ومن الاستبداد إلى الفوضى، لا يتوازن إلا نادرا ولمرحلة لا تطول.

لا فرار من الذي منه كل نقمة، لا في أدنى درجات سلّم الثروة والسلطة ولا في أعلى هذه الدرجات.

يهمس الطبيب العسكري ونحن ندخل عنبر آخر الجرحى

- كان كمينُ البارحة لجنودنا مكلفا ...

أرفعُ يدي أطلب الصمت.

على فراش الآلام ثلاثتهم لأشهر طويلة من العذاب، بعدها سيتلقفهم مصير لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُترت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطرّ إلى بتر الساقين، الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في إنقاذ بصره.

بشّر يزرعون الزيتون وبشر يزرعون الألغام! هكذا هم البشر... عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنرّو من دهاليزها، تترصد كل الاستعدادات القادرة على جعل الأدمي يُعذب الآخر، يغتصب أمامه زوجته الحامل، يستلّ قلبه يأكله وهو ينبض، يبول على قبره يُفقهه نصف سكران نصف مجنون، يُلقيه حيا من الحوامة، أو يزرع على طريقه لغما من متفجرات كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألغام...

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص وسط جحافل مثل هذه الكائنات بل وأن تنام مع الأنثى والانثى مع بعلها وليس تحت المخدة مسدس أو خنجر مسموم تحسبا لكل الاحتمالات.

ما الذي يجعل من الأدمي مثل هذا الكائن البشع الذي لن تجد له نظيرا بين الكائنات الحية، في القسوة والندالة؟ بل كيف سُمح لكائن كهذا بأن يوجد؟

ثمة إمكانية أن الأدمي تجربة قوة عمياء اسمها الطبيعة، أن تجربتها هذه كانت أكبر غلطة ستدفع ثمنها باهظا.

ثمة إمكانية أن الخالق الذي خلق هذا الجنس، ارتكب الأمر وهو في حالة متقدمة من السكر... اللهم إلا إذا كان برينا من الأمر تماما والخالق هو الشيطان لا غير.

يأتيك من تواصل المواجهة معه وتجدها بعد كل صلح قصير، ملل مصحوب بشيء يشبه الغثيان. لا فائدة أن تصرخ فيه: كفى، أريد سلاما دائما ولو بشروطك. هيهات. هو كذلك النباتات المضرة التي لا ينفع فيها اقتلاع أو سموم أو حرق. لا جدوى من قتل شكله الأول، ولا الواحد بعد الألف، أو التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها فنحن دوما مطوقون بأشكاله لا إفلات من قبضته ولو أصبحت من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبرهم.

إنه الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفء الشمس، على خريف الماء على دوي الرعد، على نزول المطر. هو دليل السوء والشر الذي يقودك في مجاهل الغابة ليضيّعك عمدا. هو من يحفر أمامك الحفرة لتقع فيها، من ينصحك بالطريق الذي ينتظرك فيه قطاع الطريق. هو من يسرق حذاءك لتمشي حافيا على الأشواك. هو الذي يدفعك نحو صحاري الموت يمنع عنك الماء عند العطش أو يقرّبك لشفتيك المتشققتين ثم يبعدة ضاحكا متشمتا. هو الذي يدعو الكواسر لتقتات من لحمك ولم تلفظ بعد نفسك الأخير. هو الذي لا يترك لك الخيار إلا بين الحرب الأزلية والاستسلام المشين. هو الذي يتبول على قبرك ضاحكا كأنه لم يخلق إلا ليكون مغلق كل الأبواب، واضع كل العراقيل، معسر كل يسير، منغص الوجود. الوجه البشع للعالم. اللهم احرمه من النوم ومن الموت.

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تنطلق لعنان السماء تريد شخّ رأس من ارتكب هذا العالم ووضع فيه هذا النوع من الكائنات فترفر لحظة لتنفص عليه كالعقاب، عقابا على الإمعان في تمرّد عقيم تحالف لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجّه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلت موجودا! كأن لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعته فيك.

ذلك أنني أضع اللعين كل ليلة في المزداد العلني متوجها إلى مُشترٍ ساذج قد يسهل التغبير به: خذ بفس و هذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غرّا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوجه إليه مجددا كل صباح متثابرا ولا أمل جدّيّا لي في عقد الصفقة الكبرى: خذ بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالمٌ كاملٌ الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذ مجانا، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

كامل الأوصاف! نعم كامل أوصاف الفطاعة والقيح والشرّ... على الأقل في حالته هذه وهي ألين ما يتخذ من حالات لا يفرق إبانها بين أي من الكائنات... ففي هذا العالم- أو قل في حالته اللعينة هذه- قدر الحيوانات أكلة اللحوم أن تقضي جَلّ رحلتها جريا وراء اكلة الأعشاب والجوع يعتصر أمعائها وقدر الحيوانات أكلة الأعشاب أن تقضي جَلّ رحلتها هربا من الأظافر والأنياب والخوف هو الذي يعتصر أمعائها... وفي هذا العالم- أو قل في حالته اللعينة هذه- قدر الأدميين أن يقضوا جَلّ رحلتهم والطريق يتلوى بين مسالخ الحيوانات ومجازر البشر، بين مدن الخراب ومدن القصدير ، بين أوراش السخرة وأسواق العبيد ، بين بيوت الدعارة وقصور الطغاة ، بين مراكز الشرطة و محاكم الظلم بالقانون، بين غرف التعذيب وغرف الإعدام ، والفعل الأكثر انتشارا انتهاك الحقوق المشروعة لكل الكائنات بأفطع الوسائل وأخس الأساليب... نعم هذا العالم- أو قل في حالته اللعينة هذه- عالم الاجرام بكل أنواعه ومرتع المجرمين من كل الأشكال والأنواع... عالم كابوس لا نفيق من رعبه إلا بالموت الرحيم .

لم يبق إلا الحلّ الجذري.

تنظيم مظاهرة عارمة لكل من أضرّهم وجود البغيض وتهديد القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو وجعلت منه البطل الأول في السيناريو الخبيث. تقول ساخرا بماذا سنهدّد أنت المسكين هؤلاء المبرمجين القادرين على خلق العوالم؟ بما يخطر على بالك، المهمّ أن نهّدّهم بشيء ما علّهم يحملوننا على محمل الجدّ ولو لحظة. الدليل على موافقة الجميع حضورّ مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا للذي منه كل نقمة، فتردّد البشرية ورائي بحقد عارم وجدل الشرّ: لا، لا، لا.

بدايةً موقّفة لأكبر مظاهرة في التاريخ سنجبر القوى المبهمة المتحكمة في المصائر على الكفّ عن تجاهل صلواتنا وأخذ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء.

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فاتر والهتاف متقطع وأصواتٌ نشازٌ تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدين، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظلاميين الرجعيين! وآخِر يصيح عيب يا إخوة، يجب أن نتوحّد لنكون أقياء.

ها قد تفككت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يستبق مطالبه ويصقّي حساباته مع مَنْ يدّعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنفاذ فكريتي العظيمة وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ: خطفوا طاقم أسناني وأنا أهتف.

آخر محاولة لإنفاذ فكرة يبدو أنها لم تكن بالعبرية التي اعتقدت. لأتوجه إلى الحشود مخاطبا العقل والضمير وحسّ المصلحة العامة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صمّاء ورسّ الصفوف.

تتعالى أصوات الاستحسان فالسبّ والصفير، بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكفّف بتسميم حياة كل زعيم: مَنْ قرّر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاور في صياغة البيان الختامي؟

ماذا لو صحت: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. أه يسكون بخناقي يريدون التثبت من حزامي! أنا الآن كالأسد الجريح يلحق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئاب وبني أوى تتصارع بينها، ولقطيع الخرفان يرعى حشيشه يتنظر خائفا لحظة الأكل.

أوف! ليأكلوا بعضهم بعضا. إن كان لهذه الكائنات عُذر واحد للوجود فهو كمّية الشحم واللحم التي سيفرونها للودود ناهيك عن كل ما تبرزوا طوال رحلتهم من الخرا سmada للأعشاب والنبات.

أه، وبخصوص عُذر وجودي؟

كمّية المواد المذكورة أعلاه، كل الأمل أن تكون من الصنف الذي لم يسمّ زهرة ولن يصيب دودة بإسهال.

آخر عقبة قبل التخلص نهائيا من الذي منه كل نقمة الجنازة.

هي عند الأدميين كالختان والزواج: مناسبة لملاقة الأعراء الذين فرّق بينهم الزمان، لتبادل الأخبار والنكت لإتمام الصفقات، أحيانا لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت. يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكبي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي الذي منه كل نقمة خلفي، يواصل الحسدّ تعذيبه لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف.

يجنح بي الخيال لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.

كأنني أسمعهم يتهمسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى. هل رأيت ما أبشع نظراته. لا يلبس

ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاحي، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الأفاقي أن يريد نفسه سيّدا لنا. حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحنته البشعة.

ثم خاتمة كل المنافقين يستنفرون بعضهم البعض لمزيد من السبّ: يا ناس، "اذكروا موتاكم بخير".
حفا ثمة قلة بجانب كل هؤلاء الشامتين من يحزنهم فعلا رحيلي. لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:
"في يوم وفاتي عندما يسيرون بنعشي (جلال الدين الرومي)

لا تظنّ أني متألّم لفراق هذا العالم
فلا تبك من أجلي ولا تقل وأسفاه وأسفاه وأسفاه
فوقوعك في مخيض الشيطان مدعاة للأسف
وعندما ترى نعشي لا تصرخ: الفراق
فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي
وحين أودع القبر لا تقل الوداع
فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان"

كم أخطأوا جميعهم في حقي: الذين بالغوا في كرههم لجهلهم أو لتجاهلهم لما في من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنقائصي وعيوبي. كان لي ككل الأدميين بعض الحسنات تنسبها زلاتي، وبعض الزلات تغفرها لي الحسنات، ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدر الأدمي ألا يكون إلا صورا في الأذهان. صورته في مرآة من يحبونه، صورته في مرآة من يكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحه وحتى صورته في مرآة ذاته خاطئة. أما من له هذه الصور المتباينة في كل المرايا فشبّه مجهول للآخرين ولنفسه أولا.

لعنات الحفارين الصامته وهم يذفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة.

على فكرة، لماذا يجب أن أودع في جوف الأرض؟ لماذا لا يلقي بجسدي عاريا فوق الكثبان علّ بعض الكواسر وثعالب الصحراء وعقاربها تجد أخيرا نفعا في أمني؟ الرائحة! من سيتضايق إذا رُميت بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تفلق فتحت الثرى حيوانات أصغر من ثعالب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفحمتني. "ماشي" مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بئر لأدفن واقفا ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

"سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيثوري)

أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كالشمس فوق

حقول بلاددي

مثلي أنا ليس يسكن قبرا"

يا هرمس، يا ربّ المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جنّات الخلد، أنت الذي يعرف محو الخطي، امح كل آثاره حتى لا يواصلون ميت منذ قرون ملاحقتي بالسبّ والشتن.

أخشى ما أخشاه أن ينتصب الخطيب المفوه لآخر اعتداء. من قال أكبر الأكاذيب عند البشر قبل ممارسة الجنس، إيان الحملات الانتحائية، وبعد الرجوع من الصّيد؟ نسي الشقي خطبة التائبين. ها هم على أهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشو قم الميت بعقود العنب الذي رفضوا إعطاه وهو حيّ أصغر حبة منه.

لله درّ هؤلاء البشر. يكذبون عليك حيا، بالتنقيص من قدرك، ويكذبون عليك ميتا بالزيادة فيه.

إياكم ثم إياكم، والله لو خطبتم خطبكم الرنانة على حافة قبوري لرميتكم بالحجارة من خلف السحاب، أو لانقلبت عفريتا يأتي لياليكم بأفطع الكوابيس.

بالله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقدّموا فيّ العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركت لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا من أحببتوني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا فيّ العزاء. تُزغرد النساء للمولود الجديد وتنتحن على الميت، والحال أن تمام العكس ما يجب.

ولأنني لمّا انبثقت في هذا العالم، لم يكن في استقبالني حشد فيه خطيب مفوه يمدحني بخصالي المرتقبة، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "ما" وخالة وجارة تدّعي أنها قابلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثالوث نساء آخر: تقاحة وتقيحة و"ح" التي غمرتني بحب لم أستحقه يوما.

كل شيء إلا انتصابهم فوق قبري يخطبون. إكرام الميِّت دفنُهُ. نعم وبصمت. وحده الوجع الصامت في مستوى اللحظة، أما الهذر الجماعي فأغلب الوقت مسرحية عديمة الذوق.

نُهل على جسدي آخر حفنة من التراب، أبصر من خلالها بريق الرضا يلعب في أعينٍ تعترضُ عبثًا من مآقٍ جافّةٍ دموع التماسيح.

فوق القبر يتواصل تدفق سيل الحياة، نهر جبار عاتٍ أت من أعماق التاريخ، لا يوقفه سدّ آخر. ما همّ مثل هذا النهر لأن فطرة تبخرت منه.

"ميِّت أنت وإلى الأبد (لوركا)

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان"

على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقربُ الناس إليّ عائدون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما أتصور. أي أهمية للأمر الآن وقد أدركتُ لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائيا.

على الشاهدة أريد أن يكتب هايكو ايسا أعدتُ صياغته بما يرضيني ولا يغضبه.

"أخيرا نجوتُ منكم

والآن تعال يا صرصار

غرتُ على قبري"

ربما للقوى المبهمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود الذي منه كل نقمة، منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابها كان سيجعل قصصنا بائخة وبلا طعم، أنه هو الذي يوئد فينا أحدَ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج نارا ونورا ونحن نقاوم وننتصر... ممكن، لكن لماذا بهذا الثمن!

يكمل الخيال الاحداث ويستبقها.

المهم أنني عدت من حيث أتيت أن بوسعي الآن أن أضع رحلي انتهت مشقة السفر. قبل الإخلاء إلى راحة العدم، عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجل إدانتي التامة لفكرة خلق كائنٍ مثل الذي منه كل نقمة، وطلبي الملحّ بسحب دوره من السيناريو.

أتسمّر مذهولا وأنا أرتطم بالنظرة المتجهمة لجبريل وهو ينقل البصر تباعا من وجهي إلى ملفّ غليظ، ومن الملفت الغليظ إلى وجهي. أه هذا ملقي وهو بداهة زاخر ثقيل. بماذا؟ بشكاوى الأطفال الذين تكبرتُ عليهم لا أنتبه لحاجتهم للتفوق... بشكاوى الإخوة الذين استأثرت دونهم بأب لا أنتبه لحاجتهم للفت انتباهه إليهم... بشكاوى الأب من طفل متمرد ومراهق وقح وشاب ناكر للجميل لا أنتبه لحاجته من الاعتراف... بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عفرت أنفهم في التراب لا أنتبه لحاجتهم من الاعتراف... بشكاوى الطغاة الذين أشبعتهم تهكما وتحقيرا وساهمت في ذلك عروشهم... بشكاوى الجلادين الذين فضحتهم وسلطت عليهم الأضواء أرفض لهم الحق في الستر... بشكاوى كل الذين ظلمتهم حين أنصفوني، الذين حجب عنهم ناظري وجفوني، الذين لم يسلموا مني لأحقهم بسخريتي حتى وهم في الخرق الأبيض.

أه، ما زال هناك المزيد من الملفات!

ماذا أيضا؟ شكاوى الأعشاب التي اجتننتُ أو دُست غير عابئ بماذا أجتنتُ أو على ماذا أمشي... شكاوى الفئران التي سممتُ صغارها في غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق... شكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خائفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بالموت الفظيع... شكاوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءة طبخها... شكاوى شعوب النمل التي لاحقها في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات.

كيف لا أنفجر ضاحكا، لا يكفي أنني كنت الذي منه كل نقمة لكل هذا الكمّ من الأدميين التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعبئنة لما لا يحصى من الكائنات الحية الأخرى!

**

أو كيف أنه لا معين لك على أهوال الطريق سواهم

حاضري مجددا العزلة والوحدة والبيت المطوق.

كم صدق من قال: " وفي المآزق ينكشف لؤم الطباع، وفي الفتن تنكشف أصالة الآراء، وفي الحكم ينكشف زيف الأخلاق، وفي المال تنكشف دعوى الورع، وفي الجاه ينكشف كرم الأصل، وفي الشدة ينكشف صدق الأخوة." (مصطفى السباعي)

لا غرابة ألا يطرق بابي إلا الأخ –الصديق الذي كان بجانبني طوال الرحلة... والصديق -الأخ الذي رافقتني في أخطر الأزمات. ذات صباح يُدقّ الباب بإلحاح وأصوات رجال الشرطة ترغي وتزبد. كلا، هم لم يأتوا لأخذي مرّة أخرى للتحقيق في قضية ملققة وإنما هم بصدد محاولة ارباب الصديق –الأخ المصّرّ على زيارتي.

يفرض الرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حقّ منع الزوار عنه.

يسلم عليّ مهنتاً بسلامتي. يلقي بنظرة ثاقبة حوله، متعجباً من خلوّ البيت تقريباً من كل أثاث لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة كأنه يعرف حَيّ للمشي. يصرّ وسيجارته الأزلية بين شفّتيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس لتعلم الجميع، مع من يقف وأي قضية اختار.

هذا رجل أصدق مثال على تجني الشاعر على الأدميين أو على الأقل تجاهله أنه لكل قاعدة استثناء وهو يتشكى لمن يريد السماع:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا (أبو العتاهية)

يُعظّمون أبا الدنيا وإن وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

لا، هذا آدمي ليس مع الدنيا وصاحبها وإنما مع من أدرات لها الدنيا ظهرها ومن انقلب عليه الأصحاب والأحباب. أما زح الصديق -الأخ أخفي تأثري:

- أرهقت من يتبعونا من الشرطيين وأرهقتني بهذا المشي البطيء، أنا الذي لا أعرف إلا الركض.

- هل جعت؟ أي مطعم تفضّل؟

- بعد طعام السجن وما أطبخ بيديّ، كل طعام سيكون زردة.

- لنذهب إلى مطعم المتوسّط، هناك أحسن أنواع فواكه البحر وصاحبه صديق.

أمام أفخر المآدب التي أصرّ الرجل على اختيار أصنافها بنفسه، ينتقل الحديث من موضوع إلى آخر، وهو يرجعه دوماً إلى ظروف عيشي.

- لا بدّ أن تدفئة بيتك في هذا الشتاء الماطر خاصة وهو شبه فارغ؟

لا أتمالك نفسي من الضحك:

- لا تقلق، بدويّ متعوّد على خشونة العيش.

- عندك مدفأة في الصالون، لماذا لا تستعملها وتنام قريباً؟ أم هي للزينة فقط؟

- لا، هي شغالة، لكن لا بدّ من... بالمناسبة، إلى أين وصلت المحاكمات الأخيرة؟

- غداً، سأذهب للدفاع في إحداها.

- تعرف لماذا طلبت منك عدم المرافعة عني أمام الموظف المكلف بإصدار الحكم الجاهز سلفاً. هذا قضاء لن يغير الله ما به حتى يغير القضاة ما بأنفسهم أي حتى يستبدلوا حرف الغين بحرف القاف.

يتبسم الرجل الهادئ.

- قد لا نرى قريباً تحول هذا القضاء المستغل إلى قضاء مستقل وأنا معك أن كل هذه المحاكمات السياسية مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من مقاطعتها، أمر يصعب قبوله على مهني مثلي. بيني وبينك ماذا تريد من محام أن يفعل أو حتى أن يكون إن منعه من الكلام.

نعم ما المحامين دون الكلام الذي هو وظيفتهم وهويتهم ووسيلة رزقهم شأنهم في هذا شأن الوعاظ والمرّيين والتجار والسياسيين والصحافيين والدجالين وكم من مهنة أخرى.

يبقى أن الكلام أكبر من كل استعمالاته إذ لا شيء يميّز الأدميين عن باقي سكان هذا العالم قدر ما يفعلون وما يفعل بهم الكلام... نحن نتكلم في البيّظة وفي المنام... نحن نتكلم مع الآخرين لكن الحوار الصامت مع أنفسنا لا يتوقف أبداً... نحن نتكلم -كما تفعل الذناب بصمت- لتتسبق الصيد والحرب... نحن نتكلم لكي نقول للآخرين لا أمثل خطراً عليكم فبادلني التطمين بأحسن منه... نحن نتكلم لتبادل الأحاسيس والمشاعر والأفكار نعدّل بالكلام مزاجنا على مزاج بعضنا البعض... نحن نتكلم لنضحك ونضحك لَمَّا ننتبه فجأة لغرابة ما نقول وما نفعل... نحن نتكلم منذ ولادة الجنس ننقل هواجسنا جيل لجيل عبر بما نخطّ من صور على جدران كهوف ما قبل التاريخ، عبر ما نكتب على صفحات الكتب، عبر ما نسجل هذا العصر على الأقراص المضغوطة وغداً على شوارذ الذرات... نحن نتكلم في كل المواضيع من آخر الإشاعات عن أعدائنا وأحبائنا إلى

مسائل طبيعة العالم الذي نعبر والبشر الذين نخالط ووجود الله من عدمه... نحن نتكلم بنبرة الأم الحنون تمازح طفلها، بنبرة العاشق الولهان يتغزل بحبيبته، بنبرة الشرطي الناهي، بنبرة العسكري الأمر، بنبرة المتضرع عند الصلاة، بنبرة الحزن الهامس ابان مراسم العزاء وأيضا بتلك النبرة الغربية عندما تتفجر عواطف الفرح والحزن داخلنا فيتحول الكلام غناء شجيا أو صراخا هستيريا... نحن نتكلم أيضا لمجرد متعة الكلام عندما نكتشف سحر الكلمات وهي تصف بكيفية غير مألوفة فنسمي ذلك شعرا... كل هذا والكلام من المهد إلى اللحد هو الذي يقربنا ويبعدنا، هو الذي يجمعنا ويفرقنا، هو الذي ينيرنا ويضللنا، هو من يجعل من حياتنا نعيما أو جحيما لا يطاق.

يجذبني الصديق الأخ من ذراعي بلطف لأنتبه لوجوده

- على فكرة شقيقك يشنكي أنك تخرج وحدك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي لاستفزاز الشياطين وتسهيل مهمتهم. تذكر أنك تتعامل مع "كابو" ماфия وعصابات لصوص استولت على بلد. آخر سؤال وأرجو أن تتقبله بصدر رحب.
- قل و عليك الأمان.

- ما الذي يجعلك تقبل بكل هذه الأخطار التضحيات.... من أجل هذا... هذا القطيع الذي تصرّ على تسميته بالشعب؟
- علمني أنبل من عرفت من البشر وهو الذي حرم من الحرية سبعة وعشرون سنة أن الانسان الحرّ ليس الذي يناضل من اجل حريته وإنما الذي يناضل من أجل حرية الآخرين... وأنا أريد أن أكون ذلك الإنسان... على فكرة أليس هذا ما تفعل طول الوقت؟

- نعم أنا معك في ضرورة النضال من أجل حقوق الإنسان، لكن أه لو كان لنا أناس يناضلون أيضا من أجل اضطلاع هذا الانسان بواجباته خاصة في هذا البلد الذي لا يبدو الربط فيه بين الأمرين بديهيا.

عندما تتمتع في طبيعة شبكة العلاقات بين البشر متجاوزا تعقدها وتداخلها وحركتها المحمومة تكتشف انها محكومة اساسا بثنائية الحقوق والواجبات... طوال حياتك وانت تطالب من الاخرين ضمان حقوقك - الاسم الآخر لحاجياتك الأساسية - وأولها حقك في الوجود وفي الشروط الموضوعية والمعنوية الضرورية ليكون هذا الوجود نعمة لا نقمة... طوال حياتك وانت مطالب من قبل الآخرين بالاضطلاع بواجباتك تجاههم أي تمكينهم من نفس الحقوق التي تطالب بها وإلا أصبح الوجود عندهم نقمة لا نعمة... أنتعس ما تعيش الذات من تجارب حين تنتهك كل حقوقها بالعنف وتفرض عليها كل الواجبات بالقوة... اروعها حين تتضاقر متعة التمتع بالحقوق دون أدنى جهد مع متعة القيام بالواجبات دون أدنى اكرام... قلما يتحقق مثل هذا التوازن ومن ثمة حالة الأوضاع التي نعرف والقصاص الرديئة التي نتخبط داخلها على امتداد الطريق.
تنتهي السهرة الممتعة ويصرّ الرجل الطيب على أن يوصلني لباب البيت والتأكد من أن اللذين يتبعوننا منذ خروجنا منه لن يقتحموه مرة أخرى.

من الغد أفيق لأكتشف كدسا كبيرا من الحطب أمام الباب. تلتهب النار في المدفأة ويسري لأول مرة منذ أسابيع طويلة شيء من الدفء في الجسم والروح.

نعود للمشي بعد أيام والرجل الطيب المصّر على تفقد أحوالي كل يوم يركض ورائي لا هثا يمسخ عرقه:

- أنت تصرّ دوما على الجهر بالحقيقية كأنك لا تعلم كم يكره هذا النظام أي شكل من اشكال الحقيقة...
- النظام وحده؟ يا ليت.

كلّ البشر يدعون حبّ الحقيقة وهم لا يخشون إلا هي... يفزّون أمامها أسرع ما يركضون وراءها... أكاذيبهم هي حقائقهم وحقائقهم أكاذيب... لا أؤمن لديهم من خرافاتهم وأساطيرهم ومن اسدال الستار الكثيف على تاريخ أبطالهم وقدسبيهم وأنبياهم - قد يمكنني إعانتك على هموم السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك.

كيف أحوالك مع زميلك العزيز في الكلية والإم وصلت الخصومة التي صارت حديث صالونات المدينة؟
- طلبت منه رسميا أن يتوقف حالا عن الصلاة والصوم حتى لا يزيد في نرفزة الله. قلت له سوّ وضعيتك مع الناس ومع نفسك، بعدها يمكنك العودة إليهما قد يقبل بهما الغفور الرحيم من جديد.

- مما يقال همسا وجهرا أنه لا أحد يريد هذا الطبّ الشبوعي الذي تحاول فرضه. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم. زملائك الأعزاء يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكز الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المساكين.

- يكذبون عليّ كعادتهم. بخصوص صرامتي الكاذبة هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى طالباتي من الألف إلى الياء.
- لا أصدّق.

- فعلتها والله دون تقاضي فلس أو مرادة المسكينة.

- ولو! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

- طالبة من بلد بعيد جمعت في آن واحد قلة الذكاء والجمال والمال. دخلت مكتبي ذات صباح ترفل في أسماها باكية لأن كل من توجّهت إليهم من زملاء الأعزاء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه

الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بأمن الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيث أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف السنوات السبع المعتادة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تنذر في كامل الكلية.

كيف لا يتغلب يوما تعاطفك مع الأدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أنهم جُلهم يعانون الأمرين من كم هائل من الامتحانات والمحن وأن أخطائهم وخطاياهم أغلب الوقت ردد فعل قليلة الفعالية على عالم يعيث بهم عبث القَطِّ بالفأر!

شيء ما تحرك داخلي يأمر بمد يد العون لأدمي سبج عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلاً، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوت مثل كل من ابتلاه الله بما ابتليت به من مصير. قلتُ لها هذا موضوع سهل، جمعنا له كل المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدتُ أرمي أول مسودة في وجهها. تماكنتُ أعصابي وقضيت معها يوماً كاملاً في مراجعتها ثم طلبتُ منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجيبة محسنة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعدي حصل شبه إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلتُ لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوماً تتبع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يسوّه الله أحسن مما سوّى ذهنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأت الشكوك تراودهم بخصوص ما سأجاسر على فعله. قلتُ نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محققين آخرين قد ينتهبوا للخديعة ويتسببوا لي في مشاكل جديدة أنا في غنى عنها. قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمّة منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يش بي أحد بل تناهبوا على إصلاح ما كنتُ أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارق في خضم مشاكل المتعددة. أي جارة كريمة أعارت المسكينة فستاناً يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيلة بني آدم وبنات حواء. يومها كلنا لأنفسنا الثناء ولم نقصر في مدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغير وجهة الطب الاجتماعي للعشرية المقبلة. كل هذا أمام عاملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج ليفتعلن متابعة كلام لا يفهم منه شيئاً. بعد نهاية "النقاش" مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجنا إلى المدرج يحف بنا وقار العلماء لنعلم البننت أن رسالتها قُبلت بعلامة مشرف.

لما أتت قراءة قسم أبقراط وهي تتلعم، همستُ في أذنها أن قسمها لأبقراط لا يعني في شيء، كل ما يهمني احترام قسمها لي بالألمس أبداً مريضاً وألا تغير من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقف عملها على الكشف على الأطفال وإحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستاناً أنيقاً والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكراً. لحظة سعادة صرفٍ وتصالح خالص مع الذات والآخر.

تتهد الرجل الطيب وقال:

- نعم يحق لنا أن نغفر لأنفسنا والآخرين ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضاً على العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر. كم أنت على حق يا صاحبي نعم وألف نعم، يحق للأدمي أن يغفر لنفسه كل جرائمه تجاه الأدمي الآخر وحتى تجاه أضعف الكائنات وهو الوحيد القادر على أسمى أنواع العطاء والبذل.

وحيدا على الشاطئ المقفر والمخبر ورائي بعيدا عني قرّر أن يعصي أوامر التنفس في ظهري. يمكنني التفكير بهدوء واستحضار بقايا نقاش حول النار في محمية افريقية مع امرأة جمعتني بها صدف الطريق. ليأتها قلت لها أعبت بعود قلب به الجمر.

- نعم، كم نكلنا بالحيوانات ومع هذا... هل سمعتني عن المعابد التي يقدسون فيها الفران، عن الأطفال الذين يغسلون فيلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، عن وليمة القردة السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حذب وصوب لياكلوا ما أعده لهم البشر؟ هل سمعتني برجال ونساء قبيلة البيشنوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ثمّة ببشر يقولون عندما يتحدثون عن قرد: فلان، السيد قرد. لا يجب أن ننسى الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمر لغسلهم وتغذيتهم وأخذهم للفسحة في ضواحي الدير.

تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعاً الحزب الحيواني.

- أعرف أيضاً أن هناك طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفاً من التهام ذبابة والمشي والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ.

- لا تنسى من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات قطع الأشجار.

- وأيضاً الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنتشار الكهربائي.

- ثمة وثيقة أخرى. هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحماد موبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرهف وخير فطري في الأدمي؟

- عندي ما أحسن. إذا تصادف وصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقديس فرانسوا، فاسرعى بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الأدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظة، يتحرك طابور طويل وكل أدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقط، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد ببارك الأدمي ويبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصامتين ولو في قيس وعي عابر أننا كلنا أقرب لبعضنا مما نتصور.

ما سرّ تصرفات كهذه؟ لنقل إنه كما هناك حمم تجد أحيانا طريقها للسطح فينفجر بها البركان، هناك داخلنا "شيء" مطمور في أعماق الأعماق يربطنا بجذع الحياة. هو الذي يشق طريقه نحو سطح الوعي عند البعض مخترقا الطبقة السميكة لتبلدنا المزمّن فتأتي منه الرسالة والأمر... طالما هناك من يتقبل الرسالة ويفهمها، طالما بقي أمامنا أمل في الخلاص.

كم من قصص عما يقدر عليه الأدمي من محبة للحيوان وحتى من محبة لبني جلدته وقد تبلور في وعيه شعور مفاجئ بأن الأدمي الآخر ليس إلا ذاته تتخبط في قصة أخرى وأنه هو نفسه ليس إلا الذات الأخرى تورطت في قصته. حدّثني جدّي وأنا طفل، قال الأجنبي وقد تمخّضت عنه العاصفة: عُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلة وبأي ضربة حظ وصلتُ الخيمة. لم يبالغوا عندما حدثوني عن كرم البدو. قلت له: الضيافة في هذه الصحاري حقٌّ طرفٍ وواجبُ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال الذي منه كل نعمة يجوب في هذه اللحظة الفياقي القاحلة التي تفصل بين أرض يهزبون منها اسمها المكسيك وأرض يهزبون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرَجَّح فيها مرور أو ضياع المهاجرين غير الشرعيين.

في قصة أخرى، لنقل إنك أنت بطلها تقول: عُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد ولن أتحرّك خطوة أخرى. كفى أعدارا فارغة. يا لله تحرك، ألا ترى ذلك النور؟ إنه مصباح كوخ فقير. لا تخش أن يكون وكز قطع الطريق، حبسنا لك الذي منه كل نعمة في الفصل السابق. هيا تشجّع.

تفتح لك الباب امرأة مبتسمة. تخاطبك بلغة لا تعرفها لكنك تفهم من نبرتها أن عليك الإسراع بالدخول. تصفق الباب ورائك مشيرة إلى مكان على يمين رب العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه

الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! ثرى، هل ينتظرون ضيفا؟ طبعاً، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدق الباب في أي لحظة.

على أي حال كنا نعيش دون هذا الذي يرافقك على الطريق يُعيّنك على أحواله وأحواله! لنقل أن الذي منه كل نعمة هو الأدمي الذي يمشي طوال الرحلة أمامك دليلاً وخلفك حارساً، الذي يُخرجك من رمال متحرّكة كادت تظفر بك، الذي يُطلق صرخة الفرع لينبّهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند شفير الهاوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بذلك من شدة البرد، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ، الذي تتكئ على ظهره تنتظر مرعوباً وسلاخك في يدك برونّ الذئب، الذي يتغاضى عن واضح خوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يتربص به من ذئب، الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته، الذي لا يفتعل سمّاعك وإنما يُنصت إليك حقاً، الذي إذا انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزهيه نجاحك ويبيكه أن يراك فاشلاً، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهّل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ما، الذي يُؤوي ذكراك في قلبه تُواصل داخله أغرب أصناف الوجود.

نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتخذها العالم عندما يتكفل بحراسة أخطر مفترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحبطين، خوفاً من أن يتوقف تدفق الحجاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

يُداهمني الشعور وأنا عائد لبيتي من سهرتي الليلية مع البحر بخطر داهم وأنا أنتبه لمجهول يركض ورائي ويده تمسك بذراعي.

تدوي داخل الذات كل صفارات الإنذار المعهودة من خوف وتأهب وقلق. تتراءى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سأقتاد نحو سيارة رابضة حيث ينتظرنني آدميون بسحن متجهمة وعيون يتطاير منها شرار البغض.

تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الأدمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنباً إلى جانب: بارك الله فيك وفيمن معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان.

تربتُ يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضع الرجل في الزحمة، لا يترك لي الوقت للتمعن في ملامحه. إنه الآن شعور من كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عثر أخيراً على والديه. صدقتم صراخي في وجوهكم بسببٍ وبدون سبب؟ مجرد ردّة فعل على حبّ خيّل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجدداً على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخجلته التأتأة. مكانتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روعي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك فيكم جميعاً...بوركتكم، بوركتكم، بوركتكم.

**

ما نتعلم من ملاحظتهم أين تتعزى الأجساد

تفتح “ح” فمها مندھشة وهي تسمع اقتراحي بخصوص مكان السهرة.

- علبة ليلية! أنت!

أهز الكتفين:

- كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض “الستربتيز” ولا شيء آخر. ثمة بشرية أريد الانتباه لبعض خصائصها أقصد بشرية الليل والمحرمات والخطيئة المرحة، بشرية السكرى، المدمنين، الموشمين، البغايا، القوادة، اللصوص، المحتالين، الذين لا يعرفون الأدب والتأدب، الذين يضربون ويتجشؤون ويتمخضون بصوت عالي وأمام الجميع. لن أعرف شيئا ذا قيمة عن الأدميين وأنا أوصل إدارة ظهري لهذا النوع منهم وربما هم أصدق النماذج.

لمواصلة البحث في طبائع الأدميين يجب أخذ بعض المسافة ومحاولة التوقف ولو لفترة قصيرة عن الانخراط في العلاقات المعقدة التي تجعلك تنتظر إليهم غالب الوقت “بعين السخط التي تبدي المساوى أو بعين الرضا التي هي عن كل عيب كليلة” تقطب “ح” الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

- أعرفك بما فيه الكفاية سأتحمل من جديد خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدي على الكرامة البشرية الخ. لا شكرا، وعلى كل هذه عروض لكم أنتم الرجال.

- أنا بحاجة لزيارة هذه الأماكن لمواصلة أبحاثي.

- أبحاث!؟ وفي علبة ليلية!؟

- ألم أقل لك لحد الآن أن أطروحتي في الطب كانت لمجرد أكل عيش كما يقولون. أما اطروحتي الحقيقية فهي التي أعمل عليها طول الوقت.

- عنوانها؟

- الرحلة، هكذا بكل بساطة وتجريد. ربما سأضيف تحته سطرًا: الموجز والقول الفصل في طبيعة العالم والشؤون الأدمية وسبب وجودنا في هذا السيرك العظيم. طبعًا لن أجد أستاذًا يحترم نفسه يقبل بتأطير رسالة كهذه. لذلك قررت أن أكون المشرف عليها شخصيًا وأن أناقشها في آخر مراحل العمر. ما من شك أنني سأقبلها بعلامة مشرف جدًا وسأكيل المديح لنفسى. لكن في الانتظار، عليّ مواصلة جمع المعطيات الضرورية وهذا يتطلب أن ألحق بالأدمي في كل الأماكن التي تتجلى فيها بعض أخص طبائعه ومن بينها العلب الليلية. أرجوك، لا أتجاسر على دخولها وحدي.

- خشيتك من العيون؟

- التي بداخلي.

يتلقفنا ليل متجه لا ينفع في تحسين نواياه ما تتكلف المدينة من أنوار.

الليل! فترة الزمان التي تتوارى إبانها الأشياء عن الأنظار، تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار، التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله والشيطان والمخبرين، التي نخرج فيها مكرهين إلى أخطار عالم وضع على وجهه نقابة الأسود وعيناه جمرتان تحنقان في الأدمي كالذئب المتربص بالحمل.

ها نحن وسط قاعة ضيقة عائمة في شبه ظلام تعبق برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر.

أجيل البصر بين المشاهدين والخشبة التي تنتظر قدام البطلة. تطيل رفيقتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل.

- مالك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

يقطع علينا بداية افتعال مشادة ضاحكة بروز شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر، خرجت من وراء ستار فذر لتحل ركحًا بحجم طاولة صغيرة.

“أنت تترجي رفقها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل” (ابن هانئ)

تبدأ “الفنانة” في التثنية وهي ترسم على شفيتها ابتسامة مهنية أستشفت من وراءها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبية، وتواصل الحياء والشعور بالإثم عند المرأة المكتملة النضج.

تأخذ “ح” في التهكم:

- تسمي هذا رقصًا؟

هذا عالم لا تقدر قيمة الكائنات والأشياء فيه إلا بمعرفة النقيض. ثمة ما تحاول هذه المسكينة تكلفه من فنّ والجسد وحده الأداة. وثمة الفنّ الذي تغفر فمك أمامه وأنت تتأمل الراقصة الروسية تكاد تطير في السماء محمولة على ذراعي مراقصها أو الراقصة الهندية تروي بحاجبيها وأصابع اليدين وقدميها ملحمة راما وسيتا.

- لم نأت لمشاهدة باليه بحيرة البجع أو ما تيسر من البهارات انتميم .

-آه بدأت أشك في أنني اعرفك.

- يا امرأة امسكي لسانك حتى أبقى منتبها لكل المعطيات التي جئت بحثا عنها.

تعرض عني "ح" لا أدري ها هي غاضبة فعلا أم تقتعل الغضب. المهم الآن المرأة التي على الركح لا التي بجانبني.

تشرع " الفئانة" في خلع قميص جد شفاف ترميه بلطف على كرسي هو كل الديكور.

من ينتبه أن الثياب لا توضع على الجسد فقط للزينة والحماية والتميز وإنما لتقول للصيد: تحت الغلاف جوهر النص.

يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات

التي تدق على باب العالم تتضرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز بشرف الولادة وقداسة الحياة من هذا الجسد بالذات.

تنهري "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.

- بهرك جمالها، أليس كذلك؟

- لم تعد تخدعني أنتى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولبست من حلي وحلل. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن

أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بالبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها...

أفكار مسبقة عن النساء الجميلات وضرورة الحذر منهن حذر الملوغ من الأفعى. كم صدق المثل الإفريقي القائل إن من

يتزوج امرأة جميلة له نفس مشاكل من يملك أشجارا مثمرة على قارة الطريق.

تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها وسط ضوضاء تنزايد شرستها وقد تسمرت العيون على أعمق محرّك لجشع

الأممي: اللحم الأممي.

فجأة يتعالى الصفير والصراخ من نظارة يلعبون أحسن مئي الدور الذي يؤدي في مثل هذه الأماكن.

تنفجر "ح" ضاحكة:

- تغني! أنت! أظن أنني مقدمة هذه الليلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يغنون؟ لم لا أغني أنا أيضا؟

- أنتم الرجال لا تتحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظ أنني لا أفهم الكلمات.

- إنها كلمات جميلة وجد مهذبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا ينتثني. ردي معي: أمان أمان، وبالمناسبة كفي عن

إلصاق التهم المشينة بالخنازير.

تقتعل المرأة معاينة حمالة الصدر ليحتد الضحك والصفير.

تهمس "ح" في أذني: كأنك كئيب، حدثني عما بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحذائنها وهو بكعب عال مدتب.

تبلغ هستيريا الجمهور أوجها عند نزع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص.

يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها أهات تعجب، أو دهشة أو وجع.

تبدأ المسكينة اللعب بأزرار بنطلونها الضيق.

مسكينة! حقاً؟ من قال إنها لا تشارك مرح المتفرجين، أن اللعبة ترضي لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعتمل

في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فاتن للانظار، سالب للعقول؟ كأني أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأملوا،

سجوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبد الأممي للشكل الذي تجسد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهدا وتجميلا منذ أولى

خطواته على الطريق؟

يُرمى البنطلون أخيرا بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفاف والمرأة تواصل التنثني على أنغام موسيقى عاهرة.

المأدبة أمام الجائعين ولا مجال للإمسك بما تعد.

تنفجر شتيمة حقيرة أرتج لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابنتني في الوجه.

ثم تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراهقون تسللوا للقاعة رغم أنف القانون.

هل ما زالت مثل هذه التعليقات البلدية تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل إنها تصفحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد

القرن؟

صدق من قال، من باعوا أرواحهم ينظرون باحتقار إلى من لم يبيعوا إلا أجسادهم.

تهمس "ح" وفي صوتها نبرة لا تبشر بخير.

- خذ بالك، ستسقط نظراتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الافتعال والتكلف عند بعضهن.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدمات.

- كن على حذر. ذقت أظافري ولم تجرّب حتى الآن عضتي.

- صمتا يا امرأة، تألمي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للفاعه الهانجة تمنح للبصر عجزا مكتنزا لم يرسم مثله حتّى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمّى “جوردانس”. أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الأدمي عادة بين فخذيه، أكان ذكرا أم أنثى.

- انظري. إنّها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُبّ ضارّة نافعة، وقد اكتشفتُ هذه الليلة وجهك المخفيّ قبل أن أتورّط معك، يا رجل هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟

- لا أرى ما أريد رؤيته.

- المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتّى لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدق أنّها ستتجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تفتعل البلاهة. أليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

يعتقني الظلام من كلّ تحرّج. لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كلّ هذا المقدّس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة متجوّلة سترمى يوما لقمّة سائغة للدود.

ربما لم يدخلوا هم أيضا هذا العرض فضولا أو لإنكاء الشهوة وإثما لغايات أخرى؟ على من يتهمّون إذن؟ هل هم بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر الخاطفة للأبصار؟ هل داهمتهم هم أيضا صورة نظّارتي بُعد وقُرب وُضعتنا على العينين التي كان بهما حور؟، أسنان سوداء وأخرى صبغها النيكوتين بالأصفر، نهدان سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تننان بحمل ما لا يطاق من مترهل اللحم والشحم... هل شتائمهم موجّهة إلى المرأة أم للذي يرهل ويمرّق ويكأس كل جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كئيبا... هل هذه العلبة الليلية الحقيرة محرّاب تتعبّد فيه للآلهة خالفة الحياة والصحة والجمال، ونبصق عليها لما تفعله بكلّ هذه الروائع... أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس: العباداة والكفر، التنديس والتدنيس، الصلاة والرجم؟

أعود لممازحة “ح” لا أحب شيئا قدر استفزاز الانتباه فيها.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنّها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف الساقين، أقول لك: ستخلعه، !!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أن تحاضر في النحو المقارن.

- تحدّثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا! يا الله بسرعة ورائي، لا أظنّ بول أو خرا حتى هذه الحسناء يعقب برائحة الياسمين.

تواصل “ح” ضحكها مختبئة بين ذراعيّ، وسيارة الأجرة تأخذنا إلى البيت. ثم تتوقف:

- ما لك صامت؟

- أحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.

- إنه الذي أتيت لي به آخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر خاصة بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج وكل الوقت الذي أضيعه في متاجر المطارات بحثا عن أجودها وأرخصها وقد اكتشفنا ما يفعله الماء والصابون بالروائح المخجلة؟

- كفى استفزازا رخيصا.

استفزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثروات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجدع الذي تسمونه “الملك الشمس” نفسه كان نننا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشّا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقريّة والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في مدينتك الجميلة هذه، كان المارة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شبكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة.

لله دركم، تتجّون على الخنازير وقد عبرتم جلّ التاريخ ملوكا وعبيدا تتضوعون أفضع الروائح ثم تدعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.
- آه، يا عدوّ البشرية!

- على فكرة، هل انتبهت كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشم ما بداخل أحشاء الحبيبية، والحبيبية تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الأدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمّع داخلنا كما بالك لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار العفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة ...
- أنت حالة مستعصية على العلاج. ما رأيك ان تعيينا بشيء من الصمت.
- تكلمي أنت وخذي حريتك.
- سأشتمك.

- كل ما تريدين. المهم استعادة أول نبرة لك رنّت في أذني. أتذكرين؟ أتذكرين أول آلو، يوم اتصلتُ بقسمك بخصوص مريض حوّلت لي ممرضتك دون ملفّه؟

يومها قلت لنفسي يا ربّ الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه الأصوات وثمان صنعها؟ وهل لديه أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكم يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتا أجمل؟
يومها قلت لنفسي لا بد من عذر-مهما كان واهيا-لأكلم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني سأكون ممنونا لها لو بعثت لي بشرط تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالي وليال، وبجانبي دفتر صغير أدون فيه ما يوحى إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.

أصخّ السمع لما يتعالى من أغاني الأدميين ومن أشعارهم لتكتشف أن الحبّ شغلهم الشاغل بل وفي كل عمر. لا تسمع على امتداد الطريق من كل الحناجر إلا صرخات شوق الأدمي للحبيب الموجود أو المنشود: "أغدا ألقاك؟" اطلب عينيّ الغاليتين عليّ وأغلى منهما رضاك"، "مولاي وروحي بيده ضيّعها سلمت يده"، "من أكون دونك أنت الذي أفقتني للربيع وعلمتني كلّ ما أعلم"، "نور جمالك آية من الله... الخ... الخ ...
قد يكون هذا الأدمي أصفى أنواع الذي منه كل نعمة أو حتى صنفا آخر من الأدميين يجب افراده وتمييزه وتسميته بالذي منه كل نشوة.

في كل الحالات هو منبع ومصب أجمل التجارب التي يعيشها الأدمي ابان رحلته... وهو الذي تتحقق معه على الأقل فترة هذه التجربة التي نسميها الحب أجمل حالاتنا في مرآة الذات الأخرى وأجمل حالات الذات الأخرى في مرآتنا.

الحبّ شعلة نور ساحر هبطت
يطوف في هذه الدنيا فيجعلها
لولا ما سمعت في الكون أغنية
ولا تألف في الدنيا بنو أفق
من السماء فكانت ساطع الفلق
نجما جميلا ضحوكا جدّ مؤتلق
(الشابّي)

لا غرابة أن ترسم للذي يثير فينا هذا الشعور هذا الكم الهائل من اللوحات، أن تؤلف لأجله أجمل الموسيقى، ألا يتوقف الشعر عن التغزّل به.

كم يخطئ ذلك الشاعر الذي اتهم بادعاء النبوة، "خفير جليس في الزمان" حبيب و "أعز مكان في الدنيا" لا سرج ولا بردعة وإنما الفضاء الذي بين ذراعيه.
أعود لممازحة "ح":

- البارحة أضحكت طبيب الأسنان والمسكين جاثم فوق صدري يحاول اقتلاع ضرس بليد مستقر في أصعب أماكن الفم وصولا إليها. قلت للرجل لا تأخذ في خاطرك، رغم كل معزتك لديّ فإنني أفضل أن أكون بين ذراعي امرأتي.
تضحك "ح" إلى ان يأتيها السعال.
-كم أنا سعيدة أنك تجد في صحبتي متعة أكثر من التي تجد عند طبيب الأسنان.
بعد الهزل، الانتباه على أقصاه.

ثمة طقوس معقدة للاقتراب الحذر من الأدمي الذي منه كل نشوة وهو الآن القريب البعيد، المعروف المجهول، المحمل بكل الوعود وبكل الأخطار. الجسد أخيراً. كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد، والرقاص دوماً من تدينيس إلى تدينيس ومن تدينيس إلى تدينيس.

تحقق الذات في الوجه الموعود فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس. أي أوتار سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عندما رفع كأس الماء إلى الشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمه أخيراً بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفاً بعد طول تشرد.

تهمس "ح":

- سنترك آثاراً زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عز الصيف.

ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!!

تعبّر الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجع على المواصلتة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنها المغارة السحرية المغلقة التي طال وقوفك على بابها تضربها بقبضتين منتشجتين. أخيراً يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقاً لا لبس فيه.

- هل تتقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم!!

- انتبهي.

اتحد المعشوق بالعاشق ابتسم الموموق للومق (الحلاج)

واشترك الشكلان في حالة فامتحناً في العالم الماحق

دليل يقودك داخل مجاهله وأنت الدليل الذي يقوده في أعماق دهاليزك.

وفي جسدي تبجثين عن الهضبة (أوكتافيو باز)

وعن شمسها المدفونة في الغاب

وفي جسديك أبحث

عن المركب وسط الليلية الضائعة

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟

ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

- رويث.

- رويث.

- تعني! بماذا تهمهم؟

- بكلمات أغنية قديمة كنت أسمعها وأنا طفل تتصاعد من صندوق خشبي ضخم اسمه الراديو... ايه والله " " أمانة عليك يا

ليل طول ". نعم، يا ليل هذا الليل لا ينتهي أبداً، نتواصل إلى الموت بين إغفاء وبقطة، ننعّم بالدفء بين الأحضان، بالطمأنينة

وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وثرت من أعصابنا وهي

لا تكف عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

- آه لو كنت قادراً على الشيء، والآن، ردي على سؤالي: من أنت؟

هل سمع المحبوب لكنه فضل الصمت؟

آخر محاولة.

- مجدداً، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، "أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تسمع كلماتي من به صمم "

- نم الآن، واتركني أنام. يجب أن أرتاح لمواجهة مشاكل الزملاء والمرضى.

- اسمعي قبل أن تنامي هذه الأبيات لا أجمل منها حتى بمشاكل الترجمة:

يا معشر العشاق ما البشرى قد ظفرت كفي بمن أهوى (أبو العتاهية)

لا شركة فيها ولا دعوى

ضممت كفي على درة

أغربت عني سائر الدنيا

لما تملأت سرورا بها

- تواصل مغازلتني؟ هذه ليلة حقا حافلة بكل المفاجئات. على فكرة لا تقل لي أنك تريد العودة لمثل تلك العلبة الليلية الحقيرة التي جررتني إليها.
- لمواصله أبحاثي في الشؤون الأدمية هناك أماكن أخرى ثرية بالمعطيات، لن تمنعين في الذهاب إليها ولا أخشى ان تُنتقط لي صورة على أبوابها.

**

ما نتعلم من ملاحظتهم أين تتعزى النفوس

ليس من باب الصدفة أن أول من علم الأدميين بناء المسارح-في تصورات الهندوس-رب اسمها فاكسمان، أن مدرّبهم على الإيقاع كان ربا يسمونه شيفا، وأستاذة الرقص ربّة اسمها بارفاتي، وأن براهما إله الالهة لا غير هو أول من علم الأدميين لفن التمثيل؟

لهذا لا أدخل معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين، ولا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظة فكرة ترك نعلّي عند الباب.

قد لا يتفق معي الكلّ في كون المعابد مسارح والمسارح معابد، لكن كيف يمكن إنكار أن المسارح مختبرات تشرح فيها الأرواح ومن ثمة تجد فيها أكثر المعطيات ثراء عن الأدميين.

كما حفظ تاريخ الطبّ ذكرى كبار مشرّحي الجسد الأدمي مثل قاليلان وعبد اللطيف البغدادي و فيزال، فإن تاريخ المسرح حفظ أسماء كبار مشرّحي الروح الأدمية مثل سوفوكل، ايشيل، أوريبيد، موليار، زي-آمي أو شكسبير.

يشاء حسن طالعي أن يعرض أكبر مسارح المدينة مسرحية لهذا الرجل الذي يقال إنه لا تمضي ليلة واحدة على هذا الكوكب دون أن تعرض في مكان ما إحدى أعماله.

أغرقت في المقعد الوثير متنفسا الصعداء أرهفتي طول الطابور. تمرّ بين الصفوف امرأة مبتسمة بين يديها رزمة من المطبوعات الأنيقة.

- سيدي هل تريد البرنامج؟

- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفوا!

- كنت أمزح. تفضلي أعطني برنامج السهرة.

ثمة من الظرفاء من تكفل بحساب البرنامج الذي يهمني. اكتشف اللعين أن الأدمي الذي يعيش السبعين سنة (معدل البقاء على هذه الأرض) فإنه يقضي ثلاثين سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا عشرة سنة في الترتبة، ثمان سنوات عمل، ثلاث سنوات في الأكل، سنتان في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقال)، ستة أشهر في المراحيض. تبأ وهكذا برنامج.

ألقي نظرة على البرنامج الأنيق وفيه بعض التفاصيل عن المسرحية المرتقبة بشوق من طرف جمهور هو الآخر بالغ الأناقة من صفوة البرجوازية وعتاة المثقفين.

كم مرّة مُثّلت هذه المسرحية التي طبقت شهرتها الآفاق لأنها تشرح كل الشرّ الكامن في أعماق الأدميين وتشرح كل الآلام التي ترافقهم إلى أن يخلصهم الموت منها!

تُرى هل بوسع المخرج الشاب أن يأتي بشيء من التجديد؟

أه لو ترك للمثلين حقّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرض البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة.

أه، لو ترك للنظارة حقّ التدخل لا بهمّ أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصفق صارخا برافو هكذا أحسن بكثير! تنطفئ الأضواء تدريجيا.

تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. لكن أليست قصصنا فوضى من الأحداث والحوادث، لماذا لا تضيف لها الكتابة فوضاها الخاصة؟

يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. نترك خلفنا ما نسميه "الواقع" لتتوغّل بعيدا داخل فضاء الأفكار والخيال نستكشف أرواح الأدميين وهم يتخبطون في قصة أخرى عن نكت العهود والعقود. أغلب قصصهم أفرادا وشعوبا تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد مآله الانتهاك عاجلا أو آجلا. لذلك هم دوما بحاجة للدعاة والقضاة عليهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم. عبثا.

يُزاح الستار ببطء مبالغ فيه.

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جننا جميعا للتمعن فيها، نبحث عن شيء غير محدّد.

يبدأ الممثل في الصراخ ليعلمنا جميعا أن ألما فاق كل حدود التحمل يمزق روحه.

- "في نومي وبيد شقيق! انتزعت مني في مرّة واحدة الحياة والتأج والزوجة. يا للفضاعة!

يننّ شبح الملك المقتول يستنهض همّة ابنه يحقّر فيه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام.

- لا تترك فراش ملوك الدنمرك يُدَسُّ بالفسق والزنا اللعين؟
 في المشهد الموالي يراقب كلوديوس الملك المنقلب المتزايد قلعا ابن أخيه. هل فهم أنه قاتل والده وعشيق أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلة؟
 يتوجّه إلى هاملت خائفا متوتّدا، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.
 - "إنّه جميل ومحَبَّب من طبيعتك أن تؤدّي واجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أنّ أباك فقد أبا وكذلك والده، ومهمّة الباقي على قيد الحياة التقيد بواجبات البنوة في الأسى، لكن لمدة. أما الإصرار عليه فعناداً كأنه الكفر".
 تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.
 كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مرّق عهدا مقدسا ربطه يوما بأخيه وهاملت يروي، متكأفا السذاجة، قصّة تخلّص إيطالي اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسّم مسكوب في الأذن.
 يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النور!
 أيّ نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبّط فيه، ومن أيّ مصباح سيشع؟
 ليست الأمّ الخائنة، الخائبة، الخائفة، بأحسن حال. ها هي تحتّ بولينيوس على أن يصدّقها القول بخصوص تعيّر طبع هاملت.
 تُرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟
 يصرّح الرجل برأيه كمن يُصدر قرارا لا طعن فيه:
 - "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".
 - "أريد أكثر مادّة وأقلّ بلاغة".
 - "يا سيديتي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنّه فعلا مجنون وإنّها لمأساة".
 تتوسّل الملكة إلى ابنها الذي أفقدته الجريمة النكراء صوابه.
 - لا تقل شيئا آخر. كلماتك خناجر تدخل أذني. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.
 يواصل الملك افتعال السذاجة.
 - هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موثٌ والده؟
 يستحيل الصبر على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما أكرهه عند الأدميين.
 يستسلم الذهن كالعادة لأفكار تتدافع من أعماق اللاوعي وقد انهارت الحدود المصطنعة بين ما يسمى الواقع وعالم الخيال. ها أنا وقد أصبحت أتحرّك في فضاء موازي أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.
 - عيب يا رجل. لا يكفي أن تقتل أخا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والآن تسخر منّا متسائلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أول من يعرف السبب.
 يرمقني القاتل بحقد:
 - ما دخلك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوج من أشاء.
 يقرب روزنكراتز وقيلدنستارن رأسيهما من الملك يهمسان في أذنه.
 - من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصّة أخرى ومن مستوى آخر لعالمنا، فهو معارض وكل المعارضين للسلطة بقلبه مرض.
 يعرض عني الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهمّ. ترمقني الولية امرأته باستهجان، فأغتنم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، وملّفي بخصوص سبب السلطات العليا زاخر، ولا تُضيرني قضية إضافية.
 - كيف لا يُجنّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للأدميين! أيّ إنس أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمه قتلت والده وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! امش، يلعن أبوك يا قحبة.
 يواجهنى الممثلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفت عنا أذاك وبذاءة لسانك. ألا ترى أنك تشوش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التدخّل السافر في شؤوننا.
 يا لخيبة الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هبّ لنصرتهم. لكن جحود الأدميين ونكرانهم للجميل أمر عادٍ، يكرّمون اللئيم ويتمردون على كلّ كريم مُذُوجوا. أجيل البصر حولي أقيم مدى تأييد القاعة لي وتفهمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عني إذا نشبت معركة عامّة بين النظارة والممثلين. أفاجاً بهدوء جبراني، ذلك لأنّ أطوار المشادة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التوقع لجروني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأدميون عندما يخلطون بين الفضائات المكوّنة لعالمهم.

ينتهي الجزء الأول من العرض. يختفي الممثلون تحت وابلٍ من التصفيق، وراء الستار. يعبر جاري بصخب كبير عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. ألتفتُ إليه باسمًا متأدبًا:

- أنتصوّر! أخ يقتل أبا وينكح الولية امرأته! كلّ هذا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحذر. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركةٍ ما، يعمل ليلٍ نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الانتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجّهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصيلي هذه المدينة. يفتح برنامج السهرة يُشعرني أنه لا يتوي فتح نقاش مع غريب مشبوه.

من قال له إنني لا أنوي الصمت؟

- يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوّق إلى معرفة الخاتمة. هل تظنّ أن هاملت سينجح في الانتقام من عمّه؟ بالمناسبة، من هو مؤلّف هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟

- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أيّ قاعة لقضاء السهرة. لمّا رأيتُ طول الطابور قلت لنفسني: لا بدّ أنّه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرب؟ يا سيدي هل أنرتني مشكوراً باسم مؤلّف هذه المسرحية الركيكة؟

- المؤلّف وليام شكسبير "مون بون مسيو".

- وليام من؟

- (بنفاذ صبر وشيء خفيف من التهكم):

شكسبير، شك-سير. ألم تسمع عنه من قبل؟

أحدّق في الفراغ مُطوّلاً.

- فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها "فينيسيا"؟ زرتُ هذه المدينة شخصياً، لكنني وصلتُ إليها، وبختي كما تعرف، غداً فيضان لا يُصدّق. إنها حقاً لمأساة أن يضطرّ رجل مسكين إلى قتل زوجته ثم تتركه اللعينة يتخبّط في مشاكل لا نهاية لها مع الشرطة والقضاء وإدارة السجن والجلاّد. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن "الفانتا" والشرف الذي لا يُحفظ إلا وقد أريق على جوانبه الدم! هل تعلم أنّهم جيراننا، نرى شواطئهم بالعين المجرّدة في بعض الأيام؟ أخذوا منّا هذه العادات التعيسة وانتقموا منّا بإغراقنا بالبيتزا، البيتزا بفواكه البحر، بالأجبان السبع، بالطماطم والبصل، بالزيتون، بالملوخية والهريسة،

- (باحتراف دون مساحيق) شكسبير ليس إيطالياً "مون بون مسيو".

- صحيح ما أغانني، إنّه دانماركي بالطبع.

- (بمرح مفاجئ والرجل يكتشف متعة الحديث مع هذا المتخلف القادم من وراء البحار) ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنّه إنجليزي "مون بون مسيو"

- ماله إذن ومشاكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقبون أولى بالاهتمام؟

- (ببداية نفاذ الصبر) جُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معيّن من الإنجليز... الذين يسكنون قصور شاهقة تشهد أروقتها أروع القتل والانتحار بعد أن أرهقت أبطالها القضايا الفلسفية الكبرى من نوع "تكون أو لا تكون". بصراحة أفضل أبطال تشيكوف ومشاعلم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفودكا في الداتشا الأيلة إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريباً دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.

- طمأننتني. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض؟ في أي شرفة تظنّ أنّه جالس؟

يحدّق في الرجل بذهول. لا شكّ أنه قرّر أن يروي الطرفة، واختار من سيتحفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سينكرّم بها عليّ.

- "مون بون مسيو"، أخشى ألا يكون قادراً على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.

هذا الأدمي المحفوظ يعرف اسم المؤلّف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مدّة لا يقدرها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصومة متواصلة منذ قرون حول هويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بذكره الركبان أم أرسنقراطي إنجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها المقرّفة؟ ... هل يعلم أنّ مقاطع كثيرة كتّبتها المؤلّف، أيّاً كان، أسقطت من النصّ وأخرى تصرّف فيها الناشرون دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسماً أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتع هو

والمشاهدون ب "هابي أند"، وأن مُراجعة النصوص وتزييفها قاعدة لم تُسلم منها حتى، بل قُل خاصة، تلك التي تُرثَل في المعابد؟

ينهض الرجل من مقعده يدير لي ظهره بكل ما يقدر عليه من احتقار. يتوجه لباب الخروج من المؤكد للحمام ثم لمشرب المسرح.

الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع؟! !

فرصة للتجول بين المتفرجين. هم تكلفوا ما تكلفوا من جهد ومال لحضور هذا "القداس" حتى يرون أنفسهم الأمانة بالسوء في مرآة الممثلين... حتى يرون أنهم ليسوا وحدهم ضحايا مقادير ظالمة... ليتأكدوا مرة أخرى من فهمهم لموعظة الواعظ ينههم من قديم الزمان عبر كل الوسائط لضرورة الالتزام بالوصايا العشر وعواقب الاستخفاف بها.

لكن ما علينا، هم وضعوا للحظة كل هذه الأمور الجدية بين ظفرين. ما الذي يمكن تسجيله في دفتر الصغير عنهم وهم يتدافعون نحو المشرب لتنتقل الألسن بعد أن فُرض عليها أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة.

المحصلة لكل ما دونت بخصوص ما يقال في هذه الاستراحة وغيرها أن موضوعهم المفضل الأول الشكوى من ظروف الرحلة، تحديدا من "عزّ مَضَى، من حلول مُصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عدّى غلت صيحاتهم، من كَفّ ليس فيه درهم، من ليالي تجرُّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرغما ويغادرها مكرها".

بصراحة من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قَدّمنا حياة أعطتنا مجاناً للمس والشم والسمع والنوق والبصر؟... ما الذي قَدّمنا لعالم أعطانا مجاناً ليل الصحراء؟ ما الذي قَدّمنا لشعب أعطانا مجاناً الحماية والزراد ورفاق الطريق؟ ما الذي قَدّمنا لكل من أعطونا قصائدهم وموسيقاهم؟ رَبّاه اغفر لي نكران الجميل وتقبّل مني أحسن أفعالي على شدة تواضع ما قَدّمت. موضوعهم الثاني خصوماتهم التي لا تنتهي.

هذا الخصام الأزلي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواسن الحروب والانتقالات والإرهاب والشجار على الطريق العام ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطف الأطفال والنصب والسرقة والقتل بين الأحياب، جلّ العفن الذي يمكن طفيليات تُعرّف بالمحامين والقضاة وكتبة المحاكم والسجّانين ومُرّوجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف.

أما في فضاء الخيال -بالأساس في الروايات البوليسية- فالمواضيع دوماً حول من كره من ومن تأمر على من، ومن قتل من. هكذا تُعبّر العالم وأنت تسمع وأصواتهم تتصاعد من الشارع، من صفحات الكتب، من المسارح بالنقد والتجريح والتهمك والسب والشتم والإدانة والتهديد.

هم يتخاصمون كل لحظة وبخصوص كل المواضيع يواصلون خصوماتهم هذه حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافته اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التملل احتل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسببة لمشاحنات السرير في أوساط المتزوجين البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة."

اللعنة! اللعنة! اللعنة! كّفوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجل ومن الأولى بالاعتبار، كّفوا عن خصوماتكم بخصوص من ملك الحقيقة ومما يزال أسير الخطأ. كّفوا عن خصوماتكم بخصوص من دان بالدين الصواب ومن لا يزال يتخبط في أساطير الأولين. كّفوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجر بالحكم ومن الأقدّر على ممارسته، بخصوص من سرق هذه الأرض ولمن يجب أن تؤول. كّفوا، كّفوا، كّفوا. أضجرتموني بخصوماتكم العنثية، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وأنتم أطفال في الخمسين. كفى. أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحمل المزيد من خصوماتكم المقرفة. ماذا؟ استجبتم لدعائي! صدقتموني؟ مع من تريدون أن أتمتع الآن بلذة المصالحة بعد أن تمتعت بلذة طول الخصام.

يرنّ الجرس منذراً بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعال الاهتمام بخصومات هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أبوهم كلهم.

ها هي أوفيليا تركض في أروقة القصر تنتم مرة لنفسها ومرة تولول فقدت المسكينة عقلها.

- "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نون نونّي هاي نونّي، وعلى قبره تهامل المطر دموعاً!!!"

مأساة أوفيليا وهاملت كل البشر أننا ننزل للعالم وهو في طور من تاريخ لم نختره، أننا نبقى في مكان عينته الأقدار
وزمان حدّدته طاولة القمار. نعيش ونموت داخل قصص لا ناقة لنا فيها ولا جمل تشكلت سنوات وعقود وحتى قروننا قبل
ولادتنا ومع ذلك لا خيار غير الانخراط فيها وقد أصبحنا شئنا أم أبينا فصلا من فصولها.
يتوجه لارتس شقيق أوفيليا إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقده الألم هو الآخر صوابه بانتظار أن يرحل بعقله.
- هل ترى هذا يا رب؟! -

المسكين! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهمله استنكار الأدمي لصمته وهو يعلم أن هذا الكائن هو تارة أوفيليا الضحية
البريئة براءة الحمل يوم ولاته وتارة أخرى كلوديوس المجرم الأثم لنهاية العمر القادر على موبات يحمّر منها وجه ابليس.
كفى من هذا الأئين المقرف.

عمّ تتحدث في آخر المطاف هذه التمثيلية التي طبقت شهرتها الآفاق؟ طبعا عن الصراع الأزلي على السلطة.
لا شيء يعرّفك بطبيعة الأدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتصارعون على الإمساك بهذا
الثعبان الذي اسمه السلطة.

كم من قصص يرويها تاريخهم الدموي عن تخلّص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق
لصديقه وغدر الحليف بحليفه!

وفي ملفّ ما زال بعيدا على خط الزمان سيفيض بأحداث قد توصف بالتاريخية، سأنهض من مكتبي والأزمة التي تعصف
بالبلاد في أوجها أتأمل البحر وكأنني أراه لآخر مرة. تتدافع في ذاكرتي صور كل الذين سكنوا قبلي هذه الهضبة التي شهدت
فصولا هامة من تاريخ هذه المنطقة من العالم. بداية صورة الملك الطيب الذي أعطاني "با" اسمه وكيف أخرجوه من قصر
ليس بعيدا عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموما... صورة ذلك الملك المسكين الذي وُلّي بعده والذي أخرجوه هو أيضا
ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في بيت فقير... وصورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرج
كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بينه وحيدا منسيا... وصورة كبير الحراس الغدار الذي أخرجته الثورة بدوره
ليفرّ جبانًا ويموت منفيًا. داخل ذهن مستنفر إلى أقصى حدّ لو عيه بتعاطف الأخطار تتلاطم الأسئلة الحائرة: ترى هل جاء دوري
ليخرجني أحد، واقفا على رجلي نحو السجن أو البيت ربما ملفوفا في خرق قدر يفيض بالدم.
قراءة أخرى للمسرحية.

من ثوابت طاولة القمار أن تسحب للبعض الرقم الخاسر فيقوضون حياتهم وخصوماتهم في الطوابق التحتية لعالم سنتصوره
مبنيًا على شكل عمارة. هي تعطي للبعض رقما يسمح لهم بسكنى الطوابق المتوسطة، وأعلى رقم للذين اصطفتهم دون سبب
واضح ليسكنوا أعلى الطوابق.

القاعدة الأولى: يتعذب الملوك والأمراء في الطابق الأعلى كالعبيد والسوقة في الدهاليز... وسبب العذاب هذه السلطة اللعينة
غزوا وممارسة وفقدانا بالنسبة للسلطين وتحملا بالنسبة للمتسلط عليهم.

القاعدة: الثانية إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا
لقناعة تُستبطن باكرا من قبل الجميع أنّ حدة الآلام تخفّ مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين.
أسمال في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحلّي والحلل في العليا وهيكل الآلام الذي غُطي بالأسمال أو
بالمجوهرات واحد.

ما أسخفه من صراع أخذ كلّ وقت رحلتي، والرهان التمتعّ بالعذاب في أعلى طوابق البناية.

تعطينا التمثيلية أيضا كل المواد الضرورية لتنظيم أفقي يَعتبر الآن أسباب آلامنا هذه.

ثمة آلام الملك القليل. ظنّ نفسه بمأمن من قانون أنّ كل الغنائم مكسبٌ نضعه على قائمة ما سنخسر يوما.

ثمة آلام طريقة فقد ما نتوهم امتلاكه. يصرخ الشبح في قمة الاستنكار: "في نومي وبيد شقيق!" المسكين! ما زال مقتنعا أنه
لو قُتل بطلا لهان الموت أمّا أن يسلب الحياة خيانةً وبُيد شقيق فلا تُمّ لا. كأنّ خزي الوسيلة أجزى موتا يبقى أهمّ فعل في حياتنا
بعد الولادة.

ثمة آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوما لنفقهه يوما آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر
من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلق الأمر بالصراع على
الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عيّرت آمية عن هذه المظلمة أحسن
تعبير متنهدة: كلّ ما أحبّ حرام دينًا أو محظور قانونًا أو يزيد في الوزن.

والآن ماذا أفعل وقد بدأ القرف من كل هذه القصة يوتر أعصابي؟ أعود إلى مضايقة الرجل؟

أهمس في أذن الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل وأمه تعيد عليه الحكاية التي يحبّ.

- يرضيك كل هذا؟ ألا ترى يا "مسيو" أننا نصنع القنابل الموقوتة التي نحملها داخلنا!

- شت، سيلانس مون بون مسيو، سيلانس!

-ألا يثيرك يا مسيو نفاق الأدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يدعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتدبروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟

- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

لماذا يرفض هذا الأدمي أن ينتبه لأخطر نظرياتي عن الأدميين؟ كل هذه المشاكل التي يفتعلونها هي لمجرد تدفّق هرمونات الإثارة في الدم لا غير. أليس الأدمي أفيون الأدمي وأيضاً المنبّه والمنشط؟

نعم ماذا لو كان هدف الأدوار التي تمثل في الواقع أو التي نشاهدها على خشبات المسرح ليس البكاء من آلامنا والضحك من تفاهة محاولات التخلص منها وإنما استكشاف (بالتفويض إذا استحال بالمباشر) الطيف الواسع للأحاسيس، للمشاعر، للأفكار والأفعال التي تقدر عليها الذات وهي تعيش كل الممكن من القصص في كل الممكن من الظروف... أي اكتشاف كل ما تتغلّق عليه من إمكانيات الخير والشرّ، القبح والجمال، الدمار والاعمار.

*

كيف البقاء مستيقظاً؟

بالتنكر أن التراجيديا على الركب وفي الواقع ليست إلا جزءاً من الموضع الذي يشرح الذات الأدمية وأن هناك مبضعا لا يقل دقة وإيلاما يسمونه الكوميديا. ألا تعرض على خشبات هذا المسرح أعمال العبقرى الذي أسسه الأدمي المسمى موليار. كم أضحكت من أجيال على الأدمي وهو هاريجون البخيل وتارتوف المنافق وجوردان الجاهل وأركان الخائف من الموت. إذن يمسح أبو هاملت العرق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهاراً وبالجنس في فراشه ليلاً.

يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السنويشات ويصق البزر على الجيران آخر همه ما يقوله الشقيّ.

- أه منك أيتها الهواجس المرعبة، تلاحقيني في النوم وفي اليقظة، أه وآه وآهات!

يتوجه إليه روزنكراتز أو فيلدنستارن:

- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك. ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكاً؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خبّر الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا وبأكثر. يتعمق فيه الشكّ وتعلو موجات القلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المساكين.

تمسح الملكة جبين التعيس تصرخ فيه:

- أفاق، تنفّس ملياً يا حبيبي. لم أعرفك يوماً بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب الساخن إلى الملك!

يحذق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

- أين قابيل؟

- نسيت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلا غادر في منتهى القلق.

يتنّفّس الملك الصعداء مصلياً للعدراء أن تزيد المعركة الرّبّع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجه ربّه.

أن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسماً، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تخفي ضحكة الصبايا المغرّبات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة.

ها هو أبو هاملت يتخبّط داخل أفكار وصور لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنذّر وتنبّه؟ من يضمن له أنّ شقيقه لن يجني من الحرب انتصاراً يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكرهه وتملّه وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرض حياته للخطر من أجل هذا اللئيم. ها قد بدأت مخاوف الملك تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأثها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسقط في يدي والقصة تنزلق في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه.

يا له من غيبي. بينا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيهلك المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الأدمي لينتج السموم التي تهلكه؟

تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكأبتك وأن يسير يوما بذكرها الركبان، لكن كل هذا النفاق حولها! ألم تتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أما أن ترمي بأتمك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيض. وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هاملت وعمه يُنقذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "ألزهايمر" وكنت تفضّل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائما في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين. وأنت يا وليّة! كل هذا بسبب ملّك من الخباطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذع الألم. هل اعتقدتم أيها الأغبياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأوّل.

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبس الأدميين خبثا مفرطا وذكاء مكيا فيليبيا نادرا ما تجدهما. أنظر إلى أغليبتهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، فاشلة، كأن لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة باتجاه الكوارث التي يَصْجُون بالشكوى منها. ولأنّ التجربة لا تورث كلون الجلد، فإنك ستراهم يُكرّرون من جيل إلى جيل نفس التخبط لأن السبب تركيبة هيكلية ثابتة أيا كان الزمان، أيا كانت المكانة والمكان.

هذه مأساة لا ينعف فيها التهكم الأنيق. يجب دكها دكًا بالسخرية الفضة. تدخل هاملتة تنتهي لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتا ضيعة صغيرة وحملها دمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليد القصة بما يعرف عن الإناث من فكر عملي وعدم تضييع الوقت في السفاسف المبتافيزيقية وخاصة في جنون مرهق ومكلف لصناديق الضمان الاجتماعي.

تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملتة وهي تتابع فعل السم في جسد الأم والعم. يموت القاتلان فتنزّوج هاملتة في نفس الليلة صديقها أوفيليا. تندلع مشادة بينهما فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري في هاملت: - ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجية إذن؟ تريد لي مكانا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلى جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون إنني بطلة آخر زمان، لم يجدني الدهر أهلا لضرباته؟ - ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟ - أقول لن أَرْضَى بأقل من القتل وتحذّثني عن خصومة بسيطة من فوق! - طيب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضل التخلص من حماتي. - تريد قتل أمي يا مجرم. وتدّعي أنك تحبني! - يا سني لنقل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة. تقرّر رفض العرض لأن جوليات غريمتها الكبرى ستهزأ من قصتها وستبجّ عليها بعمق آلامها هي. تجهش باليكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

- طيب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعو شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته.

تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، من أعطاك الحق في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب قدرة. تمهل يا هذا في شكك المزمّن في نواياي. لست ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضد المبالغة فيه. نعم، هناك آلام حقيقية علينا احترامها بعدم جعلها مادة لسخرية شريرة... لكن شريطة ألا تصيح بضاعة تندلّل بها على عالم لا يطبق أي نوع من الدلال.

حقًا ليس كل شيء قابل للهزل وكل ما يمسن بالكرامة خط أحمر. يبقى أن السخرية أسرع تقنيات الفكر وأعمق وسائله للفرز بين الغث والسمين. القاعدة أن قابلية الفكرة، أو الشيء، أو الكائن، أو العلاقة، للسخرية أصدق دليل على وجود خلل ما

فيها... أن كل ما هو قابل للسخرية نتيجة هذا الخلل لا بد أن يُسخر منه، أيا كانت هالة القداسة التي يُحاط بها أو القوة الفجة لحمايته من المنتفعين بالخلل انتفاع الجراثيم بالعفن... أن الذكي من يضحك من نفسه والغبي من يضحك على الآخرين لم يبق إلا رفع صوت تشاؤمي عاليا وإظهار كل علامات التبرّم للمزيد من إزعاج الناس وخاصة جاري. أوف! أخيرا مات هاملت ومعها القاتلان وكم من ممثّل آخر ناهيك عن موت كاتب هذه المسرحية المضحكة المبكية. يتقدّم الممثلون صفًا واحداً يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا. يا لهؤلاء الأدميين، يصفّقون بحماس لمسرحية تعرض مدى فشلهم! هذا فشل في الحفاظ على مُلكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوة، وذلك فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحبّ، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على الحياة!

لماذا لا أصرخ فيهم جميعاً مثل أدمي اسمه صمويل بكت: أفسلوا أكثر فأكثر، ربما لم نأت كُنّا إلا لهذا، لتحقيق أنجح فشل ممكن، فشل الطموحات بالغة الصعّ، فشل الشهوات بالغة التفاهة، فشل الرؤى بالغة الغرور، فشل المعتقدات بالغة السذاجة، فشل الخصومات بالغة العبث! تعسا لقصص الأدميين، لا يغفر لنا وجودنا إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضحت الحقيقة المرة، أننا كائناتٌ هزلية قبل أن نكون كائناتٍ مأساوية.

ثلاث ساعات ثمينة من عمري ضيعتها في تأمل فشل الأدميين وما يعانونه نتيجة هذا الفشل كأنني لست خبيراً بالموضوع! كان بوسع استثمار الساعات هذه بكيفية أدكى. قراري النهائي: بما أن جُلّ مسرحيات البشر عن فشلهم وآلام هذا الفشل فلن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهّد الممثلون بأنهم لن يبنسوا ببنت شفة. نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم، والتمن الذي يدفعون كلّهُ للتمتع سويغات في مقعد وثير بالظلام والصمت. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا بقي المغنّون وراء الستار واكتفى الجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها.

يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسته مواصلاً لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقدر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصقّق لأنه لم يفهم شيئاً من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار أدمي هو الآخر لا يقلّ أدمية عن جاره، ومن ثم مغالبتة لزهو بتفوّقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة واحة

“د” وصرحائها في الاتجاهات الأربع (بلقاسم الخضار لا يُحسب له حساب شاء أم أبى هو وعشيرته). يشتدّ دويّ التصفيق فتعبرني فكرة مزعجة، أن هؤلاء الأغبياء قد يعيدون علينا كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من ركافة الموسيقيين وحدهم. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيداً من التصفيق. أخيراً يخفون عن الأنظار.

تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب النتنة والسجائر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير. هاملت! المسكين مشغول بشبح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهيمه الخمج الذي بمملكة دنمرك، فمشكلته حُبّه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "الايذز" الذي شخّص عنده مؤخراً. نفس الروائح والبذات والهموم الصغيرة لو وضعت أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات. أيّ عالم كنّا نجرّب لو كان الذي وراء الستار هو المعروف وما نمثّل على الركح هو الذي يتوارى وراء الستار ومن هم في حقيقة الأمر الممثلون الذين شاهدناهم على الركح طيلة هذه السهرة؟ الممثلون!

لنتذكر أننا نلعب طوال الرحلة جملة من الأدوار تبعاً أو في نفس الوقت هي التي نعرّف بها أنفسنا والتي يعرفنا الناس من خلالها مثل دور الشاب المثالي والأب المسؤول والأم المثالية والزعيم الملهم والمناضل الصادق والزوجة المخلصة والصديق الوفي والفنان غير المعترف بعقريته والضحية البريئة، الخ.

معنى هذا أننا كلنا ممثلون حتى وإن لم نقف يوماً على ركح أي مسرح.

لنتذكر أيضاً أن جودة التمثيل في الحياة العادية لا تختلف في شيء عن جودة التمثيل على المسرح أي القدرة على تقمص الأدوار التي نمثلها بحيث ينسى المشاهد أننا نمثّل وأننا لسنا حقاً من يرى ونحن نمثّل.

هذا ما يطرح سؤالاً غريباً: وراء هاملت كان هناك مستر جون سميث لكن من كان وراء مستر جون سميث وهو يمثل في حياته العادية كل أدوار مستر جون سميث؟

التساؤل الأخير والمرتبط أوثق الارتباط بالسؤال السابق: ما هذا المكان المغلق الذي نستعرض فيه مهازلنا ومآسينا؟ ما هذا الذي نسميه المسرح والذي يتبارى الأدميون منذ القَدَم بوضعه في أجمل ساحات مُدُنهم؟

إنه المجهر الذي يمكّننا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستنقع والجدول والشلال الذي فينا.

إنه المختبر الذي ندخل فيه الأعماق المظلمة لهذه الذات ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نتعرّض لخطر.

إنه المرأة التي تتأمل فيها بعض الأدوار التي تمثل بها على أنفسنا وعلى الآخرين نكتشف عبرها كم نحن كائنات مأسوية وكم نحن كائنات كوميدية.

إنه العالم المصغر الذي نستطيع فيه وضع اسمٍ وصورة على كاتب السيناريو وتوهم معرفة مقاصده نعوض سحرًا جهلنا بكاتب السيناريو الكبير وبما يريده منا نحن البشر التائهين في هذا العالم.

**

وكيف أن ما يزيد من معاناتهم صعوبة تعلم وإخراج أدوارهم

أغرق في المقعد الوثير وأنا المشاهد الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب قُل عن ترويض-الممثلين لأداء أدوارهم. تخرج ألفيرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثابتة نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير. - جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يبرز من وراء الستار المخرج يبادرها ببرودة:

- ما هذه المشية؟ أذاهية أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تدخلين مكانا عاديا للقاءٍ عادٍ. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهدد بغضب الله وكلك أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الجدية يا امرأة! تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجني من قممه متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدتان إلى الأمام كأنها تتضرع. يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين غُدوٍ ورواح من وراء الستار إلى دون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد.

يوصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إما تهزول بكيفية مضحكة أو تتباطأ ببلادة حس لا تطاق. يصرخ فيها لا يخفي مله من هذه البليلة

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سقضي السهرة كلها في مجرد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببت يتعرض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسل إليك لتتقادي غضبا بدأت مؤثراته تتجمع. ينفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا؟ إلقاء مثل ماء بركة أسنة. جب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحدرًا من أعالي شلال، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. أعيدي من البداية.

تبلغ الممثلة ريقها:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهانُ إنقاذه من لعنة أبدية. هذا تفسير نصّ. كأني أسمع النقاط التي تختم الجمل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح، أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.

قال أحدهم: المخرجون من نوعين: من يظنون أنفسهم آلهة ومن هم على ثقة من الأمر. ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقامتها في الدور الذي يريد وإجبارها على تأديته بالطريقة التي ترضيه.

تبلغ المرأة ريقها: مجددا:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. و...

المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثلة، وهي بين يديه كالفأر بين مخالب القط.

أي غرابة في الأمر وأنت لا تتعرض لاعتداء إلا وهو مرتبط بخطتك في تأدية مقطع من دورٍ في سيناريو ضبّطت قواعده قبل دخولك مسرح الحياة.

- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن ألفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرري عبره مشاكلك الشخصية. لكنني غير مهتمّ البتة بمشاكلك الشخصية! ألفيرا وحدها التي تهمني. ما هي مشاعر ألفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّضا لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنها ما زالت تتصور إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تكييت الضمير، من الشعور بالذنب لما اقترفت من حبٍ لغير الله. أين المشاعر الملتهية؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتى أنك تشعرين بها!

تبدأ الممثلة في الشكوى تلمح إلى صدام طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهات. لا خيار للادمي غير مواصلة تعلم الأدوار الإجبارية وفي الظروف التي يقررها المخرج وحده. يفتعل المروض القاسي نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

- يا امرأة، قلت لك كم من مرة ليس هكذا!

إنه تصرف كل من يعلموننا أدوارنا: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا. هكذا سيلاحقك على طول الطريق المربي والحبيب والمنافس والشرطي والقاضي والزبون والتلميذ والناخب يصرخون فيك "ليس هكذا." بماذا يمتلئ فضاء الأفكار؟ بفلاسفة وأنبياء ودعاة يصرخون فيك ليس هكذا التفكير، ليس هكذا التصرف، ليس هكذا الايمان! يصرخ "با" رافعا عقيرته: اللعنة! ليس هكذا! ينفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا: ليس هكذا! ينتهد مطولا، يمتط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصبنتي بالقرف والغثيان، ليس هكذا! كم من مرة صرخت أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أعرب الممثلين وفي أخطر التمثيليات. ترى هل أضفت شيئا لنور الابن والأب والحبيب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحقّ وهو يصرخ في باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا؟

كم صعبة هي هذه الأدوار التي نُجبر على تعلمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكّر، على الإلقاء، على الاستشارة بإعجاب النظارة! تمسح الممثلة دموعها وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله، يستشيط المخرج غضبا غير مفتعل:

- كفى! كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردّد لك أن ما يعنيني آلمُ ألفيرا لا آلمُك أنت، أعيدي، أعيدي! المسكين! كم يتكلف من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا في نفس الوقت. ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برتمته بكل هذا العدد الهائل من الممثلين المبتدئين؟ تتلعثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور. - جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يعود المخرج للصرخ وقد أصبح شبه مقتنع أنه لا شيء يمكن انتظاره من هذه الغيبة. ليس هكذا، ليس هكذا!

الممثلة الآن على قاب قوسين أو أدنى من نوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للادميين نموذج واحد ومتفق عليه، "كيف هو هكذا" وإتما مقاييس تنافس مقاييس ومقاييس تُسرّع لمقاييس هي الأخرى بحاجة إلى من يشرّعها.

ماذا لو تدخلت في الموضوع لنجدة المسكينة أصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج!

ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل مشاهد صامت متزايد الاستنكار لما يفعله بامرأة على وشك الانهيار العصبي.

يتوقّف عن الصراخ ليلعب الآن دور المربي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين من يمتلئ ناسيا أنه يمتلئ. لا أرى شيئا من هذا القبيل. حاولي مرة أخرى تهدأ المسكينة. آخر محاولة.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

انتهت استراتيجيتها الطيبة. يجب العودة إلى دور البوليس الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!

هّم المخرج -على ما أفهم- اعتصار أقصى الألم والرقة والحبّ والتهيب والرجاء من ذاتٍ مُشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.

- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنّه دون جوان الرجل الذي أحببت وهو مهذّب بالعقاب الإلهي. يجب أن يضجّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفرع والرجاء والتوسّل. ربّما أمكن إنقاذه لا لشيء إلا لأنّ نبرة ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتخذ طريقه وجهة أخرى لمجرد علو نبرة أو تهدج صوت.

لا يزيد الوعي بالأمر الممثلة إلا اضطرابا على اضطراب.
- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبي اليوم...
- كفى. ألم ألفيرا بلا حياء أو تكأف، ألم م-طل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!
يتوقف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه ألفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمص الممثلة.
يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.
- جنتك الليلة على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم...
حصلت المعجزة، معجزة التمثيل. تبخرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات ألفيرا. تتدقق الكلمات بلا نقاط أو فواصل.
يعلو الصوت ليبلغ دوي الماء وهو يتساقط من علو الشلال ثم يتسارع في السواقي وهو خرير. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكن الأدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمر بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!
يخرج المخرج من التقمص لاهثا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المنبهرة:
- دور الممثل أن يتشكّل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللاوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!
ليحلّ فيك من، أو ماذا؟
على فكرة، ألا تعني اللغة بالكلمة شينين جدّ مختلفين: التمثيل بمفهوم المسرح والتمثيل بمفهوم الدبلوماسية. ثمة ممثل مسرحية هاملت وممثل صاحبة الجلالة في بلد صديق.
هل نمثل بالمعنيين للكلمة؟
إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، السؤال هو لماذا لا نوجد إلا عبر جملة من الأدوار الموجودة قبل وجودنا؟
إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، السؤال هو من أو ماذا نمثل؟ خاصة ما المهمة التي أوكلت إلينا عندما تسلّمنا أوراق الاعتماد يوم ولادتنا؟

**

أدوارهم المفضلة وكيف يزيح كل دور الستار عن جزء مخفي من آلامهم وآمالهم.

- الدليل الآن أدمي اسمه زي. أمي 2 فلنتبعه وكلنا ثقة في رجل خبر كل الأدوار وما يختفي وراءها. تتصاعد من جانب قصي من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطلبة. يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناع راهب عايش القصة الحقيقية بل ويعرف كل التفاصيل. يتوجه إلى مشاهدين كأن على رؤوسهم الطير.
- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان. يتوقف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمصا شخصيته.
- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟
- ثم يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.
- يا رب البيت، أنا مسافر قادم من بداية الزمان والطريق أمامي ما زال طويلا.
- مواصلة استبدال القناعين والانتقال من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.
- وما الذي حملك على تكلف هذه المشقة؟
- قدر كل أدمي أن يظل ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلا توقّف به الطريق.
- ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزحج نفسه أو أحدا؟
- لأن الطريق هو الذي سيتحرك به، فمن الأحسن أن يبادر هو.
- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إلي؟
- الصدفة، يا صاحب هذا المكان.
- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلا أزهقت روحك.
- الممثل لابسا قناع الراهب متوجها إلى النظارة المنبهرين: هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بد أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا أعب على هذا الوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهت إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعت عن علمك وحكمتك وأنت تعرف الأسرار في العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعت أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لما حدث بالضبط لأدمي يحمل سرا لي حاجة ماسة إلى معرفته.
- إنه ملك قتل شقيقه واستولى على ملكه وزوجته، فجئ ابن أخيه وجئت خطيبته. يقال إن فظاعة جريمته أدت به هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فر من القصر واستجار بهذه الغابة ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدعي إنه تنسك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول إنه ما زال يدور في أدغالها باحثا عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تشفي غليلي! إنني أجري وراء الرجل منذ زمن عليّ أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوما. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجلاد، ربّما لجرائمه ظروف تخفيف. لا بد أن أعلم من هو وإلا رحلت وبصدري حرقه السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.
- يواصل الراهب روايته همسا.
- توقفت عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كأنني أعملت المفتاح المناسب في القفل. أجابني صاحب المكان بصوت فيه غلالة من الحزن.
- اعلم أيها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.
- هل وجدته؟
- نعم
- أين هو؟ كيف هو؟
- تمالك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.
- يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشف الأرق والحزن والخوف وتبكيه الضمير وكيف استحالت حياته جحيما وكلّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة.
- كل القصة بكل التفاصيل، بأدقها.

هنا يتبادر الشك إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو. طبعاً إنه هو. يشنّد القرع على الطبل والنفخ على الناي. فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. قصته سخيفة وروايتها بهذه الكيفية تزيدها سخافة على سخافة. كل هذا تمثيلٌ من أردأ صنف. يجب التوقف طويلاً عند صراخ هذا المزعج الذي قطع علينا لحظات ممتعة ونحن نتجول داخل الدهاليز المظلمة للذات الأخرى لا خوف ولا حرج. ماذا يقول؟ القصة سخيفة! كل هذا تمثيل بل من أردأ صنف! ما الذي يقصد بمثل هذه التهمة الخطيرة؟

يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهرج. مهلاً أنت الممثل. ما زلنا بحاجة إلى خدماتك. أثرت اهتمامنا بفكرة لبس قناع الدور على الركح ثم خلعه لتقمص دور آخر. تفضّل واليس أفضة أهمّ الأدوار التي يمثلها الأدمي والتي تتردّد من جيل لجيل بثبات مُلفت للانتباه. أما أنت المكلف بالصراخ لا "تصدقوا شيئاً"، الزم مكانك سنستدعيك كلما عاد التبلد.

يلبس الراهب قناع روبنسون كروزوي ثم يبدأ بالإلقاء وبه شيء من الارتباك يا سادة يا أفاضل أفقت لا أدري من أي حلم لأجد نفسي اتخبط وسط المحيط والعاصفة تزار كأنها وحش يريد التهامي. ولحظة خلت أنني على وشك الموت وجدت نفسي مرماً على الشاطئ دفعتني إليه الأمواج العاتية. ومن يومها وأنا تائه في هذه الجزيرة المنسية من كتب الجغرافيا أتدبر قوتي كل يوم مما تجود به الطبيعة وانتظر الخلاص من سفينة قد تمرّ يوماً وتخرجني من هذه الوحشة القاتلة...

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. لا عاصفة رمته في هذه الجزيرة... هو الذي جاءها طوعاً.

يخلع الراهب قناع روبنسون كروزوي ليلبس قناع سيجموند3. ثم يبدأ في الإلقاء الحزين. أخيراً بعد طول التشرّد في الغاب الموحش الخطر للجزيرة المنسية من الآلهة أبصرت كوخاً قلت قد أجد فيه أخيراً ملجأً يحميني من الموت الذي يركض ورائي.

تفتح له سيجليند الباب. إنها الأخت التي لا يعرف والحبيبة التي ستحمل قريباً طفله في أحشائها. يتردّد لحظة في الدخول كأنه شعث بالذنب

يصرخ في وجه المرأة: الشقاء يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي.

يخلع الممثل قناع سيجموند ليلبس قناع سيجلين

تصرخ سيجليند: لا عليك، دخله هذا الشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. أنه عالم لا مأمّن فيه من الشقاء، أكنت خارج المكان أو داخله.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل وهذه المرأة... الشقاء لم يوجد إلا بوجودهما.

من الأفضل الثبات والمواجهة وقد تورطنا بمجئنا هذا العالم واكتشافنا للثمن لم يعد يجدي نفعاً.

يخلع الراهب قناع سيجليند ليلبس قناع سيكفريد.

يصرخ فينا الممثل: الأدمي بطل لا يهرب لا القزم ميم ولا فأفرن التنين ولا حتى الربّ ووطن. هو أتى العالم لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء ألسنة النار.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. قصة أخرى ستنتهي كالمعتاد. بعد تحرير الأسيرة من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرقة تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة أجمعين.

يخلع الراهب قناع سيكفريد ليلبس قناع موسى. يصرخ الممثل ملوحاً بعصاه وتحت الإبط اللوح المحفوظ الذي خطّ عليه يافيه بنفسه أو امره ونواهيهِ للجنس البشري: اسمعوا واطيعوا وصاياي العشر.

³ سيجموند، سيجليند، سيجفريد، ميم، فافنر، ووطن أبطال أشهر المسرحيات الغنائية (الأوبرا) للموسيقار الألماني ريشارد فاغنر: رباعية خاتم نيبيلنغ (الناشر)

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: ما زلت تصدقون خرافة وجود إله مهتم بكم فردا فردا ومشغول بمصيركم أفرادا وشعوبا! صحيح أنه منشغل بكل غار نمل ومتابع دقيق لحسنات وسيئات كل نملة ... على كل حال ليحتفظ بوصاياه لنفسه لا أكثر إثارة للشهوة من زوجة الأخ ولا الذم من سرقة حماره.

يرمي الراهب على الأرض غاضبا بقناع موسى يضع قناع القديس بولس مهللا فاتحا ذراعيه على الأقصى: ابشروا، الرب انتبه لوجودكم أخيرا بل وقرر أن يبعث بابنه الوحيد ليفديكم بنفسه ويخرجكم من الورطة التي وضعتكم فيها أنفسكم. يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: قولوا له يحتفظ بابنه، لو كان هذا المنفذ قادرا على انقاذ شيء أو أحد لبدأ بإنقاذ نفسه من أشنع موت ممكن.

يخلع الراهب قناع القديس بولس ليلبس قناع الدكتور فوست.

يصرخ الممثل: ما زلت تتقون في الله بعد كل ما رأيتم من لامبالاته بالأمم وصلواتكم ونذوركهم؟ اسمعوني، لا صديق لكم إلا ابليس، تعالوا ارهنوا ارواحكم عنده كما فعلت. هو على الأقل سيضمن لكم بعض المتعة في هذا العالم التعيس في حين أن منافسه لا يضمن لكم إلا العذاب دنيا وأخرة.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتبهوا للفخّ. الشيطان ليس أكثر جدارة بالثقة من سيده.

يخلع الراهب قناع موسى ليلبس قناع ينج-لو صارخا: انا ابن السماء لي الحق في مطلق السلطة والشهرة والحرية والجنس لا لأخضع للشيطان أو إله لا نه شيطان غيري ولا إله إلا أنا.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا هذا الدعي، إنه مجرد آدمي سينتهي نهاية محزنة لا تختلف في شيء عن نهاية رعاياه الذين ألف ألا يراهم إلا بين ركوع وسجود.

يخلع الراهب قناع ينج-لي ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الممثل خطبته بلهجة هادئة وربع ابتسامة تضيء وجهه يدعي أنه لا حلّ لمشاكلنا غير تنظيف شامل يكس من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح والطمع والغضب والحقد. هكذا يستطيع الآدمي مواجهة ضربات العالم لا يرفث له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء، بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. إنه الانتصار على الطمع والطمع والمطمع، بالجملة وبالضربة القاضية.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتصار؟ ونحن نبتز جزءا من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتيها من ارتكابها لذة الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مبنيا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المتنبّي: يصرخ الممثل لا حلّ إلا الذي أمركم به لا تلقّ دهرَكَ إلا غير مُكترَبٍ مادام يصحَبُ فيه روحَكَ البَدَنُ.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا حرفا من هذا الدعي الآخر، لا أحد اشتكى من الدهر وسخط عليه وبكى منه مثل هذا الآدمي المعروف بالجعجعة الفارغة.

يخلع الراهب قناع المتنبّي ليلبس قناع المغنّي سارج كانسبورغ. بعد حرق ورقة نقدٍ غالية الثمن، يستعمل ناراها لتوليع سيجارته ها هو يحاول الصراخ بصوته المخمور: الرحلة عبثٌ محض فلنواجه عبثها بكل ما نقدر عليه من عبث.

يقفز على خشبة المسرح رجل من الدهماء صارخا: إنه ممثل رديء آخر يحاول لعب دور البطل العدمي لا همّ له إلا إثارة الاهتمام باستفزات مراهقين.

الدور الأخير

يخلع الراهب قناع المغنّي المهرج ليلبس قناع فراشة. يصرخ في النظارة المرهقين: حكموا عليّ بالمؤبد في جزيرة الشيطان، لكنني كنت أشطر منهم جميعا، تدبرت أمري للفرار من ذلك الجحيم، افعلوا مثلي لا خيار لكم إلا بين الفرار والموت تعفنا.

يقفز على خشبة المسرح رجل من الدهماء صارخا: هذا عالم -أرخبيل كل جزره محتشد يجاور محتشدا، هذا عالم لا منفذ فيه لأحد ولا هرب منه إلا بالموت.

يرمي الراهب بغضب غير متكلف على خشب الركح آخر قناع ويبعث برجله اليمنى الأفتعة المتراكمة على خشب الركح. المواجهة؟ الفرار؟ إشباع الشهوات؟ التخلّص منها؟ التآله؟ التضرع للآلهة أو الشياطين؟ عدم الاكتراث بكل شيء أو على الأقل افتعاله؟ اللعنة! كيف التعامل مع هذا العالم؟

يتوجه الراهب مباشرة لأقرب حانة يشرب الساكي الى الصبح مع سكارى الحي وهو يزمر لنفسه وصفات فاشلة نابعة من
تصورات فاسدة ولدت قصصا رديئة. اللعنة! لا بد أن هناك من يعرف القصة الحقيقية. متى سيأتي لنكف عن الجري وراء
السراب والشكوى من الآلهة والشياطين التي نخلق؟

**

النظرة المنتظرون

لا ينتهي الصراع ضدّ التبدّل أبداً، يا للغميمة عندما يتأجج الانتباه فينا كشعلة من النار والنور تولدت فجأة من جمرة على وشك الانطفاء.

نموذجاً عندما تداهمك الفكرة الغريبة المنعشة أن أهم ما في المسرح ليس الصخب الذي على الركح وإنما الصمت الذي يملأ القاعة، ليس الممثلون وإنما النظارة، ليست القصة التي تروى وإنما نفس القصة كما تعيد صياغتها عقول وقلوب النظارة.

حدث أكثر من مرة أنني خرجت من المسرح بأفكار مثيرة لكن بوجع لساعات في فقرات العنق ولم أكن نادماً أو شاكياً.

يُزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عرضاً في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون، والموضوع عنصر قارّ وإن ينسب متفاوتة في أغلب قصص البشر.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات أدوارد هُوبر، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدّد شيئاً أو أحداً.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملاً أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكلّ تأكيد.
نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

القاعة! أول ملاحظة أنها بدون نوافذ. لها فقط باب واحد مغلق طوال العرض. الجدران الأربع والسقف الشاهق سدود منيعة ضد صخب العالم الخارجي. لا خوف في مثل هذا المكان من تهطل المطر أو من زوبعة تلج أو رياح رملية عاصفة. حتى البعوض تمّ التخلص من ازعاجه بأدوية ومطهرات تحافظ على ما يسمونه النظافة. بالتأكيد لا خوف أيضاً من حيوانات كاسرة تترصد. حتى الأدميين الجالسين ورائي وأمامي وبجانبي في وضع لا يثير في أدنى قلق. لا أظن أن واحداً منهم يحمل بازوكا أو مدفعا رشاشاً ولا خوف أن تنشعب بينهم خناقة يصفون فيها حساباتهم فيلطحون ثيابي بدمائهم وربما بدمي. أضف لكل هذا أننا حيننا ولو لمدة قصيرة كل الأوجاع والمخاوف التي تتلاطم داخل أذهاننا بحكم تسليط كل اهتمامنا على ما يجري فوق الركح. نحن إذن في مكان تجمعت فيه كل شروط التمتع بالأمان والطمأنينة وهو أهم ما نطلب من عالم نعيش فيه على أعصابنا من لحظة دخوله إلى لحظة الخروج منه.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.

- لماذا؟

- لأننا سنضطرّ للرجوع غدا.

- لنفعل ماذا؟

-انتظار Godot.

انتظار! Godot من هذا الذي لم يأت ولماذا هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ وصفة السعادة الأبدية؟ الترياق الوافي من الموت؟ الظرف المختوم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بُعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟ الانتظار! إنه عنصر قارّ وإن ينسب متفاوتة في أغلب قصص البشر: انتظار الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو قدوم الحبيب، أو قدوم المخلّص، أو المدينة الفاضلة، أو الحرّية، أو الموت، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو البخت. كلهم ينتظرون شيئاً أو أحداً... من انتظار الحافلة إلى انتظار الموت...كم من بني سفر كل تجربتهم في هذا العالم العيش طيلة حياتهم في غرفة انتظار محطة يترقبون وصول الحافلة وانطلاق الرحلة المنشودة!

ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنيّ بالأمر.

على الركح يواصل راعي الماعز الصغير ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب منِّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

لا خيار غير مواصلة الانتظار والتشبث بالأمل في قدوم الموعد يوماً ما. عبثاً، فلا حياة لمن تنادي. نفس المعروفة كل ليلة. يبلغ التوتّر أقصاه. يصرخ الممثل الأول، لم يعد يتحمّل انتظارا عبثياً يدفعه شيئاً فشيئاً نحو الجنون:

- قلت لك إنّنا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوساً.

يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب:

- وأين كنّا البارحة حسب رأيك؟

- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

- (بلهجة التحدي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

- ماذا فعلنا؟ لا نضيق وقتنا في خُطْب فارغة. لنفعل شيئاً ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنّه من غير الصحيح أنّهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمة أحسن منّا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجّه إلى البشرية جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللحظة، البشرية هي نحن. لنغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُسرنا فيه.

هذا الجنس الذي حُسرنا فيه! هل يقدر الرجلُ خطورة هذه المقولة؟ الجنس الذي حُسرنا فيه! إذن الشكل الأدمي غلاف!
من حُسرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكنا "الحقيقي" إذن؟

بماذا أشغل بالي، لا أكثر تشبثاً للانتباه من مشاهدة فيلم تعرف نهايته... وكل هؤلاء النظارة يعرفون مثلي نهاية المسرحية وأن المهدي المنتظر لن يطل علينا بطلعته البهية ومهمته الأولى أن يبقى إلى الأبد مخفياً حتى لا يخفت لحظة شوق انتظاره. النظارة! كم غريب ألا طفل بينهم. كلهم كهول بشواربهم ونهودهنّ! لا يخدمك الأمر. أنت أمام أطفال في العشرين وأطفال في الخمسين وحتى أمام أطفال عاشوا "ثمانين حولاً لا أباً لك ولم يسأموا". كلهم يواصلون في هذه القاعة الاستماع للقصص التي كانت تروى لهم أم أو جدة وحتى أب مرهق. هم لم يتوقفوا منذ تلك الليالي السعيدة على تجديد متعة الاستماع لحكاية تمتص سحرها أعمق مخاوفهم وتتلاعب في فضاء خيالهم بأعمق رغباتهم. ترى ما المخاوف المطمورة عميقاً التي تعالجها هذه المسرحية وما الرغبات المكبوتة التي تتلاعب بها؟

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منِّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

يصرخ الممثل الأول

- فلنذهب في حال سبيلنا.

- نعم فلنذهب.

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا.

نجونا! كم من معابد-مسارح تنوح بأجمل الأناشيد على مخلص حضر فعلاً بعد طول الترقب لكنه صُلب على خشبة ففرط الإنسان في فرصة ثمينة أخرى... كم من معابد مسارح تتغنى بمخلص لم يأت لحد الآن لكنه سيأتي دون أدنى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الانسان...كم من معابد-مسارح أخرى قرر السياريو فيها أن المخلص جاء وقام بواجبه ورحل ولا أحد انتبه لمجيئه ورحيله!

يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا نفعل هنا؟ مجدداً السؤال الذي يلاحقنا ويلحقنا مهما اقتعلنا تجاهله.

- طلب منِّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرة المقبلة سأتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتى يتلقّى واحدة منها، أو حتى بيضة إذا كررها ثانية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مردداً: طلب منِّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

يقول الأدمي لنفسه أو لتوعمه في الشقاء:

- ماذا لو تخلينا عنه؟

- قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفاً الشجرة وحدها الحية.

- نشق أنفسنا. لديك حبل؟

- حزام البنطلون.

- إنه قصير.

- تجذبني من القدمين.

- وأنا من يجذبني؟

ما الذي يبور بخلد المشاهدين؟ كيف يعيدون صياغة القصة في خيالهم؟ قد يكون للبعض قراءات تقترب من صياغتي أنا لهذه المسرحية ولكل ما شاهدت وعشت من مسرحيات والمنهجية الثابتة قلب كل كوميديا إلى تراجيديا وكل تراجيديا إلى كوميديا.

في فضاء خيالي ينظر الممثل الأول إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحب من لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفضل حالاً فسأخذ ضدك الإجراءات الضرورية.

تتطلي الحيلة على Godot يفهم أنه حُشر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين كله ضحك وممازحة:

- هلو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!

يتسمر الممثل الأول. يفتح الثاني فمه ثم يغلقه. ينفجران بالضحك.

- Godot زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المنقوس.

- يا رجل، إنها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدرها الضامر وشعرها المنفوش. ويحك خرفت إلى هذا الحد، فلم تعد تعرف حتى زوجتك.

تقول كلام لا يليق بمقام المؤلف والنظارة وخطورة الموضوع. طيب لنحاول الارتقاء الى مستوى كل هذا.

ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب مني السيد Godot، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبها لزحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت مني الشمس أن أبلغكما أنها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكل تأكيد، (ضحكة شامتة)

فقط للتذكير بأن أهم ما في الوجود يأتي دوما في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الأدمي يتمتع مجانا وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أفتعت معافى بالنعمة التي يتمتع بها وأنا أردد عليه قول الحكيم: "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى". لا أحد منهم رأى يوما التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلهم مهتماه منصبان على ما لا يملك من توافه الأمور.

إمكانية أخرى: راعي الماعز الصغير هو Godot. كان يدخل كل مرة بالخبر يحذوه أمل عارم أن يتعرف عليه أخيرا النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجذلى.

ماذا؟ حسك الطبقي المرفه يرفض بكل قوة أن ينتمي المنتظر-المخلص-المنقذ من ورطة الوجود إلى الطبقات البروليتارية، خاصة لرعاة الماعز. اذن دبر رأسك وهات الحل إن كنت عليه من القادرين.

آخر عرض: Godot هو طبعاً عزرائيل. تصرخ في هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق.

لم يبق إلا أن نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان- ما يكفي من الكفاءات في هذا الميدان الحساس. نعم، من هو Godot يا صامويل يا ابن بكت وإلا لا نتم إلا نفسك.

يأتي الرد الشهير: لو كنت أعلم لما بخلت عليكم بالرد.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلف خلق كائنين ورطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدعي أنه لا يعرف؟ تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا عبثا وصول Godot لا يخفون خيبة أملهم وقد دخلوا هذه القصة على أمل أن تنكشف لهم العقدة في آخر العرض. لم يبق علي إلا تحمّل مسؤولياتي تجاه المساكين بوضع قناع Godot على وجهي أصل في الموعد لأقول لهم ما يتشوقون لسماعه. لكن أي خبر طيب يجب أن احمله لهم لا أغشهم هم الذين يتعلقون باهداب أي دجال يبيعهم طمأنينة وهمية وآمال كاذبة؟*

مجمّل القول في طبائعهم

من العقبات التي تعترضنا في دراسة الأدميين العدد والتعددية. هذا ما يجبر كل باحث موضوعي على تنظيمهم في فئات كبرى يتشارك داخلها أكبر عدد منهم في نفس الخصائص ويسهل فيما بعد التّمعن فيها. نموذجاً تصنيفهم إلى ذكور وإناث، أطفال، شباب وكهول، سود وبيض وسمر.

مثل هذه التصنيف على ضروري للبيديات والمخبرات، لكنه عديم الجدوى بالنسبة لباحث في شؤون الرحلة. من هذا المنظار يمكن اعتبار تصنيف المختصين في الصحة العمومية. تصور أن العالم الذي نعبر قطار فيه أربع درجات. الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها الإناث الغنيات، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة، من فرط تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وخدمة الآخرين والفسحة والرفاهة والمعرفة والاعتبار.

وراءهن في حسن الطالع رحلة الذكور الأغنياء ويعيشون أقل لبعض العادات السيئة مثل شره التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكثف للقلب.

القاسم المشترك بين رحالة الدرجة الأولى والثانية أنهم لا يأكلون إلا ثمار البحر ولا يشربون إلا الشمبانيا ولا يلبسون إلا الحرير، ولا يركبون إلا الطائرات الخاصة ويموتون بأمراض التخمة ليُدفنوا في مقابر رخامية. أغلبهم لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون، لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام وهم من يعطون الأوامر ولا يتلقونها.

إنهم من يَخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويَدعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العلية الرأى بالتنصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخبرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثالث درجات قافلة الرحلة التي نساfer فيها الإناث الفقيرات. هنا تتعدّد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرض نتيجة تقتير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا.

أين رحلتهم حتى هنّ من رحلة الأدميين الذكور الفقراء رُكّاب الدرجة الرابعة. هم لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أهدّثكم عما يعانون طوالها. القاسم المشترك بين ذكور وإناث هذا الصنف أنهم الأدميون الذين يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير. هم لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرّد الجماعي لأسباب اقتصادية. يأكلون من فئات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حقّ غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزايّد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يُنصوّر من أصناف الوجع. إنهم من يَخترعون الأديان والأخلاق والنقابات والثورات الفاشلة. هم عادة من تصفهم اللّغة (لغة النساء والرجال الأثرياء) بأنهم جهلة، قذرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعاغ، عوام، إرهابيون ومخربون.

ثمة إمكانية تصنيفهم حسب أخصائي بعض العلوم الطبيعية.

يقول راوٍ اسمه برنارد فريبر إنك إذا وضعت ستة فئران في دهليز وضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف حواجز عدّة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغذاء، فإن الوضعية تفرز بسرعة تنظيما يتشكّل من سيّدين يستحوذان على جلّ الغنيمة، وعبيدين في خدمتهما، ومتمرد، ومتسوّل يعيش على الصدقة وفئات الآخرين.

المثير في التجربة أنك إذا جمعت ستة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكلية: سيّدان وعبدان ومتمرد ومتسوّل. إن أخذت ستة مستضعفين أو ستة متسوّلين من عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه دوماً، كأن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.

لقائل -اشتّم مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فئراناً. ردّي أن المدهش ما تُظهره الفئران من طبائع آدمية. المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعي لتقسيم الأدميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على العكس يدعّمه. من يستطيع إنكار توزّع الأدميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومتمردين ومتسوّلين؟

من ينكر سرعة عودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد أصبح فيه العبيد سادة يسومون رفاقهم القدامى نفس الخسف، علما أن هؤلاء لا ينتظرون غير أن تدور الدوائر للانتقام مجدداً. كل ما في الأمر أنك لا تستطيع التنبؤ بموعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة على الإيذاء الموصّل إلى التمرد.

أيّ عجب يمثل هذه الاستعدادات الغريزية أن يتشكّل المجتمع دوماً من ملوك وعبيد وثوار، أو أن تتزاحم في الفضاء الرمزي دياناثُ سادةٍ ودياناتُ عبيد ودياناتُ متسولين وديانات متمردين، وبنفس الكيفية أدابٌ وفنونٌ سادةٍ وعبيدٍ ومتسولين ومتمردين؟ السؤال الآن لماذا سيّدان لا سيّدٌ واحداً؟

ربما اعتمدت السلطات العليا هذا الخيار لتحكّم على السيّد -حتى وهو في أعلى المناصب- أن يُواجه بالمحنة والامتحان، ورمزُهُما الغريمُ. فائدة في العملية والمهدّدُ مضطّرٌّ إلى الانتباه المستمرّ والمهدّدُ مجبرٌ على الطموح الخلاق. بهذا يضمن التنظيمُ تواصل الحركة وولادة القصص الطريفة للانقلابات والحروب.

لماذا اختارت أن يكون هناك عبدان لا واحداً. ربما لأنه يجب إعطاء بعض الحظوظ للعبيد لقلب موازين القوى، فعبداً واحد لا يقدر على سيّدين ولا بد له من حليف.

ماذا عن المتمرّد؟ هو بحاجة ليكون وحيداً للتحرك بسهولة وحتى لا يُخترق التنظيم الثوري. أُسارع بالقول هنا إن تصنيفي لا يقتصّر صفة المتمرّد على الإرهابيين، بل يشمل اللصوص والمحتالين والكذابين والمزورين والكفرة ومخترعي الفن المعاصر والموسيقى الإلكترونية، أي كل الخارجين على قوانين سنّها السادة تجبراً واستكان لها العبيد جُبناً وضعفاً. والمتسول! ربّما اكتفى مُتعهّدُ التجربة بواحد حتى لا يُثقل كاهل العبيدين وهما مُجبران على تغذية سيّدين لا يشبعان، إضافةً لمتمرّد غير منتج بطبيعته.

والآن لننقّص وضعية الكل ليتبيّن الغبن اللاحق للجميع، ربما باستثناء واحد.

السيد -كما رأينا- مهّدّد طول الوقت بالغريم وبالعبد وبالمتمرّد. كل هذا يُفسد مزاجه ويجعله يعيش على أعصابه إلى نهاية الرحلة. لا تقلّ وضعية العبد بؤساً وهو يعيش في خوف يُسمّم عيشه؛ وفي تسميم حياة السيّد وهو خائف من تبعات خوف عبده. أما المتمرّد فكلنا نعرف مصيره البائس وكيف سيُقطع رأسه بالسيف أو بالمقصلة أو ينتهي في جوانتانامو ويأخذ عقوبة مدى الحياة، هذا عندما لا تصل المأساة ذروتها وهو من يعذب ويقطع الرؤوس، انتقاماً مما لقيه وتمهيداً لعودة الرقاص إلى نقطة الانطلاق.

لم يبق إلا المتسول. هو الوحيد الذي أنقذَ رحلته. تذكّر كلّ الوقت الذي يُضيعه السيّدان في معارك افتكك السلطة والحفاظ عليها والوقت الذي يُضيعه العبدان في العمل والشكوى، والوقت الذي يضيعه المتمرّد في إعداد الثورات الفاشلة. يُفلت المتسول من كل هذا وقد فهم من أين توكّل كنف العالم. فمواقفه مبنية على حياض هادئ رصين يُخفي لامبالاةً بالوضع، بالمنتفعين منه وبالتأثرين عليه. لذلك نادراً ما يزعجه سيّدٌ أو عبداً أو متمرّد، فلا أحد يطلب منه شيئاً أو يلتفت إليه أصلاً. حتى قطعة النقد التي تمكّنه من سدّ الرمق، تُرمى له بتفادي النظر في عينيه. هكذا يمكنه التفرّغ للشؤون الهامة، لا عمل برهقه، لا سلطة يؤرقه همّها ولا مؤامرة يدبّرها قد تكلفه حياته. لهذا هو قُدوتي لا السيّد الذي أرثي له، والعبد الذي يوتر أعصابي، والمتمرّد الذي يُضحكني عبثاً ما يقول وما يفعل. قد أذيع سرّاً هائلاً إن قلتُ إنني أخطط لأكون متسولاً. قد لا يحملني أحدٌ على محمل الجدّ أو يحملوني إلى المستشفى إن وجدوني على قارعة الطريق في بلدي أتسول قطعة خبز والابتسامه على محياي. لا حلّ غير الفرار بعيداً ربما إلى بلاد سينا وهي منذ القدم وطناً أرقى أنواع المتسولين.

حتى المتسول معرّضٌ لكل أصناف المنعّصات، والحروب المستعرة على طول الطريق تمنعه من التركيز على جمال الجبال والسحب، ناهيك عن إمكانية سقوطه في فخّ قاتلٍ نصبه له متسول خان السلك، ولا أتحدث عن الجوع الذي يمزق أمعاءه وعن القمل الذي يرتشف دمه بنهم. ممكن، لكنه على الأقلّ الأدمي الوحيد الذي لا يؤدي شيئاً أو أحداً وهذا في حدّ ذاته أكبرُ نعمة داخل قطع السباع التي شدّت بالسلاسل لبعضها، تتعرّض فيها طول الوقت للعضّ وفي أحسن الظروف لزيير التهديد يلاحقك في النوم وفي اليقظة.

لنستعرض كيف يمكن للسياسة تصنيفهم وهي ليست بعيدة كل البعد عن المستوى البيولوجي الذي تحدث عنه صاحب النظرية المذكورة أعلاه.

اجمالياً يمكن القول إن المجتمعات الأدمية هي ككل الكيانات الحية في صيرورة دائمة نتيجة الصراع-التعاقد في العمق بين قوى الدمار وقوى الاعمار الفاعلة على كل المستويات في كل زمان ومكان... والصراع-التعاقد على السطح بين أفراد هذه المجتمعات حول تقاسم الثروة والسلطة والاعتبار.

هكذا ينقسم كل مجتمع آدمي إلى ثلاثة أصناف: صنف المفترس الذي يفرض بالقوة والحيلة الاستئثار بجل الثروة والسلطة والاعتبار... وصنف الفريسة الذي تفرض عليه هذه القسمة الظالمة فيستكين لوضعه البائس... أخيراً صنف الفارس الراض للوضع والمنتفض لتغييره باسم قيم العدالة والمساواة.

هل الأمر نتيجة نقص في المعرفة والذكاء؟ ثمة التصنيف الذي يقترحه أهل المنطق.

عن آدمي يُدعى الخليل بن أحمد: "الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكروه، ورجل لا يدري وهو لا يدري أنه لا يدري فذاك أحق فاجتنبوه".

المشكلة في هذا التصنيف التفاضل. ماذا لو كان هو نفسه قمة الخطأ.

كم كان الجاحظ مُحققاً في قوله: "وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلب منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء". نعم كم كان الرجل حصيفاً عريفاً بطبائع البشر: "وإنّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذکر مثالبه ويحابون الصدق بتذكر منافعه وتناسي مضارّه، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوا ههنا بهذه العيون" يبقى بالنسبة الي أن أفضل تصنيف هو الذي وضعه عالم اجتماع اسمه سيبولاً وذلك للأسباب البديهية التي لا يمكن لأكبر أنصار الجنس الإنساني أو اشد الشعوبيين شراسة انكار حقيقتها.

يقول الرجل الحكيم أنه لا يمكن الحكم على الأدميين إلا بأفعالهم ونتائجها. من هذا المنظور لا يوجد على سطح الأرض إلا أربعة " أعراق آدمية: اللذين تُنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء، اللذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، اللذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، اللذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

وراء تصنيف سيبولاً خبر سيء وخير أسوأ. بأيّهما أبدأ؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأमीين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام؛ أن الأذكيا لا يقدرون خطورة هؤلاء الحمقى خاصة عندما يبنون في أذهانهم نماذج المدينة الفاضلة. لكن حتى لو قدروها ما استطاعوا فعل أي شيء والألهة نفسها عاجزة أمام قدرتهم العجيبة على إلحاق الأذى بأنفسهم وبالآخرين.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغير في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبة قارة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

*

يمكننا الآن المرور إلى مرحلة التدقيق في طبائع الأدميين أيا كان مكانهم داخل التصنيفات الكبرى التي حشرتهم داخلها طاوله القمار. الاكتشاف المزعج أننا أمام كائنات تجمع داخلها الاستعداد لتصرف ونقيضه. اعتبر أهم متطلبات العالم من كل مرتحل: القدرة على المواجهة والثبات في وجه كل الأخطار. ما نعرفه أن هناك نوعان من بني سفر.

ثمّة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، ثم يدخله بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثم يخرج من جديد يدفعه الفضول ويشده الخوف. ها هو-ها أنت-ها أنا، على الطريق كالغزالة وسط الأعشاب العالية تنربص داخلها كل أسود العالم.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألّمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجب... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا.

يخرج الأدمي من النوع الثاني رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرج من جديد وقد استثارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشده الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وحتى تسرع في مغادرة الوكر. لا بدّ أن أهدئ من نفاذ صبري ومن حماسي، أن أنظّم تنفّسي وقد تعالى داخلي منسوب شهوة القتل وأنا كالفهد بصدد القفز للإمساك بعنق الغزال. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم، تستقرّ أنيابه ولا درع يحميها سوى الجراة والتحدي. ها أنت-ها أنا-ها هو الأدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأنتى وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استتبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاطم الأخطار تتعاطم الغنائم، أنه لا بدّ "مع الشهد من إبر النحل"... وأحيانا تصبح الإبر أثن من الشهد. لا شك أنّ مخطّط الرحلات سيكتب على هامش ملف كلّ مستكشف من هذه الطينة: يعين مهمّة أخرى في عالم أخطر.

ثمّة الأدمي المبحر في وجه عاصفة الحياة وهو كالربان الجسور المتزايد الخبرة في رصد الرياح والتيارات، الرافع مرة شرّاعه والمرة الأخرى خافضه، المتسلق جبال الموج إلى حيث الغنائم.

على الطرف الآخر الأدمي المتشبه بخشبة تطفو على سطح الموج المرعب تطوح به الرياح في كل اتجاه وهو بلا حول ولا قوة، ينتظر كل لحظة خلاص الموت غرقاً.

قد يشتم من كلامي أنني أفضل صنفاً على صنف. أبدأ، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النماذج النقية. تأمل هذه الحالة التي تعجب بها أشد الإعجاب. الشجاعة فضيلة مكتملة الأوصاف ظاهرياً، لكن لو دقت فيها لاكتشفت أنها- أغلب الوقت- خليط من العيوب كالسناجة والتهور والمجازفة والجهل والخفة والغرور والتمثيل والبحث عن التصفيق وتصديق القصص الملفقة عن الأبطال المزعومين، ومحاكاتهم لتنفيذ مخططات الجبناء الساهرين على حشو الأجيال الجديدة من القرابين بهذه الفضيلة المسمومة لتتحقق مراميمهم وهم في راحة وطمأنينة.

والآن تمعن في مشاعر كل آدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الأدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غياب الخوف أو اقتلاعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فنّ إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فنّ التغلب عليه.

في نفس السياق. لا أصعب من وضع الخيرين على جهة وفي الطرف المقابل الشريرين. تقول لا بدّ أن هناك حالات صافية يتبلور فيها الشرّ كأفبح ما يكون الشرّ والخير كأروع ما يكون للخير. نعم إنها حالات كاركاتورية نادرة لكن لا بأس من التوقف عندها عليها تزيدها علماً بطباع البشر وهي في حالاتها القصوى. لنضع من جهة، ليفيا وهي تدمر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمم الأقارب والأبعد، لتعبّد طريق العرش لابنها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سويّ.

نموذج آخر خلفه كاليجولا الذي بنى إسطبلا من المرمر لجصانه، وسماه عضواً في مجلس الشيوخ، وقتل كل من كان يطعم في ممتلكاتهم. أيضاً ميسالين التي راهنت كبرى مومسات روما أنها تستطيع أن تهزمهن في عدد الرجال الذين تستطيع مضاجعتهم في ليلة واحدة، وكان النصر حليفها.

كلهم نماذج للأدمي الذي ترك الحبل على الغارب لأغرب غرائز الجنس والعنف والتسلط المكمونة داخل ما يُسمى الطبيعة البشرية.

وفي المواجهة، الجزء الآخر من طيف نفس الطبيعة التي أعطتنا غاندي وبودا واشوكا والأم تيريزا ورابعة العدوية. يبقى أننا مطالبون بالتذكير أن وراء هذه الازدواجية من تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشهم بأن يكونوا مؤدبين نظيفين متعلمين إلخ. وفي المقابل من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصاً، قذرين، كذابين، مخادعين، إلخ.

ملاحظة بخصوص إشكالية الأخلاق التي طرحها ألبا هذه الثنائية: أياً كان الأمر-سمّيناه الإله أو الضمير أو القانون-الذي نعهد إليه بأن يكون مشرّعها وضامنّها والمعاقب على انتهاكها والمكافئ لاحترامها، فإننا نرتطم دوماً بقلّة فعاليته، والمأمور يتعامل مع أوامره نادراً بمارستها عن صدق، وأغلب الوقت باقتعال الطاعة أو بضررها عرض الحائط.

هل ثمة عيب هيكل في طبيعة المأمور ومن ثم ما جدوى الأوامر وحتى ما جدوى الأمر؟ يتكرر السؤال: هل هناك خلل في تركيبية المجتمع يمكننا بمعالجته أن نرفع العامل المعطل لبروز أخلاقية الأدمي "الطبيعية"؟ الحقيقة أن طبيعة المجتمع لا تعكس إلا طبيعة الأدمي، وأن من طبيعة هذا الأخير أن يكون أخلاقياً-لاأخلاقياً، لأن الأخلاق والأخلاق -بالنسبة إليه- مجرد استراتيجيات لقضاء الحوائج وأولها البقاء، يستعملها تبعاً أو بنسب مختلفة حسب الظروف والحاجة، دون أن يضايقه في شيء تناقضهما.

لنُضف إلى كل هذا أن الأخلاق مدوّنة المواقف والتصرفات التي تحاول السباع المشدودة إلى بعضها فرضها بالحسنى على نفسها وعلى الجميع لتفادي التهلكة، لكن فشلها يجعلها تلجأ إلى القانون، وهو مدوّنة المواقف والتصرفات المفروضة بالقوة. القاعدة الأولى أنه كلما ضعفت الأخلاق كثرت الحاجة إلى القانون، وكلما قويت الأخلاق تناقصت ضرورته، مما يعني أن قوة القانون في أي مجتمع هي الدليل على ضعف مستواه من الأخلاق.

القاعدة الثانية أنه لا قدرة للأخلاق أو القانون -عُلقاً في شكل دين أو أي أيديولوجيا أخرى- على استئصال الشرّ وإنما أقصى المؤمل كبح جماحه وتخفيف أضراره وبكل صعوبة، في إطار صراع أزلي كلُّ نصرٍ فيه مؤقتٌ.

إجمالاً يمكن القول إن هناك نوعان من المواقف يقدر عليهما كل مرتحل. من جهة الأدمي الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصّر على تخليصه من القسوة والفظاعة والقيح والظلم. مثل هذا الصنف في حربٍ لا تضع أوزارها أبداً لتغيير ما ليس قابلاً للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضغينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلَّ خطئه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عمّن هو ساخط عليه ولا يحب من يكرهه،

فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقة متأزمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسم حياة الضيف وحياة مُضيف يزفر غيظا من ثقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه.

على النقيض هناك الأدمي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقيضه الساذج يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا تنتهمه ببلادة الحسّ إنه واع بأن العالم لم يُخلق على مفاسه، وأنه اكتشف -بطول ممارسته له- أن الحكمة هي في إشاحة البصر عن الغائظ والتركيز على الورد. فرق هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابرُ سبيل أنيق لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يقبل بامتنان ما يوجد به عليه العالم الكريم ولا يُزعج العالمَ البخيلَ بالشكوى والشتيم. تقول إنني أفسّم ما لا يجوز تقسيمه، إنك تتحول باستمرار من الصنف الأول إلى الثاني ومن الثاني للأول، كالطقس لا تدري كيف ولماذا تتلبد سحب الروح ثم تنقشع. فعلا وهذا ما يجعلنا نستنتج أن هناك شيء ما داخل الأدمي -أو قل داخل العلاقة التي تربطه ببقية الأدميين- يتحدّى المعرفة التي نتوهم امتلاكها عنه.

اعتبر الآن مؤشري العقلانية والتفكير السحري؟

مبدنيا الأدمي العقلاني هو الذي يقبل أنه تجاه العالم جاهلٌ عاجزٌ فيسعى إلى تجسير نفس الهوة بالعلم والعمل. أما اللاعقلاني فهو الذي يرفض أنه جاهل وعاجز في مواجهة العالم، فيجسّر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بالصلاة والسحر. الأدمي

هنا يجب أن نتذكّر أن نيوتن كان يمارس السحر، أن عليك انتظار لحظة يُصاب أكبرُ عقلاني بمرض عضال لترى حدودَ عقلانيته وكيف سيركض نحو كل الدجالين بحثا عن علاج وهمي، علما وأنه يصبح عندما يتعلق الأمر بسجلاته التجارية من أساطنة المنطق والحساب.

بداهة العقلانية واللاعقلانية من خصائص كل آدمي ومورّعة داخل كل واحد بالعدل والقسطاس.

يجب التوقف الآن عند عامل المزاج.

ظاهريا ثمة المتفائلون ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجاحظ، وكلهم نماذج للأدمي الضاحك المضحك، المرح، الشره، النهم، السكير، العاشق، المبتدّر، الساخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحبّ لها حبّ الأكل للدجاج المحمّر.

نحسب منهم أيضا كل القائلين بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بعثُ ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي.

في الصفّ المقابل المتشائمون ونستطيع أن نعدّ من بينهم قراء كتب النحو ولايسي الأسود وأن نحسب عليهم كل الذين سكتوا بعد أن بحث أصواتهم بالتقدم "الحتمي" وبالتحاق المتخلفين بالمتقدمين وبقرّب عصور الحب والعدل والرخاء... كل الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصاب ملكوت الله... كل الذين اكتشفوا أن لا الثورة قربتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم... كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمر، بالأفيون، بمهدنات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوما... كل الذين سلّموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، أو طبيعتنا المشؤومة، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا... كل الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبق إلا تجربة الموت... كل الذين جعلوا شعارهم المثل الصربي: ماضيّننا مظلم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظّ أن ليس لنا مستقبل.

المشكلة أن هناك شيوخ تظنهم في حداد مزمن وهم يحبّون في السرّ النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بإتقان، وهناك أيضا كثير من المرحين ظاهريا الذين يمارسون الكآبة السرية. لا بد هنا من اقحام الصنف المزاجي الآخر: المتشائمون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بجود العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه في أي شيء.

الخلاصة أن هناك داخل الأدميين استعدادات للموقف ونقيضه ولا أحد يعرف كيف ولماذا تميل الكفة لموقف بدل عكسه لتتقلب الأمور رأسا على عقب أي لحظة.

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث. فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدوّ جريح. هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي... من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف. العكس هو الذي يحصل أغلب الوقت. من سيجهز على العدوّ مستوليا على ما يستطيع سلبه ومن سيمدّ له بقرية الماء ليبلل شفتيه؟ يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيفضّل هذا الخيار على ذاك؟

المهم أنك لو أخذت كل وقت المشاهدة لرأيت التصرفين المتناقضين يتكرران باستمرار والكائن هو نفس الكائن والتجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان.
خذ آدميا وضّعه في أفسى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلّطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظافره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.
لا أحد يعرف من سيصبح قاتلا بالجملة ومن سيصبح قديسا يستشهد لإنقاذ جلاديه؟
اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ آدميا آخر ووفّر له منذ نعومة أظافره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. من سيصبح ملاك رحمة ومن سيعش ويموت بليدا يرى فيما وهبته الحياة وحرمت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟

توقّع دوما المفاجأة وأنت تُراهن على مواقف وتصرفات هذا وذاك، تصيب مرة وتخطئ مرّات.
كل هذا يجعل من الأدمي كائنا لا يُحِبّ طويلا، خاصة إذا عرفته عن قرب وكائنا لا يُكره طويلا، خاصة إذا عرفته عن كثب. تظلمه إن ركّزت على عيوبه وتظلم ضحاياه إن ركّزت على فضائله. إن وثقت فيه أو أملت فيه، كنت على خطأ، وإن لم تثق فيه أو يئست منهم جانبت الصواب. في آخر المطاف لا خيار لك غير تحمّل ما يُبعّضك فيه والتمتّع بما يحبّك فيه، وفي كل الأحوال قبول تقبله قبولك تقبّل الطقس.
كيف يمكن التعامل مع الأدمي وهو بمثل هذه الطبائع المتناقضة المتقلبة؟ خاصة من أين لك ادعاء فهم كائن يتجاوز داخله الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار!

*

نزعة مستحكمة عند الأدميين علينا تفحصها جيدا: الحكم القاسي على بعضهم البعض.
نموذجاً تقسيم البشر إلى صنفين حسب آدمي اسمه سان سيمون: من يؤدّي اختفاؤهم إلى كارثة على المجتمع ومن يؤدي اختفاؤهم إلى تواصله كأنّ شيئا لم يكن.
يمكننا أن نضع في الصنف الأول الذين اخترعوا البنسلين والانسولين ومسكنات الأوجاع، إجمالا العلماء والفلاحين وكل المهنيين من أرباب الحرف الشريفة دون نسيان الشعراء والفنانين والمهزّجين الذين يحبّهم الأطفال.
في الصنف الثاني القائمة طويلة يتصدرها الملوك والملاكين وكلّ الساهرين على سرقاتهم من عسكر وبوليس وجواسيس وجلّادين وقضاة ورجال دين.

تصوّر حالة العالم، لو أخطأ القدر، زلت يده فمحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية. لاحظ أن مثل هذا العالم قد لا يخلو من إثارة لم يعد فيه إلا بشر الصنف الثاني، والعسكر بصطادون البوليس بعد انقراض الجلادين، والبوليس وراء جواسيسه، والجواسيس يتبعون أثر القضاة المختفين داخل أنقاض الخراب، ورجال الدين يصرخون بالفقوى وراء الفتوى أنّ أكل الفقهاء حرامّ ديناً وشرعاً، فلا ينفع ذلك كثيراً والكل يعلم أنه لا أطيب من فقيهه، خاصة بالبصل المشوي، شريطة أن يكتشف الصيادون أين اختفى الفقهاء وأين أخفي البصل.

دوما في نفس الإطار. يمكنك -إن كنت في حالة متقدمة من سوء المزاج والنية كما هو حالي وأنا أكتب هذه السطور- أن تصنفهم إلى قسمين: الأدميون الذين تركوا بعد موتهم امبراطوريات سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريات فكرية وامبراطوريات فنية... واللذين لم يتركوا إلا بعض الأطنان من البراز -صلحت على الأقل سمادا- وآلاف اللترات من البول وستين إلى سبعين كيلوغرام من اللحم والشحم صلحوا غذاء للذباب الأزرق واجناس متعددة من الدود والجراثيم.
للتلخيص، نوعان من الأدميين: الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا، الذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء... الذين ربح العالم فيهم رهانه، الذين خسر فيهم كل ما في جعبته من عبقرية ومن جهد.
الحذر كل الحذر عندما تأتيك مثل هذه الأفكار لأنك قد تنخرط في موقف يفاقم جهلك والحال أنه من الأجدى لك وللآخرين تفحص ظاهرة ربما تفودنا بعيدا في محاولتنا الأدميين.

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا، ذكورا وإناثا، فقراء وأغنياء، حكاما ومحكومين، فلاسفة وأميين الخ.
لن تظفر إلا بشكل أو آخر من التفاضل وله في بعض الآداب ركن قار اسمه شعر الفخر ومقابلة شعر الهجاء.
هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتحلين يتراشقون بأفضلية عرقهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلتهم وذواتهم على بقية المرتحلين. فواحد يصرخ أنه من "شعب الله المختار" والآخر أنه من "خير أمة أخرجت للناس" وثالث أنه من "قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما"... الخ.
جلّ معاركهم في كل فضاءات العالم تحوم حول أحق الآلهة بالربوبية ومن أصدق الأنبياء وأحسن نظام للحكم وعن الايدولوجيا التي لا يأتيها الباطل من خلفها وأمامها خلافا لكل الأخرى.

وعلى مستوى الحياة العادية الصراع دوما حول من الأحق بالريادة في هذا الميدان أو ذاك وأي امرأة هي الأجل وأي طفل هو الأذكى وكيف أن زيد يتميز عن عمر بمكارم الأخلاق التي يخلو عمر منها تماما ... الخ.
هذا يضع قيمته في طول قائمة اجداده وممتلكاته، وذاك في عرقه، في لونه، في حضارته، في دينه، في تفوقه الأخلاقي.
تراهم حتى وهم أباطرة، ملوك، أمراء، أثرياء، علماء يبحثون دون توقف عن رفع هذه القيمة إلى أعلى مستوى بتوسيع ما يتوفرون عليه من سلطة، من ثراء، من سمعة، من شعبية... وشعارهم شعار النار: هل من مزيد.
كم هم مساكين! كلهم سجناء شهوة لا يشبعها شيء. كلهم سجناء بعضهم البعض والقيمة لا تكون إلا بوجود الآخر المعترف بها وهو اعتراف لا أصعب من الحصول عليه.
هل شعورهم الموجه بهشاشتهم رغم ما يظهرون من صلف هو محرك هذه الخاصية التي لا يختلف فيها اثنان مهما كان المكان والمكانة؟

نعم، الظاهرة ظاهريا تأكيد الأدميين على قيمتهم... وفي قرارة أنفسهم التأكيد منها.
تحيلنا هذه الظاهرة لأهم سؤال: بعيدا عن كل مزاداتهم هل ثمة طريقة موضوعية لتحديد قيمة الأدمي نفسه؟
لكن لتتساءل في البداية هل لسؤالنا هذا... أدنى قيمة؟
نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأشياء ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الأدمي أو بأي أدوات نقيسها؟
أه لو كان بقدرة الحيوانات التي تعيش معنا الخروج من صمتها لتقول رأيها فينا؟
لا خيار لنا غير التعويل على أنفسنا للبت في الإشكالية انطلاقا من ايماننا بقدرة الفكر الموضوعي على الوصول إلى درجة من التجرد تمكنه من الحكم بكل نزاهة.
هراء في هراء.

مرة أخرى من يضمن للقارئ مثلا أن كاتب هذه السطور لن يغتنم -رغم ما يدعيه من نزاهة- الفرصة لتصفية حساباته مع بني جنسه أو أن شففته عليهم ستدفعه لإعطائهم أكثر مما يستحقون.
نعم، كل هذا صحيح ومع ذلك لنحاول....

تصوّر أنك تنظر للأدميين المتزاحمين حولك في الساحات العمومية بعيني عالم الجيولوجيا وزمنه الذي يحسب بمنات الآلاف من السنين.

أغمض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون-حتى ولو كان فريدا كأجل زمردة أو ياقوتة-مثل حبة رمل في صحراء مترامية الأطراف.

حاول تخيل كم تتابع منهم على هذا الكوكب منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة-العمر المفترض حاليا لبشريتنا-وما أهمية الآثار التي تركوا أكانوا من بناء الإمبراطوريات المذكورة أعلاه أم من عامة الناس.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على سطح كوكبنا هذا طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف تبخرت هي الأخرى لم تترك إلا بعض الرميم الذي تفاخر به بعض متاحفنا.

والآن افتح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الأدميين الذين يترაკضون من حولك وستأتيك صورة ذرات غبار يطوح بها الريح لا أكثر من هذا ولا أقل.

الملاحظة الأولى: بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكم المريع من الأجناس والكائنات الحية الأدمية وغير الأدمية التي تتابعت وستتابع على سطح هذا الكوكب، ليس للأدميين الذين يمسحهم البصر قيمة خاصة بل يمكن القول إذا تركنا التأدب جانبا أنه ليس لهم أدنى قيمة.

تصوّر الآن أنك تختار عينة من العقلاء والأشرار والأغبياء والحمقى، من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسماهم، من القديسين وعتاة المجرمين، أنك تضعهم جميعا في أكثر المختبرات العلمية تقدما لدراسة أعضائهم وكيفية عملها وتصوير أدمعتهم وهي تشتغل والتعمق في أدق تفاصيل الأنسجة والخلايا.

أي استنتاج أمام اتضاح أنهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصائص المذهلة ونفس القدرات المثيرة لدهشة أكبر العلماء؟ كم ستستغرب غياب سؤال أي الفريقين له قيمة أعلى.

أنت في هذه الحال كمجوهراتي توضع أمامه زمردتين واحدة لفت في خرقة قدرة لا تسوى فلسا وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنها لفت في ورق ملون لا يتكلف أكثر من بضعة قروش... ويقال لك ما الأعلى قيمة؟

أنت لست أقل شأنًا من المتشرد المخمور الملقى على الرصيف ولست أرفع شأنًا من السلطان الجالس على عرشه... عقدة النقص وعقدة التفوق وجهان لنفس العملة الفاسدة... أول درس يجب أن يتعلمه الطفل ليوفر على نفسه كما هاتلا من الألام العبيثية... آخر استنتاج يجب أن يتوصل له الكهل كي لا يواصل دفع ثمن باهظ لخطأ في برمجة تفكيره.

الملاحظة الثانية: بمقياس الخصائص والطاقات الأصيلة التي جاءوا بها هذا العالم، للآدميين، لكل الآدميين دون استثناء نفس القيمة.

أنت الآن عالم من علماء البيولوجيا الأكثر تقدما في ميدان المورثات التي تشكل وصفا صنع كل الكائنات ومنها الآدميين كما نعرفهم.

يقدر ما تتوغل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تقترب من الذكاء الصامت قل من العبقريّة المخفية التي تغذي كل مظاهر الكون كما تغذي العصارة الأشجار. كيف لا تعقد منك الدهشة اللسان والذات أمام ما تفهم ولا تفهم تعيش طفرة التعجب والتهيب والخشوع.

أضف لهذا أن هذا الذي بين يديك نسخة يتيمة تختلف عن كل الموجود من الكائنات ولو كانوا بعدد حبات رمل ألف صحراء وصحراء. كأنّ العبقريّة المخفيّة تكره التكرار الممل حتى وإن كانت تخلق كائنات متشابهة في كبرى الثوابت. هكذا تراها تتدبر أمرها لكي يكون لكل كائن جملة من الخصائص ومن ظروف الوجود تجعله في ادقّ التفاصيل لا يشبهه ولا يشبهه أحد. الملاحظة الثالثة: انطلاقا من كون الآدميين يحملون في أدقّ تعليمات صنعهم بصمات قوة عجيبة وضعت فيهم كل عبقريتها وأن كل واحد منهم نسخة يتيمة، فإن لكل آدمي قيمة ليس فوقها قيمة.

كيف يمكن القول بأن لكل الآدميين نفس القيمة، أنه ليس لديهم أدنى قيمة وأن قيمتهم لا تضاهيها في الكون قيمة؟! لمواصله البحث في غرابة هذا الجنس الذي حشرنا فيه لم يبق لي غير تفحص النسخة الوحيدة منهم التي يمكنني القول إنها أحسن من أعرف وهي لا تختلف عن كل نسخهم إلا في بعض التفاصيل داخل بعض التفاصيل داخل بعض التفاصيل.

**

الكتاب الخامس

الغريب

"جيت مشارق الأرض ومغاريها
فلم أجد مسقط رأسي
ولا وجدت من يعرفني ولا يسمع بي
وسأبقى غريبا
حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني."
جبران خليل جبران

مقدمة الكتاب الخامس

في 1-1-2000 بالتقويم السائد / اليوم 20075 من الرحلة حقاً إنني لمسافر جدّ محظوظ وقد سحبت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة ولم أبتل كالملايين قبلي بالرحيل في أزمنة بليدة ركيكة ليس فيها ما يستحق الذكر.

الدليل أنني مدعوّ هذه الليلة إلى أضخم حفلة نظمتها الأدمية في تاريخها الزاخر بتنظيم المآتم والأعراس. كم غريب أن تكون الحفلة مخصصة للاحتفاء بليلة من الرحلة شاءت الصدفة أن ترمز في رزنامة بعض أمم المرتحلين إلى دخول ألفية جديدة -ومستيقين الحدث بسنة كاملة- لقرن جديد.

إنها الليلة التي سنجرّب فيها من جديد كل ما نخترن من نعمة الفرح نتشارك فيه أيا كان المكان الذي نوجد فيه. كل المطلوب مني تتبع الحفلات الضخمة على شاشة تلفزيون مغلق منذ شهر لشدّة كرهه لما يحمل من أخبار. يفتتح الحفلة ملك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها "تونجا" متقدماً بأول مظاهر التبجيل للضيف الكبير. ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد. يواصل الطيف تسألّه غرباً يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تنتسح رقعته شيئاً فشيئاً. تتصاعد الهتافات من مكان يدعى موسكو. يواصل الشبح زحفه نحو الغرب ليغمر مدينة اسمها روما. يخرج إلى الشرفة المطلة على جماهير الأدميين عجوز مهيب مرتعش بيارك الحشود وبيبارك سعادتها. كيف لا يتدخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجربة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمراسم الليلة المشهودة. فجأة تشتعل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مرحة أحالت أنوارها الليل نهاراً. يتدافع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرح الذي بداخلهم احتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يرزقون.

يتعالى صراخ ملايين الحناجر تعجّباً وإعجاباً أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم. أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ ... على سبورة الوجود تفجّر ما لا يحصى من نقط النور ترسم ألواحاً مبهرة... كل نقطة ملحمة كائن حي... هناك في ذلك الركن الشرقي من اللوحة حيث الألوان أكثر اشراقاً، تفجّر قصتي ثم اختفاؤها بالسرعة التي ظهرت بها... أي أهمية للأمر يكفيني شرفاً أنني دعيت يوماً لأكون جزءاً من العرض.

تصل الأفية الجديدة إلى مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضاً سكرانة بالأنوار والصخب. بداهة قرّر هؤلاء القوم الإفراط في مظاهر الترحيب.

الترحيب! ربّما هناك هدف خفيّ لمن نظّموا هذه العاصفة من النور والنار. ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة التي يسمونها لندن طوال سنوات آخر حرب خيرة في إسقاط كل مغير آت من السماء؟

ترى هل ثمة مؤامرة خفية هدفها إسقاط الزمان نفسه فينتهي كل شيء ومنه عذاباتنا التي لا تتوقف.

ها أنا أمسك بأنفاسي لا أعرف هل يجب أن أصلي لنجاح المؤامرة أم لفشلها.

حولي لا شيء توقف مما يعني أن الزمان سيواصل بسط ظلاله علينا. خيبة أمل أم تنفس الصعداء؟ أه الشعوران في نفس الوقت.

على كل حال لا أحد يعبأ بمشاعري وحتى أنا لا أعيرها كثير اهتمام. إذن ينجو الزمان من محاولات بائسة لمحاولة إسقاطه فوق المدينة العجوز مواصلاً تقدمه نحو الغرب

تعبّر الأفية الجديدة الشواطئ الغربية دون أن تسقط في المحيط جاءها الأعياء كما كنت أتمنى. تستقبلها في ساحة اسمها تايمز سكار نفس الحشود الأدمية بنفس الفرح.

ينتهي القرن الجديد ببسط ظلاله وقد وصل أقصى غرب الفضاء الحسّي.

لم يبق لي تقاديا لانتباهه لما كنت أتمناه له غير مدهنته والتلق له.

أكيد أنك قرن ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما نقصه سفك الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبوح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيراً العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية لآل نبات وآل حيوان. نعم لماذا أحملك أكثر مما تتحمل، فهل كانت عصور المجاعات والطاعون والعبودية التي جاءت بها القرون التي سبقتك أرحم؟

المشكلة أن تقاؤل القوم نوع من التذجيل على الذات وأكثر التاريخ تكرر مملّ.

بعد السلام الحرب (برنارد فريبر-بتصرف)

بعد الحرب السلام
بعد المركزية اللامركزية
بعد اللامركزية المركزية
بعد المدن، القرى
بعد القرى، المدن
بعد البرلمان، الحكم الفردي
بعد الحكم الفردي، البرلمان
بعد الهدوء، الانفجار
بعد الانفجار، الهدوء
بعد الفوضى، انضباط الاستبداد
بعد انضباط الاستبداد، الفوضى
بعد الطغاة، الحكماء
بعد الحكماء، الطغاة

القاعدة: عندما تنتظر من التاريخ التكرار، يفاجئك بالتغيير وعندما تنتظر منه التغيير يحبطك بالتكرار البليد... أما المستقبل المنظور فلا يتمخض عادة عما نرغب أو عما نرهب، وإنما عما لا نتوقع وكأن أحب وجهة إليه ليس الأفضل أو الأسوأ وإنما المختلف.

على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا ثم أجلس شاخصا إلى السماء.
تصمت كل الأصوات ولا يبقى فوق رأسي سوى ما رسمته من الأزل فرشاة الفنان الأعظم.
هل سيفيق من الغد كل البشر بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الدائنين وقد انتهت نوبة السكر.
ليلة أراوها، هكذا بلا حجة مقنعة، مفصلية بين مستقبل غامض وماض مبهم ولا أحد يدري متى ولماذا انطلقت هذه القصة، وإلى أين تحملهم كما يحمل تيار النهر العاتي قطرات الماء التي تشكله.
يا للمساكين! ما الذي يخبئه لهم المستقبل؟
للزاهة، ما يهمني هذه الليلة أكثر من كل شيء ماذا يخبئه لي أنا هذا المستقبل.
ترى، بعد كل هذه السنوات العجاف، هل ستحمل لي السنة الجديدة بشائر الحرية؟
هل سأخرج أخيرا من بيت أنا فيه سجين على حسابي الخاص ومن وطن لم يعد ككل وطن يحترم نفسه الأرض التي نهرب إليها وإنما أصبح الأرض التي نهرب منها؟

**

أو كيف أن قدر الأدمي أن يكون غريبا في هذا العالم سكن وطنه أو سكن وطن الآخرين

أخيرا المدينة التي سأقضي فيها سنوات طويلة من النفي.

أرتمي على أول مقعد في عربة المترو شبه الفارغة. على الطرف الآخر من العربة ثلاثة مراقبين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولحث رفاقه على الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ أه، إنها لهذا الأجنبي القذر!

نعم، لم يكن الرحيل يوما سهلا على الأدمي، لا بحكم اتساع المحيط وضراوة الصحراء وعلو الجبال وفيضان الأنهار وأنياب الكواسر فحسب، إنما أيضا لأنه في كل فضاء يفيض بالأدميين غريب، أجنبي ومشبهه يترصده أدمي آخر إن لم يكن بسلاحه فيلسان أمضى من كل سلاح.

من الأحسن الفرار بكل شجاعة لا رغبة لي ولا وقت اضيعه في مشاجرة سخيقة مع كمشة من الأدميين صغار السنّ والعقل، يكفي ما على سطح الأرض والبحر وفي السماء والفضاء من مشاجراتهم السخيقة.

السجاد الآلي في اتجاه الخروج. تجدد الانتباه للبشر الذين يحملهم سجاد الاتجاه المعاكس.

كلهم مجرد مارة يتتابعون جيلا وراء جيل، يخترقون العالم ركضا على بساط راكض اسمه الزمان ليتضح ما الذي جاءوا

تندافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي مباشرة عوّضتها أخرى كم هي مُشابهة ومختلفة.

كلها كما نحتها جياكومتي في تمثال الرجل الماشي. لها نفس الأضلع الحادة والملامح المتجهمة الأبصار الشاخصة نحو الفراغ. الكل تائه داخل ذاته، مغرق في صمت حذر، لا تسمع إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج أت من الإناث بكعيهن العالي، كأن بهنّ إصرارا على مواصلة بثّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

هذه أنثى ممشوقة القامة كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حادة. أخرى تفتعل اللامبالاة. قوة قاهرة تلوي عنقا لتلحق الذات ما فاتها.

هذه نظرة مطوّلة للصيد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ضلال من الحزن في عينين أرهقتها الحياة كثيرا، لا تتوقف حتى على الوجه المثير. بريق غير عمية تبعث فيّ قشعريرة، بأس موجع يلمع في عينين تفضلان النظر إلى الأرض سلّمًا بدوام الهزيمة وعبث النضال.

تختفي الحسنة التي شدت كل الأبصار دون أن تترك لي الفرصة للاستدارة وإلقاء نظرة على الوجه الذي سحر كل الوجوه. هذه نظرة خلّتها سنتوقّف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلت لسان حالها يقول: لا شيء في هذا الأدمي جدير بالاهتمام. كم مُخيف ألا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إليّ، أو اهتم بي أو لاحظ كم أنا مُرهق مهموم أو عبأ بطموحاتي ومشاريعي أو استقرّته أفكاره.

"كم تسكعت شرقا وغربا! (أغنية صينية)

كم لاقيت من البشر!

ولا وجه أتنگره

تعبت حقائبي

ظليّ وحده الرفيق"

لكن متى انتبهت أنا للأدمي المجهول أو اهتممت به، أو شعرت بالآلمه أو عنّت لي هذه الألام شيئا أو لاحظت كم هو مرهق ومهموم أو عبأ بطموحاته ومشاريعه أو اهتممت بأفكاره أو انتظرت منه شيئا.

اللعة! أنا أيضا ألقيت عليهم نفس النظرة العمياء، مسحت أشكالهم ببصر لا يرى، وهم يبصرونني بنفس العيون التي لا تبصر. من ينتبه لكون الأغلبية الساحقة من البشر الذين نتنفس وسطحهم منذ الإفاقة أغرابا لست لهم إلا نكرة ضائعة وسط جحافل النكرات.

كم مؤسف ألا أحد من هؤلاء الأعراب يقف مسلّمًا ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقبّل والدموع.

فجأة يبتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف ليختفي بالسرعة التي برز بها. إنه أدمي أصبح أخيرا إنسانا يقول لي: تشجع ثمة مخرج لنا جميعا من كل الأنفاق!

خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه والظهور.

كلهم كُنُبٌ مُحكّمة الإغلاق لا ترى منها إلا العنوان. أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه. أغلبهم منغلّقون على أسرار بانسة، متخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عائشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتيجيات في منتهى الغباء، يحملون

قصصهم كالمسيح صليبه على ممشى الألام ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.

أي كابوس لو انطأ كل الأضواء نهائيا واضطرت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام. يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأيق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطّ أو ذاك والإشارات الصامتة وحدها الدليل.

فجأة يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الوعي. هكذا شعرتُ برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، وبيدي اليمنى تمسك بيد اللص وبيدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعت الحادثة بانتهاب شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيدا سهلا، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني يصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللعة! من قال لهذه الغيبة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تملص مني لفنجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالمٍ كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغيبة لتناول القهوة التي فونتتها على المسكين لتمدني هي بتصريح مطول، عليّ أزيح بعض الغرابة عن الأدميين بصفة عامة وعن النمط الأدمي الأكثر انتشارا، هذا الذي اسميه أحيانا الذي منه كل وحشة. لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد يركض على الطريق الذي رسمته له الصدف والأقدار.

أخيرا الهواء الطلق. أخيرا الشارع الرئيسي للمدينة التي سأقضي فيها سنواتٍ أخرى من النفي. على طوله مظاهرُ الزينة، أجملها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار. على الرصيف المكتظ السُواح والمتسوّلون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقر. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليُبهرروا الخدم بمكرماتهم الخيالية.

فجأة ألتفت خلفي مدفوعا بقوة قاهرة لأهزّ الكتفين وأنا أتذكّر أنني خرجتُ أو قُل طُردتُ هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حرا لأول مرة منذ سنوات ولا مخبرٌ أُلصق بيني وظلي يتنفس في عنقي. قد لا توجد مدينة في العالم تعجّ بهذا العدد من الأجانب المتدافعين عليها من كل أرجاء الفضاء الحسيّ لألف سبب وسبب وهي غير عابئة بمن يدخلها ومن يخرج منها. صورةٌ مصغّرة لعلاقتنا بالعالم نفسه.

ورائي قوس النصر. على من؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجزار الكبير الذي رفعه، لكن من يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعا ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثا. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عرفت أكثر حروب الأدميين وحشية وغباء، أنه كان واحدا من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثل كلّ الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ لهم التاريخ مآثره أو اسما. يا لها من جائزة أحررها ولا علم له بالشرف الأثيل! أيّ قارئة فنجان كانت تتجرأ لتقول لأُم المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسموت أبشع مَيّته، لكنه سيصبح من المشاهير يقف ملايين المجهولين إجلالا أمام قبره ولا أحد يعرف الاسم الذي أعطته له.

نعم لا مخبر ورائي، لكن هذا لا يعني أن الجماهير ستدافع لرفعي على الأعناق. كم سأمشي في شوارع هذه المدينة لا وهم لي حول ما يدور ببال من يُلقون عليّ نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابيين، خطر، مهدّد للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا يُرجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.

نوبة من الكبرياء المجروح. أليس قدر “النفيس أن يكون غريبا حيثما كان”؟ (المتنبي)

لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غربائي إضافة لكونهم وإن ولدوا في هذا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو سبيل. كلهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها مدينتهم وهم لا يقفون فيها غربة عن غربتي. كلهم سيرحلون عن هذه المدينة يد فارغة وأخرى لا شيء فيها. كلهم يعيشون فيها قصص فيها الكثير من الأوجاع لا تبعد كثيرا عن قصتي إلا في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

يصل الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كم هائل من أفضع قصص الأدميين.

ثمة مَنْ حَسبوا كم من رأس بالضبط سَقَطَ في هذه الساحة وتوصّلوا لرقم 1119 منهم مَنْ كان برتبة ملك. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكا، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكا في غير الزمان المناسب!

انتباهٌ لاختلاجةٍ، امتعاضٌ هنا وعلامات نفاذ صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسدّ الطريق والويل لمن يتلكأ. ليسرّعوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصبٌّ على أشباح نساء ورجال خلقت رؤسهم وأيديهم مقبّدة إلى الخلف كُدسوا فوق عربات مجرورة بالخيول والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة التي أدت لها ظهري هي وقوس النصر. أريد نسيانها معا. تُرى ما الذي كان يعتمل داخل رؤوس على وشك السقوط جاحظة العينين في قفّة معدة خصبنا لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة التي تبتّ على كل الأمواج قدرا لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وساقوها في مثل هذا الموكب كما ساقوا زوجها من قبل؟! المسكينة! ما الذي دهاه لتولّد ملكة بل وفي غير الزمان المناسب. لو جاءت قبله أو بعده لربما أصبَحَت أم الشعب والقديسة التي تتبرك بها العجائز والعداري؟

كيف الإفلات من صُراخ صامت يملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجهمة تقع على بُعد بضع مئاتٍ من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتبعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميرا ووليّ عهد ملكٍ على وشك الغروب. ربما كان سيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

إنها مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يعبأ بكل ما عرف من المآسي ولا أهمية إلا لها بالنسبة للذات التي عاشتها. على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزا للمدينة والمطلّ على نهرٍ هو منذ نشأتها شريان يضحّ في جسمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والغزاة.

أيا كان نصيبها من الرونق والجمال وطرافة الأبنية، هذه المدينة ككل تجمعات الأدميين منذ سكنهاهم بيوت الطين والحجر مرآة أحسن ما فيهم بما تعجّ به من بيوت عبادة وجامعات ومستشفيات ومكتبات ومتاحف ومطاعم ومقاهي... وهي أيضا مرآة أفضع ما فيهم بما تعجّ به من مواخير وسجون ومحاكم وتكنات وحدائق للحيوان ومسالخ لذبح الملايين منهم يوميا.

هذه المدينة ككل تجمعات البشر غاب وأغلب مَنْ فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعذّر الأمر. وراء الواجهات المنمقة يختفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيايل والتجسس والدعارة والجريمة.

أه، أخيرا وصلت هضبة القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا مَنْ يغازلها طويلا. يا سيدتي جنيفاف، بجاه المسيح خفي من آلام روح ذلك الطفل لا أظنها ارتاحت إلى اليوم، وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك وإلى دين ليس الذي تدينين به، لا تنسيّ آلامي أنا أيضا وقد تحالف ضدّي كل ما في ديني من أولياء ومن صالحين.

أخيرا الحيّ الذي ذرّعه سنواتٍ شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندّر كتاب.

لا أحبّ إليّ من مقاهي هذه المدينة. داخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريات، لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نادي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي. صدق مَنْ قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن الدفء لسعتهم ولسعوك، إن بغدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيّل، أبحث عما بحثتُ عنه دوما: الدفء دون لسع.

لا بد من العودة للطريق. الوجهة الآن المكتبة العظيمة.

تصلني كاللطمة المفاجئة على الأنف لعنةٌ سكير اتخذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والعرق. آدمي آخر لم تُحابه أكثر طاولة القمار اللعينة. لن أعرف شيئا عن الظروف التي أوصلته لهذا المنعطف من طريق رحلته. أما هو فبالكاد انتبه لمروري أو لمرور كل من تجاهلوه فعلا أو افتعلوا تجاهله لو عيهم بأنهم لا يستطيعون له شيئا.

أه هذه آدمية تظنّ أن بقدرتها أن تفعل لي شيئا حتى وإن كنت غير ملقى على الرصيف أتقيا.

تُبادرني صبية وابتسامة بلهاء على الشفتين.

- هل تعرف الرب؟ هل تدرك إلى أيّ مدى يحبك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟

- لا، شكرا، عندي أو هامي الخاصة بخصوص من يسير هذا الكون، أما حُبّ ربك لي، فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحا هذه الأيام.

تمضي البنّت في حال سبيلها لن أعرف عنها أكثر مما تعرف عني.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كُتب. الشدّد والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز.

صَحْبٌ مفاجئ. متشرّد يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفشّ فيها هو وكلبه عن شيء يؤكل.
من قال: الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرّة، أمام الشحاذ العجوز الجالس
ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك، أمام المتسوّل المضطجع أرضا في رواق
المترو وكل أمتعته في حقيبة مكسورة بين رجليه، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح
إلى الليل، في أماكن بشعة يتكدس فيها من أفقدتهم المصائب كل صواب. أي غرابة أن يقفز البعض خارج البساط السيّار،
أنهكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماه جانبا، ضاق ذرعا بجملٍ ليس من ورائه نفع؟! كم من خطام بشري
سأرى على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية آخر لغم زرعه منتقم هو الآخر مجهول!
"الطريق ليس صعبا،
(كيركجارد)

"الصعب هو الطريق."

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتبت الأدميون عن الأدميين وبكل الرسائل المبهمة التي تحملها باقي
مباني المدينة.

هذه المدينة نصّ عظيم مكتوب بالعرق وبالدم والكتائب التاريخ. وأيضا هي مدينة الثوار، أمرهم الذي تقرأه في كل مكان:
فكّر من خارج كل الأطر، تمرّد على كل الصيغ، جِدّ ولا تتوقف عن الإبداع، كلُّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة. جوُّ كهذا هو
جرعة الأوكسجين للمخنّيق ونفخ الطيّب لمن عاش والتنن يملأ خياشيمه.

ليس أمامي الآن إلا حفنة من الأدميين السود العاكفين على جمع القمامات يرمونها بسرعة في عربات ضخمة بالغة الضجيج
والقبح تسدّ الطريق على سيارات نافذة الصبر. إنهم آخر من تدافعوا على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها
المرفأ والعاصفة. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال، بلا دليل، بلا خارطة بلا رخصة عبور من أحد، والسفر
مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

لا شك أن بينهم كُتّابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الأدمي يصفون معاناته في هذا العالم وهو تائه في الصحراء بلا ماء
ولا أمل، أو غريبٌ أنقذ آخر لحظة من برائن البحر، أو مغامرٌ يائس يائس يخرق الجبال خلصة ليلة صقيع يمزق أحشاءه
الجوع، لينتهي على أعتاب المدينة شبة ميّت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا
تحرقني جناحي.

هل ثمة في هذه المدينة أشجار تزهّر عند رجوع الربيع وقد زالت من القلوب كل الشكوك والمخاوف
"تحت أزهار الكرز (إيسا)

لا وجود بيننا

أبدا لغريب"

حتى لو حصل ذلك! أصعب ما في الأمر ليس أنني غريب لكل الغرباء الذين تعجّ بهم هذه المدينة. أغرب ما فيه أنني غريب
حتى لنفسي.

**

أو كيف أن الأدمي يستكشف عالما لا يعرف عنه شيئا بذات جهله بها أعظم.

يحدّق فيّ الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: Bougnoule، تفه! كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟
الوعد! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أستثمرها في صدقة تعود عليّ بالدعاء لا بالشتم، بل ها هو يصرخ:
النجدة أوقفوا هذا اللص الأجنبي!
لا يبقى أمامي سوى الفرار، وكأني السارق وهو المسروق.
ما يجهله هذا الشقي أنني أجنبي مرخص له في الوجود وليس كالغرباء الذين يختبئون في الأقبية خوفا من اكتشاف أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.
في كل الحالات توجد الآن في محفظتي بطاقة بلاستيكية سأعيش على هاجس فقدانها أو سرقتها مدّنتي بها سلطات البلد -ببالغ الامتعاض- تحفظني مؤقتا من عنف الذين يدعون أنهم ليسوا غرباء في هذه المدينة.
قد يكون من مزايا هذه البطاقة تطميني حول هويتي، ففيهما معطيات مكتوبة عن اسمي وأقبي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام يبدو أنها تحدّد ليبروقراطية مخفية من أكون.
ومما يقال هذه الأيام أنه سيكون بوسع ما يسمى الذكاء الاصطناعي معرفتي أكثر مما أعرف نفسي بما سيجمع عني من معطيات تمكنه من التنبؤ بكل ما سأفعل وأقول. يا ليتّه يعينني أخيرا على العمل بنصيحة "اعرف نفسك" لأحد الحكماء.
من أين أبدأ والمجهول الذي يسكن داخلي لا يبدي أيّ رغبة في الكشف عن هويته ونواياه الحقيقية؟
على طول الطريق "هو" الذي يحدّد وقت الجوع والعطش والحب والنوم والحلم، ناهيك عن وجهة المسار. هو من يفكر ومن يتنكّر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم ولحظة الموت.
لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و"هو" يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي، كأنك مجرد طردٍ يُسلمه مجهول إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني أريد أن أموت أصلا؟

"من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)

عندما لا يكون الأنا؟

من يحلم داخلي عندما أحلم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكأننا كنا يوما أصحابها"

كيف لا يتعمق الإحساس أن داخلك أنائين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) واحد رسمي ومعتزف به والآخر يعيش في كنف الطي والكتمان.

بربك ألا يدعشك أن نكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو فيها مثل ضيف لمضيف مجهول!

تكلم يا من يسكن بين الضلوع دون عقد كراء أو موافقة من صاحب المحل.

ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القربى بيننا؟

كم مرّة صرخت في هذا الذي يخنقي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرّف بهويته، فكنت كمن يحدث الجبل!

كم مرّة تحايّلت على صمته بشتمه والتملق الرّخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملق للبحر!

أواصل مع هذا استفزازي: هل تقبل لذاتك، أنت في آخر المطاف جوهرها، بمثل هذه المظلمة؟ هل يمكن على الأقل أن تحسن

خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من أعماقك لألم أو لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيّل لي أنه "هو" الذي يبتسم ولسان حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذه الورطة.

كم سمعت رفاق الرحلة يشكون: جرّبت إغراقه بالخمير، إطفاء لهيبه بهذا المخدر أو ذاك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة،

بالحكمة أو الفن... عبثا. طرقت بابيه بالعلم فلم ينفع، بالنفلس فلم ينفع، بالفن فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع. لا نتيجة أيا كان الباب

الذي تطرق، والشيء أطرش لا يسمع، أبكم لا يتكلم.

إنني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطانا وملاكا

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذلك اشتراكا

أم تراني واهما فيما أراه

لست أدري!

ما الحلّ وقد استعصى التفاهم والتعاش؟ الطلاق طبعاً، كما يفعل كل الأزواج الذين أرفقهم الخصام واستحال بينهم الوفاق.

أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي سأقدمها ضده هذا الأنا الآخر الذي يعاكسني؟

ماذا لو سارع "هو" بتقديم القضية ضدي عملاً بمبدأ كل الخبثاء: ضربني وبكي وسبقني واشتكي.

كأني أسمعوه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئاً، يسمع ولا ينصت أبداً. لا ينتبه إلا لأقلّ الأشياء والأمور شأناً. أسرّ في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن فهم، فبالصدفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأي سخيّف. لا يثبت على موقف إلا إذا كان الهذيان عينه. ذهنه قمامة أنظفها دورياً فيسارع إلى ملئها بكلّ أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثراً. أشير عليه فلا يسمع. أنتهه فلا ينتبه. أعلمه فلا يتعلّم. أهدئه فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولاً أو نصحاً. أمره بما هو في مصلحته فيتنتع. أدفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيمعن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجّه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل المدلّل. ألق لعنة على هذا الشكل الذي قبلت التجسّد داخله. لا بدّ من نقاش معمّق مع الهندسة العامّة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيّف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

لا أتحمّل مزيد التجنّي. أبدأ في تصفيّف هذه الاتّهامات الظالمة لدحضها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّر القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامّة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبثٌ كل هذا التفكير؟ طبعاً، لا طلاق ممكن والأنا الظاهر المخفي توأمان مشدودان من عظم الصدر.

تدخل فراش النوم هاربا من سيّدك الوحيد فتجدّه يتربّص بك داخل ألف كابوس.

تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تغيّر فإذا به هو الذي يوقظك.

تنتكر علّه لا يعرفك فتكتشف أنّه كان القناع. تبغي قتله فإذا به اليّد التي تربط الحبل والرجل التي تدفع بالكرسي.

ثمة إمكانيّة لحل جذري. أدخل إحدى الدور المظلمة التي تحب الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي مع ذاتها. في فضاء خيالي المفتوح لضيافتك بوسعك أن تخاطب المرأة الواقعة خلف منضدة تستلم المعاطف الثقيلة:

لا معطف لي، لكنني أودعك "نفسى" للسهرة، لا حرج إن ضيعتها وهذا بقشيش محترم لأجلّ الخدمات.

كم سنشعر بالخفة مقدّراً كم كان اللعين أثقل من جسم عملاق على رجلي كسيح.

سيناريو آخر.

تتوجّه للمرأة وأنت تحلق: ما رأيك في الاحتفاظ بجيكل وهايد معاً. خلّصيني من الاثنين. وافعلي بهما ما تشائين.

تخاطبك المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلباً، هل أنت مستعدّ؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص جيكل وهايد. تبرز من الغد الصحافة الشعبية بعناوين صاخبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام مرآة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا يجدون تفسيراً للظاهرة."

في آخر المطاف كم لنا من أنا؟ الأنا للمعروض للخداع أو للإبهار، الأنا المخفي عن الأنظار، الأنا الذي يعيش بعض قصته في فضاء الحواس، الأنا الذي يعيش أهمّ فصولها في فضاء الخيال، الأنا الذي يرحل ليلا ليعيش في عالم الأحلام، الأنا الذي سيسكن فضاء ذاكرة الأحياء عند الموت... أليس من الأصحّ أن أكتب من هنا فصاعداً أمام كل فعل نحن، وليفسّر البعض هذا بجنون العظمة.

قد تكون الصعوبة الأساسية أن الذات كطبقات الجيولوجيا: على السطح ما تظهر وما تدّعي لتموّه به وتخداع، تحته طبقة ما تخفيه بمهارة وبوعي، تليها طبقة ما تخفيه بلا أدنى وعي، أخيراً الطبقة الحاملة لكل الطبقات أي كل ما تجهل حتى وجوده في أعماق أعماقها. محكومٌ على وعينا بذاتنا أن يكون مثل أشعة الشمس التي لا تضيء إلا سطح البحر وبعض الأمطار تحته أما الأعماق فمحرومة عليه إلى الأبد.

في آخر المطاف ما هذه الذات التي تنفصم لجزء على السطح يضحّ بالشكوى، وجزء في الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفذ صاغرا وآخر يأمر دون تكلف عناء التفسير، لجزء يجهل تقريبا كل شيء وجزء يعلم تقريبا كل شيء، لجزء بلا ذاكرة تُذكر وأخرٌ يبدو وكأن له ذاكرة العالم بأسره؟

طوال بحثك عن وفي هذا الحاضر الغائب تُفاجأ ببعده اللامتناهي وبقربه الشديد.

تفاجأ أنه أنت تتأمّل صورتك في المرآة، أنه صورتك في المرآة تتأمّلك أنت.

ولمّا تتصوّر أنك أمسكت به كنت كمن تنغلق قبضته على الريح.

أي خيار غير مواصلة البحث عن ذات هي التي تستكشف بها العالم وأنت كما يقول المثل البوذي مثل الفارس الذي يركض في كل اتجاه بحثًا عن الفرس التي يركب.

**

لَمَّا يَنْخَرُطُ الْبَحْثُ عَنِ الذَّاتِ فِي طَرِيقِ مَسْدُودٍ.

- يتصادف أن الطبيب الشرعي صديق. يبادرني ضاحكا وأنا أحكم لبس القفاز.
- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته.
- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. طلبتُ التشريح للتأكد.
- انظر ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.
- لا تضيع وقتي يا جزار، هيا توكل على الله.
- يرسم الرجل بسكينه أخدودا عميقا في الجسد العاري ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة. يدخل يده تحت الفك الأسفل مستلا بفضاظة ودفعة واحدة اللسان والحجره والمريء والقصبه الهوائية. ثم يشق الصدر مخرجا من داخله هذا العضو الذي ما زالت القصص القديمة تجعل منه معقل الحب.
- لم يبق إلا انتزاع كيسين يحتلان جانبي قفص العظام يمثلان بأول نفس للقادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل النهائي.
- يرمقني الزميل ساخرا.
- مالك؟ هدى من روعك، تصور أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.
- كأن هذا الغبي يعلم... كأنه يستغل الفرصة لينكأ أقدم جروحي! يواصل استفزازه شجعه تزايد ارتباكي.
- أتريد أن أنادي لك طبيبا؟
- ها ها، نكتة بائخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!
- يصرخ متكلفا مزيدا من الاستفزاز:
- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.
- ثمة على ملامحي ما يثير عند الرفيق مشاعر أكثر ترفقا بي.
- يا ولد، منظرِك يرثي له الأعداء فما بالك بصديق مثلي. لا تحمّل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظة لتتنفس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكنتم السرّ يوما على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.
- قلت لك واصل.
- نواصل ويواصل الجسد الساكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بالنخز والقص والاقتراع والنقطيع والكلمات البذيئة. لم تطلق شفتاه آها واحدة احتجاجا على انتهاكنا حرمة الترابية. هل نحن أول من اعتدى عليها؟ هل كان له يوما حرمة ترابية أصلا بل هل كان حقاً سيّد هذا الجسد؟ تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك تفعل به ما تشاء، هو منذ الإفافة ملكك مشاع تحت تصرف الأبوبين والأهل والمجتمع والدولة والأطباء والغاسل وحافري القبر... ثم الجراثيم والدود.
- "السقم يحفر سراديبه في ذاتي العفنة
(عبد اللطيف الإدريسي)
- كم هي اللحظات التي انتبهت فيها إلى جسدي
الذي سيغدو الجثة-المأوى لكل الحشرات السافلة"
- يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:
- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم. بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟
- ثم يغمزني:
- كبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئا من لحم الكتف. لا تتردد في الطلب.
- انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط القفة من يديك أمام المرضيين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت شاورمة المدينة بلحم موتى المستشفى الجامعي.
- كفى ثقّل دم. لا يهمني الكبد. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل الأعراض كانت السرطان في الجهاز الهضمي.
- أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.
- هل ترى شيئا؟ وجدت هذا الورم اللعين؟
- الورم، لا، وإنما وجدت كثيرا من البراز. تريد الحقيقة يا فتى، تشخيصك كان مخطئا من البداية. لنتنظر المعلم، إمّا يبرنك وإمّا... الويل لك من لسانه... والآن ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتتم فرصة روقان مزاجي لسياحة في أعماق المسكين.

كم من أطباء في ماضيها القريب عُلقوا في المشانق لتجاوزوا المحظور وهم يشرحون في الأقبية جثثا مسروقة من المقابر. يا للمساكين وقد شاء حظهم العائر أن يرتحلوا في أزمان تخلط بين العلم والسحر! يا لبختي وأنا أشرح هذا الجسد المسحى على الجليز لا مشاكل لي مع شرطي وجلاد!

نأخذ في قطع فروة الجلد بسرعة وليها من طرفيها ثم نمسك بمنشار لنشر الجزء الأعلى من العظم. نواجه أخيرا بعضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلفا بغشاء هش لم يقاوم طويلا المقصّ والسكين.

ينقض صاحبني على الدماغ يفصله من جذعه ويستلّه من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

آه هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل "النفس" و"الفكر" و"العقل"، كل ما تجمعه اللغة مرة تحت اسم الروح، أخرى تحت اسم الذات، مركز الشبح الذي نسميه الأنا حسب معتقدات جل بشر هذا العصر! هو الآن مثل كتاب مزقّت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحَيّت منها كل الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقيق، مثل أعقد وأثمن لعبة نجح طفلان كبيران في فتحها وبعثرة مكونات لا يفهمون منها شيئا ولا يقدرّون ما ورائها من عبقرية الصانع كم تكلف صنعها من ملايين السنين.

انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. كل الأشلاء بين يدي الآن. ها هي مكونات الجسم مصطفة على الجليز الأبيض ونحن أمامها كأطفال أطلقوا على آخر كمبيوتر أنتجته أكثر الصناعات تطورا، فهشّموا غلافه وبعثروا محتوياته فقط للتمتع برؤية ما ينعلق عليه.

لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع جثة للبحث عن سبب إخفاق المريض في الحفاظ على روحه وإخفاق الطبيب في صدّ الموت وهو يخطفها منه.

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحصها من وراء نظاراته السمكية باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلف الممثل.

كان يقأبها بقضيب حديدي يتأكد أولا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صففناها وفق أوامره. كانت دقة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمزّ لتفحص العلامات التي تفسّر فشل الشكل في المحافظة على ذاته.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المفتوحة.

- انظر إلى هذه الحبة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصا من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو شخّص في الإبان... آه كم مؤسف...

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النبوة التي يتفقها بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتردّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد. لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا "مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميت.

يفتعل الرجل الترفع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملي عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلم" وقد ينتقم مني.

- هل يظن هذا البلبد أنني لم أرح؟ اللعنة عليك وعليه وعلى التخصص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكنشتاين!

- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزوّدك مجانا بالمخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. المعلم لم يقصد تحميك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.

- جزارون وخياطون أيضا. يا له من تخصص!

- تحسبنا لا نهتم بأناقة جثتنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.

يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهوه.

- نسينا الجرائد.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة الصباحية. كذلك نفعل مع القحف الفارغ. مؤكّد أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة الرياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصار فريق المدينة الساحق.

يخرج من قاعة التشريح طبيب شاب يد فارغة وأخرى لا شيء فيها والطفل النائم بعين واحدة داخله متزايد الامتعاض من عجزه عن فهم ما الروح، أين توجد ومن أين تخرج عندما يختطفها ما يسمونه الموت.

*

وفي بعض من أقدم الملفات تطلق "ما" صرخة مدوية وقد وصل العويل من بيت الخال والجار منذرا بحدث جلل. ترمي كل ما بين أيديها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خالة جالسة في حلقة نساء تلطمن خدودهن ووسطهن رقيق اللعب مسجى بلا حراك.

أجيل البصر حائرا في المشهد، ثم أركزه على امرأة توقفت عن العويل وكلام ملحن عن جمال الطفل ولوعة أمه... لتنتاب بصوت عال. تفاجأ المرأة بالطفل ينظر إليها مستغربا. يلمع شيء كالكره في عينيها. تشيح عنه البصر عائدة إلى التحسّر بأعلى صوت على الروح التي عادت إلى خالقها.

ذهن الطفل الآن فوضى مطلقة. ما الذي يحدث هنا؟ هل يحمل على محمل الجدّ إعراض رقيق اللعب عنه؟ مؤكّد أنّه سينهض صارخا من مرقده ليقفز معه من فوق كل هاته الإناث جريا نحو أشجار الزيتون واللوز.

ما هذه الروح التي عادت إلى خالقها وهل خروجها سبب سكون رقيق كل مقالبه؟ غريب، كيف خرجت منه وهل سيستطيع كل هذا الصراخ إقناعها بالعودة إليه لتنتهي أزمة قد لا تكون إلا مرضا جديدا لا يعرفه؟

يواجه الطفل لأول مرّة باحتمال إن ابن خاله لن يلعب معه هذه المرّة ولا المرّات القادمة، أن الروح الهاربة لن تعود لوكرها. يصبح الشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعاده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيدا عن الأنظار وهو دائما ساكن لا يبدي اهتماما بوجود ابن عمة متزايد الخوف والحيرة والهمّ.

وعند الرجوع إلى البيت تنزاح أسئلة أخرى: هل من الممكن أن تقرّر روحه هي الأخرى الفرار من جسده فيضعونه في خرق أبيض وتأتي خالته لتولول ووجهها مدفون في صدر أمه؟

لا بدّ من إجابة تطفئ القلق الذي شدّ فيه هذا الصباح كما تشبّ النار في الهشيم.

- "ما"، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟

- بعد الشرّ على وليدي وسبعة ألطاف وخمسة وخميس وعين الحسود فيها عود، قل أعوذ برب الناس من الشيطان الخناس. حقا الحب تطّف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعنّت في مكوناته لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب ثمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه هشا، عرضة للعطب، مؤهلا لتختطفه منك في كل لحظة تقاطعات الطريق.

الأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف، هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن الأمراض القاتلة التي تتهدد حياة أطفال الفقراء.

- "ما"، أين ذهبت روح حسين؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسيح جنته يا حبيبي.

- ولماذا دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفتي الطفل. يفهم من نظرتها أنّها لا ترغب في الخوض في الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- "ما"، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيران؟

تحاول الأم منع ربع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

- "ما"، ما معنى الروح؟

تتخلّص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت يا روعي.

لا تزيد الإجابة الطين إلا بلة. وهل يكون للشخص الواحد روحان؟

تصرّ "ما" على التملّص من السؤال الضخم. يجب ترصدّ ظهور الدليل الآخر. هو يعرف ما تجهله أو تخفيه "ما".

- "با"، ما هي الروح؟ لماذا تخرج هل تعود عندما تخرج؟

تتغير نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "ما" في التهرب دون وإبل القبل ويتحدث باقتضاب مريب عن حضور "الساعة" دون أن يتكأف عناء شرح ما "الساعة" ومتى تأتي ولماذا تأتي ولماذا تسمى الساعة وليس الدقيقة. ومما بقي عالقا في الذهن من خطبته الطويلة أنها مئة من الله جبانا بها دون الحيوانات، أنها موجودة داخل قلوبنا، تحركنا وتتحكم في كل ما نفعل ونقول. كم كان الرجل يغالط طفلا جاهلا وهو يتبحر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصيه، والحال أنه كان يخلط بين المفاهيم ويبني عليها تصورات شكلت بدورها مادة قصص ساذجة أشاعتها الرؤى غير المتقنة.

يوضع الملف على رف من رفوف الذاكرة. تمرّ السنوات والعقود قبل أن يعاد فتحه لإضافة بعض المعطيات.

تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرع متتابع النوبات منذ ساعات.

أواجه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانتفاض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقرّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائيا وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى. البنت في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء "الفاليوم" سائلا في الشرايين أنفع من التعاويذ.

تتحرك داخل الطبيب الشاب أسئلة الطفل وحيرته أمام هذه الأعجوبة الجديدة: بوسع الروح أن ترحل ثم تعود كان شيئا لم يكن. تفيق الفتاة ذاهلة. لا بدّ من الصبر دقائق طويلة قبل أن تسترجع كامل وعيها والقدرة على الردّ على أسئلة المهني الذي استعاد هو الآخر كل انتباهه.

- يا آنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

- بالتباعد وبالغرابية. كأني في حلم. تقول أمي إنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكر أنني مشيت. تقول إنني أتكلم ولا أتذكر إنني تكلمت.

كيف لا تأتي الأدميين فكرة التقمص وكان الذات التي تسكن الجسد تخرج في هذه الحالة من وكرها، أو كأن ذاتا أخرى خرجت من وكر مجهول لتحلّ محلّها؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متثاقل الخطي:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفصّ الأيمن؟

يلقي الجراح المحكّ على الصور نظرة متمعنة مقيّما ما سيلقاه من صعوبات وهو يستأصل الورم الخبيث.

- سأحاول أن أفعل شيئا لكن الحالة فوق كل أمل. أدخلها حالاً إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجيت عليها المريضة المبتجّة، يتجمع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء وجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كائنات وصلت لتوها من عالم آخر.

يُحلق شعر الفتاة لتنتاثر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كأنّ بي خوف تدنيسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شقاف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الذات وعريتها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن، منتبها أشدّ الانتباه، حذرا أشدّ الحذر، حاضرًا بكل حواسي، خاصّة و "المعلم" مشهور بصرامته لا يرضى إلا بمطلق الإتقان والانضباط.

ها هو أخيرا العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختبئ في أعماقه الورم الخبيث.

مسكين ذلك الفيلسوف الجاهل المسمى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدّعيًا أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدة يتيمة تتوسّط العضو الرّخو ومنها تخرج كالهواء من بالوننا المثقوب لتذهب إلى مكان آخر يواصل فيه المحتوى قصته دون الحاوي الذي أصبح فجأة بغير حاجة إليه.

كم من علماء جهلة أدعوا بعده أن معقلها بطينات هذا الدماغ وزعوا مكوناتها بخيالهم الواسع كما شاءوا: الإحساس باللذّة وبالآلم في البطنين الأوّل وفي الثاني الفكر والعقل في البطنين الثالث مركز، الذاكرة في البطنين... والحال أنها لم تكن إلا فراغات داخل العضو لا تحتوي إلا على الماء!

دوما نموذج العلبة. أليس العالم في الرؤى الساذجة أكبر العلب التي تحتوي على كل الموجود من الكائنات وكل كائن علبة داخلها علب اسمها الأعضاء... من الطبيعي أن يضع فكر التعليل الروح داخل هذا العضو... وضعها في السابق في علبة القلب وعلبة الكبد... قد ينقلها غدا داخل علبة الخلية، فعلبة الصبغيات فعلبة شوارذ النرّة... في أي علبة سيضع أصغر العلب؟

يلحظ "المعلم"، ونحن نقترّب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهني بفضاظة فأنتبه محرّجا. تتصاعد الحدة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.

ينقسم العقل أو الانتباه أو سمه ما تريد إلى جزء يأتى بأوامر أستاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توثرًا. بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحق كل جهل الأدميين، بحق كل آمالهم وآلامهم، بحق كل إثمهم وبراعتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!

كأن العالم هو الذي هزّ كتفيه.

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمى بالامبالاة في المزبلة. يصرخ "المعلم" وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

-سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهرب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بد أن تتدرب عليه.

تلع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم بكاء صامت.

ألوذ بالفرار لأرمني بجسدي المرهق على أول كرسي أصادفه في الممر. أخلع حدائي لتنفد حالة الانتفاخ في قدمي. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنايتي منصبة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنت أنتصب لولا هما؟ هل تمتعت يوما بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشيا على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أختلق لي نظرية تمشي بذكرها الركبان تدعي بكل صلف الجهلة أن القدمين معقل الذات؟

نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الأدمي. إن أصبحت من الرجال الذين تتحت لهم التماثيل، ليقصر تمثالي على قدمين التحمنا بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار. توقّف في أروع أعماله عند قصبه الساق لا يعنيه كل ما فوق. ...كل ما فوق؟ المحمول على هذين القدمين... جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه.

أنتبه فجأة أنه ما زال متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة الفكّ وتقديمه غداء للكائنات السافلة... أنه لا زال النمر الذي أروّض، الخروف الذي أحمي، الحمار الحرون الذي أدفع إلى الأمام، الخنزير الذي أمنع من التمرغ في الوحل، الجمل الذي يحمل كل الأثقال، النسر الذي أحلق به عاليا لأرى العالم من أرفع موقع.

نعم، لكن ماذا عن الشغل الشاغل لطفل تدبر أمره ليدخل مثل هذا الأماكن على أشدّ الثقة أنه سيجد فيها الردّ عن الأسئلة التي لم تفارقه من يوم فارقه حسين؟

الروح، العقل، النفس، الفكر، الذات، الأنا! فوضى مفاهيم يجب الخروج منها ... كيف؟ ...أولا بالتخلص من ثنائية الجسد/الروح التي مرّرها السحر إلى الفلسفة لتمررها بدورها للعلم، يكفي ما ضيعتنا... البديل؟ ...اعتبار الروح زبدة خصائص الجسد، طبيعته القصوى، أوج وعطائه في حالته التي نسميها الحياة...بالضبط كما هو الحال مع الفكر الذي هو زبدة خصائص الدماغ السليم وأوج عطائه...الروح إذن ليست من طبيعة مختلفة عن الجسد... هي هذا الجسد أو بالأحرى وجهه الآخر اللامادي...مما يعني أنه لا يمكن للروح أن يكون لها مكان فيه... هي في كل عضو، في كل خلية، في كل الذكاء الصامت المبهر الذي يقضي الباحثون حياتهم في محاولة فهمه والتعامل معه... من تبعات هذا التصوّر: بما أن للحيوانات والأشجار أجساد حية مثلنا فإن لها هي أيضا أرواح كما أدرك ذلك الأوانل بحدسهم المرهف...الربط الآن بين المفاهيم: الروح والنفس اصطلاحان لنفس المعنى في التصورات القديمة وفي تصورنا يمكن الاستغناء عن كليهما لصالح مفهوم واحد هو الذات... هذه الذات هي مثل قطعة نقد بوجهين متكاملين (المادي واللامادي) ...هي ال "جسروح" الذي يختزن ويبلور في تعامله مع العالم مهارات هائلة أساسا الإحساس والشعور والفكر والخيال والعمل...الاستنتاج المنطقي أن لكل الأدميين نفس الذات بما أن لهم نفس " الجسروح " اللهم إلا في بعض التفاصيل داخل التفاصيل...ما الذي يعطي إذن لكل ذات خصوصيتها، هذه الخصوصية التي نختزلها في كلمتين أساسيتين : أنا و الآخر؟

يقطع عليّ تتابع الأفكار مرور عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية لفحص روتيني قبل كل عملية على الدماغ.

فجأة يتضح لي طريق آخر لمواصلة الجري وراء الفرس التي أركب.

أو كيف أنه لا وجود للذات إلا بالذاكرة وأنها طبقات مترابطة أعلاها التي تحفظ تجارب "الأنا دون سواه"

في فضاء خيالي ينهض عجوز ذاهل من فراشه. يتوجّه نحو نافذة الغرفة ليتسّمّر محدّقًا في شجرة زيتون علاها الغبار. يلتفت إلى بابٍ يُفتح وامرأةٍ ترتدي الأبيض تُبادره مُفِتِّعة المرح:

- صباح الخير يا سيدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيبة. هلاًّ تبعتني الآن لمقابلة الدكتور.

من هذه الأنثى؟ لماذا تتبسم لي؟ من أين تعرفني؟ أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟

تواصل المرأة المجهولة كلامًا لا يعني بالنسبة للرجل شيئًا:

- هذا اسمي مكتوب على أعلى الصدر: الأنسة زهور. انتبه دوماً إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكّر الطريق. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنيتك طبعاً، ستحضران المقابلة مع الطبيب وللردّ على بعض أسئلته.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر بربع ابتسامة تنتشر على بقايا خجل قديم؟ من هذه المرأة ذات الشعر الكستنائي والأخرى ذات الشعر القصير الفاحم؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات الدامعة؟

تجيب المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تداخلت الحدود وأمحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بالحيل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجبلان البصر بين الشاب الذي لم يدهما بعدُ ووالدهما الذي شارفت رحلته على الانتهاء أفضع نهاية.

يتفحص الطبيب الشاب شكله المرتعش القادم من مستقبل غامض مغالبا قلقاً لا يفهم تفاعله ثم يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللجنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن التحديق في العجوز المترابدين ارتباكاً وتوتراً:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!

تتدخل الغربية الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

- خبيبٌ مُفوّة لا يجد اليوم أبسط الكلمات. لا أصدّق أنه "با". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ تفيحه:

- معقول ألا يتذكّر أنه قابلنا البارحة! أننا نحن من أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى رجلٌ كهذا اسمه واسمي.

تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تفاعلة:

- الشهر الماضي رأيته يمزق ديوانه المفضل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظافة... بنظافة اللسان أيضاً.

يريدون العجوز مهذباً وهو يتابع لحظةً بلحظة تسلل الظلام وانطفاء الأنوار في فكره، وذاكرته تنزف كما ينزف المذبوح مما فيه من دم. هو الآن ضحية قوة شريرة مجهولة كأنها مزقت صفحات كتابٍ ثم رمته في كل اتجاه فإذا بالنصّ غير مفهوم لا للقارئ ولا لكاتبه. ها قد أصبحت ذاته تعيش اللحظة بعد اللحظة، ولا رابط بين اللحظات وكلّ فعل يمسح ما مضى من أفعال، وكل شعور يمسح الذي سبقه، لتتجمد تجربة الوجود في جليد حاضِرٍ أزلي لا يسبقه قبلاً ولا يتلوّه بعد.

هل من نهايةٍ أفضع لرحلة ظنّ الأدمي أنه خبيرٌ كلّ فظائنها؟

من طبيعة الكوابيس -قل من مهامها- كشفٌ أخشى ما تخشاه الذات... ما تحاول عبثاً رميه بعيداً في أعماق اللاوعي.

إنه كابوسي هذه الأيام وأنا أعلم الناس بحكم مهنتي أن من يضيّع ذاكرته ضيّع ذاته.

أليست الذاكرة كفعلٍ (التذكّر)، وكمادة (المعطيات المحفوظة) الشرط الضروري لوجود هذه الذات؟

ما الذات دون الملفات التي أودعت فيها تجاربها منذ بداية فعلها في العالم وتفاعلها معه؟

لا شيء في آخر مراحل الرحلة أهمّ من تجنيد هذه الذاكرة في آخر جهد، علّها تشعّ بكل نورها لتضيء الأعماق التي خرجت منها الذات قبل أن يُطفئ الموت فتيلٌ وعي حائرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجل مرضٌ حقيقٍ اسمه العته.

مجدداً تائه في فضاء خيالي، أتوسّط "مكتبة" فتحت لي كلّ أروقتها وكل خزائنها لاستعراض كل ما تملك من وثائق.

أكداس من الملفات التي احتفظت بأدق التفاصيل عن كل ما عشت طوال هذه العقود السبع التي مرت منذ الإفاقة.

بماذا أبدأ؟ طبعا بأكبر الملفات وأضخمها تلك التي حفظت على تفاصيل أولى الأحاسيس وأعمق المشاعر: رنة خلخال الأم، وقع قطرات المطر على نافذة غرفة النوم، خربير الماء لأول نهر اعترض الطريق، رائحة الحليب الساخن والبخور والمتصاعد

من الكانون مختلطة برائحة احتراق الفحم، طعم أول شاي شديدة الحلاوة شديد المرارة تطبخه جدّة جالسة على الحصر لا تتوقف عن التثرثرة، إحساس –طعم أول قبلة والشفة النافذة الصبر تضغط على الشفة المكتنزة لأول حبيبة. أه من قصص الحب! هيكليتها ثابتة لا تتغير، لكن كم من تفاصيل داخل التفاصيل تعطي لكل قصة نكهة تختص بها وحدها وتميزها عن ملايين القصص المشابهة المختلفة. من قال التغزل بالحبيب ثلاثة أشهر والعشق ثلاث سنين والخصام ثلاثين سنة ثم يكرر الأطفال نفس السيناريو. لا ليس صحيحا أن الأطفال يكررون نفس السيناريو. ثمة دوما منهم من يضيفون أو ينقصون ولو شيئا طفيفا وثمة من يبدعون في إعادة اخراج مسرحية تبدو أنها استنفذت طاقات أكبر المخرجين. ترى ما الذي أضافته قصتي لسيناريوهات التقارب والتباعد التي يعشقها الأدميون. لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحبك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه ورائك ذات يوم. كذلك الأمر مع “الذي منه كل نشوة”.

في أعماق أعماق هذا الملف شظايا ذكريات عن فراش كان يضمنا للحب، تدير لي “ح” ظهرها وأدير لها ظهري وقد أصبح لكل واحد منا شبح يعايشه سرا، يعانقه نهارا، لينام في أحضانه ليلا. هي ولدت من حرمانها ومن توقف اللقاء حبيبا جديدا وولدت من حرمانني ومن إخفاقي في تجديده حبيبة أخرى صغت ملامحها في طي الكتمان والسر. تأتيني غير غيبّة وأنا أشعر ب “ح” تحتضن شبح حبيبها الجديد بلهفة وخشوع. أسترق النظر إليه من فوق كتفها وكلي فضول جارف لأعرف من فضلت علي. ثم أنسى غيرتي من هذا الأدمي الذي تعانقه سعيدة راضية وقد أنساني الفرح بمن أتاني على غير ميعاد كائنا أصبح لا يعينني. ربما تسترق النظر هي الأخرى من فوق كتفي وقد عرفت شيئا كالغيرة من المرأة التي أعانقها وتعانقتي بكل هذا الشوق السعيد. ربما تجاوزت هي أيضا غيرة لم تعد ذات موضوع وقد أنساها الفرح بمن أتانا على غير ميعاد كائنا أصبح لا يعينها. على حدود عوالم الحلم والخيال نُسلم نحن الأربعة -اثنان من عظم ولحم واثنان من خيال ومن حلم-مصيرنا إلى تدفق سيل الزمان.

ما أقطع أن تقرّ الآن ممن جريت وراءه طويلا، أن تملّ ممن أخرجك من الملل، أن تكفر بمن عديت. وفي مثل هذه الحالة كأنّ ذاتك جذوة نار سقط عليها المطر، كأنك موجة لم تعد تحركها ريح، كأنك بركان خمد، كأنك حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة. تقيق كل ذات لوحدثها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا. وفي مثل هذه الحالة كأن حبك جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحركها ريح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة. تقيق كل ذات لوحدثها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا. تكفكف “ح” الدمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح. إنه أول لقاء منذ آخر فراق.

- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حدو النافذة. فتحت الجريدة واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عنها والقطار ينطلق. آنذاك قررت أن أجلس على أبعد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور داخلي نهائيا. تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئا كهذا أيها الويش، أيها الخائن. أنا التي كان علي أن أعطيك تفاحة وتقيحه.

- لم أكن أفرا وإنما كنت...
- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمت أن تبكي ورأسك على صدري.

- ليكن. هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولا ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعا. لله درّه، فحل إلى آخر لحظة.

- هل بوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ أتشكّين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنني مصيبة مع النساء.

- أريد أفعالا لا أقوالا.

- سترين عند المغادرة.

تفتح موظفة النزول فمها وأنا أدفع الحساب:

- حجز لصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. بل هذا ثمن الغرفة مسبقا. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيدا، فلا تسلموها قبل السادسة ظهرا.

وعند باب النزول تدير لي “ح” ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

- إلى أين؟

- ربما ظننت عندما قبلت هذا الموعد أنني تراجعت في قراري.

- من يتفهمك أحسن مني، أنا أيضا لا أريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...

- بلى، وداعا.

فراق الذات لذاتها! طلاق بالثلاث بين الأنا و الأنا! أي جزء سأرمي خارجي رافضا كل صلح معه؟ أي جزء من ذاتي سيرميني خارج العش أنا المتكلم؟ هل سأتحفف حقا من أثقالي أم هل سأكتشف أنني لا أعيش إلا بهذه الأثقال؟
عبتا أصرخ في "ح" وهي تدير لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.

- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشدك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدا والغرفة بالثمن الذي دفعوني.
مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحبّ بغير قلوب

وتحبّ ملايين المرات

وترجع كالملك المخلوع

هذا أيضا ملفت سميك بكيفية لا تبشر بخير.

إنه عن مشاكل الأدمي وهو منخرط في علاقة حبّ من نوع آخر والصعوبات دوما نفس الصعوبات.
تندافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة. إنها المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الأدمي أذنيه عن كلّ نداءٍ، وقد اقتنع أنه لا نكاء يبزّر ما في العالم من غباء، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثام، لا رقة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحه مقبولا. المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم:

- إنها لا تأكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكنا.

دخلت البننت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدر عليه؟

أحاول فتح منفذ للقلعة المغلقة.

- يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.

تدير لي تقيحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيّ كان.

يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:

- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هامة إلى مهمة أهمّ، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تحرج فتصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المذنب.

- طبعا البننت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بالوكالة، وقته للإنسانية لا لأطفاله. إنها

الآن لميئة وموتها على حسابك وحدك.

كذبوا، من شابة أباه فقد ظلم.

تنتهي تقيحه في غرفة إنعاش قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمرّ أمامي

الممرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم. أفضغ ما في العالم لامبالائه لا ما يلحقه بنا من ألم.

يا إلهي أيّ شيء جنّ من أجله هذا العالم يستأهل كلّ هذا الألم، والباقي الذي ما زال ينتظرنا في كل خطوة إلى نهاية الطريق؟

هذه المرّة فاقت ضريبة الوجود قدرة الدفع. ليبتّه كل شيء. لتنت تقيحه ولأمت حدوها.

الموت! وهؤلاء الأغبياء الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه والحال أنه وليمة من الفكر واللاشعور... "شبيعة" من

اللاوجود... تخمة من العدم... طفرة من السلام... نهاية كوابيس النوم واليقظة... الراحة الأبدية.

كم يخيل لنا أحيانا أن العالم أعدّ لنا شمس وقمره وبشره وفرصه خصيصا كأننا ضيوف الشرف في وليمة الحياة. تأتينا

الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث

الغبي أو الرصاص الطائشة أو المرض الحقير لنواجه بالحقيقة المرّة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا

ولا يهمه من أمرنا شيئا.

أفضغ ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واعي أو

مبالي لا بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعطاء ومن افتكّ منه كل ما يملك.

أي معلّقة سأضع على باب هذا العالم وأنا أصفّقه ورأيي خلّصني منه الموت أخيرا؟

حذار، حذار، عالم قاس، فظّ، لنيم، بخيل، خادع، مرهق، محبط. حذار، حذار، عالم يضع أمامك العقبة فالحاجز فالحفرة

فالمستنقع فالدهاليز فالحائط الشاهق، وعلى طول الطريق إلى لحظة السقوط في البئر التي ليس لها قاع.

حذار، حذار، عالم تأتيه حاوي الوفاض، ترحل عنه يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها، مُضَيِّعا ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن... حذار، حذار، عالم قدرك فيه جوع لا يُشبع، ظمأ لا يطفأ، حب لا يدوم، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفن... حذار، حذار، عالم لا يعبا بك، لا يلتفت إليك، لا يهّمه من أمرك شيء، سيان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض... حذار، حذار، كلّ معاركه بلا نصر وكل منتصر فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان، هو في آخر المطاف مهزوم.

أقرب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جفت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير كل ما يقدر عليه الإنسان من حب عاجز.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي نُحرك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنّينا بأكبر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أفزع ما أعيش من آلم. على العكس حُبّي الآن لها لا تشعه السماوات والأرض.

قد يكون أحسن من فهم طبيعته الأعرابي الذي سؤل أيّ أطفالك أحب إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ الهشاشة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاطم الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سعيّنا لحمايته بأعلى ما نقدر عليه: الحب.

حتى المعلم الأسمى لم يدرك طبيعة من يسميه الحق وهو يربط الإيمان به بحبه... الحق ليس هشاً ضعيفا مهددةً حياته لا ضمان لتواصله إلا حُبنا له... اللهم إلا إذا قبلنا أن حياة كل حي حياته هو، وأن حب الذوات التي تبلور فيها هو طريقنا الوحيدة للتقرب ممن هو فوق كل عبادة وكل حب.

أتوجه للراقة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعارف يوم الوصول: لغة الرضع. كأن شيئا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شيئا ما... حرّك شيئا ما... أثر في شيء ما... غير وجهة المسار. أكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تأكدت أخيرا من شيء كانت تريد التأكد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرف الإثنين.

لا أصدق أذني وأنا أسمع تقيحه تهمس مبتسمة بردّ ليس فيه كلمات.

تتجدد في شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إليّ وتبتسم.

- هل... هل؟

- ن، ن، نعم، نعم، نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقلق في عينين بدأت تدبّ فيهما الحياة من جديد.

- "با"، هل ستبقى معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكّ الإضراب؟

- نعم

- لمواصله المشوار؟

- لمواصله المشوار.

- على علاته ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علاته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تقيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئا قدر فسح الكابوس من ذاكرتي بأسرع ما يمكن. إنها قصة من بين ما لا يُحصى من القصص عن الآلم الأدمي المزمنة وطيفها الواسع. إنها قصة من بين ما لا يُحصى من قصص حب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لأبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فُرص تدارك ما مضى من أخطاء. حقا عرّف الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفتم.

لكن هذه التجربة بكل أطوارها وملابساتها ونتائجها لم تحدث إلا لي أنا... والتباين في التفاصيل داخل التفاصيل نتيجة أنني كنت ابنا لأب دون كل الموجود من الآباء، لأّم دون كل الموجود من الأمهات، وحتى بسبب دخولي العالم في زمن دون سائر كل الأزمان ومن مكان دون سائر كل أماكن الكون.

ما يميّز أيضا كل ذات عن الذات الأخرى طريقة تفاعلها مع العالم.

أفتح ملف ما يسمى بلغة العصر "الحوارزميات" أي زبدة المواقف والتصرفات التي تتحكم في كل ما أقول وما أفعل:

لا شيء في هذا العالم يدعو للتفاؤل، لا شيء يدعو فيه للتشاؤم... إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ للقيد أن ينكسر، المشكلة أن فيه من لا يعيش إلا بالقيود... البقاء للأصلح في النظرية، وفي الواقع للجبين والانتهازيين والخبيثاء الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف... الاعتدال فضيلة الفضائل وهو تنازلٌ من موقع القوة عن الكبرياء والمصالح، لكنه رذيلة الرذائل إن كان تنازلاً من موقع الضعف عن الكرامة والمبادئ... المافيا دولة بصدد التكوين والدولة مافيا نَجَحَتْ... اللغة هي النظارات الذي نرى بها العالم والغشاء السميك الذي نضعه على العينين... الديمقراطية توهم إمكانية انبثاق الصالح العام من الإرادة الحرّة لشعب تتناقض فيه المصالح ويتجاور فيه ينسب مجهولة الأنكباء والأغبياء، المتعلمون والجهلة، الأخيار والأوباش... غريب أمر من قال "لا أؤمن بالله، أؤمن بما هو أعظم" ... أو الذي زايد عليه "الله موجود لكنه ما زال غير جاهز لمهامه" ... أو الذي تجاوز ألمه كل الخطوط الحمر "من الأفضل له ألا يكون موجوداً، من يغفر لربّ شقاء كل هذه العوالم؟... الأناثية ليست أن تحب أنك وإنما ألا تنتبه حاجة الآخرين من الحب... يريونني أن أؤمن بأفكارهم وأنا بالكاد أؤمن بأفكاري... الوضع دوماً أسوأ مما نعتقد وأحسن مما نظن... يوجد في العنف من القوة ما يوجد في البونوغرافيا من الحب... لا عيشٍ لكريم في بلد شعبه غنم وحاكمه ضبع... واعمل لندياك كأنك تعيش أبداً واعمل لأخراك كأنك تموت غداً... لا يُخلَص هذا العالم مسيحٍ واحد إنّما يُخلَصه كلُّ واحد منّا شريطة أن يتذكّر أنه هو الآخر المهدي المنتظر... كل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقة الواحد إلى العدد، وإرجاع العدد إلى الواحد، والحال أن العالم على النوام واحد-عدد، عدد-واحد... نعم كم صدق أناكرسيس: القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمزّقها الكبار... ثمة من يتوهم أن العصر الذهبي كان في الزمن الغابر وثمة من يتوهم أنه في المستقبل "المشرق" والحال أنه لم يوجد في الماضي ولن يوجد في المستقبل إلا ما يوجد في حاضرنا، كل ما يتغير الشكل والإخراج... السيّد من يُعطي المثل لا من يُعطي الأوامر... إن كنت في موضع ضعف لا تستسلم، أن كنت في موضع قوة لا تنتقم... من الغباء محاولة تغيير البشر ومن الإجرام عدم المحاولة، الخ... الخ... الخ

كل هذه القناعات ردود على الأسئلة التي يطرحها العالم هذا الممتحن الصارم على كل من يدخله، إلا أنها لا تلزم سواي. كم من آراء مختلفة أجابت بها الذوات الأخرى على نفس التحديات وطيف الردود الممكنة للأدميين دوماً أوسع مما نتصوّر. الخلاصة أن قصة حياتي تستكشف نفس طيف أحاسيس ومشاعر كل الأدميين وتختلف عنها في ألف تفصيل وتفصيل... كل هذا نتيجة ارتطام الصدف بالصف والضروريات بالضروريات وترك الباب مفتوحاً لكل الممكن من التجديد. لنسّم هذا المستوى من الذات ذاكرة الأنا دون سواه... وإن استهوّتنا صورة الشجرة ذاكرة ورقة الشجرة أيام الربيع.

**

أو كيف أن الذات مصنوعة من كل القصص التي تحفظها ذاكرة اللغة وحتى ما قبل

محكوم عليك أن تبدأ الرحلة ليس فقط من مكان معين ومن زمن محدد وإنما أيضا من قصص لم تستشر فيها أكثر مما استشرت في مكان وزمن الوصول. هكذا ترانا ننخرط في نسيج من هذه القصص بعضها قديم قدم العالم نفسه وكأننا سطر يبحث له عن مكان في موسوعة لا أحد يعرف متى بدأ تأليفها أو كيف ستنتهي.

هل كانت ذاتي تتشكل كما هي عليه الآن لولا العلاقة العاصفة التي ربطتها على طول الطريق مع الرجل الذي كنت أسميه بين فخر وتهكم "أين في الناس"؟

بل هل كانت قصتي توجد أصلا لولا قصته؟

لا غرابة أن يتحول البحث عن ذاتي بسرعة إلى البحث عن ذات الذي تفرعت قصتي من قصته.

تساءل عن سبب الأسماء التي يعطيها الأب أو الأم للأطفال وستمسك ببداية خيط قد يقودك بعيدا في بحث من هذا النوع. الخنساء! لم يُعط "أين في الناس" صدفة لابنة له ماتت في سنتها الأولى اسما سقط منذ قرون من التداول، مثلما لم يعطني صدفة اسم ملك مات منفيًا.

مما يقال عن هذه الشاعرة -الأنتى الوحيدة التي قال عنها بشارة إنها غلبت الفحول- إنها ظلت تندب طول حياتها موت أخيها البطل وإنها ظلت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محو اسم صخر من ذاكرة القبيلة.

“يا عين ما لك لا تبيكين سكايا إذا راب دهر وكان الدهر ربابا
فايكي أخاك لأيتام أرملة وأبيكي أخاك إذا جاورت أجنايا
المجد حُتُّهُ وَالْجودُ عُلْتُهُ وَالصِدقُ حَوَزْتُهُ إن قِرْنُهُ هابا
حَطَّابُ مَحْفَلَةٍ فَرَّاحُ مَظْلَمَةٍ إن هاب مُعْضِلَةٌ سَنَى لها بابا
حَمَالُ أَلْوِيَةٍ قَطَّاعُ أودِيَةٍ شَهَادُ أُنْجِيَةٍ لِلوِترِ طَلابا
سُمُّ العُدَاةِ وَفَكَائِكُ العُنَاةِ إذا لاقى الوَعَى لم يَكُنْ لِلْموتِ هَيابا” .

يقيني أن "با" قرأ الخنساء، أنه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اخترم داخله ببطء، أن مناهج ومسالك فتحت داخل ذاته، أن أهدافا قاهرة تحدت لها والشعر منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صنع نوات أطفال الصحراء. يقيني أن الشاعرة البدوية هي التي رسمت ل "با" نموذجا استبطنه طيلة الرحلة يأمره أن يكون الجريء، الجميل، سم العداة وفرّاح كل مظلمة.

كم غريب أن قصة تار حدثت قبل أكثر من ألف سنة بين قبيلتين لعبت دورا أساسيا في تشكيل كم من ذات منها ذات "با" ومن ثمة ذاتي!

نواتنا إذن مصنوعة في جزء كبير منها من ذاكرة جماعية أداها الأساسية لغة تحفظ لقوم عاداتهم وأخلاقهم وتاريخهم وداخل كل كلمة من كلماتها رؤيتهم للعالم وتفا عليهم معه.

يحضرنى أيضا كم كان معجبا بشاعر آخر جعل من قصائده الكلام المقدس الذي يبرر به كل ما يقول وما يفعل.

لماذا جعل من هذه الذات الأخرى القدوة والمثال؟ هل لتعريفه في الآلام التي عذبته طوال حياته؟ ترى هل سأجد منبع ألومي في منبع آلام دليل الدليل؟

أعود إلى قصائد لا تلقى وإنما تزمجر، باحثا عن الأسباب الدفينة لعريضة متواصلة قوامها التفاخر والغضب والبحث المرضي عن المجد.

هل كانت ذروة مأساة الأدمي المعروف تحت اسم المنتنبي وقوفه اضطرارا على أبواب الملوك يستجدي من يحتقرهم، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختبر قوته المزعومة، أم لأنه رفض له شهواته أو بالغ في التقدير بها عليه؟

ينتبه للسبب أديب أعمى عريف بالآلام وما تفعله بالمعذبين في الأرض. غريب! كيف لم يسترع انتباهي يوما أنا أيضا أن الرجل فأخر دوما بنفسه لا بقومه خلافا للمألوف، أنه بكى وأبكى الأجيال على جدّة، لا على أب أو أم أو أخ أو ابن، أن ديوانه لا يبدأ بذكر حسبه ونسبه. ثمة إذن منطقة مظلمة في قصة الرجل ربما وجد فيها "با" شيئا عزز به الصلة.

لكن "با" كان معروف الحسب والنسب وكان له أب معروف وأم معروفة.

أم معروفة!

لم أسمع "ما" - على كثرة مدحها للناس-تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جدّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد وفاتها. الأهمّ، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته... أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه!

كل ما يحتويه ملفّ هذه المرأة اسم يحفّ به صمت مشبوه.

تحينّ فرصة الحفر في سرّ قد تملك "ما" بعض مفاتيحه.

- ألا تعتقدان أنه لو كان له أشقاء علّموه باكرا أن يُقاسم لَمّا أقرط في دلالة علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمّه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعي "ما":

- لم تُدّلّه يوما أم.

تعصّ على شفتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرٌ تحريكها. فضولي أهمّ من ترقّق يحضر ويغيب.

- لم تدلّه!؟ ربما كانت مريضة أو أن مرضها أثر في طبعها وفي طبعه. ربما المرض سببُ عدم إنجابها لغيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي الصوت نبرة استهجان.

-كلّا لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

- لا تغيّري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتياب ميتة. حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تستكين "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ آدمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

-كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فخرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنع أو غير مكتمل. يجب أن يكون رفضها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شدتها التي التصقت باسمها؟ جرمانه من حب بقي طوال حياته يركض وراءه؟ هل هذه الجدة التي لم أعرفها هي سببُ الوجد الذي جعل "با" طول حياته كاننا متألما مؤلما كم تسبّب لي وللآخرين من أوجاع.

- ماذا أيضا؟ تكلمي.

تنسحب "ما" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بداهة ثمة شيء لا يمكن لأّم أن تحادث فيه ابنتها... شيء ربما تهايمست به النساء يوما بعيدا عن آذان الأطفال!

لأحاول الجَمع بين مختلف قطع "البوزل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تخبّط في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمة عداؤه للنساء وتنكيله بكل أنثى رماها الحظّ العائر بين ذراعيه مكديسا الخليلات والحليلات يشبعهنّ إذلالا وخيانة وطلاقا. هل محبّتي للنساء وترقّي الدائم بهنّ مجرد ردة فعل على ردة فعل على ردادات أفعال لا أحد يعلم متى انطلقت؟

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تعترف. الخيانة الزوجية؟ جدّ مُستبعد. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والزرغاريد. مفهوم رجال ذلك الزمان والمكان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة -لا يهّم أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا-بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة، إن لم يكن بالفعل فيالنوايا.

ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهايمست به النساء، وأن المرأة التي رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

هل تقديسي للأخوة مواصلة قصّة حزينة لطفل حُرّم أخوة بقي طول حياته لا يكف عن البحث عنهم؟ هل غضبي صدّي لغضب طفل وجدّ نفسه يتخبط في مشاكل لم يكن له أي دخل في وقوعها ولا ناقة لي ولا جمل فيها؟ ما أغرب أن تُشكّل أحداث لا دَخَل لك فيها ما بك من خصال وعيوب! ما أغرب أن يقول البعض بحريته وكُلنا مُسيرون بأحلام وكوابيس من سبقونا.

إذن أترت قصة جدتي بكيفية جذرية في تكوين شخصية "با" لتطبعني بها من خلاله إلى الأبد.

ماذا عن الأحداث التي صنعت قصتها هي والتي قد تُفسّر جزءا كبيرا من تشكل ذاتها؟ على أيّ أوجاع كانت تنام جدتي "كالي"؟ ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جافّة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبعها، من ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي عُرفت به، صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو

الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟ الأهم من هذا كله، هل كانت هذه المرأة تدرك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستتسبب في سلسلة من المصائب لكم من نساء وأطفالٍ أبرياء على امتداد أجيال؟ ماذا عن جدتي الأخرى: النقيض للتي لم يتخبط في جوفها إلا "أين في الناس"؟ مؤكدا أنها هي الأخرى وضعت بصماتها على ذاتي.

تفتح الذاكرة ملقا لا خشية مما سيخرج منه من ذكريات وكلها تعد بتجدد أحلى تجارب الطفل. كانت أم "ما" فارعة الطول، ثرثرة، مرحلة تبرز من قريتها لتفقد أحوال تعلم صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بالخيرات التي كانت تحملها، بجو الفرح والحنان الذي كانت تخلقه بمجرد ظهورها. تجلس العجوز المرحلة على الدوام على الحصير البالي تعدّ الشاي وهي في قمة السعادة بعودة ابنتها وبرؤية بعض من أحفاد أرهقت كثرتهم ذاكرتها فيقيت تخط بين الأسماء إلى نهاية العمر.

تخرج علبة معدنية صغيرة تفتحها بمنتهى الوقار، تتناول منها مسحوقا أخضر داكنا تمسكه بين إصبعين ماهرين، ترفعه بتمهل إلى أنفها تستنشق رائحته بلذّة واضحة. يغافلها الطفل ليسرق بعضا منه يدسه في أنف فيباغته الالتهاب والعطس. تضحك الأم وأم الأم إلى أن تستلقيا على الظهر ثم تتسابقان لتقبيل الطفل الغاضب. إلا أن ما كان ينتظره بفارغ الصبر هو أن تنزع الجدة المحبوبة عن رأسها وشاحا بالغ القدم تعتمره وتتدلّى ذوائبه على كتفيها تخفي في طياته كنوز الأرض قاطبة. كانت تفتح عقدة في هذا الوشاح، تخرج منه قطعة نقد هي ضريبة تتخلّص بها من طفل مشاكس تحبه وتضيق ذرعا بكثرة شغبه. كان الطفل يلتقط القطعة أو قل يخطفها مطلقا ساقيه للريح وكله مشاريع حول ما سيشتري بها من ملذات الدكان القريب، تاركا نصيبه من الحلوى تحت حماية المرأتين، عالما أنه يستطيع الثقة بهما... في مثل هذه القضايا على الأقل. ثم كان يركض مجددا للجلوس بالقرب منهما على الحصير الخشن يصيح السمع لحديث هامس عن فرج أت لا ريب في الأمر. فرصة ثمينة لمواصلة الاستجواب حول كل هؤلاء الأقارب الأبعد الذين مهدوا له الطريق والذي يشعر بأنهم سيواصلون مرافقته عليه إلى آخر يوم.

- "ما"، إذا كان لك أم فلا بد أن يكون لك أب مثل "با". أليس كذلك؟
- طبعا يا حبيبي. أنا أيضا لي أب، إنه جدك وهو زوج جدتك مني.
- لماذا لم يأت لاستقبالنا. هو أيضا في السجن؟ هل سيأتينا بعد إطلاق سراحه؟
- لا يا حبيبي. سافر جدك إلى جنة الخلد قبل سنتك الثانية.
يداهم الطفل شعور مزعج أنه يكلف هذه المرأة ما لا تحب. أليس من حقه أن يعرف كل التفاصيل عن هذا الغائب الآخر؟ ما سبب ذهابه إلى "الأخرة" وكيف كان شكله وطوله ولباسه وطبعه لوضع بعض الملامح على الوجه الغائب الحاضر.
- وماذا أيضا؟

- كان يلبس برنسا أبيض ويضع في عبه الحلوى التي يأتي لك بها خصيصا.
- وماذا أيضا؟
- كنت تضع يدك مباشرة داخل العبّ لأنك تعرف أنه زاهر بما تنتظر.
إذن هذا الشيخ الذي لم أره قط هو الذي علمني ألا أدخل بيتا فيه طفل إلا والحلوى ملء جيوبي. كانت هذه لمستته في تشكيل ذات عركتها من الأيادي ما عرفت وما أجهل.
- وماذا أيضا؟

- يا بني، قلت لك كل ما تريد سماعه عن جدك محمد.
كل ما يريد سماعه! لا يبقى على الطفل سوى استدعاء العجوز في المنام ليقول له هو مباشرة ما كان بأمر الحاجة لمعرفة. أواجه الرجل الذي لا شكل له ولا ملامح، فإذا به ملاك ملتج مغال في الوداعة والطيبة ملتحف ببرنسه الأبيض. لا أقبله، لا أرتمي في أحضانه، ولا أتركه يلاعيني ويدغدغي. لا أقبل منه أن يناديني بأحلى الأسماء، بل أرفض أن أمدّ يدي إلى برنسه لأجد المكان الذي يخبئ فيه الحلوى. ها هو ذاهل أمام سيل من التهم يفاجئه بها طفل شيخ تقادفته موجات الزمان وأخرجته من التتابع المألوف للقصص.

كفى تهريجا وتمثيلا أيها العجوز، لا أريد حلواك وإنما أن تقول لي ما نحن بصدده. أي قصة قصتك؟ من اين خرجت وكيف جئت هذه الربوع ولماذا تزوجت جدتي وكيف كانت جدتك وهل كانت أيضا تحبّ النفّة وتطبخ الشاي الأسود المرّ؟ من حسن الحظ أن لي عن الجد الآخر الذي كنت أسميه جدّي حمد صورة أوضح ومن ثمّة قدرة أكبر على رصد كل ما تركه في ذاتي من آثار.

كانت حياته قصة صراع غير متكافئ مع الصحراء، مع الفقر، مع محتلين أجنب، مع محتلين من بني جلدته، مع ابن مشرد في أصقاع العالم تأتيه أحيانا أخباره من سجن أو من منفى.

أقدم الصور الصفراء عن لرجل طويل، نحيف، حفر الزمان في وجهه من تجاعيد الألم أعماقها وأعقدتها شكلا، يمشي دوما مرفوع الرأس، واثق الخطى، يحفت به وقار هادئ، حاملا مسحاته القصيرة المحدودة وكأنه يحمل سيفاً، عاندا من "الغوط" حيث أمضى يومه في تعهد نخلات عجاف.

كان يواجه دوما كل ما تنفتق عنه مخيلة الطفل من أنواع الشقاوة بابتسامة تقول واصل ولا تهك أوامر الزجر. لكن الأمر بالصمت كان صارما لا يقبل جدلا وهو يجلس لترتيل جمل من كتاب أصفر رث من النوع الذي تخفيه "ما". هكذا تعلمت. وأنا لم أتجاوز الرابعة- أن علي أن أصمت حين تحضر القراءة. أذكر أنني كنت أعافله وهو يبدأ حركاته الغريبة وقوفا وركوعا وسجودا وجلوسا لأفتح كتابه هذا أورق الصفحات ببطء، ثم أبدأ الترتيل بلغة لم يسمعا من قبل جن أو إنس، ولن يفك يوما رموزها عالم لسانيات، وكلّي أمل أن تتواصل حركات الشيخ إلى ما لا نهاية حتى أوصل لعبتي.

كم كنت أحب مرافقته في أول هزيع من الليل، خاصة في تلك الفترة الزائفة من السنة المسماة رمضان، إلى حيث يلتقي الشيوخ لمواصلة الترتيل والأطفال لمواصلة اللعب. وفي ساحة ضريح جد الأجداد الذي كان أول من حط الرحال في واحتنا، كنا نمرح بانتظار فراغ الكبار من صلاتهم، وكان الرهان الاستيلاء على قطع النقود التي ترميها العجائز فوق قبر الولي. كان الشيخ يخرج عند انتهاء التراويح من حلقة الشيوخ، يأخذ يدي برفقه المحبب ميمما الحوش نقطع كئيبان الرمل، والنجوم هي التي تضيء لنا الطريق، تكثف الصمت داخله وداخلي. لم أعرف للوقار وللجلال رمزا إلا هو على كثرة من رأيتم يفعلون أمرا كان عنده فطرة وغريزة.

يا ما سمعت "ما" تردد قصة وصوله بيتنا ليلا قادم من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف نام تحت حائط المنزل والبرد على أشده، وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مقرورا يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنه خاف إرعابنا بالدق على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوار الفجر. هذا الرجل كان أبا لشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمتلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقبلوا كتفه الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالما. ثم يأمر "ما" بنزع حدائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزبد لتلكوها.

ما من شك أنني أدين بأحسن ما في ذاتي لهذا البدوي الذي لم يملك طيلة حياته إلا حمارا وبعض النخيل وحوشا متداعيا. المشكلة كم من مناطق مظلمة في قصة هذا الجد أيضا وهو من النوع الذي لا يتحدث كثيرا لا عن الآخرين، لا عن نفسه. حتى لو عرفت قصته وتفاصيل قصة الجدة المعذبة بسرا ما وبوجع لم يفهمه أحد، لأحالتني قصتهما بالضرورة إلى قصة الذوات التي صنعت قصتهما. من أين لي معرفة قصصها وأنا لا أعرف حتى أسماء أصحابها؟

بداية ما أسميه الأنا في جزء أساسي منه مكون من الأنا الآخر. ذاتي إذن كقطعة نسيج نسجت أقراب الذوات إلي... هي تحمل داخلها وإن بصفة مبهمه قصص هذه الذوات بما فيها من آمم عيشية، من أحلام مجهضة، من خيارات كارثية ومن نجاحات ساعدتني من أين اعلم ولا أعلم.. لكن إذا كانت ذاتي نسيجا من الذوات الأخرى فذاتي موزعة بالضرورة داخل كم من ذات.. كم من ذات أخرى أوت أو ستأوي جزءا من ذاتي لا علم لها ولا علم لي بما يتسبب داخل الأعماق؟ ذاتي ضرورة المادة الخام التي يتكون منها نسيج كم من ذات تواصلني وتصار عني وتقلدني ولا تشتهي إلا ما أشتهي ومني تتعلم جزءا من خيرها ومن شرها.

الآن وقد أمسكنا ببداية الخيط لا بد من مواصلة تتبعه على أمل مجنون أن نفك كل كبة الغزل ولم لا الإمساك بالطرف الأول من الخيط.

بحثا عن القصص التي صنعت أجداد الأجداد الذين صنعوا قصتي وبلورا ذاتي لا معين غير أخبار تتناقلها الذاكرة الجماعية التي ترسبت بعض مقاطعها في ذاكرتي.

مما تقول هذه الذاكرة الجماعية أن أجداد جدي وجدتي كانوا قوما سكنوا أرضا بعيدة شرقا تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضيق في مجاهل لا يتخيلها خيال. كل قصص هذه المرحلة من رحلتنا الجماعية تتحدث عن إبل وخيام وصحراء مترامية الأطراف ورجال يبتهلون لآلهة اسمها ذو الخلصة وهبل واللات والعزى. كل الملفات ترن بقعقة الشعر وترن السلاح. كل الصور لنساء لهن عيون المها وشعر يغار من سواده الليل، لرجال لهم وجوه كأنها نحتت بالسكين، صور قوم إذا شجعوا تهوؤوا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا تأروا كفروا وإذا حنوا ذرفوا الدمع مدرارا، لا يضاھيهم بشر رقة وتوحشا.

تري كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي لا البيت يعلم ولا الأشباح... ترى أي أشباح لي تسكن كم من نوات لا علم لي بتأثيري فيها ولا علم لها بمن كنت حقا! ماذا لو كان الأنا مجرد أداة تنسيق بين قصص تتصارع داخل كل ذات؟

وحسب ما تراكم في الذاكرة الجماعية أن هؤلاء الأجداد هاجروا من فيافيهم القاحلة نحو فضاءات الماء والطين عاثوا فيها فسادا وأن ملكا من ملوك الماشيين وراء أذنان البقر، أطمعهم للتخلص منهم في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء، فيها سبانيا بيض البشرة لهن عيون بلون البحر بارعات في فنون الحب. تقول القصة الجماعية التي تفرعت منها قصتي الفردية أن هؤلاء الأجداد افتعلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر... أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجزون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير، أن جدة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمر اسمه من اسم الهلال جمع الجرأة والدهاء وأنه هو الذي رسم العلامات لتتدفق جحافل الفرسان... أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيفهم يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فعلوا لا يصدقون أنهم ما يزالون أحياء... أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة... أن السيف عاد لغمده يوم تبين أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حط الرحال وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثم فكل مكان هو المكان.

كيف لا يكون "با" الرجل الذي لا يستقر في أرض وقد ولد من كل هذا التشرّد؟ كيف لا يتواصل حبّ الرحيل داخلي أنصب في فضاء الخيال خيمة سوداء على سطح أبعد كوكب والكون برمته صحرائي رملة نجوم وكتبائه مجرّات؟
بديهي أن لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتي. فجأة ينقطع الخيط الرفيع وقد أصبحت المعطيات الضرورية لتواصل البحث موزعة في ذاكرات لغات وشعوب أخرى.
بقدر ما نتوغل عميقا في الماضي بقدر تبهت التفاصيل ثم تضع في الضباب. أنت كمن يحاول تتبع طريق رسمته آثار المرتحلين لكنك تنتظر إليها من جبل شاهق ثم من طائرة تحلق في أعالي السماء.
لا أداة إذن لمواصلة الاستكشاف غير المعطيات التي تجمعها نخبة العقول وهي تنقب في صخور الجبال، في رمال أعماق المحيط، في الهواء المحبوس في جليد العصور الماضية، في رميم كم من حيوانات منقرضة وكم من بقايا شبه آدمية للكائنات الأولى التي فتحت لنا الطريق. هذه النخبة التي نسميها العلماء هي التي تبني أسس ومعالم ذاكرة جماعية مهمتها الأولى استحضار القصة الكبرى التي تولدت منها كل قصصنا.

ومما يرويه بعض هؤلاء الثقات أن أجداد أجداد الأجداد خرجوا منذ عشرات آلاف السنين من ربوع سواحل قارة اسمها أفريقيا، أنهم ولّوا وجوههم نحو الشمال بحثا عن صيد يأكلونه وهربا من صياد يأكلهم، أنهم مشوا قرونا وقرونا يتبعون الشواطئ متوغلين من حين لآخر في أعماق الأراضي البكر، حافز الروح الفضول، وحافز الجسم الخوف والجوع والعطش. أي قصة سأنتقي لي من بين كل التي تملأ الفضاء المثير لتكون منطلق قصتي؟
لنختر تلك التي فقد فيها جدّ ما من سلسلة الأجداد رجله اليسرى في معركة مع الفهد. وهذا جدّه قبل أن يأكله الأسد وهو في ريعان الشباب. أين في الناس جدّ مثل جدي ذلك الصياد الذي كانت تفرّ أمامه الأسود؟ انظر إلى هذا البطل الذي كان جدّه وهو رابض وراء أكمة، ووتر القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المغطاة بالعشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحكم الذي سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة.
لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتي.

يقال إنهم نزلوا يوما من أشجار الغابة بمنتهى الحذر مقتربين من حدودها يلقون نظرة خاطفة على السهول المفتوحة على الأفاق، أن أشجعهم انتصب واقفا لأول مرة في تاريخ الجنس ليرى هل ثمة ما يتحرك داخل الأعشاب العالية، أنه ألقى نظرة جسفة على جيفة تعدّ باللحم ونظرة خائفة حوله يرصد من يترصدّها من كائنات جائعة هي الأخرى لها خناجر مثبتة في الأشداق وسيوف مثبتة في القوائم.

لا بدّ من مواصلة الحفر، فلهؤلاء الأجداد أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتي.

تتعطّل كل امكانيات الخيال وكل مسار يضيء داخل ضباب كثيف لتاريخ مغرق القدم.
عن نقطة من هذا المسار وفي مفترق جديد من ذاكرة الخيال وخيال الذاكرة، تقترب أنثى وجلة بحذر من غدير تريض التماسيح على ضفته. إنها لوسي جدة كل الأجداد... تلك التي تسميها القصص حواء... في وجهها قسمات تنذر بقرب بروز ربع ابتسامتها على وجه هادئ وقور، وملامح ابتسامتها واسعة وضحكة مرحة دائمة، كأن صاحبيتها سمعت لتوها نكتة أعجبتها.

من أين لنا التوقف عند أي محطة لنقول هنا منبع السيل؟ كل بداية لا تنبثق من فراغ. لا بد لها من ظروف مهيأة ولا بد للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها.. وهكذا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟ ربما إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهاية... إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفهومين. ربما هما-مع كم من مفاهيم أخرى-سراب من صنع الخيال والفكر.

يستقبلني مدير المتحف بكل أدب ملقياً نظرات الريبة على جحافل أعوان الأمن الذين شاء حظي العاثر أن يتبعوني معارضا يخافون مني، وحاكماً يخافون عليّ. يا للفرصة الثمينة وأنا أستطيع على هامش اجتماع يوصّف بالهامّ وحتى بالقمّة، أن أزور هذا المكان لسماعي بما يحتوي من أشياء لها بالغ الأهمية في نظر كل الباحثين مثلي في الشؤون الإنسانية. لا بدّ أن أستعيد أنفاسي المتقطعة قبل أن أستطيع التركيز على ما يقوله الدليل. اللعنة، نسيبٌ أنه لا يجوز الركض في مدينة على هذا الارتفاع وأنا لم أعش أغلب عمري إلا في السهول بين الصحراء والبحر.

على طول الحائط خزائن حديدية كالتّي تُخبأ فيها السندات والأموال المسروقة. ما بداخلها بلا ثمن وهي تحتوي على رميم أوائل أوائل الأوائل: الكائنات التي انتصبت يوماً على قدميها تطبع على الثرى أولى خطوات طريقٍ ستتتابع عليه أجيال العابرين على جسر الوجود.

- سيدي، نحن جدّ فخورين بأننا نملك في هذا المتحف أقدم الآثار عن بداية الإنسان. كما نفخر بأن بلدنا هو اليوم بشهادة كل العلماء مهد الإنسانية.

ادّعاء مشكوك في صحته وأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأغلب الظن مجرد محطة من بين كم مجهول من المحطات. على كل حال هذا علم يتغير باستمرار ولا زالت هناك كثير من الاكتشافات التي قد تحمل لنا مفاجئات ضخمة.

كم غريب أن طبيعة ذاتي وسرها المكنون ليس موجودا في الماضي وإنما في المستقبل، وكلُّ اكتشاف جديد وكلُّ نقلة نوعية في خلق التصورات تقلبُ رأساً على عقب كل قصصنا عن قصة القصة التي تفرعت منها كل القصص!

الدوار وأنا أحاول تصور قصص هذه الكائنات وكيف ارتبطت بقصص الأجناس الحية الأخرى وبقصص الحياة نفسها وبقصص الكوكب التي نشأت فيه هذه الحياة وبقصص الكون التي سمحت لهذا الكوكب بالوجود وباحتضان وجودنا.

لنسمّ هذا المستوى من الذاكرة بكل ما فيه من معطيات ثابتة ومن فراغات واسعة ذاكرة "نحن جميعاً" أو في صورة الشجرة ذاكرة الأغصان والجذع.

**

أو كيف أن التوغل في أعماق طبقات الذات مثل الغوص في بئر بلا قاع

تلك الليلة تراجع الموت كالنسر، انقض على شحور لم يلمسه إلا بجناح.

تتفحص الذاكرة ملفا عن حادثة كان بوسعها أن تكون نهاية الرحلة.

فجأة داهمتني من الاتجاه المعاكس للطريق دابة الحديد بسرعة مرعبة. وبينما الأنا في حالة ذهول وشلل مسلما بنهاية الحياة، برز من الأعماق مجهول شعرت به يُملي على العضلات المتشنجة أو امره فلا يخطئ الحساب ولا هي تتوانى عن طاعة، وقد تعرّفت على سيدها الحقيقي. هي الآن تتدافع إلى عمل سريع، فعّال، منسق، ناجح، منفذة بدقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

تنصاع الآلة التي كنت أقودها، كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات. هكذا شعرت بها تثب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، تستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثم تتوقف بالضبط حيث يجب التوقف.

في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت الآلة التي كادت أن تكون لي كفنا، استعاد الأنا وعيه، لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرر، ليتجدد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والعجب.

كم من تجارب مع هذا الذي يعرف داخلي كل ما أجهله!

في ملف من الماضي القريب عُدتُ الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرب لذة دوارٍ حَصَرَ هذه المرة ولا لذة تصحبه. يميد العالم بي وقد أصبح بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. كأنّ الجسم أسلم قيادته إلى عاصفة هوجاء تكوّنت داخلي ترفعني مرّة إلى عنان السماء وترميني أخرى في أعماق هاوية.

لا مجال للانتصاب والعاصفة الهوجاء داخلي ترميني كل مرة على الفراش. تأتيني أوامر مبهمّة من قوة غامضة بالكف عن التدخّل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ بمجهول يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرّف. لستُ من الآن فصاعدا غير مجرد مُشاهد يتابع قوَى تتصارع داخله منتظرا حسمها.

شيئا فشيئا ودون تدخل أي طبّ أتى اليوم الذي استطعتُ أن أفهم فيه مجددا على قدمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترنحا لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق.

كل هذا لأن "شيئا" ما داخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحا ما أفسده عطب غيبي.

وفي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج ساخن كريبه الرائحة يُخرج الأمّ من صوابها وهو يرفض الكفّ عن السيلان. تلك الليلة جاءنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيده. ومما بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلم معه باحترام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عبس وقطب الجبين وهي تعطيه ما حسبه كثيرا من المال، أنّها اعتذرت بفقرها، أنّي كرهتُ الرجل لما أحدثه في "ما" من حرج وأنني أحببت تلك اللحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تدفق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال.

كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقف الدم عن التدفق من أخي إلا بعد تدخل الغريب، والحال أنه خرج مني أكثر من مرّة ثم توقّف دون حاجة إلى أحد؟

يوم بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتدفق ولماذا لا يتخثر في الأوعية، وكيف يرتبك الشيء المجهول أحيانا فلا يكفّ عن السيلان مما ينذر بكثير من الويلات، أصخّنتُ السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حواليّ انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.

لا أحد علّمنا كيف نوقف النزيف أو كيف نشغل العينين والكليتين والقلب والستمانّة عضلة التي تحرك أجسادنا ومع ذلك نحن نشغلها تلقائيا وبكل سهولة أعضائه كما لو كنا أعظم المخترعين وأذكي المهندسين وأمهر التقنيين.

"قد كان ينور يوما في خلدي (عمر الخيام)

ان اخرق درع الفلك الدوار

كي اعرف معنى قلم بيسطر ما

باللوح وسر جنة ونار

حتى هتف العقل بأن قد جمعت

في نفسك كل هذه الأسرار"

في نفسي كل الاسرار لكنها محرمة عليّ لسبب غير واضح لحدّ الآن.

كم مرة خيل لي أنني ذلك الحمارَ الشهير الذي يحمل أسفارا لن يفك يوما ألغازها.
عودة إلى الصراخ العقيم لمشاكسة العبقري الصامت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم اللعين وأنا أحصلُ على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعدل. لو كنت ابن حلال، لهمت لي بكل الأسرار فأصبح أنا العبقري لا أنت لوحدك.
من أو ما هذا الذي يعلم داخلي ويمنع علمه من الوصول إلى فكري الواعي؟
يا ما حملت أنه فتح لي خزائنه، أنني وجدت طريقة ما لأقنعه أو لأجبره على صب ما تعلمه في وعيي فيعود الارتباط بين العمق والسطح.

ما أغربها وضعية والمرء كالجالس على كنوز قارون، يقضي عمره في البحث عن المفتاح والذي في جيبه لا يفتح شيئاً!
قد يكون للمجهول الذي يسكنني أسبابه الوجيهة في إسدال ستارٍ كثيف بين مستويات الذاكرة.
إن في صدري يا بحرُ لأسراراً عجاباً (إيليا أبو ماضي)
نزل السّتر عليها وأنا كنتُ الحجاباً

ربما لا جدوى لذاكرة مطلقة قد تغمر وعينا السطحي كما تغمر موجة التسونامي سباحا غير ماهر.
من بحاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها على ظهره كل لحظة من السفر بحجة إمكانية احتياجه إلى هذه المعلومة أو تلك.
جهلنا الذي نشككي منه خيارُ العلم الذي فينا... لحمايتنا؟!
كل ما نحن متأكدون منه كل واحد منا -ولو اعتبرناه أكبر "جاهل"- يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده ضد ما يزخر به العالم من فيروسات وجراثيم وطفيليات، كيف بنمو تدريجيا، كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، كيف يتدارك التهابا في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة، فيمشي مستقيما لا مترنحا كالسكران.
لذلك لم أحمل يوما على محمل الجد مقولة سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئاً" لا لشيء إلا لإدراكي الغريزي أن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بكثير من الأشياء.
ذكر كل متحلق ينشد "يا من تدعي في العلم معرفة الخ" بعمق المعرفة الهائلة التي نخزنها كلنا حتى ولو كانت أغلب الوقت محرمة على الوعي.

نحن كائنات تعرف... وتعرف أنها تعرف... وتجهل أنها تعرف... ولها أيضا تقييم متواصل لمعرفتها.
نحن نعرف أن هاته المعرفة المذهلة اللاواعية التي تسكن أعماقنا ناقصة بالضرورة وإلا لما كنا بحاجة للأطباء ولما وجد الموت أصلا.

نحن أيضا أمام معرفة يتضح أنها تخطئ عندما يولد رضيع مشوها... وأنها تعجز عندما لا تجد الإجابة الفعالة لصدّ هجوم فيروس قاتل... وأنها تضعف عندما تشيخ الانسجة والأعضاء... أو أنها تقشل مثلا عندما تكف الكلى عن العمل.
أهم من هذا كلّهُ نحن أمام خبرة تطلب اكتسابها مئات الملايين من السنين. ذلك ما تظهره الأبحاث الأكثر تقدما في العلوم الطبيعية وهي ترصد ما تطلبه من زمن هائل المرور من أبسط الكائنات إلى أكثرها تعقيدا، من الخلايا البسيطة للجراثيم إلى الدماغ البشري.

نحن إذن أمام علم يراكم نفسه بمر الزمان ولسنا أمام علم مكتمل من الأزل أغلق خزائنه على حقائق ووصفات ليس للزمن عليها أي سلطان.

مثل هذا التطور لا يكون إلا بوجود ذاكرة تخزن معطيات التجارب الماضية بما فيها من نجاحات و إخفاقات ويمكن لقوى التجديد الانطلاق منها لخلق الأكثر طرافة وتعقيدا وفعالية في تقصي الأهداف المنشودة.

هذه الذاكرة بالضرورة أوسع وأدق ذاكرة موجودة في عالمنا وهي تختزل كل ما تعلمته الحياة منذ بداياتها الأولى.
لنسما في صورة الشجرة ذاكرة الجذور التي تنطلق منها العصارة المغذية للجذع، للأغصان ولكل الأوراق.... أو ذاكرة "الشيء".

"الشيء"؟ مفهوم سنحتاجه لاحقا ليكون حجر الزاوية في بيتنا الفكري.

ثمة صورة أخرى تعيننا على تعميق فهمنا لطبيعة الذات: جبل الجليد.

كما لا نرى من قمة جبل الجليد إلا قمته الطافية فوق سطح البحر، نحن لا نرى من الذات - قل ما لا نعي- إلا القمة الطافية فوق سطح الوعي أي ذاكرة "الأنا دون سواه" بما هي تراكم وتواصل الأحداث التي تصنع قصتنا الفردية من المهد إلى اللحد.
هذه الذاكرة محمولة على طبقة موجودة في أغلبها تحت خط الوعي وهي ذاكرة "نحن جميعا" المكلفة بحفظ القصص التي صنعت قصتنا من أقربها إلينا إلى ابعدها زمانا ومكانا.

أخيرا لا آخرا أعمق الطبقات: ذاكرة " الشيء " التي تربط كل ذات بعلم صامت لا واعي لا يفهمه عقل ولا يتصوره خيال.
"لما رميت جانبا هذا الكيان البالغ الصغر
الذي أسميه الأنا
أصبحت كل العالم الشاسع "

**

في ضرورة إيجاد قصة جامعة تربط بين المستويات الثلاثة للذات

إذا اعتبرنا أن الذاكرة هي تواصل الماضي في الحاضر لإعداد المستقبل، ما المستقبل الذي تعدّ له الذات بذاكرتها الثلاثية الأبعاد؟

يحيلنا السؤال ألياً للمثل الإفريقي القائل: أنت لا تعرف إلى أين أنت ذاهب طالما لا تعرف من أين أنت قادم. يجب أن أعرف إذن من أين نحن آتون، أي متى ولماذا انطلقت قصة القصص التي تحتوي قصة " الشيء" وقصة الجنس الذي حشرنا فيه وقصة ذاتي وذاتك.

مما قيل لي أنني قد أجد بداية أجوبة شافية عن بداية كل البدايات في أرض أنجبت بعضاً من كبار المتسائلين والمجيبين عن لغز الألغاز هذا.

يصل بي الطريق يوماً إلى أرض سبتنا حاجاً لقبر رجل علم البشر أن العنف ليس القوة بل الضعف في حالة هستيريا... وقتله آدمي مُصاب بتلك الهستيريا.

أستوقف بمنتهى الأدب أحد المارة.

- سيدي أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهرة؟ أنا مجرد زائر غريب مررتُ من هنا بالصدفة. لا أريد نفسي محشوراً في اضطرابات طائفية أخرى.

يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهرة، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسافرو يومٍ عاديٍّ، ماذا لو جئت في الأعياد؟ فجأة عودة الانتباه.

تعود إلى الذاكرة دهشة طفلة في الرابعة أمام مشهد شبيه بهذا الذي اتابعه بين تعجب وإعجاب. يومها صرخت تقيحة ونحن نتمشّي في شارع تجاري مكتظة: "با"، ماذا يفعل كل الناس هنا؟

وقبل الحادثة بعقود ألقى الطفل الذي سيصبح والدها نفس السؤال على أم ترددت قبل أن تتخلص بإجابة ما.

نعم، ماذا يفعل كل هؤلاء الناس في هذا العالم؟ من أين أتوا وإلى أين هم ذاهبون؟

خيالي مصاب هذا الصباح ببعض سوء المزاج ومن ثمة توجهه لتصورات ليست بالأحسن للمعنويات.

كأنّي أسمع في فضاء خيالي موظفي مركز شحن سماوي ما يصرخون في بعضهم البعض:

- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي آد-3100-2154879365 الذي يقاوم ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول

إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد نضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.

يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كان العكس هو نواة كل هذه القصة.

إذن السيناريو كالتالي:

- تُرى كم من رشاي وتدخلات وتراخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي آد-3100-2154879365 تأخر وسيفوته موعد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع

رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

سواءً أتوه طوعاً أو كرهاً، الثابت أن عدد الداخلين هذا العالم بدأ يفوق طاقة استيعابه والدليل أن ثلث الأدميين هذه الأيام لا

يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشبعانيين بإرهابهم وبمظاهراتهم وثوراتهم التي لا تتوقف.

لهذا نشرتُ منذ مدة على موقعي في فضاء الصّفر والواحد، إنذاراً صادقاً وإن بتوقيع مزيف.

“نظراً إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فإن العالم يعلم أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوّار

وذلك إلى أجل غير مسمى”.

وجودي الآن وسط هذه الهريسة الأدمية هو الدليل الساطع على عدم نجاعة هذا الأسلوب.

لم يبق إلا نصح من أستطيع نصحهم عليّ أنقذ فرداً على الأقل، وقد استعصى عليّ إنقاذ هذا الجنس المسكين برمته.

أسلط النظر على امرأة تدفع أمامها ببطنها المنتفخ، تهدّد بمولود جديد عالماً شبع من المواليد الجدد، ناهيك عن الكثرة المقرفة

فيه للمواليد القدامى.

أتوجه إلى المعنى بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطاف مستعملاً هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد:

لم تقرأ الرحلة؟ لم أبلغ في شيء، أسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدقني، من الأحسن أن تبقى في دنيا الغيب إلى أن تحين

فرصة أخرى. ربّما ستنتج العتمة في تخيل عالم أقلّ خطرا وفضاعة، أمّا هذا! ثم هل فكّرت في ضرورة وقف هذا الزحف المهول، لمجرّد ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشبح متجاهلا ما في قلبي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثمّ أشعر بالمتهور بهزّ كتفيه. يجب ألاّ أحبط وأن أوصل تحمّل مسؤولياتي تجاه الجنس البشري.

يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهز للسكن. ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلاّ فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحسّت أنني أريد بذريتها شرّا.

قل لأمك أن تهدأ. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أذنها أنني أريد خطف حبيبتي وأن عليها أن تطلب بوليس النجدة. يا غبي، لا أريد بك إلاّ خيرا. وأنت لا تريد بي إلاّ شرّا! أه منكم يا أولاد حواء.

قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، النجدة، هذا الأجنبي وفي مثل هذا العمر يعاكس النساء الحوامل! لم يبق لي إلاّ الإسراع في البحث عن منفذ أهرّب عبره من سيّل بشري لم أر له مثيلا من قبل.

تتابع الأفكار وكأنها هي الأخرى اكتسبت من هذا الزخم حيوية متجددة.

فرضيتان بخصوص كثرتهم في هذا العالم أرفض الخيار بينهما وقد داهمتني موجة من الجبن والهلع.

الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين العالم: الرهان على الأعداد الكبرى.

كما لا مفرّ من غربلة أطنان من التراب للحصول على شيء جد قليل من التبر، لا بدّ من مئات الملايين النجوم لتشكل حفنة من الكواكب التي تدور حولها القادرة على توفير الشروط الدقيقة لظهور الحياة... أو لا بدّ من مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة. كذلك لا مناص من عشرات الملايين من البشر الذين لا يُضيفون شيئا للحياة أو للحضارة، ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ أو شاعر اسمه إيسا أو آدمي أصبح إنسانا اسمه ابن عربي.

بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلاّ لأنني لست متأكدا في أيّ خانة يصنّفني العالم وهل أنا من التبر أم من التراب.

الست القائل أن لكلّ الأدميين نفس قيمة الزمردة لفتت في خرق قدر أم وضعت داخل صندوق من فاخر الخشب؟

الفرضية الثانية التي سأدافع عنها لأنها في صالحها وصالح كلّ قرائي والبشر أجمعين هي التي تقول إن المهمة التي كُلف بها الأدمي من قبل قوة مجهولة (أو كُلف بها نفسه مفتعلا أن هناك قوة مستقلة عنه كلفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهّد بها آدمي واحد ولا حتى أعداد صغيرة.

لذلك كان من الضروري نسخه أكبر عدد ممكن من المرات وتجديد الأجيال كما تتجدد أفواج عمال المناجم، والقدامى يحاولون للتقاعد لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاق اللعين.

طيب، لكن ما هذه المهمة العظمى التي تحتاج لمثل هذا التجنيد، لمثل هذا الجهد جيلا بعد جيل، لمثل هذا الثمن الباهظ من امتحانات ومحن تستهلك منا جل زمن الرحلة؟

ترتفع الأيدي ويتعالى الصراخ داخل فضاء خيالي وهو ليس أقلّ عنف وفوضى من الفضاء الحسي: نقطة نظام، نقطة نظام! هذه مواضيع حسمت فيها كتبنا المقدسة فعدّ إليها! لا! القول الفصل لكتبنا نحن، أما هؤلاء فجهلة أو كفار!!!

أوف، خرجت من الزحمة المرعبة، لم يبق حولي إلاّ بعض المئات من المتدافعين الراكضين المهرولين لغاياتهم المبهمة.

يتوقف أحدهم لغريب تائه يسأله هل هو بحاجة لعون. أغتنم الفرصة والرجل المبتسم يبدو على غير عجلة من أمره.

- عفوا، يا سيّدي هل تسمح لي بسؤال أرجو ألاّ يزعجك. نحّي في بلادنا ملوّحين بالأيدي ليبيّن أنها خالية من السلاح. نصافح الآخر نتحسس راحته للتأكد أنه لا يحمل خنجرا صغيرا ثم نُقرئه السلام. إلّا ترمز تحيتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضّمّ اليدين أمام الوجه وما معنى "نماستي"؟

- معناها نحّي المقدّس الذي فيك.

المقدّس الذي في! أنا؟!!

يضمّ الرجل راحتيه اتسعت ابتسامته ثم يختفي داخل الزحمة

**

الكتاب السادس الملحمة

لا تشيحوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في الفوضى
ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج
البشر وصخب الحياة.

كونفوشيوس

مقدمة الكتاب السادس

لا فائدة في استوقاف أحد من المارة المتسارعين لأهداف بالغة التفاهة والصغر لتسألته عن سبب وجوده في هذا العالم وسبب وجود هذا الأخير. من الأحسن أيضا ألا ترفع صوتك واصبعك في وجهه تذكره أن عندنا كبار الاختصاصيين لينطقوا كل المتسترين على الأسرار التي تهم الأمن القومي البشري كله.

قد يطلب بوليس النجدة أو سيارة اسعاف لحملك لأقرب مستشفى الأمراض العقلية. في كل الحالات هو كبقية المارة لا يعرف فعلا ماذا يفعل في هذا العالم وإلا لكان السرّ على كل اللسان منذ زمن بعيد إذ المعروف عن الأدميين -الاناث تحديدا كما يدعي الذكور- استحالة الحفاظ طويلا على أي سرّ.

يبقى دون اللجوء الى الحلول القصوى مثل الشكوى بهم ل "ما" أو تسليمهم للمختصين في التعذيب، مراجعة ما كدسوا ذكورا وإناثا مرّ العصور في المكتبات بخصوص هذا الموضوع.

كم أمضيت من عقود في استكشاف ما جاد به فكرهم وخيالهم والنتيجة اعتراف أحدهم:

ولم نستقد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا قليل وقالوا (فخر الدين الرازي)

هل سأجد ضالتي في بعبع اسمه الذكاء الاصطناعي هو ملك الملوك في الفضاء الافتراضي الوليد. ألا يقال عنه إنه مثل آلهة أساطير الأوائل لأنه يعرف كل شيء والباقي؟

أتوجه إليه خافق القلب والذهن على أقصى درجات الانتباه:

يا سيد العارفين، يا خزان كل المعطيات التي يمكن جمعها عن الأدميين منذ وجدوا، قل لي لا فضّ فوق ماذا نفعل كلنا في هذا العالم.

لا تمضي ثواني على نقر السؤال إلا وتتدافع الجمل وراء الجمل في سرعة تعطي الانطباع ان الشيء يعرف الإجابة الصحيحة ومن ثمة عدم ترده لحظة واحدة.

عند تفحص هذه الإجابة لا شيء غير سلسلة من العموميات من نوع الأدميون كائنات تعمل وتتواصل بينها وتحب الاستكشاف والابتكار والمتعة وتبحث عن معنى لحياتها، الخ.

يا غبي أعرف كل هذا وأعرف أنك بهذا اللف والدوران لا تفصح إلا مدى جهلك أنت الآخر.

تجري على رسلها النُيا ويتبعها (الجواهري)

رأيّ بتعليق مجراها ومعتقد

أعيا الفلاسفة الأحرار جهلهم

ماذا يجّبي لهم في نقتيه غد

طال التملّخ واعتاصت حلولهم

ولا تزال على ما كانت العقد

كفى من هذه العقد اللعينة. لماذا لا أختار لها من الأجوبة ما يرضيني؟ أليس هذا ما فعل البشر منذ انطلاق رحلتهم في هذا

العالم؟ لماذا لا أستأس بنصائح بعض الكبار الذين خلقوا قبلي عوالم من محض خيالهم لا زالت تنبض بالحياة؟

لم لا أختار وأنا الآن في أرضه-الشاعر الذي أسكن أمة كامله أسطورة هو خالق آلهتها!

ترى هل سيعيرني اهتمامه وهو رجل انسحب من العالم الحسي لما أكمل خلقه الملحمة العظمى غير مبال بفيالق النمل تتسلق

الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين المفتوحتين ومن المنخرين؟

داخل فضاء خيالي استنفرت داخله كل الطاقات ينتبه فالميكى لوجودي. يبادرني بانزعاج لا يخفيه:

- ماذا تريد؟

أواه يا سيّتا، برّب عشق طفل تهجّي في حبك أجمل روايات القصّة المقدّسة، تدخّلي، القرار مأخوذ، فقط أريد نصائحه ولم لا

بركاته!

أهمس بالطلب بين رجاء واستحياء. يردّ بصوت فيه كثير من البرودة ونكهة من التعجب والاستنكار.

- ألا يوجد في بني قومك من يدلونك على الطريق؟

- بلى، أكبرهم الذي قال " عقد الناس في الاله عقائد وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوا". كل عقائد البشر ملك لكل انسان ومن ثمة

لي الحق أن أغرف منك وممن أشاء.

- لم اخترتني من دون بقية الصنّاع؟

- أنت الوحيد الذي لا يخفي سرا مفضوحا يتشارك الكل في ادعاء الجهل به.

- وهو؟

- أنه لا يوجد إلا نوعان من الرؤى: التي يعترف أصحابها بخلقهم الأسطورة المؤسسة والتي يتسئرون فيها على أمر لا عيب فيه.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة. كأنه يريد اختباري.

- ما حاجتك لأمر كهذا؟

- كما الذات بحاجة إلى بيت في الفضاء الحسيّ يوفّر لها الأمان والراحة ومتطلبات الجسد الأخرى، هي بحاجة إلى بيت في الفضاء الفكري -الخيالي يوفّر للفكر والروح ضرورياتهما.

-واصل

-لذلك خلّقت الأدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسيّ لتلبية حاجياتها المادية الحسيّة وخلقت لتلبية حاجيتها الفكرية والروحية مهندسين معماريين في الفضاء الفكري-الخيالي مهمتهم صنع الأساطير والأديان والفلسفات.

- ألا يوجد ما يكفيك منها لتلبية حاجياتك هذه؟

- تغيرت معطيات العقل بصفة جذرية كما تحسنت طاقات المخيلة، لكننا ما زلنا نعيش داخل خرائب روحية تقادمت. ثمة ضرورة لقصاص مؤسسة أخرى.

-انتبه لخطورة ما تقول.

- بل وأضيف أنه كما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالي، لا طاقة للأدمي على سكن نفس البناءات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتهاك دعاماتها أمام مطرقة الزمان، أو لتغيّر الذوق العام وارتفاع مقاييس الجودة عند المتساكنين، عادة لحبّ الأدميين استكشاف وخلق الجديد.

- يبدو أنك غير منتبه للتبعات

- لا أدلّ على ضعف رؤيا تبني أسطورة أو ديننا من كونها لا تحفظ بقاءها إلا بالقضاة والجلّادين.

- ما زلت مصرا على المشي في هذا الطريق؟

- نعم، يجب العودة لبناء أساطير طريفة تفي بحاجيات أجيال جديدة من البشر ومع السعي لبنائها على دعامات متينة لتندوم أطول وقت ممكن.

- ومن هذه الأسس (بنبرة فيها بعض التهكم)

- الانطلاق من كون القصاص المؤسسة ليست وصفا للعالم كما هو وفق حقيقة مطلقة موجودة خارجنا وفوقنا وإنما أدوات فكرية نصنعها من داخله لإعطائه شكلا مؤقتا لا بديل عنه سوى القلق والفوضى.

- وماذا أيضا؟

- الاعتراف بأنه ليس لنا لاكتشاف سبب ومعنى وجودنا إلا تصورات يصنعها الذهن البشري، والأمر سيتواصل إلى نهاية الملحمة البشرية.

- تجاوزت كل الخطوط الحمر

- وأن التقدّم في تصوراتنا هذه استبدال تصورات ساذجة بأخرى أكثر تعقيدا، كما الأمر عندما تطور تقنياتنا من القدرة على بناء الأكواخ إلى القدرة على تشييد ناطحات السحاب.

- أي مقاييس للتأكد من جودة البناءات؟

- أول مقياس ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل بحاجيات الفؤاد.

-والمقياس الأخير؟

- أحسنُ الأساطير المؤسسة من تشهل الحياة والموت ولا تزرع الألغام على طريق الأجيال القادمة.

- شيء من الدقة.

- عليها ألا تخلق كفارا يجب قتالهم وان استحالة الأمر تحملهم على مضمض... أو شعبا مختارا يحق له قتل الآخرين والاستيلاء على أراضيهم...أو منبوذين يتهمون باطلا بارتكاب موبقات في حياة سابقة...أو مستبدا في السماء بشرع للمستبد الذي على الأرض...وفي كل الحالات خلق بشر بلا كرامة وهم يعبرون العالم بين رعب ما ينتظرهم بعد الموت أو طمع في ملذات رخيصة.

- لحظة صمت.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

- من أمّي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكى بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم ترتسم على شاشة الذهن ابتسامة عريضة.
- لا اعتراض على الشروط والمقاييس. على كل حال هذا عالم مصنوع على الدوام من عقل ومن خيال بعض الأفراد فأخلق له القصة التي تريد. فقط لا تسعى لفرضها على أحد.

التي أريد؟ طبعا الأجل، الأغر، الأخطر... الأكثر تقديسا للوجود... التي تتشكّل ببطء داخل فكري وخيالي... نعم لماذا لا يكون لي تصوري الخاص لقصة القصص، هكذا يمكنني أن أقرر-لا حسب هذا وذلك وإنما من موقع "سيادي" بحت-هل كانت حصيلة رحلتي "أذى ووبال" أم هل حققت كل أهدافها وزيادة؟ نعم لم لا أخلق لي بيتي الروحي الخاص أفصله على نوقي مفتوح على الرحب والسعة لكل من يريد سكناه أو السطو على ما يعجبه فيه لبناء بيته هو.

"بنيث على الرمل (أدولف ستاف)

لكن كل شيء انهار

بنيث على الصخر

لكن كل شيء انهار

واليوم على دخان المدفئة

سأبني."

نعم لن تكون رحلة الأدمي في روايتي لقصة القصص سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث التافهة، من الصراعات البائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهضة، من المتع العابرة، من النجاحات النادرة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الآلام العبيثية، ومن النهايات المحزنة، من تكرر العودة للعالم في أسوأ حال وشكل أو ومن هول الخلود في جنة أو جهنم.

**

وقال الصدى لأدم وحواء هذه الوضعية هي والعدم سيان، أما أن الأوان للخروج منها؟

من أين أبدأ؟ باستعمال كل ما تراكم في ذاكرتي من قصص الأوائل، بتفحص كل التصورات التي ردت على السؤال سيد الأسئلة، بتفكيكها وإعادة تركيبها.

أليست الأساطير معالجة العقل الجماعي لمفاهيم بالغة التعقيد يضعها في قالب شعري مجازي ليسهل وصولها لكل العقول والقلوب؟ أليست حاملة دوما لحدس صائب، لفكرة عميقة، لفرضية ثرية، لتوجه ما؟ للمتحملمين عليها هل ثمة رؤى -حتى التي توصف بالعلمية لم تيسر المعقد، لم تجزئ الموحد، لم تجمد المتحرك، لم تحاول استنفاد ما لا يستنفذه فكر؟ أي غرابة في الأمر ومهمّة كل رؤيا تحمّل الوقع لا وصفه.

أهم ما في هذه الأساطير أنها تحتوي موادا ثميننا يمكن استغلالها، كما كان الأوائل يفعلون وهم يعيدون استعمال حجر المعابد الوثنية لبناء الكنائس والجوامع.

نموذجاً هذه المعالجة لأشهر اساطير الأدميين وأجمل اخراج لها هذه القصيدة.

“وقبلها كانا (أدم وحواء) في جنة عدن (أندريه شديد)

فضاء أنقذه الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وعد بلا خطر

فجأة طردا من الحديقة”

طردا من الحديقة!

الرواية الشائعة أن ثعبانا خبيثا زين لأدم وحواء أكل تفاحة واللّه لا يحب من يقطف ثمار أشجاره فعاقبهما بالطرد من حديقته العزيزة عليه.

شخصيا لا أستطيع أن اصدق أن الها كامل الأوصاف مثل يافيه يكون بهذه الدرجة من البخل ليسلط عقابا بمثل قسوة النفي من الجنة لمجرد سرقة تفاحة؟

بصراحة كنت أفضل أن رواة هذه القصة وجدوا سببا أحسن من هذا...مثلا أن تكون التهمة التدخين في المراحيض.

أي غرابة في معاقبة التدخين في المراحيض بقسوة الطرد من الجنة لخطورة الجنحة حيث كان يمكن للعملية أن تتسبب في حريق يأتي على أخضر الجنة ويابسها إن كانت جنة أرضية أو أن يفجرها في الجو إذا كانت جنة طائرة.

لكن عقابا بمثل هذه الخطورة لمجرد أكل تفاحة؟!

للمتمسك بصديقة هذه الرواية مخرج من نوع ثمة بالضرورة حكمة في اختيار تهمة أكل تفاحة.

ممكن لكنني بصراحة لا أفهمها.

هل لتندلع خصومات بين أهل العقل وأهل النقل؟ بين اللفظيين والمجازيين؟ بين القائلين إن التفاحة المعنية بالأمر هي الفاكهة

التي نأكل، وبين المصرّين على أنها رمز لمفاهيم لا يرتقي إلى مصافها الأغبياء الذين لا يدركون من الكلمات إلا غلافها؟

هل سيتدخل في هذه القضية أشدّ من أكره أي المسكون دوما العصا من الوسط ليفسروا بجبنهم المعتاد وعجزهم عن أخذ موقف واضح أن التفاحة هي في أن واحد الثمرة التي نعرف وأيضاً أنها رمز للحكمة وأن أكل الرموز الإلهية ممنوع.

أوف!

أقولها متحملا كل مسؤولياتي: يجب رفض حكاية الطرد هذه جملة وتفصيلا لأسباب تتعلق بأعزّ ما نملك: الكرامة.

أليس فيها تعدّ سافر على كرامة الأدمي وهي تجعل رحلته تبدأ بركلة في مؤخرته وحتى على كرامة العالم عندما تجعل منه مجرد منقّى لعقاب المغضوب عليهم والضالّين.

بل هي تتعدى أيضا على كرامة الخالق عندما تجعله صاحب ضغينة ينكل بمخلوقاته بسبب معصية صغيرة.

أواصل متحملا كل مسؤولياتي الأنفة الذكر لا أرهب شيئا أو أحدا دفاعا عن الحقيقة: يجب إعادة النظر وبصفة جذرية في هذه الأسطورة لأن أدم غادر الجنة مع حواء لا مطرودا وإنما... لا نذا بالفرار.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كيف! الرجل والولية عائشان في جنة خمسة نجوم إلى الأبد وبالمجان وتقول لي أنهما هربا منها لرمي أنفسهما بمحض ارادتهما في هذا العالم التعيس! نسيت أننا لا نلحم بشيء قدر تحقيق الجنة في هذا العالم والعودة إليها بعد الموت. هل تتصور حقا أنني سأشتري مثل هذه البضاعة؟

نعم سيكون من الصعب على الرؤيا اقناع أيا من كان باعتماد النسخة المزيدة والمنقحة للأسطورة الشهيرة ...
يجب أن تجد لآدم وحواء سببا مقنعا لأشد المناهضين للفكرة يفسر قرارا يمثل هذه الأهمية بمثل هذه الخطورة...
بمثل هذه الغرابة.

تضيف لمواصلة حشري في الزاوية: ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

ردّي أولا أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة وأنت أعلم مئى بطول باع الأدميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.
لكن استحالة الفرار من مكان محروس مثل الجنة حجة قوية ويجب معالجتها بكثير من الجدية.
فعلا ليس من السهل الفرار من مؤسسة مثل الجنة لا شك أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة لمراقبة الحدود منعا لكل المتسللين غير القانونيين.
إذن لا بدّ إذن أنه كان لآدم وحواء داخل المكان شركاء أعانهم، ربما بإيقاف تشغيل الكاميرات لحظة الهرب أو بتوفير الحبال الضرورية لتسلق الجدران أو أي وسيلة أخرى.

لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعبان؟ كائن مقنّع لم ترصده القصة؟
من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تخدع يافيه وهو قادر على معرفة الأحداث حتى قبل أن تقع.
التفسير الوحيد إذن أن النصير المجهول كان... يافيه نفسه.
صدّق أو لا تصدّق، ذلك شأنك.

في ما يخصني لا مجال لقبول السردية التي تجعل منا مطرودين من " الحديقة " منفيين في عالم كنيته وادي الدموع (فما بالك بقبول سرديات أساطير أكثر تعاسة تدعي أننا رمينا في هذا العالم-المحتشد للتكفير عن ذنوب ارتكبتها في حياة أخرى) إنها سردية تمس بكرامة كل الأطراف المعنية وأولها كرامة يافيه عندما تجعل منه كائنا تملؤه الضغينة والقسوة والتشفي ناهيك عن الظلم. هل ثمة أكثر ظلما من طردنا من حديقته بسبب تقاحة لا تسوى أكثر من قرش وربما حتى أقل بسعر التفاح هذه الأيام.

السردية أيضا تعدّي على كرامة آدم عندما تجعل منه كائنا بائسا استأهل الركل في المؤخرة والطرود والنفي ولم يردّ الفعل مثلا باقتلاع الشجرة في لحظة غضب مفهوم ورميها في وجه صاحب الحديقة.
هي إهانة للعالم عندما تجعل منه منفي وسجنا لا خلاص منه إلا بالموت.
هي تمس حتى من كرامة إبليس عندما تجعل منه ضحية مقلب إلهي جعله مذنبا إن عصى ومذنبا إن أطاع.
مع كامل الاحترام للمهندسين الخياليين الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم الهندسي أقولها بالفم الملآن أنهم لم يوفقوا كثيرا في مهمتهم حتى لا أقول في رسالتهم.

لكن لماذا بنوا مثل هذه البيت الروحي وهم لم يكونوا أقل ذكاء منا أو أقل رغبة في تسهيل رحلة الأدميين؟
لنقل إنهم فعلوا فعلتهم هذه في ظروف بلغت فيها صعوبات الوجود ذروتها...أنهم ركنا في حالة وجع وإحباط إلى أسهل التبريرات لوضعهم البائس. هكذا خلقوا قصص النفي والطرود والخطيئة يفسرون بها ما يعانون.
حقا لم يتحسن وضع البشر كثيرا منذ زمانهم، ومع هذا لا بدّ من بناء بيوت روحية لا تقاوم الآلام التي تدّعي علاجها.
إذن في النسخة المزيدة والمنقحة للأسطورة الشهيرة أزمع آدم في سرّه على الفرار غير واع بمن أوحى له بالفكرة.
ذات ليلة صارح حواء بالفكرة، فمطّنت شفيتها وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّدة أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن وأنها أحجمت لحظة أمام الثمن الباهظ. لكنها لم تلبث إن أعادت حساباتها.
في نسخة خاصة للقصة موجهة فقط لمناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسرّ إليها يافيه بالفكرة وأنها هي التي أقتعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أرهبتة صور آتية من أعماق المستقبل لما ينتظر أطفاله وأنه رضح وحواء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجزّب الجماع مع إبليس أو الثعبان.

المهم أنه حُسم الأمر لصالح الفرار.
هكذا اشتعلت شاشات المراقبة -المكلفة بقراءة الأفكار- برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: " عاجل للغاية وسري جدا". وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتتفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم يافيه بل

وتنفس الصعداء مناجيا نفسه: أخيرا، أخيرا قرّ قرار هذين الغبيين، من يدري؟ ربما هما من سأحقق بهما جزءا مما بحثت عنه دوما.

تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا يافيه ولن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لأدم وحواء. أولا لأن المجالس بالأمانات ولا يمكنني ولو بالتلميح فضح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانيا لأن تقنيات التشويق في كل رواية تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أتقاسمه مع القارئ إلا عندما ينفذ صبره وقد دفعته أكثر من مرة -كما يفعل جلّ كتاب الروايات البوليسية- نحو تخمينات خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية.

أخيرا وليس آخرا لأنني أريد لكتابي أن يقرأ إلى نهايته وألا يرمى به من صفحاته الأولى كما افعل مع الكثير من الكتب التي أشتري.

بقية الأحداث كما تصفها الشاعرة الملهمة:

“سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعانقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيق من الجلد

بواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعا لم يستعدا له

تجاوز آدم ضغينته

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنه كون يتلثم بأولى كلماته

عالم مقيد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي

عالم تحت مطرقة الزمان

يجب تعلم الموت فيه

عالم غير مفهوم

يتذيره الرائع والمرّوع

معا سيتملكانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار

معا سيلدان آدمية الشرّ والجنل.

تعبر الفضاء والقرون.

ومن خلال ضباب الزمان

تابعهما الصدى بالأمر"

الصدى! حدس الشعر وهو الأكثر انتباها للوجود الخفي للمقدّس في كل شيء وكل ذات. تغالب تفاحة النوم وأنا أروي لها في هذه الرواية غير المرخص لها انطلاق ملحمة الأدميين.

- "با"، ماذا قال الصدى لأدم وحواء وهما يفرّان؟

- خذا معكما ابليس.

ربما تتهدّ هامسا لنفسه: لا بدّ منه لهذه التجربة وإلا كيف سيعرف البشر ما الخير في غياب الشرّ، ما المسؤولية في غياب أي تحدّي وما الحرية في غياب الجبر والقهر.

**

وقال الصدى انتما أحلامي ومشاريعي متعتكما بالحرية والمسؤولية لأنبل المهام

وراءهما الآن باب الجنة والعالم الجديد بأسره أمامهم.
تدير حواء بصرها في الفضاء الشاسع أبهرها النور والألوان، حائرة اللبّ أمام كل هذه الروائع... شلالات متدافعة من أعالي الجبال... أنهار متدفقة بين الروابي... بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار... كثبان من ناعم الرمل... جبال مكلّلة بمهابة الشيب... بحار تهشّ الريح فيها على الموج... غابات تتأطح أشجارها السحاب... سماء مرفوعة بلا عمد...
يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟
صبرا قليلا وسترى الفرق.

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح بعض الوقت الذي لا تستطيع تحديده بما أن الساعة ما زالت لم تُخترع: أنا جائعة ولا أكل جاهز هنا.

ينتبه بطلنا إلى التغيير الجذري وأن هذا العالم لا يوفّر شيئا عدا وجوده، أما تدير شؤون الوافدين فمسؤوليتهم هم لا غير.
كيف فاتته أن الإقامة في الجنة كانت على حساب يافيه، أما هنا فهي على حسابه هو. هل أخطأ التقدير؟
ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمّ العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعول إلا على جهده، لا مكان عندي إلا للأكل ومأكول وكل أكل مأكول وكل مأكول أكل... وأنا أكل الجميع.

يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاه حيث لا جوع ولا جري مُضنٍ وراء فطور الصباح. تتجاهل المرأة رجلاً ستبقى تعاني منه على مرّ العصور.

ككل من ستلد من الإناث المخترعات على مرّ العصور للبراغماتية تبدأ حواء في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، البحيرات الزرقاء والخضراء كمسبح للصغار يوم يولدون، الجبال الشاهقة للتزلج يوم يخترعون هذه الرياضة. يجب التأكيد أيضا من سلامة الغابات وخلوها من الحُفَر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذى. هام جدا تزيين أول كهف ولو بأبسط الرسوم بانتظار ذلك الذي سيرسم لوحة "موناليزا".

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.

ينفذ صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.
- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجة أنك جائع. هذا فعل يليق بابن أبيه ولا يليق بابن أمه. وأنت هايبيل، اغسل رجلك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقتُ ذرعا بقلة طاعتك.

يصرخ هايبيل بغضبٍ، هو الذي ورث عن أبيه حدة الطبع وسرعة الانفعال:

- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة.
هذه المرّة، لن تأخذه، "ما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقبّل دموعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهام في أصعب العوالم.

يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. أن الأوان للمرور لفصل آخر من قصة القصص.

ذات يوم تصرخ حواء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي ولا ترجعوا إلا بما خرجنا نبحت عنه.

يصرخ أحدنا: لننّجّه إلى حيث تشرق الشمس، نحتفي بها ونهلّل وهناك نقطفها ثمرة طازجة.

يصرخ آخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا نغيب، ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال فرما الشيء هناك مطمور تحت جبال من الثلج.

يصرخ أجبنا أو أعقلنا: أريد البقاء مع أمي.

يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم تفرقوا هناك داخل هذه الغابات الخائفة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

“الأرض لكم (جبران خليل جبران)

تبتهج بملامسة أقدامكم العارية

الأرض لكم.

وشعوركم مسترسلة تنوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق”

ها نحن ولمئات الآلاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاءً لا يُحدِّد حدود، نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن نكسر لها ذراعاً، ومن الفيل قبل تمزيقه إرباً إرباً، نقاتل الكواسر حتى لا نوكل ونقاتل الأدميين حتى لا نُقتل وقد أصبحوا هم لا غير أخطر الوحوش.

إنه عالم لم يُخلق للجبناء، عالم صارم القوانين أولها أنك تولد فيه جائعاً، تعبره جائعاً وتغادره جائعاً، أن الحياة فيه تتغذى بالموت والموت يتغذى بالحياة وكل الباقي حشوً وتفاصيل.

أي شاعر عبقرى مبصر أو أعمى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة تتغنى بكل هؤلاء المغامرين الأفاقين، المنتشدين المستكشفين، الحُجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض ولا حتى عفاريت الظلام!؟

أليس هؤلاء الأجداد بأرجلهم الحافية وأيديهم العارية وبطنهم الخاوية وقلوبهم الصامدة وعقولهم المستنفرة هم الأبطال الذين تخجل أمامهم جسارتهم كل ما ندّعي من بطولات؟
توقّف على الصورة.

ألا تلاحظ شيئاً بخصوص من خطّوا أول خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليافع للمسنّين الذين تجاوزوا الثلاثين.

ماذا تقول وأنت تحرك يدك أمام أنفك؟ أه الروائح التي تنبعث منهم.

حقاً من منا يرضى بتزويج ابنته لوحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجدادنا جميعاً، وحتى أجداد ملكة انجلترا التي تموّه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها لأنها توقفت عند شجرة أجدادها حيث يجب التوقف، ولو طلعت إلى أعلى لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضاً سليلة هؤلاء الشبان الهمج النتنين.

ملاحظة ثانية بالغة الأهمية يفخر هذا النص أنه أول من انتبه ونبه إليها. لا أحد منهم يجزّ حقيبة تُصدر صريراً مزعجاً. إنه الدليل القاطع على حكمة هؤلاء الشباب، ويا لعار الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأثقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم.

ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ أه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون ومخيفون.
تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.

يأتي يوم يئنّ فيه أحدنا وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع! يأتيه رجع أنين تائه آخر: لم نكف عن المشي منذ أجيال ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أخرق، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاة؟

أنين تائه ثالث: يا لهذه الصحاري الصفراء نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس!
وآخر: يا لهذه الصحاري البيض ووجع خناجرها التي تبتت في فكّ البرد والدب!

يصل الأنين ذروته عند الغبي الذي لم يأخذ بنصيحتي بخصوص أحسن طريقة لاستكشاف البحار والمحيطات: يا لهذه الصحاري الزرقاء تهددنا بالموت رعباً قبل أن نموت فيها غرقاً! فاق الغثيان والدوران كل قدرة التحمّل.

تحمّل! ليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ ماذا تفعل طوال الرحلة، غير تحمّل الحرّ والقرّ، غير تحمّل الجفاف والطوفان، غير تحمّل الضجيج والصمت، غير تحمّل الأعداء والأصدقاء، غير تحمّل تجربة الحياة وفكرة الموت؟
لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بعمق آلامهم والتوجه للوحيد القادر على إغاثتهم.

صلاة الأدمي: يا من أوجدنا في هذا العالم المبهر المرعب... حنن علينا قلب الأرض والبحر... ضعنا في حماية الشمس والقمر... أحفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمننا لها شراباً حلالاً... وقرّ لجوعنا اللحم والشحم... فجرّ لعطشنا عيون الماء الزلال... يسرّ أماننا الصعب والوعر... ضمّد جراحنا... جدّد فينا كل فجرٍ شجاعة الأبطال.

الصدى (أو الأثر في العقول والقلوب للقوة المبهمة التي تتوجه لها صلواتنا منذ الأزل): يا أحلام أحلامي... يا آلام آلامي... يا آمالي. يا أفكارى وخيالي... يا لحمي تقطّعه أنيابي... صبراً جميلاً ستقهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي.

قد لا تكون انتبهت لأهمّ ما في قول الصدى: نبرته. هي حقاً مُفعمّة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كأنّ وراء القول المسكوت عنه: سنتسون كل الآمكم وستحمدونني عندما تجدون ما بعثتكم لأجله، يوم تحقّقون لي المهمة التي شرّفتمك بها مع بقية مخلوقاتي الأخرى.

لنفتعل التصديق، على كلّ هل لنا خيار آخر؟

تواصل المعنويات انهيارها والصلاة كالعادة لم تنفع كثيرا.

يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أبيه: تخشبت قدمي من المشي، عُصتُ إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمزقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفي من الحمل، تشققت يداي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريق اللعين طريقه دوني. خارت قواي. لن أتقدم خطوة أخرى.

أول إضراب عام: الإضراب عن المشي.

ليسمح لي القارئ هنا بمشاركة المضرب الأول أول إضراب، وقد جُبلت على دعم كل المحتجين على تجاوزات السلطة ولو كانت أعلاها.

أهمس في أذن تفاحة: أفيقي، الأدمية بحاجة إلى إغاثة عاجلة.

تفتح البنت عينيها وفيهما بريق التصميم كأن شيئا داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تفشل حتى قيل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تفيحه بدورها جاءها الوعي بحرج اللحظة.

- “با” ماذا يجب أن نفعل؟

- الأدميون في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيدي لتجبراني على الركض والصرخ والرقص

يستيقظ المستكشفون من الغد وبهم جدل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضا!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.

- لا بل أنا المختار، تسلق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفي، صارخا ضاحكا ومُغنيا أن أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قائلا وهو يضحك ويدعو الآخرين للركض وراءه: هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغير حياتكم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلاً فلا ترتجف، “ما” من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا.

تصرخ تفيحه: أنت الباكبة والبانلة، أما أنا فلا أبكي أبدا.

ثم تنفجر باكبة لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلا.

- “با”، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.

- هذه قصة يرويها أكثر من راي. تكلمي. ماذا فعل الأدمي المسكين لكي يدفأ ويبعد أنياب الذئاب؟

- خرج الرجل وابنته الصغرى -التي كانت المفضلة عنده كما يعلم الجميع- إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفيحه إلا أن صلت لله ليعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثم لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها “با” وأخذ منها عودا ملتهبا وعاد مع ابنته فرحا مسرورا ليشعل المدفأة.

- يا غبية، وكيف استطاع “با” من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرة ينتظر الرعد والبرق.

- أنت الغبية وليس لديك قصة أحسن.

- بلى، إذن خرجت تفاحة مع “با” لتدلّه على مغارة اكتشفتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميقissime جدا لا يمكن الدخول إليها إلا زحفا على البطن. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوما مشتعلة، فاستطاع “با” أن يأخذ جمرة منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.

- يا غبية، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفأت النار.

بعض العصف الخفيف وشيء من جذب الشعر، وهو أمر تسهل السيطرة عليه من قبل قوة حفظ السلام، خلافا لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين بالترشق بصواريخ الغواصات الذرية.

من كان يتصور أن اكتشاف النار في هذا النص سيكون يمثل هذه الصعوبة؟

- أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن البلل الذي أصاب جمرة تفاحة وقبّلت أختها الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج آدم، ساخطا إلى الغابة يبحث عن النار. ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجهها لوجه مع علبة كيريت بحجم بيت وبعانها سيجار فاخر من نوع هافانا بطول شجرة سيكوي.

تصرخ البنتان

- "با"، لا تغش!

جدد؛ ليس لدي أدنى فكرة جديدة وطريفة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحول الأول في الملحمة العظمى. ألا يقال إنه لولاها لما تجاوز الأدميون حدود إفريقيا مهد الجنس البشري، إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والتلج وهم لا يملكون فرو الدب للصبر على ما لا يتحمل من البرد. كم من تصورات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة! ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة.

ثمة قصة بروميثيوس الذي أخذته الشفقة بالأدمي فتصدى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك والسرعة والخفة وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرّر من تلقاء نفسه مدّه بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء... وهو ما كلفه العقاب الشهير.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسته مختلف الروايات والنار آخر ما ينقصه: جهنم نفسها. لكن هذا يتطلب العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الأدمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للبقاء في جهنم هذه. أمّا أن تقولوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالما، فهذا سيناريو لا يقبله حتى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم كما أخشى من عتاة المثقفين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصل الأدمي على النار ومن أين سرقها. لماذا أتكلّف كل الجهد وأنت تتدأليّ قصة القصص قصّة الجميع. ما الذي يجعلني مسؤولا عنها أكثر من حضرتك؟

المهم أن الأدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدس وكل حواسها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي يمكنها من التغلب على الخوف من الحيوان المرعب، من قدوم الليل ناهيك عن نهاية مشقة مضغ اللحوم النيئة وهضمها.

تقترب تقاحة من النار وبها رهبة وانبهار لثوئيّ مُدبرة تُرتمي في أحضان "با" فيدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجددا من النار. ترفض تقيحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن "ما" لتقف بجانب تقاحة تقرب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسنا أن النار تدفع عن الأصابع المتجمدة ألما مستديما، ثم ترقصان حول النار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب اللذيذ. ليلتها نام حفاة من الأدميين وآدم لأول مرة ملء الجفون، أبعدا لبضع ساعات الخوف والجوع، والمسكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصد لهم في كل منعطف منه.

على فكرة، كم غريب أن لا أحد من المفكرين الكبار والصغار انتبه إلى أن آدم وحواء أخذوا قرارا غير ديمقراطي بالمرّة حيث لم يقوموا بتنظيم استفتاء يطرح الخيار بكيفية واضحة على كل الأجيال التي سبّلت بعبور هذا العالم.

كان عليهما مواجهة ذريتهما بما ينتظرهم أفرادا وجماعات في مختلف تقاطعات الزمان الطويل الذي ستدومه رحلة الأدمية. ألم يكن حريا بهما أن يواجها المسافرين في القرن العشرين بما ينتظرهم: العيش في عالم الماكدونالد والكوكاكولا والكاجيبي والبنك الدولي ومحشذات أوشويفتز والطغاة الدمويون والقنابل الانشطارية وبرامج "اربح المليون" ومرض ألزهايمر والموت بسرطان الثدي للنساء والإسهال والحصباء والسعال الديكي للأطفال؟

نعم كان عليهما مواجهة ذريتهما فردا فردا بتكلفة العملية: أنت، نعم أنت، هل تقبل بقضاء جُلّ أعوام الرحلة في منجم ملح أم في معمل رخام أم في حقل أرز أم في حقل قطن أم على الرصيف بقرب محطات القطار لتغتصب ويمرّ إليك فيروس قاتل؟ ثمة أيضا قضاء جُلّ عمرك في مخيم لاجئين أو في الرحيل محشورا بين الآلاف منهم تتقيؤون على بعضكم في باخرة لها موعد مع جبل من جليد ومع عمق المحيط؟... وأنت الغبي الآخر، أترضى برحلة تنتهي -ضع سطرًا أحمر تحت الخيار- جريحا في ساحة معركة، مشنوقا، مقطوع الرأس بضربة سيف بارعة، في فرن للتصفيات الجماعية، تحت الأقدام إبان حجّ ميمون، بالتخمة، بالجوع، في سريرك عائنا في إفرازاتك من فرط خوفك من قرب حضور عزرائيل؟... وأنت الذي تحاول الاختفاء وراء الظهر!؟ لا فائدة من المحاولة، اعلم أنك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل وبسببك أيها البلبد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخط "ب"، مما سيضطرّ الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشاتمون والجميع -ومنهم كاتب هذه السطور- يستمطرون اللعنات على رأسك -أو ما بقي منه- لأنك لم تجد ما تنتقم به غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين الجائعين أمثالي. أه نسيب أن أقول إن عمّالا في قمة التقرّز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرموه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيُعطي أسبوع إجازة وسيُحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسوّاق المساكين ضحايا أمثالك من المجانين وما أكثرهم هذه الأيام.

نعم كيف لم تصرخ حواء في قابيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك يوم تشق الطريق على قمم الجبال وفي حضيض المستنقعات وأنت كالدابة تجرّ الحجر والملح والرخام، السوط يكوي ظهرك، الجوع يمزّق أمعاءك، العطش يلهب حلقك، الهوام تلسع وتعضّ... وكل ما تصلّي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة.

أه لو نبّه آدمّ هابيل أن بإمكانية طاولة القمار أن تسحب له حياة المنتشرد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبدّ، الجلاد، الجائع، المريض، المجنون، المشوّه، المعاق، الثائر الفاشل.

تصوّر لو طرحا لتصويّب حرّ نزيه وشفاف سؤالاً واحداً: أتقبلون بالفرار من جنة يافيه أم لا تقبلون؟

لا شكّ لديّ أن أنصار "لا" واضحة ومدويّة، كانوا سيحتفلون عشية الإعلان عن النتائج بانتصار باهر على "نعم" هزيلة ضامرة لحفنة من المغامرين الطائشين. لو حصل هذا لوقّرت عليك مشقة قراءة "الرحلة" ووفّرت على نفسي مشقة كتابتها، ولكننا الآن نتمطّى داخل العدم وقد لفتنا العتمة بفائق فراغها نتئاب بكسل تحت شجرة التفاح في جنة متعة الملل وملل المتعة، لا نطلب ولا نطالب بشيء.

هيهات، هيهات، رُمي النرد ولم يبق إلا تدبير الوضع كما هو وكما سيتواصل على مرّ العصور.

تهزني "تفيحه" من كتفي: "با" استيقظ، نريد بقية القصة!!

القصة؟ لموصلة السرد يجب أن تكون واضحة لديّ العقدة التي تجعل السامع أو القارئ مشدوداً لما يسمع أو يقرأ. المشكلة أنني انطلقت في روايتي لقصة القصص بلا أدنى فكرة عن هذه العقدة. حقاً يا له من تهوّر ومن خفة قد يضربان مصداقيتي عند كل قرّائي.

نعم ما الذي خرجت الأدمية تبحث عنه مضحية بكل عطايا الجنة: الخلود؟ العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟ الراحة الأبدية؟

كل هذا كان متوقّراً إلى درجة القرف في هذه الجنة التي هربت منها.

ماذا إذن؟

**

وقال لهم الصدى لا تخافوا الدمار ولا تهربوا تكلفته انه الضرورة التي لا مناص منها لمهتمكم

الخطوة التي لا مناص منها لمواصلة السرد اكتشاف سبب الهروب وإذا تطلب الأمر اختلاقه. لنفكر مليا ودون أحكام مسبقة.

لا بد أن يكون سبب الهروب وضع لا يطاق و/أو طمع في شيء لا توفره حتى الجنة. من المبالغة وصف الحياة في مكان مثل الجنة بأنه وضع لا يطاق. لم يبق إذن إلا هذا الشره الأدمي لكل ما هو غير متوقّر أو بالكمية المطلوبة وهو الأمر الذي يتسبب لنا دوما في كم هائل من الازعاج مثل السوق السوداء وارتفاع الأسعار وطول طوابير الانتظار والسرقة الموصوفة ووجود البوليس والقضاء والسجون الخ. ما الشيء الذي لا توفره الجنة والذي أثار غيابه شره الأدمي فجعله يركض وراءه ولو تطلب الأمر البحث عنه في مثل هذا العالم؟

طبعاً الموت بما أن الجنة هي المكان الذي ألغيت فيه وبصفة نهائية. وسع مجال الفكرة لتشمل الموت لا فرداً فرداً وإنما بالجملة وفي أفزع الظروف أي الحرب وهي أيضاً على قائمة السلع المفقودة والممنوعة في الجنة. لأغامر هنا بسؤال أعرف أنه قد يتسبب في مزيد من ضرب لمصادقتي وحتى في شك كبير بخصوص في سلامتي الذهنية: هل من الممكن أن الحرب هي الشيء الذي فرّ الأدميون من الجنة بحثاً عنه. أشعر بكل قارئ حتى وإن كان بالغ التعاطف مع هذا النص على وشك وضعه جانبا والانصراف لما أهم بدلا من إضاعة وقته الثمين في متابعة كلام بدأ يتحول هذيانا صرفاً. كم أتفهم هذا الموقف وأنا نفسي على وشك وضع هذا النص جانبا والانصراف لما أهم بدلا من إضاعة وقتي في متابعة كلام بدأ يتحول هذيانا صرفاً. فعلا لا شيء يخافه ويكرهه الأدميون قدر الحرب ...

ومع هذا... ومع هذا!

انظر كم يعتنون بها يهيئون كل ظروفها ويطورون فنونها جيلا بعد جيل.

هم يعدّون لها أطفالهم باكرا، يحشون عقولهم بالتاريخ الكاذب منذ نعومة أظافرهم حول أمجاد أجدادهم، يقبّحون كل الذين لا يشبهونهم، يزينون القتل والموت من أجل الزعيم الأوحده والوطن المفدى والدين الحنيف. أضف لهذا حرصهم على تعهّد مدارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق يسمونها أكاديميات عسكرية يدربون فيها شبابهم على السير كالخرفان والقفز كالقردة، والاختباء كالحرباء، والزحف كالثعابين، والافتراس كالكواسر. كم يحبّون أيضا إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك. يومها خصّصت المدينة المغبرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطقت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم.

على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبيهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبيروا وكبرت معهم الألعاب واللعب.

حقا ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبية لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الأدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء. إنها دوما نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البذيء والأخضر البليد. كأنّ دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدّعي التقدم على القرون الماضية، متخلف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص خيطت به حتى أزياء كبار العارضين بالمقارنة مع جلود النمرور والتماسيح التي كان أجدادنا يرتدونها؟

لحسن الحظّ أنقذ مخرج الاستعراض سمعته لدى كل ذواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزودهم برماح زرقاء.

كان كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ- يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بالطوابير الطويلة للمدرعات المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرقاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكان الذكور بصدد مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهن بمصّ الصواريخ.

اختتمت يومها الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبية على متن عربة مصفحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهم قربانا لآلهة الحرب، يبادلونها تحيّيها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على

رؤوسهم الطير... ولا أحد واع أنذاك أن المرأة – التي كانت تحمل ويا لسخرية الأقدار اسم أكبر منا هاض للعنف في هذا العصر-ستسقط مضرّجة بدمها قربانا للبيع الذي تعيّدت له ذلك اليوم.

ثمة من قرائي من سيعودون لاتهامي بمواصلة التجني على الجنس البشري لأن هذه العروض العسكرية ليست لتمجيد الحرب والاستعداد لها وإنما لإظهار القوة للخصم وردعه عن ارتكاب حماقة اشعالها.
حقا؟ لو كان هذا هو الهدف الحقيقي ولو كان للأمر أدنى جدوى لكانت الحرب القاعدة لا الاستثناء ولشاهدنا تراجعها من عصر لعصر واختنائها كلياً في عصرنا هذا.

أعدّد لكم حروبهم؟ حروبهم على تلك الأنثى، على ذلك الذكر، على القطعة المتاخمة للغوط التي افتكها الورثة غير الشرعيين، على مساحة الصيد المخصصة للقبيلة والتي اعتدت عليها القبيلة الأخرى، على مونيول تجارة الحرير واللبن والعاج والعبيد والتوابل ومشتقات البترول، على أحقية الماركسية الحقيقية بالنطق وحدها باسم الثورة، على حدود الإمبراطورية العظمى التي لا تغرب الشمس عليها، على الانقلاب الذي قام بتصحيح الثورة فانقلب على الذين انقلبوا عليه، على ما قلته عنّي أيها الوغد لما قلت إنني قلت ما لم أقله بخصوص من قال في الكبار، على المكاسب والمغانم والأنفال والسبايا عشية الصدام الأخير مع أبناء العمّ والتي أخذها كبار السادة بغير حقّ.

القاعدة أن البشر لا يحبّون أن يطلقوا الرصاص وخاصة أن يطلق الرصاص عليهم ومن ثمّ استغراب كل المهتمين بالشأن الأدبي من كثرة الحروب عند جنس لا يكره أفرادة شيئاً قدر كرههم للحرب.
يجب تدقيق النظر في كل المنخرطين في هذه المسرحية الدامية لعنا نفهم كيف ولماذا يمارس الممثلون أدوارهم الرهيبة بكل هذا الامعان.

للحقيقة هم أصناف وكذلك الدوافع. الحقيقة أنهم أصناف ومن ثمّ صعوبة فهم دوافعهم.
ثمة المسكين الذي يمشي مذهولاً، مرتعشاً، مدفوعاً من الخلف بمسدس قائده. إنه القاتل بالرغم عنه.
ثمة نوع ثاني تدبّر أمره لحضور المجزرة دون تكلف أخطارها. مثلاً من يفضل متابعتها من مكان آمن على صهوة حصان لأنه الزعيم الذي يقتل الآلاف وحتى الملايين دون أن تتسخ يده بالدم وحذاؤه بالوحل.

ألعن الأصناف البطل. هو عادة مهووس يسارع لإعطاء الموت أو تلقيه صارخاً: يحيا الملك أو يحيا الوطن أو بلاهات من هذا القبيل. لم يفهم هذا الغبي أن البطل مرغوب فيه كأسطورة لكن ما إن يحاول احتلال موقع بين الناس حتى يسارعوا إلى تصفيته بطريقة أو بأخرى. فهم لا يحبون الأبطال إلا في القصص لأنهم أخطر البشر عليهم ومن حسن الحظّ أخطر البشر على أنفسهم مما يقلل من انتشار صنفهم السخيف.

كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر ولا زلت حياً أرزق. كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الأبطال برماهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مرّقت ولا تزال تمرّق كل يوم أجساد مساكين وجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه
أصف لكم حروبهم للدفاع عن العرض، عن الأرض، والحال أنهم دوماً بصدد سلب الآخرين أرضهم وعرضهم وعندما يكونون في موقع الدفاع فهم يصدون أغلب الوقت هجمات من يريدون سلبهم ما سلبوا ونهب ما نهبوا.

أخشى ألا يسعني ما بقي لي من زمن لروايتها على فرض أن لي ما يكفي منه لجردها كلّها وهي أكبر معالم تاريخ القبائل والشعوب والأمم والحضارات وهي الظاهرة التي تصاحب البشر مصاحبة الظلّ للماشي في عزّ الظهيرة.
المخرج كالعادة استدعاء ما تراكم في ملفاتي من معطيات الذاكرة الجماعية أسلمها لخيالي لعلّ معالجتها بهذه الطريقة تقربني من صياغة العقدة المثينة التي أبحث عنها لقصة القصص.

اصطفوا الآن في فضاء خيالي، أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس وراءهم، وراءهم أهل السيف والدرع، وراءهم أهل البنادق والمدافع، وراءهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجرات ورائهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سويّ وإنما عقل آدمي. قلت تنظّموا. إلى الوراء أيها المتسلّل من العصور الحجرية لسرقة قوس حفيدك. كفت أنت صاحب الراجمات عن التهكم على الممسك بالرشاش فالمعركة لم تبدأ بعد.

تتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها وبنادقها الميكروسكوبية لتفجير الكواكب والشموس والمجرات.
ينفضّ الأدميون على بعضهم بعضاً بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، بالهراوات، بحاملات الطائرات، بسكاكين المطبخ، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق، بقبقاب الحمام، بالحجارة المدببة، بالبيدين العاريتين وبالأظافر والأسنان.
تتصاعد الهتافات: المجد لأمتنا العظيمة، المجد لمملكتنا المفدى، المجد لديننا الحقيقي، المجد لي، المجد للمجد، المجد للسلاح، المجد للموت.

يختلط صهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ. يتعالى من مكان قصي من المعركة صوت شيخ بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، أبارزهم بعقب السيجار، أموت صارخا: يحيا الملك.

يدخل مهووس آخر إلى ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: "لنسق أخايد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغبي لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الشمبانيا ولا حتى البطاطس واللفت.

يصرخ أندري بوكوليوبسكي في جنوده أرشقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفوقورود، تيركا وبحثا عن حمايتها، فتنهمر بالدموع عيناها. يقال أن بكاءها أقام الدنيا وأقعدتها، أن الضباب لف المعتدين فتقاتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعاية محاربين، فالعذراء لم تذرف الدموع لتمكين هذا من النصر وذلك من تنوق الهزيمة وإنما حسب مصادرنا الموثوق بها من فرط الأمل وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات موته الفظيعة على الصليب عبثا والشرّ دوما هو المنتصر.

وفي مثل هذه النوبة من العنف التي تتناهم دوريا ترى الأدميين يرتكبون أفعالا ما كنت تصدق أن بوسع جيرائك الطيبين ارتكابها مثل سحق الرؤوس وسمل العيون واقتلاع الضلوع وبقر البطون وفتح الصدور وتقطيع الأطراف واستئصال الأمعاء والذبح والسحق والقطع والحقن بالسموم والصعق بالكهرباء والرمي من الطائرة وفي فرن القاطرة وتحت عجلات الدبابات. في سجلّ الفظاعات " الطريفة" ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون.

ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثم ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية: اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه "ايشا".

أخيرا لا أخرا إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات. تقول مستحيل! عد إلى مأساة فرقة دينية تدعى "الكاتار" وماذا فعل برفاتهم أعدائهم من عتاة المؤمنين.

جولة بين الجثث التي راكمتها الحروب على مر التاريخ، ويقال إنه لو وضعت الواحدة وراء الأخرى لرسمت خطأ يصل الأرض بالقمر.

المشهد الآن أشوكا متجولا بين تلال الأجساد الهامدة بعد انتهاء المعركة التي حسمت مصير مملكة كالينجا. هذا الذي قتل تسعة وتسعين أخوا للوصول إلى السلطة ودمّر ما لا يحصى من الممالك، داهمه الفزع والغثيان والندم والحزن والشفقة وكل المشاعر التي وصلت متأخرة. كان يريد عبثا نسيان صراخ الأم المنكبة على جسد ابنها "يا ملك الملوك، أنت قادر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي".

الثابت أن الحرب هي الحالة التي تجرب فيها الذات مطلق العجز للمهزوم وللمنتصر على خد السواء والحرب هي أيضا مطلق العبث عندما يتضح من هذا العدو الذي نقتل وسنواصل قتله بكل هذه "الوحشية" وبكل هذا الإصرار. يخرج الجندي من وراء أكمة يمسك بنظونه بيديه وقد فاجأته القنابل وهو يقضي حاجته الأدمية. يقهقه أروال رافضا أن يطلق عليه النار فرجل يمسك ببظونه لا يكون عدوا جديا ولا حتى عدوا.

من يكون إذن؟

يتحصن ثوار كتاب "البؤساء" خلف المتاريس الحجرية والمدينة في قمة مخاض أجمل مولود اسمه الحرّية. خلف أكياس الرمل والحجارة التي اقتلعت لتوها من الشوارع المبلطة، يرفع الأدمي فوهة بندقيته ببطء صارخا في أصحابه لن يفلت ابن الكلب. إنه بالضبط حيث يجب أن يكون. يضغط على الزناد. فيرتجّ جسد الضابط الشاب الوسيم وكأنّ يد القدر هي التي لطمته فيهوي من علوه. يصرخ أحد المقاومين.

- كم مؤسف أن تقتل شابا كان بوسعه أن يكون الأخ الصغير لأيّ واحد منا.

- لكنّه فعلا أخي فرنسوا!

أخوك! إنه أكثر من هذا يا حمار... إنه أنت لا غير.

أقطع من العبث الغباء. يقول المثل الإفريقي عندما تحط ناموسة على خصيتك تتضح لك حدود العنف في حلّ المشاكل.

كم من بشر لا يخشون استعمال المطرقة لقتل البعوضة التي تضايقهم لا يهمهم ما الذي يحدث لخصيتهم.

أخيرا لا أخرا، في هذا العالم وهو في حالته الملعونة هذه التي اسمها الحرب، تصل تجربة الذات للهول والرعب والألم والقبح ذروتها... والدليل على ذلك مشهد ساحة المعركة.

تمعّن معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكّر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات وعطارين وعباقرة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للأدمي... وانظر

النتيجة! أيضا كم من آباء وأمهات ومربين ومرشدين ووعاظ وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين الأدمية ... وانظر النتيجة! بالله عليك، أليس من الطبيعي أن يشعر المرء بالعار لانتمائه إلى الأدمية كما يخجل من به شمم أنه لقيط ثمرة خطيئة عاهرة وسفاح؟

كأني بالكائنات -وحتى الأشياء- تساهم في الصمت الثقيل المخيم على ساحة آخر معركة، إما لبحّة في أصوات أرهقها طول الصراخ وإما رهبة وندماً أو قرافاً لا عزاء له ولا سلوى.

يتسلق الشيطان قمة جبل الأجساد المتركمة ليغرس علمه صارخاً وهو في قمة التهكم والشماتة: أرادني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خرّبو حديقته.

فعل الأفعال! طبعاً قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه... بكل الوسائل التي تتبارى وتزايد على بعضها البعض في الفضاء والوحشية... فعلنا الأول نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أفضعها في فنون القتل.

*

من أين لي بعد كل هذا الكلام مواصلة الادعاء بأن آدم هرب من الجنة بحثاً عن الحرب وخاصة أنه وهو بكل هذه الفضاءة جدير بأن يراهن عليه إله ويعهد له بمهمة ما. من الطبيعي أن توجد الحرب في عالم -منفى يقضي فيه الأدمي مدة عقوبته بعد طرده من الجنة نتيجة جريمة ما. لكن أن توجد بكل أهوالها في عالم بريء يفرّ إليه طوعاً آدمي بريء فكلام لا يقبله عاقل. أه ماذا يقول محامي الشيطان -عفوا محامي الأدمي دفاعاً عن موكله؟ أنه يذهب للحرب وهو مسير لا مخير والمسؤول الإله الذي رمى به في هذا العالم.

عن لسان الدفاع المواجهة العاصفة بين كريشنا وأرجونا في إحدى أشهر الأساطير المقدسة للجنس البشري. يصفر الربّ كريشنا على المحاربين ليقاتلوا تحت بصره فيبقي السيف في الغمد. يومها قطّب جبينه باغته السؤال: بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟

وفي هذه الأسطورة التي تضع ككل أساطير البشر أعرق المسائل الفلسفية في قالب شعري، يصرخ البطل أرجونا في ربّ لم يجد إلا ساحة معركة للتجلي: "لكنهم أساتذتي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهارى وأقربائي الآخرين كلهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبداً ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليائسين".

الأدمي واع إذن أن حروبه صراع اليد اليمنى ضدّ اليد اليسرى... صراع الأسنان واللسان في الفكّ الواحد!

يرفض الرب حجج أرجونا لأن للآلهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب.

- "يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنث المخجل".

بمرّ للتهديد.

- "إن لم تقاتل فستكون خائناً يقال عنه إنه جبان. إن ضياع الشرف للنبيّل أفضع من الموت".

كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصتهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحاكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ غير الربّ بالخوف أم لم يعير.

- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومئة؟ أفضل أن يقتلني بنو دهيرشترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموبقة".

الرب مجرباً الوعود البراقة.

- "إن متّ ستدخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض".

يتمسك أرجونا برفضه مذكراً الرب بأنه لا زال كائناً عاقلاً.

- "ألن تكون خسارة لا تعوّض. ألن ندمر سلالتنا، وبتدمير سلالتنا ندمر تراثنا؟"

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر".

أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضاته. إن كان سيان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحبة والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطمعك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عقلك. لا تتحرك.

لم يبق للربّ سوى التحريض الخسيس:

- "تغنّم لمن لا يستأهلون الغم".

أي تفسير لإصرار الرب على إفناء الأدميين؟ هل يؤس هو الآخر من إصلاحهم؟

يلتجئ إلى الجمل الرنانة يوافق بها ويرين مطلق الشر.

- "إنه الواجب. لا يرحب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".
ينكتف صمت أرجونا ثم يستسلم:
يدخل المعركة متجهما (لاوتسو)
حزينا، القلب يطفح شفقة
كما لو كان ذاهبا لتقديم العزاء.

ثمة إذن سبب قاهر جعل أرجونا يدخل ساحة المعركة رغم أنه.
قل لنا يا إله الآلهة ما هذه الضرورة القصوى والتي قد تبرر كل ما في الحرب من عبث ورعب وعجز وقبح وألم.
آه تريد أن يكتشف كل أرجونا السبب لأن ذلك من متطلبات السيناريو.
طيب، لنتفحص المسألة دون أفكار مسبقة.

عودة للمعركة التي يدخلها أرجونا منذ بداية التاريخ" حزينا القلب يطفح شفقة" لا يغرننا لا حزنه ولا شفقتة.
تأمل كل هذه الحيوية والأدميون ينقضون على بعضهم البعض بالرمح، بالبندق، برجمات الصواريخ، بالهراوات، بحاملات الطائرات، بسكاكين المطبخ، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق، بقبقاب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان.
استمع للصراخ المتعالي من أرجاء ساحة الوغى-كما يسمونها -وقد اختلط سهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ بهتافات تحيا أمتنا العظيمة، يحيا ملكنا المفدى، يحيا دين الحق، يحيا جيشنا الأبي وحتى - إيه والله - يحيا الموت.

بيني وبينك أليس الموت وسط هذا الديكور الفخم أجدر بالأدمي من انهاء رحلته على فراش مستشفى عائما في العرق والبول؟
بيني وبينك دوما، هل ثمة أقدر من الحرب على اعتصار أعماق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطره؟

هل ثمة حالة يدرك فيها الأدمي كم هي ثمينة حياته أعمق من التي يعيش وهو بين المخالب والأنياب؟
من هذا الغبي الذي قال: أنا أفكر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.
لنقل إذن بانتظار تطور القصة أن تجربة الوجود لا تصل أعلى درجة الحدة والصفاء إلا وهي وجهها لوجه مع كل الأسباب التي تهدد بإنهاء هذا الوجود.

تقول فلسفة فارغة وايدولوجيا جوفاء تغنى بها العسكريون الارستقراطيون على مر العصور يمجدون الموت في الظروف المسرحية التي يسمونها البطولة. معك ألف حق، أنا أيضا أكره الأبطال -أقصد هذا النوع المزركش بالأوسمة ومقتنع أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في تعهد الحياة، أن البطلات هنّ النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهنّ على الطفل المريض، أن الأبطال هم الرجال في خروجهم إلى الصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخائق وإلى المحيط المرعب.

اتفقنا إذن على عدم اعتبار هذه الفكرة سببا مقنعا لضرورة الحرب وأنه ليس لها أدنى قيمة في تبرير فظاعاتها.
ما الذي يبقى للدفاع عن فكرة هروب الأدميين من الجنة بحثا عن الحرب أو على الأقل قبولها بأهوالها لأن لها وظيفة ضرورية في تحقيق المهمة التي نزلوا من أجلها هذا العالم.

كيف يمكن تبرير الدمار الهائل الذي تسببه للأفراد، للمجتمعات وللأنظمة السياسية، للدول، للشعوب والأمم والثقافات؟
الدمار!؟

أليس دوما مسبوقا ومتبوعا بالإعمار؟ هل يمكن تصوره بدون نقيضه المطلق؟ أليس الإعمار والدمار وجهها نفس قطعة النقد؟
أليس صحيحا أن برلين بعد الحرب كانت أجمل من برلين قبل الحرب وكذلك هيروشيما؟ ألم تسفر الحروب أيضا عن تحرير العبيد في أمريكا وتحرير الشعوب في أفريقيا وآسيا؟

أليس الدمار أيضا وربما خصوصا الفرصة الكبرى للتجديد الجذري في كل المجالات والمستويات؟
أليس صحيحا أن تطور قدرات الحرب -أي الكم والكيف في الأسلحة المستعملة مَهْد وصاحب وتسبب في تطور انفجاري في العلوم، في التكنولوجيا، في القوانين، وفي كل مظاهر ما يسمى الحضارة.
ألا يعني هذا أن ...؟

**

وقال لهم الصدى أقطعتم عالما تبلورونه وتشكلونه على هواكم، أبهروني بما تضيفون وتبدعون

على أقصى طيف التجربة البشرية: صراخ الرعب والألم المتصاعد من ساحات الحرب وصمت القبور بعد انتهاء المجزرة ... على أقصى الطرف الآخر الأنغام الساحرة المتصاعدة من أوركسترا في قاعة غارقة في صمت مهيب والكل يحاذر من الكلام أو من السعال والعطس.

أين ترى تصرفات كهذه إلا في المعابد؟ لكن ألسنا فعلا في معبد وبصدد ممارسة طقس قدسي بامتياز؟
الأميون جالسون جنبا لجنب وأيديهم خالية من كل سلاح.

كلهم انتباه، انتظار، تشوق إلى شيء يعلمون أنه سيجرّك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجزّونه إلا نادرا.
والآن انتبه للموسيقين المتأهبين لما ينتظر الجمهور منهم بشوق وتهيب.

المهمة الآن وهنا موزعة بكيفية مَرْضِيَّة لا تحتاج إلى قاضٍ أو محامٍ. هي مبنية على انضباطٍ حرٍّ، على ثقة متبادلة، على تضافر الجهود وكلُّ فرد يعلم أن نجاحه مرتبط بقدرته على التناغم مع كل الآخرين.

تأمل تلك المرأة التي ستعزف على الناي. إنها لن تغرس أظافرها في عنق زميلة لم تعد في هذا المكان لها منافسة.
ستواصلان الانتباه كل واحدة لما تفعله الأخرى وستعاونان تعاونًا وثيقًا صامتًا.

لا وجود الآن وهنا لصراع نرجسيات. لا عازف ضرب أو سيضرب عازفا آخر لأنه يشوّش عليه ويسرق منه الأضواء. لا أحد خرج أو سيخرج غاضبا بعد رمي آتته على الأرض لآتته لم يأخذ حقّه من العزف.

أين ترى شيئا كهذا في علاقات الأميين ببعضهم بعضا؟

هم لا يواصلون صراعات ما نسميه الواقع، لأنهم خرجوا منه وعليه.

تأمل الآن الأمي الواقف مديرا ظهره للمستمعين وعصاه المرفوعة إلى الأعلى، سترسيم في الفضاء وأمره ونواهيته.

لا أحد سيصرخ أنه غير متفق على ما يأمر به. لن ينهض أحد ليفتأكّ عصاه بحجة أنه أصلح للقيادة. هو لا يستبدّ بقرار أو بأحد عندما يأمر هذا بالنطق وذاك بالصمت وآخر برفع الصوت ورابعا بخفضه.

هو مُطاع لأنه يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليبلور أحسن ما عنده همّه الوحيد مهمته الكبرى، إبراز المواهب والتنسيق بينها. إنه السيد الخادم الكفاء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون نموذجُ كلِّ من يملك سلطةً هذا الأمي الذي تُنفذُ أوامره ونواهيته وهو لا ينطق حرفا ولا يهدّد أحدا.

كم هم مُدهشون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في النفخ والنقر وذبح أوتار الكمان وفي تنسيق الجهود وتضافرها لأروع النتائج! كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفقون، متعاونون!

إن نظرت إلى طيف التنظيم عند الأميين تجد الغوغاء في ساحة الحرب في طرف وفي الطرف الآخر الجوقة في أداء الموسيقى... أقصى الهمجية والفوضى والدمار، أقصى التحضّر والانضباط والعطاء.

فجأة يرتفع صخب يدشن به العازفون كل حفل، ربما لينكروا بما تصدره الآلات من أصوات مُنكرة عندما لا يفرض عليها الأميون الانضباط.

يصمت النشاز لتتصاعد من آلاتٍ بالغة البساطة أنغامٌ لم ولن تفقد سحرها أيا كان المكان والزمان.

يستحضر الكهل الجالس في آخر الصفوف أول لقاء له مع هذا الباني العبقري لأفخم معالم الفضاء اللامادي للعالم.
تهمس الأم في أذن طفلها الذي أصبح مراهقا.

- يا بُنيّ إنك تصمّ آذان الجميع والجيران يتذمّرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمّعها ليلا نهارا؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.

ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تفاجئني نصف عارٍ، منتصبا على السرير، في حالة متقدّمة من الهيجان أقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه لا هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.

- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقًا بدأت أخشى أنك...

لوثة من الجنون؟ كلاً وإنما موجات متتابعة من الفرح الغامر والروح في وصال مع مستويات مجهولة من الموجود.

تخامر المراهق يوما فكرة غريبة، الوحيدة التي نجحت في إخراجه من الإدمان على نفس الأنغام الساحرة.

السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة، ومن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا لو!

يتوجه المراهق لبائعة الأسطوانات:

- سيدتي، هل لك سمفونيات أخرى لبتهوفن؟

- أسفة لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي.

- من؟ لا أريد إلا بتهوفن.

- انتظر، أنت محظوظ. أظن أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.

تتسع ابتسامته العجوز وهي تمد إلي كنزا من أغنى كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة تبغ.

- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المغني ليس بتهوفن.

إنها المعجزة تتكرر. يجثو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى من يتوجه بالابتهال والحمد والشكر؟ ربما

جزء من الشكر لامرأة رحلت منذ زمن بعيد ورفضت إلى النهاية أن تُصدّق أن صبيها بذلك العمر ومن أمة أخرى يمكن أن

يهيم حبا بكل سمفونيات بتهوفن، أن يجعل من التاسعة ملجأ المختار للفرار ممّا يزخر به العالم من شرّ ومن قبح.

ينطلق العزف ويتجدد اللقاء بالمطلق، بالمقدّس، بسرّ الأسرار.

يدوي قرع الطبول فيحضر البرق والرعد داخل الذات لا في السماء. ها هي تتحرّك بنسق الموسيقى، تغور معها في دهاليز

الكأبة وترتفع معها إلى حيث النور ولا شيء غير النور. انطلقني يا ذاتي إلى الأعلى، حلقي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي،

ارتفعي، ترقّعي، توهّجي، أضيئي لي ما بقي من الطريق.

يا للمهندس الألمعي الذي جَمع هذه الأصوات وفرض عليها النسق والنظام مستخرجا من فوضاها داخل العالم شكلا، من

تفرقتها وحدة، من تنافرها تجانسا، من بلاهتها نكاه، ومن قبحها كل ما يزخر به العالم من جمال!

لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الجداد وأن الفرخ عاد سيّد العالم، تُصالحنا أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع

العالم والصدى مرتاح لنجاح تجربته، راضٍ عن أدائنا وفخور.

تأثيني أحيانا فكرة أنه لا شيء يبزر وجود الأدمية ويغفر لها موبقاتها عدا قدرتها على إيجاد الموسيقى.

هل تكون الموسيقى هي ما خرجنا نبحث عنه؟

تقول عقدة لا تستقيم لقصة القصص، ألم تكن الجنة تزخر بأرقى أنواع الموسيقى كما تزخر بكل الطيبات الأخرى؟

الردّ أنه يمكن للجنة أن توفر كل شيء إلا الشعر والموسيقى بما أنها المكان الذي تحققت فيه كل آمالنا ورحلت منه كل الأمانا

والموسيقى كباقي أشكال الفن لا تتفجر إلا من ذات موجوعة جذلي تتقلب بين السعادة والشقاء، بين الحزن والفرح، بين اليأس

والأمل.

تتعالى الحناجر بالنشيد الرسمي للبشرية، انتهى الصراع بين الكلمة والنغمة تظافت الطاقتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم

يرق إليها من قبل فكر أو خيال والشعر من الأزل موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنغمات.

"تقدّموا (شّلر)

تسارعوا

بزغت الشمس

وهذه قبلة باسم الأرض كلها

تأنيكم من وراء القبة السماوية

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

أسلموا أرواحكم إلى غامر الفرخ

العمل الفني الآن على مستوى ما حققه الإبداع البشري في كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة الناج محلّ ورباعيات

الخيام ومعادلات ماكسويل. الفارق معدن الصنع، القاسم المشترك تّوق آدم إلى ما لا يستنفذه اسم أو صفة أو فعل. أي كائنات

أخرى قادرة على شيء كهذا؟

هذه السمفونية التاسعة، معلّم بناه الأدمي من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما بلور من ممكن الصنع الذي تزخر

به الكلمات قصائد لاوتسو وابن عربي...مثلما بلور مما تسمح به المادة الصماء اهرامات مصر وامريكا الوسطى ومعابد الهند

وكمبوديا وكاتدرائيات أوروبا ومساجد دار الإسلام.

على ذكر هذه المعالم الكبرى التي تزين الفضاء الحسي والتي يراكمها البشر جيلا بعد جيل. وحدهم البشر قادرين على ترك

بصماتهم على الفضاء الحسي للعالم. يا للفرق الشاسع بين ما بينون ويشيدون ويغيرون فيه وبين ما تترك الطير من اعشاش

والنمل الأسود من دهاليز والنمل الأبيض من تلال حمراء لا تعلو على السطح أكثر من ثلاثة أمتار.

هذا الفضاء الحسي ورشات مفتوحة منذ بداية الملحمة لا تتوقف فيها أشغال ترويض الغابات والجبال والأنهار والبحار والصحاري وأعماق السماء.

ورشات الفضاء اللامادي هي الأخرى لا تغلق أبوابها أبداً وذلك منذ غابر الزمان.

داخلها ترى الأدمي منهمك في شغل ليس من وراءه أي نفع لا يلتفت لضجيج أو يشغل باله بشيء أو أحد.

ها هو في كهف من كهوف ما قبل التاريخ منكبّ على ناب فيل ينحته بقطعة حجر صلب مذنب وذلك على امتداد أيام واسابيع ليستخرج من عاجه شكل كائن له رأس الأسد وجسم الانسان مدركا أنه موجود فقط في خياله وأنه هو... خالقه.

ها هو على امتداد آلاف السنين يرسم على حيطان المغارات أجمل الصور لما يصطاد من حيوانات وكان لوحاته التي ترصد أناقة الأجساد الممتلئة حيوية رسائل حب واعجاب للقوى المبهمة التي تحركها.

ومنذ تلك الأيام الغابرة، كم من آدمي واجه بوجل ولا يزال اللوحة البيضاء، ينقل على سطحها ما يراه بصر الجسد وما تراه بصيرة الروح من مظاهر عالم لا يتوقف عن خلع ولبس كل ما في جعبته من حلّي وحل!

كم من آدمي قضى ليليه يحاول التعبير عما يختلج داخل ذاته وهي تفعل وتتفاعل مع العالم المبهر المرعب والأداة ما توفره اللغة من كلمات!

كم من فنان آخر ترك العاج والرخام والأصباغ والكلمات ليعمل على الأصوات يؤلف منها كيانات جديدة تطرب لها الأذن طربها لصوت تدفق الماء في السواقي... أو لدوي الرعد عند تقاوم غضب العاصفة!

كان الأمر من جيل إلى جيل إعادة خلق العالم في كل الفضاءات التي تشكله لا يهم كيف أو لماذا.

نعم، لكن ماذا عن الثمن؟

من يستطيع تخيل ما عناه الرجل الذي أهدى عشرات الملايين من أمثالي أجمل لحظات الوجود. أي آلام نفسية مبرحة دفعته لتدمير كبده باستهلاك مفرط للكحول. خاصة كيف واجه فقدانه السمع وهو الموسيقى الذي لا يحتاج لشيء أكثر من حاجته لسماع ما يؤلف من موسيقى؟

وقبل بنهوفن من يستطيع تخيل ما عناه فان فو، قاليلي، جيوردانو برونو، الحلاج، سقراط وكم عمالقة الفن والفكر الذين صنعوا معالم العالم الذي نعبر ودفعوا من أجل ذلك أعلى ثمن من رفاقتهم وامنهم وصحتهم وحياتهم.

أه تقول كفى نخبوية وطبقية. نسيت عرق ودم بناء الأهرامات والكاتدرائيات وناطحات السحاب. نسيت آلام هؤلاء "الغلابة" الذين لا تترحم عليهم ولا تعرف اسم واحد منهم. نسيت كم من حوادث شغل، من أمراض مهنية، من اعاقات دائمة ومن وموت مبكر دفعه العمال والفلاحون عبر العصور لبناء هذا العالم التعيس.

خلاص، وصلت الفكرة، قلنا خلاص، تحيا الأممية الرابعة والموت للإمبريالية.

الثابت أن البشر - عبر تكلفة الدمار وتكلفة الاعمار دفعوا ولا يزالون ثمنا باهظا لخلق عالمهم.

من حسن الحظ، أو من حسن تدبير الصدى أن لهم على طريق المهمة التي لم تتضح بعد طبيعتها واحات يلتقطون فيها أنفاسهم.

**

وقال لهم الصدى مكافأة آلام الدمار ومعاناة الإعمار تجربة كم في الوجود من نَعَم

للعالم كما للقمر وجه مظلم ووجه مضيء.

الوجه المظلم أين تسود الحرب ويستأسد الغباء والقبح والشرّ والذي منه كل نقمة سيد الموقف.
كيف هي فصول القصة في الوجه الآخر أو قل طوال حالة هدوء عابرة لم يعد يلاعبنا فيه لعبة القط بالفأر.
كل الأفعال في هذا العالم -أو قل في حالته المباركة هذه- هادئة، سهلة، بسيطة بلا تكلفة أو رهان... بلا أهمية في عرف ذلك العالم الآخر الذي سنواصل التعقّف عن شتمه. جزء من هذا العالم موجود فيما نسميه الواقع وجزء آخر لا زال حبيس فضاء الخيال ينتظر.

أهمّ القصص فيه عن جيرانٍ وصلوا مواعيدهم متأخرين... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربّات بيوت أطار الريح غسيلهن فجاءهن به الجيران... عن الزواج الذي تأخر أكثر من مرّة لعدم توقّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّ القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حواء بنت ابنة العمّ التي أمرضتها يوماً قبل الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى كاملة للضيوف.

لا مكان بين الجالسين لمتجهم، كلهم استنبطوا نصيحة الشاعر

قال البشاشة ليس تسعد كأننا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)

قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فإنك بعد لن تتبسما

إنها ليلة ساخنة والضيف ضيف طرق على الأبواب باكراً هذه السنة، كم من مواضيع ستشدهم بالحديث إلى آخر هزيع من الليل والأهل مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما طفرة الحبور والمرح. وسط ساحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصل العمات والخالات الشكوى الضاحكة (الرجال! الله وكيلك، لكن "الله يخلي لنا رجالنا") ثم تبادل آخر أخبار القرية عن تزوجت من وكيف كان العرس. تتجدد معجزة الحياة لا شيء فيها مملّ التكرار.

يجمع الحبّ كائنين رقيقين يمزجان روحهما وجسدهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق الحجّ للحجّ الجديد والشاعرُ كالعادة هو الشاهد على الليلة القدسية.

في ليالي كنتم سرّ الهوى	بالدجى لولا شمس الغرر	(لسان الدين بن الخطيب)
مال نجم الكأس فيها وهوى	مستقيم السير سعد الأثر	
وطرّ ما فيه من عيب سوى	أنه مرّ كلّمح البصر	
حين لَدّ الأُنسُ شيئاً أو كما	هجم الصبحُ هجوم الحرس	
غارَت الشهبُ بنا أو رُبّما	أثرت فينا عيون النرجس	
ساحزُ المقلة معسولُ اللّمي	جال في النفس مجال النَّفس	
سدّد السهم وسمّى ورمى	ففؤادي نهبة المقترس	

يتكوّر بطن حواء شيئاً فشيئاً فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة دقات القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.
تأمره بإعداد القهوة لأنه يتبجح دوماً أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق.

ثم ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، فتمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذاقتها.
يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيه ما يريد وبعض القبلات زيادة، ثم تنهض لتعلق الغسيل على الشريط، تفكّر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

في هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- يتصاعد صراخ الصبية من كل أرجاء المعمورة يدفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبون شيئاً قدر شدّ شعر البنات.

والله -يا سيدتي-لستُ أنا، لا بل أنت بشهادة الجميع. يكذبون علي، يا سيدتي. أه يا أذني. والآن كفت عن الركض أصبّنتي بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك. لكنها هي التي دفعتني، وأنت كفتي عن إخراج لسانك لأخيك ومزيد تهيجه، يكفي ما فيه من الهيجان.

أنا قلتُ لا أشرس من الأدمي وهو طفل، لا أعنف من الأدمي وهو طفل، لا أظلم من الأدمي وهو طفل، ولا أشد أنانية وندرجسية منه؛ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. إنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تمّ الاستيلاء عليه من قرصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجدات والخالات والعمات -خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية-والله تقدّمي كمعارضٍ بدائي للرضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه بؤسي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما تبولتا علي أكثر من مرّة. أما بخصوص الأطفال فأنا على قناعة -على الأقلّ هذه اللحظة-أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

وفي هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه-يعكف الطفل على كراس يضيئه نور المصباح. يهرش رأسه، يتأهب ويغفوي. ثم ينتبه فيعود إلى التمرين يتعلّم تصريف الأفعال بانتظار اليوم الذي سيخرج فيه باحثًا عن الفعل الذي كان له البذرة الأولى. يسقط الكتاب من يديه ويسقط رأسه على الصدر فتندم "ما" على أطراف الأصابع تحاذر ألا يصدر منها صوت. تجمع الأقدام ببالغ الرفق. تحمل ابنها ببالغ اللطف للفراش. تسمح على شعره تُغالب ضحكها. تطبع على الخد الصغير قبلة الحنان والحبّ واضعةً على جسده النحيل كمّا خانقا من الأغطية بحجة قدوم الشتاء وسرعة إصابته بالرشح.

وفي هذا العالم -أو قل طوال حالته المباركة هذه-يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صورته الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحيّ لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظمّ. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذا. تبدأ المباراة بتصنيف النوى في خطّ مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها القذفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكداش نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من الغشّ. ثم ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين والخاسرين على حدّ السواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقتع وغير مقتنع من طرف الجيران.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه لا يريد الطفل الذي أصبح أبا غير التمتع بروية تفاحة تمرح بين الأزهار وتفيحة جاثية على ركبتيها تتأمل مندهشة كائنا لا زالت لا تعرف له اسما في غير عجلة من امره.

رويدا رويدا (إيسا)

تسلق جبل الفوجي

أيها الحلزون.

هما الآن من ترويان قصة العالم لأبيهما وقد داهمه الكسل اللذيذ.

-تفاحة: ذات صباح والشمس تطل من وراء سحاب لطيف، أرادت الطفلتان الخروج للنزهة والجري وراء الفراش بالقرب من جدول صغير لم تكن فيه حجارة ملساء واحدة. لكن "ما" قالت: ليس الآن، فلا بدّ من طبخ الكعكة في الفرن وأنا بحاجة إليكما. فصرختا لا، لا. نريد الخروج الآن. فقالت "ما": "إن خذا "با" معكما فهو سيز عجنني إن بقي يتفرّج في إعدادي الكعكة وسيز عجنني أكثر إن حاول إعانتني. والآن هيا كلكم، جميعا خارج المطبخ، لا أريد أيا منكم بين رجليّ قبل أن أدعوكم إلى الحضور. آنذاك لا يتلّغا أحد فالكعكة لا تؤكل إلا ساخنة.

-تفيحة: ما هي إلا دقائق معدودة حتى غابت الطفلتان عن الأنظار وهما تركضان لكن "با" رفض الجري معهما هذه المرة لأنه كان متعبا من كثرة العمل، فجلس بين الأعشاب حذو الجدول الرقراق متكئا على جذع شجرة يصرخ: لا تذهبا بعيدا وإلا فسنأكل الكعكة باردة وستحتجّ علينا "ما". "با"، يمكنك أن تقود القصة قليلا. لا تنس تحذيراتنا وإلا نسحب منك الكلمة.

لا خوف من أي انزلاق وأنا أسكن الآن الوجه المضيء من العالم، ذلك الذي نعيش فيه أرواح الأحاسيس والمشاعر وتأتينا فيه أرواح الأفكار.

تفاحة وهي تهزّ والدها بلطف:

- "با"، ارتفع شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتفيحه. الآن أنت الذي ستصنع لي إكليلًا.
هيهات أن تخلص من إزعاج الأطفال حتى في هذا الوجه من العالم. هل من خيار آخر غير النهوض منتاقلاً لجمع الزهور
أنتقيها بكل عناية، أنظّمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثياً على ركبتني أعدّل من وضعها.
- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدا.
تصرخ تفيحه وهي في قمة الجدل:
- المطر... المطر... المطر!
ترفع البنتان عقيرتهما: "أنا أعني تحت المطر..."
- تغنيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.
تلتقط تفيحه عُود خشبٍ ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكلّ مشغول بالشمسية دفاعاً عنها وافتكاكا.
تنتبه تفيحه للأوامر القادمة من بعيد.
- "ما"، تناديننا. عَجَلًا.
تنتبه تفاحة لأمرٍ قد تترنّب عليه بعض العواقب المزعجة. ترفع إصبع التحذير:
- انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضرا من فرط الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك "ما". لا داعي لتتقطن للأمر.
تضع الأصبع بين أسنانها مستغرقة في التفكير.
- سندخل البيت خلصة ثم تعطيني البنطلون أنظّفه.
الحلف الأزلي بين البنت وأبيها ضد الأنتى الأخرى ولو كانت أمًا وزوجة... حلفٌ لا يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن
والأم ضدّ الذكر الآخر ولو كان أبا وزوجا.
حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!
كأنني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفد من طول هذا الفاصل.
هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مُواء القطر. ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. مَنْ يعلم أحسن منه أن
هذا الأدمي الممعن في وداعته، إنّما يستعيد قواه للانقضاض عليه مجدداً؟
المهمّ أن تدوم الألفة أطول لحظة ممكنة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الأدمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة
عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الأدمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه ولا التخلّص منه.
أتوجه إليه: دخيلك انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع.
رحماك، امنحنا مهلة إضافية.
تعود إلى العالم ابتسامته. ربحتُ هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها.
تندافع ثلاثتنا نحو الباب لنواجه منعا صارما بدخول بيت نُظّف لثوّه ونحن بكل هذا البلبل والوحل ملء أذنيننا. تصرخ الزوجة
المزمنة والأم الأزلية:
- لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحدكم -وخاصة سيادة الأب-مسؤولية الزكام وما ينجرّ عنه من مشاكل
لا دخل لي فيها. شكرا على الباقية يا حبيبتي إنها جدّ جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئا بخصوص الأحذية.
تُنزع كلّها في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.
تراوغ تفاحة كسبا للوقت.
- أعدك "ما" أنني سأنزع حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي ليست لذية إذا بردت.
- الدلال مع "با" فقط، قلت الآن.
لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجددّ الخصام، ومع ذلك لا شكّ في جدية الأمر واستحالة تجاهله. أخيرا وبعد
تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زهوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.
تحتجّ ضاحكة: كفى قُبلا بأفواهكم الملطخة. النجدة، إنكم تخنقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت
أكبر الأطفال!
تستعيد تفاحة زمام مبادرة أفلتت منها أطول مما تحتمل.
- "با"، الآن نلعب لعبة المدرسة وهذه المرة أنا المعلمة، وأنت و "ما" وتفيحه التلاميذ.
- طيب، إذن تفاحة معلمتنا ونحن التلاميذ، تفيحه على يميني و "ما" على يساري.
تقف أمامنا تفاحة تلّوح بعصاها وعلى قسماتها علامات الأمر والنهي.
- سنبدأ الدرس. لا أريد التشويش من أحد. تلميذ "با"، كفت عن الضحك وكذلك التلميذة "ما". تفيحه، اكتبني في كراسك: ذهب
قابيل إلى الغابة وعاد بياقة زهور إلى أمه.

تصرخ تفيحه: سيدتي، التلميذ "با" قرصني، قرصني، قرصني!

- بريء والله يا سيدتي بريء.

من يدري ربما أكون فعلاً بريئاً.

تحتج التلميذة "ما":

- أنا من قرص تفيحه؟ يا ولد يا كذاب.

يشتعل حريق المسطرة في أصابع طفل ذاق الأمرين من مساطر المعلمين.

أصرخ أه يا أصابعي، فتأمرني تفاحة بالصمت ثم بقراءة أول صفحة من كتابها. تتبخر الأحرف أو بالأحرى تصبح هيروغليفات لا أعرف لها نطقاً. يتعثر لساني لا أمثل أو أفتعل. إنه رفضٌ وعيي الباطني التعرف على الحروف، بل قل الاعتراف بها حيث لا مكان للكاتب والكتابة في عالم كهذا استعاد أخيراً عافيته. تقول ماذا عن الشعر! حتى الشعر، خاصة هو، فأغلب ما فيه صراخ الألم لا يغفر له حتى أنه صراخ أنيق.

ينفذ صبر "سيدتي" من تواصل قرص تفيحه ودغدغة أمها.

- تلميذ "با"، أنت تشوش. قف ووجهك للحائط. معاقب لنهاية الحصّة.

أقفُ أمام الحائط وقبعةً من الورق فوق رأسي تثبت ما لا داعي لإثباته، فالكل يعلم منذ قديم الزمان أنني حمار القسم. تسترجع الذات بسرعة عاداتها القديمة مع كل الحيطن التي أوقفوني أمامها. ستكون جولة ممتعة في الشروخ والبقع. لكنني الآن في غير العالم الذي كنت أقف فيه أمام الحائط أكفر عن ذنب لم ارتكبه. هذه حالة خاصة جداً يتوقف فيها العقاب حال بدايته، على فرض وجود العقاب فيه وحتى فكرته.

- تلميذ "با"، عد إلى مكانك ولا تقرر تفيحه مرة أخرى... لا، من الأحسن أن تجلس على الأريكة شريطة ألا تغافلنا فنتام.

تصرخ تفيحه: أنا المعلمة. تثب على أختها تفنك منها العصا. تبدأ في إعطاء الأوامر. تنهك تفاحة في قراءة النص الذي أمرت بقراءته. تغتم "ما" الفرصة للانسحاب وأغتمها لدخول قوقعتي.

تقطع على عودة الإغفاء معلومات متفرقة عن نشوب شجار آخر بين سيدتي وتلميذتها المشاكسة، عن يد ترفض بقوة تسليم أناملها الخمسة لحريق المسطرة، عن لسان يخرج في ظهر المعلمة يستقرها. لا شيء جدّي في هذه الخصومة فنحن في عالم لا نريد به ولا يريد بنا شراً وإنما من الخير أقصاه.

أه، هل ثمة مكان في العالم أكثر نورا ودفنا من البيت حين يضم أحب الناس إليك؟

يطرح هذا التساؤل إمكانية وجود أماكن أخرى قد لا تصل مكانة البيت لكنها توفر هي أيضاً بعض أروع لحظات تجربة الوجود.

تقول لنجعل على رأس القائمة السيرك. ألف والعياذ بالله! مكان يضحك فيه الأطفال من مهرج حزين وتضطرب فيه حيوانات أسيرة للقيام بحركات سخيفة مهينة خطيرة عليها! كلاً ثم كلاً، لا مكان لمثل هذا المكان في العالم طوال حالته المباركة هذه. الملعب! تقصد المكان الذي أريقت فيه دماء القرابين البشرية والحيوانية على مرّ العصور... المكان المطوق بالإسمنت والحديد وبطوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقموعة لتفجر ما بداخلها من عنف مكتوم... المكان الذي تشاهد فيه القطعان البشرية المرعوبة تهول نحو باب الخروج فتتساقط الأجساد عفا بالأقدام... المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلية الانقلاب... الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة... الذي ينظمون فيه مسابقات الغرور... الذي يمشون فيه بخطى عسكرية حاملين أعلامهم... الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياء يصفقون طويلاً لبني عائلتهم ويجلسون حالماً تظهر أعلام العوائل الأخرى... الذي تنتهي فيه كل الألعاب بهزيمة هذا وانتصار ذاك... نعم سأضعه على القائمة وسأذهب إليه ومعني تفاحة وتفيحه يوم يعرضون فيه ألعاباً تنتهي دوماً بمنتصر ومنتصر.

رأي الشخصي الذي لا يلزم سواي أن أجمل مكان في هذا العالم -أو قل طيلة حالته المباركة هذه- (بعد البيت طبعاً) حديقة عمومية تدفع فيها أم جميلة عربية رضيعها تجلس بالقرب من البركة الصغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنصف إلى الصورة العجوز التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكائنات تتدافع إلى نصيبها من الحَب ومن الحُب.

تقول: لا تنسَ مقهى صغيراً على الضفة الأخرى للبركة يسعد فيه الرجال باحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر النكت. حتى أكون داخل الصورة سأجلس على العشب والظهري مسنوداً إلى جذع أرزة أملأ عيني من كل هذا الجمال الوديع، أنتنفس ملء رئتي أريج الورد ورائحة العشب المقصوص لتوه.

ثمة أيضاً مسرح "الباليه". لم لا يكون هو صرة العالم في حالته المباركة هذه. أليس المكان الذي نخرج فيها اللسان لمن فرض علينا أجساداً للمرض والموت فجعلنا منها أدوات لاستكشاف الخفة والرشاقة والجمال؟ نحتفظ بهذه الفكرة.

أه اتريد المرقص على رأس قائمتنا، لم لا؟ هل ثمة مكان أروع للرقص من فوهة البركان قبل وبعد الانفجار. وفي هذا العالم أو في حالته المباركة هذه يتربّع الفنان الموهوب على كرسيه المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الأكورديون. ينحني ملك الزولو بمنزله الأحمر وطاقيه جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية: سيدتي هل تراقصيني فتقبل بامتنان. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدورا على أنغام "فالس" الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الراقص الإسباني يضرب بكعب رجليه خشب الركح. تتقدم الراقصة الباليينية لتنتهي على الأنغام. تفرغ الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذكر الليالي الأولى فيتدافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرات اليمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

تصرخ تفيحه أن القصة لازالت قصتها وأنها لن تقبل إلا بأفضل مكان لديها خاصة عشية الأعياد. موافق. لنطلق أطفالنا داخل متجر العباب الصغار نضحك لانبهارهم أمام ما يزخر به من دبية ونمور وفيلة من الصوف ودمى من كل الألوان. هل تأملتهم وأفواههم مفتوحة دهشةً وجشعاً. كم تغفر لهم أنهم كانوا رضعاً وأنهم سيصبحون من جنس المراهقين بعد سنوات ستمرّ بسرعة البرق.

على كل حال العالم كله في حالته المباركة هذه حديقة ألعاب للصغار والكبار على حدّ السواء. وفي هذا العالم -أو قل وهو في حالته المباركة- على الطرف الآخر من المدينة لي موعد آخر مع جحافل تتدافع داخل ملعب لن نحمله وزر بقية الملاعب.

أمام مدارج هذا الملعب المكتظ الليلة بعشرات الآلاف من النظارة والضجيج في أوجه، يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شيئاً فشيئاً يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهباً تحسبه ذراعاً مرفوعاً إلى الأعلى ينتهي بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة بسمونها كرة القدم فتطلق فجأة الشماريخ ويرتفع إلى عنان السماء دويّ جمهور صاحب جذلان وبداهة سعيد.

ينتصب أحد النظارة واقفاً. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعداد.

إلى من تتوجه صلاة المنقرج وأهازيج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي يتشارك في حبه جل سگان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم: الرب "كاسلعالم".

هم يخرجونه كل أربع سنوات في مواكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها البشر. يُسحب الصنم بعيداً إذ لا يجوز ابقاءه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التوارى بعيداً عن الأنظار ليبقى محفواً بالغرابة والسرّ.

يتواصل الحفل بفريقين من الأدميين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق ابيض يتسابقان تحت أنظار الحضور الكثيف لتسجيل أهداف صعبة المنال ترمز لطول جريتنا وتشوقنا للحظة نسجل فيها نحن أهدافنا.

بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي مبتذل طبقة أعمق من الرسائل والمعاني. الآن وهنا، أخيراً ولو لزم من قصير عابر، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة الوجود... لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإيذاء... على المدارج لا اثم ولا فسوق... على الساحة لعبة قواعدها واضحة لا مكان فيها للغش والظلم... وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مفوض من قبل الربّ المخفي يعاقب فوراً وعدلاً كل من يتناول عليها.

كيف لا يتفجّر الفرح عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسلة أخيراً تحت السيطرة! نعم، ظاهرياً نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في قدّاس تحفّي فيه البشرية بتحقيق كل ما تسعى إليه جاهدة منذ بداية ملحمتها في هذا العالم.

إنه حفل ديني مكتمل الصفات قد يوصف بالوثني والوصف لا يغير في الأمر شيئاً، كم عبد البشر من أوّثان قدوا من الحجر، من الشجر أو من أجمل الصور وأروع الأفكار!

كم تغيّرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر. كذلك الأمر مع الحاجة الدينية. هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير. أه لو قبيض لي أن رؤية آلهة وكهنة وطقوس ديانات العشرة آلاف سنة والمائة ألف سنة المقبلة! سقق الملعب الضخم مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة قوى الدمار والموت التي تزمر حولها وداخلها.

في كم من أماكن على سطح الكوكب تتدافع جماهير جذلي لتتجّر في الشوارع والساحات كل الفرحة المظمور داخلها لا يهّم الظرف أو السبب. يشجيني جاري على رفع صوت بدا له محتشما ومحرجا. يجب أن أسخن أكثر فلست متعودا على الصراخ في هكذا مواكب. تدهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودت على وجودهم في الصورة بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحديدية وهراواتهم الموجهة. إنه حفلٌ تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملوّنة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تُفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"وضيع". بدهة ثمة في العملية سخريّة من الحرب والناسُ ترمي بعضها بعضا لا بالرصاص والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسّم حياة الأدميين وهم أخيرا سواسية صبغت وجوههم وثيابهم نفسُ الألوان وانتشت أرواحهم أخيرا بنفس فرحة الحياة. إنها نفس الجماهير الجذلي وإن بأزياء مختلفة وبطبول تفرع أنغاما مختلفة تذرع شوارع أماكن اسمها ريو، نيس، فينيسيا، نيو اورلينز، نوتينج هيل، اورورو، تريف، كيبك، بازل، ساو فنسنت... والقاسم المشترك نوبة تتكرر سنة بعد سنة من الفرحة الجماعي.

الفرح! الحالة التي نخرج فيها للشارع وثبا ورقصا، تفجرت داخلنا طاقة جيّارة تُفجّر بركان طال خموده... الحالة التي يتعطل فيها الكلام لينقلب صراخا عند الذكور وعند إناثنا زغاريد... الحالة التي تتوهج فيها الروح وقد أصبحت شعلة من النار والنور... حالة هناء وهي تركل برجلها اليسرى كرة من المطاط راکضة وراءها تصرخ في قمة الجنل... أئمن ما يكافئك به العالم على طول صبرك على محنه... أبلّغ صور الرؤيا لنجاح هذه المغامرة التي نسميها الحياة... نعم، الفرحة هو اللحظة التي هي بغنى عن كل الزمن الماضي وعن كل الزمن الآتي وقد اكتملت في اللحظة الراهنة تجربة الوجود.

نعم كل هذا صحيح لكن مثل هذه الأماكن لا تفتح أبوابها أسبوعيا لنفس المتعة والحال أن هذا ما تتكرم به الأسواق؟ ألا تستحق ولو لهذا السبب المرتبة الأولى في قائمة أجمل أماكن العالم وهو في حالته المباركة هذه؟ كم أحبّ الوانها وروائحها! أحب صراخ الباعة يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر. أحب المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأي عنف أرجأوا معاركهم التي لا تنتهي إلى ما بعد فسحة الروح والجسد. أحب رؤيتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ. أحبّ أكثر التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار وشتى أصناف التوابل الآتية من أبعد أصفاع العالم أنتقي بعناية ما سيمكّني من طبخ الدّ طبق تطرب له براعم التذوق ولا بأس أن يساهم في الحفاظ على صحتي وعلى معنوياتي.

هل من المسموح تغيير رأيي؟ على ذكر ما تزخر به أسواق الفضاء الحسي من طيبات الأكل والشرب، أقولها متحملا كامل مسؤولياتي: لا وجود لمكان يسأهل أن يكون مركزَ عالمنا وهو في حالته المباركة هذه إلا ذلك المكان الذي تتوسطه ثلاجة عامرة تطمئننا أن عهد المجاعة ولّى إلى الأبد... خاصة عندما يعبق برائحة القهوة الساخنة وبعطر نسائي خفيف. نعم المطبخ هو صرّة الفضاء الحسي للعالم أو قل للعالم في حالته المباركة هذه. تنقّص "ح" على الثلاجة بحماس منذر بتهاطل الأوامر والنواهي. تستولي على ما بداخلها من بيض وزبدة. تخلط كل هذا بالسكر ثم تضيف قدرا محترما من الشوكولاتة الساخنة الذائبة بانتباه من يصنع قنبلة وبخشوع من يصلي صلاة الجنازة. المطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت صلبة وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها. كيف يمكن للشيء أن يكون صلبا وسائلا في نفس الوقت؟ إنه التحدي الذي أصبح بمرور الأيام-وبتعدّد الاخفاقات- هاجسا عند "ح" وبالعدوى عند عاشق مرطبات "ح".

تضع رقيقة الطريق الكعكة في فرن لا تفارقه بالبصر الحذر مترقبة بعصبية لحظة الحسم. يأتيها أمر من داخلها بأن الوقت حان. تبادر بسرعة لإخراج كعكة إثبات الذات. فشل جديد وعلى طول الخط. الكعكة جافة ولا شيء يسيل منها عند القضم. أسارع للمديح. لا تهتمّ "ح" بكلام معسول تعرف أن نصفه مواساة صادقة ونصفه سخريّة شامتة.

تواصل "ح" بحثها عن الوصفة الصحيحة وكم من وصفات ستجد وستجرب والفشل هو الفشل. ثمة دوما خلل ما، إما في نسب المواد وإما في درجة الحرارة أو في مدة الطهي. شيئاً فشيئاً يتسلل إلي قلقها. أكتشف يوماً أن مشاكلها مع خصم حقير، واستعصاء العالم على الفهم وتسارع السنين ومشاكل الأمة والبشرية، ومو عدي الذي أرجئه باستمرار مع طبيب الأسنان، وبقية المشاغل الأخرى، بدأت تتراجع إلى الخلف أمام هذا الملف الضخم والموضوع محل نقاش مسترسل وتجارب لا تنتهي.

تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبها حذر مفاجئ:

- أنفدت حياة مريض؟

- أحسن من هذا.

- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد زملاء فضحت المسكين أمام الجميع بابتسامة مشفقة.

- أحسن من هذا....

- لا وجود لأحسن من هذا.

- بلى، حلّ كعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقتنا الأرجنتينية. هيّا اتركني أعمل.

- الآن؟ في منتصف الليل.

- الإعداد الأولي فقط لأن العملية مراحل. يجب أن أنوب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمال غدا.

من الغد تعود "ح" إلى تجاربها. تصبّ نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرح.

- فهمت سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟

- تظنني غيباً؟

- فسّر.

- إذا اعتبرنا سرعة الضوء التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالقطر المجهول لبوزون " هيگز، فإن...

- لا تكن سمجاً. سيصبح سائل الكعكة يابساً بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابساً هو الآخر.

- هذا بالضبط ما فهمت وسأهني نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفة. على كل حال، ليس لي ما أخسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.

تتنهد "ح"، بدهشة غير مستعدة على غير عاداتها للدخول في أي مزح.

- أتساءل أحياناً ما الذي حبّبتني فيك؟

- عجيب، إنه نفس السؤال الذي يقضّ مضجعي...متأكدة أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟

- هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟

- لا.

- إذن تفضّل على برّه.

- نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح.

- انتبه سأضربك.

- إياك، لا فكرة لك عن نفوذ أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.

تهاجمني "ح" بين ضحك مكتوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعي. لا تنطلي الحيلة. تدفعني برقة إلى خارج المطبخ مصفقه الباب ورائي. لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح "ح" الباب لا أرى إلا ظهرها وهي تهجم على نافذة الفرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج يقطر بالشوكولاتة الساخنة السائلة.

(رانيو)

«الحياة اليومية

بأعمالها المتواضعة السهلة

مهمّة بامتياز

كم تتطلّب من الحبّ"

نعم أقولها متحملاً كل مسؤولياتي الفكرية والفلسفية والميتافيزيقية المطبخ هو صرّة العالم... على الأقل في حالته المباركة هذه.

ماذا؟ تُبدي تردداً في الاعتراف بوجاهة خياري! بريك أليس هو أول مختبر تمعن فيه الأدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه علومنا ونحن نسحق الأشياء، نذوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نيزدها ونسخنها ونتمعن في النتائج، تارة هي كوارث وتارة أخرى هي أذّ المفاجئات؟ حقا لا يمكن القول إن ما جربناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأناقة أو اللطف، لكن من يجادل في كونه المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستتساخ. هنا لا يقوت النصّ تقديم بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطّررنا -مع بالغ الأسف- إلى التهامها وعلى رأسها الدجاج لوما عرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظة مُعتبراً زلةً لسان لا تُغتفر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحمّر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثاً.

أغتنم الفرصة هنا للتقدّم أيضاً بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتوابلها مظهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال. تقول، نسيت الفلّ والياسمين والحبق والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من منعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهددين لكل جزار تسبّب في آلاف قتلها ساحته وتمثاله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة ولمذاتها النادرة. جدّد من أعانك أكثر أوقات الشدة؟ البقلاوة والمقروض والغريّبة والشباكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية وبصفة عامة السكر والعسل والزبيب والفسق واللوز والبندق... أم اسكندر المقدوني ويوليوس قيصر و نابوليون وأبو عبدة الجراح؟ كل هذا لا يمنع من القول -من وجهة نظر الأدمي طبعاً- أن كل الأفعال التي تمارس في المطبخ حلالاً لا غبار عليها قانونياً أو أخلاقياً ولا حتى جمالياً وأخصّ بالذكر منها أفعال أكل، تذوّق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمدّ قيمتها من عالم غيره أغلب المسافرين وفعل جاع أكثر الأفعال تصريفاً.

خذ الآن بقية الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالفاروس، بريك بالتّن، طاجين جبن، بسيسة بزيت الزيتون الحلوى الشامية بالمكسرات، مسفوف بالدقلة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست بريك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الأدمية النهمة تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسطيلة والمعرونة بفواكه البحر والسوشي والكزّي والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق والسيبوجن؟ أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنموّ وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها! على فكرة... كل هذا الكلام المعسول عن خروجنا لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثاً عن الذات والله، تبرير نخفي وراءه أننا ما كنا نغادر حزن نساننا لولا جشعنا للشاي والملح والقهوة والسكر واللبن والتوابل النادرة، نبحت عنها وراء ألف محيط لا يهمننا للحصول عليها استبعاد قارة وحتى عالم بأكمله.

مواصلةً في نفس النسق الذي قد يعتبره البعض استفزازاً. بحقّ سكايبو وبوكوز وأمك صنّافة وبقية المحسنين للأدمية، ألا تشعر أن النصّ وضع أخيراً الإصبع على الخلل الرئيسي في الملحمة البشرية؟ ألا تصف كلمات الطبخ أشياء موجودة بصفة لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والباذنجان والبصل والثوم والبقدونس... أشياء ثابتة الوجود والحال أننا نضيع الوقت والجهد في الجري وراء أو هام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهقة مثل الدين القويم والشريعة السحاء والجدلية المادية والوطن المفدى والشعب المقدس والمستقبل الزاهر والمدينة الفاضلة والماضي المجيد... الخ... الخ.

ألا تفسّر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟ أليس صحيحاً أنه إذا مات المستهلك بالتسمم فإنه لا يتهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شك في السلامة العقلية للطباخ؟

أخيراً لا أخراً، في الحالة المذكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائياً من كتاب الطبخ حال ظهور أول حالة تسمم، أو تعدّل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرّ القرون تجرّب بإصرار تقتل الناس وتصيبهم بالإسهال الحادّ ولا من مجال للتخلص منها ومن أصحابها إلا بحرب لا تبقى ولا تذرّ؟ تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف المتدينون والسياسيون كما يتصرف الطباخون... ولو فعلوا لما عرفنا أهوال العالم في حالته اللعينة تلك.

أه على ذكر أفضع ما نجرب في ذلك العالم ورغم ما سبق من التبرير والمواساة والقبول الغاضب بظاهرة اسمها الحرب، يعلن في هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه الجنود الاضراب العام.

يغتتمون فرصة عيد الميلاد للخروج دون سلاح إلى الأعداء الغارقين مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفترانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضا يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصتبون سخطهم على أكلٍ لا أبشع منه إلا ضباطهم الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبءه كرة فتقلب ساحة القتال إلى ساحة لعب يتدافع فيها كهول استعدوا إنسانيتهم باستعادة قدرة اللعب. يتعالى صراخ المرح والضرباُت البارعة تسدّ لكرة لا تعرف أين مرمى الخصم بما أنه لا أحد يعرفه ولا يعرف حتى من هو الخصم. المهم الجري وراء الكرة ودفعها في كل اتجاه ليفيق الطفل داخل الكهل. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السماوات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية وبقوافل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع هؤلاء المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

ثمة حالات أخرى للعالم أو قل في حالته المباركة هذه عندما تتحول "ساحة الوغى" لمكان تقبّر الضحك والسخرية من كل المتدافعين إليها للعب أدوارهم البائسة.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التثاؤب لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للقوم طقوس تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مقبلات شهية القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرّة إلى فارس العدو؟ من؟ المهزج الرسمي! الذي يرافقه في حلّه وترحاله ربما قرّر الأمر ليبعث برسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهزجون... أو كقرار غبي من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.

يستعطف أبو دلامة مولاه منكرًا إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا بسكاكين المطبخ. عبثا.

آخر استعطاف: بما أنه قدّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شبعانا، أيأمر لي أمير المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثمنا في قرارة نفسه قيام المهزج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله. يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى ساحة "الوغى". من الطرف الآخر للساحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدي سيفه ويهمز حصانه صارخا بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه. ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبه شاهر... دجاجة محمّرة. المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شيئا يشبهه:

أبو دلامة: أتعرفني؟

لفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصَف بعد؟

- لا والله.

- هل هتكتك لك عرضا؟

- لا والله.

- هل قتلث لك أبا أو أما؟

- لا والله.

- هل ظلمتكَ يوما؟

- لا والله.

- هل سرقث منك شيئا؟

- لا والله.

- هل جاءك واش بكلام قبيح يدّعي أنني قلته فيك؟

-لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العن الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعا مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس تتفرّج في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة ويدردشان كأخوين فرّقت بينهم الحياة وتلاقيا صدفة من جديد. لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفاخر بجبنه حين يفاخر الآخرون بشجاعته، وربّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسما وروحا.

أنت من أدرك أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في العيش والدفاع عن الحياة... أن البطولات هن النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهن على الطفل المريض وفي طول صبرهن عليه سنوات وعقودا... أن الأبطال هم الرجال في خروجهم للصيد الخطر، للحقل الغارق في الوحل، للمنجم الخانق وللمحيط المرعب... ومع هذا ترى من يتدافعون لساحات المعارك يريدون إثبات ما لا حاجة لهم لإثباته وما لا يثبت في كل الحالات بهذه الكيفية وإنما بعكسها.

إن كنت من عشاق الحرب رغم كل ما قيل فيها منذ وجدت ثمة ساحات في هذا العالم ترضي فيك غرائز لم ننجح كلنا في التخلص منها. لا تنس أسلحتك من بالونات ضخمة ورشاشات ألوان فاقعة ومخدرات غرفة النوم. أطلق العنان لغرائز العنف فيك. كل من تصيبه بضربة بالون بارعة أو تمكنت من رشّه بالألوان، عدوّ بغيض خلّصت العالم من شرّه، لكن احذر أن تستشهد كثيرا. تسأل: ماذا فعل بكبار العنيفين الحالمين بالتصفيات الجماعية والمحتشدات الضخمة؟ حتى هؤلاء فكّرت فيهم يا من تسخر من النصح ومن صاحبه. نأخذهم إلى مكان خصصته لهم فيه دمي من البلاستيك شبيهة لأقصى حدّ برؤسائهم وأزواجهم وأطفالهم، وعموما بكل البشر الذين يكرهون، ثم نمدهم بسكاكين لتقطيعها، وإبر لوخر عيونها، وأخيرا بصفائح بنزين وولاعات لحرقتها وذّر رمادها في كل اتجاه.

لا بدّ حتى في هذا الوجه المضيء للعالم من تبادل الأخبار بين أبناء وبنات عائلة فرق بينها اتساع المكان وتسارع الزمان تواصل المذيعة الجميلة ذات الشعر الأشيب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خريز ماء السواقي: "من مرسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهو وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال ولّدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحقّونهم بكل ما يقدر عليه الأدميون من حب ومن عطف.

بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطفٍ غير مصطنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مرسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصّي الموضوع صرّح لنا سواق القاطرات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قرّرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين واقترشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رَفَع المسافرين السواقي على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل الخلل الحاصل هنا وهناك. والآن نمزّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقرية البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء الشبان.

أجمل ما في هذا العالم مشاريع اختفاء السيرك ومراكز ترحيل الأجانب ومخيمات اللاجئين ومصانع السخرة والمواعير والسجون والمحاكم والثكنات ومصانع الأسلحة وأوكار التضليل التي لا تعيش إلا بالأخبار السيئة كما لا تعيش الجرائم إلا من العفن.

لنواصل التخلص من كل الأماكن التي ليست إلا دليلا على بؤس الحلول لأصعب المشاكل.

وفي هذا العالم أو قل طيلة حالته المباركة هذه تنهار جدران كل الكنائس والمعابد والجوامع وقد فهم المؤمنون ان ادعاء احتواء المقدس في كيانات من الصخر، من الطقوس والمعتقدات مثل ادعاء احتواء المحيط في قارورة ثم التقاتل لمعرفة اي القوارير أحقّ بملكية المحيط.

لا غرابة أن تنهار جدران كل الاديرة فرغت من رهبان وراهبات توشحوا بالأسود او بالأصفر. هم فهموا أخيرا انه لا جدوى لمحاولة الهروب من العالم وهو يلاحقهم بكل ما فيه من جمال، ومن قبح من خير ومن شر داخل زناناتهم انتبهوا أخيرا لصدق الشاعر

خلت في القفر أنى اصبحت وحدي / فاذا الناس كلهم في ثيابي (إيليا ابو ماضي)

هم فهموا انه لا معنى للانعزال في ركن من باخرة تواجه أشرس العواصف وعلى شك الغرق في اي لحظة وتصور ان هذا سبيل نجاة النفس والآخرين.

هم فهموا ان ادارة الظهر لمآسي الانسان بحثا عن الخلاص الفردي في هذه الدنيا او في الاخرة فرار الجبناء من المسؤولية أما الشجاعة فهي في الانخراط إلى آخر لحظة في آلام وآمال البشر.

وبينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئني العالم بأخر هدايا اليوم كآته حلا للفنان الأعظم الذي علم الرسم موني وبيسارو وفوقان إعادة تلوين السحب.

ها هو يضع بريشته على أطراف رمادها الكئيب لمسات جد خفيفة من الأصفر الوضآء متابعا بخيط جدّ دقيق من نقط النور تعرج حواشيتها. ثم كأني به يغير موضع فرشاة الرسم والنور يتوغّل داخل السحاب قاضيا المزيد فالمزيد من الرمادي العبوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد. أي حاجة للرخص من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن اقاصي الجنوب لأقاصي الشمال ومثل هذه الروعة موجودة في كل مكان. ها أنا أترنم بكلمات أغنية غناها أقبح وأجمل صوت لأكرم فنان وبعده كم من آدمي شاكر حامد وممنون.

" أشجار مزهرة

زرقة السماء.

ألوان قوس قزح

صراخ الأطفال

أصدقاء يصافحون بعضهم

قلت في نفسي

"What a wonderful world !

قد يكون أصعب سؤال يُلقيه عقلٌ منتبه هو: ما الجمال ولماذا هذا العالم جميل إلى هذا الحد؟ لا أحد منا والعالم في حالته المباركة معني بغير التعبد لأهمّ ما تُعوّض به الرحلة الآمنا.

نعم، كم صدق الشاعر:

"ثمّة شيء محبّب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جنّاه للموت"

نعم، إنه عالم فيه شيء محبب. لكننا لم نأته فقط للموت وإنما لشيء أهمّ، ربما لمهمّة قرّر ها لنا الصدى ولسنا متأكدين لا من طبيعتها ولا من نجاحنا في تحقيقها.

لا بدّ من العودة إليه نكرّر السؤال -وإن كنا نعتقد معرفة الإجابة منذ البداية- نقول له ما قاله إبراهيم لربه: أمنت، لكن ليطمئن قلبي.

**

وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني في أي مكان "إني بين ضلوعكم تقلبني الأنفاس جنباً إلى جنب"

للبحث عن الردّ، شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس،... وقدماء الإغريق إلى دلفت... وقدماء البريطانيين إلى ستونهانج-درنتون.... وقبلهم جميعاً شدّت الرحال قبائل لم يحفظ التاريخ اسمها إلى أماكن عفا رسمها منذ زمن سحيق تدّعي كلها أنها بيت المقدس.

كم من أماكن في الفضاء الحسي اصطفاها البشر ليجعلوا منها البوابة للعالم المخفي الذي توجد وراءه كل الأجوبة وصاحبها الذي لا نسمع إلا صداه! تَلّ مرتبّ تائه وسط الصحاري الحمر، جبَل يُدعى طابشان، بحيرة اسمها كايلاش، معبد على قمة اسمها يوبا... مدن اسمها شافين، كوياسان، كوباكابانا، بيت لحم، روما، فاطيما، سانميشال، طوس، هاردوار، ارميستار، بنارس، أمانا، لاهاسا، شيكو، بوروبودور، القدس، سان جاك... الخ.

بحثاً عن لقائه يشدّ بنو قومي الرحال منذ قرون إلى مكان اسمه أم القرى.

تتنهد "ما":

- كم أنا سعيدة أنك... ظفرت بما كنتُ أتمناه لك دوماً.

لي فقط؟ كان الحجّ حُلماً طوال حياتها... الحلم الذي رفضت البوح به حياءً من أن يُعتبر طلباً وتكليفاً.. كم رددتُ لنفسني أنا جدُّ مشغول هذه السنة سأخذها إلى الحجّ السنة المقبلة. نعم، السنة التي تليها فما زال أمامنا متسع من الوقت. هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

- السنة المقبلة. كلمة رجال هذه المرّة.

- فات الأوان يا بنيّ، فات الأوان.

- أي أوان هذا الذي فات؟

- نعم. نعم يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهوّن عليّ والسرطان ينهش جسدها والشعور بالذنب ينهش روحي.

تفهم "ما" الذي يختلج في صدري.

- هوّن عليك يا بنيّ... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيراً كل تفاصيل حجّك... لستُ مستعجلاً، أليس كذلك؟

نعم، لستُ مستعجلاً هذه المرّة.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تمّ اختيارك لتسرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرًا في

المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تُعرفُ الإدارة وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

ربما عيّنوني للمهمّة لأنّك فلا أرجع لمواصله تنغيص عيشهم، أو أملاً أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء.

- بعد الشرّ عن كبدتي، والآن أصدقني القول، لماذا تفاديت دوماً أسئلتني عن حجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟

خجلان أن ينادوك حاجاً وما زلت شاباً؟

خجلان؟ بعض الشيء... قرفان بعض الشيء الآخر؟ أصف كل ما حدث أم أنا فاق أنا أيضاً؟

مما بقي محفوراً في الذاكرة أن السعي إلى مكان أهمّ المواعيد بدأ بالوقوف ساعات مضمّنة في طابور تسوده الفوضى لتسجيل

حقاتب ملأنة بالثياب وبما أعدّته زوجة كأنها تخشى عليّ من الموت جوعاً... أنه تواصل حشراً في طائرة مكتظة في مقعد

الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها، ليواصل الشيطان المكلف بالسخرية مني التنكيل بأحلامي.

عند وصول بوابة الأراضي المقدسة التفتيش من قبل شرطيّ عابس يبحث في جيوبي وفي حقبيتي عن الكتب الممنوعة. ثم

التدافع الشرس داخل الحافلة المكتظة المتوجهة إلى أولى مدينتي الحجّ.

إغماض العينين. لاجئ في أعماق فضاء خيالي هرباً من الصخب والحزّ والروائح.

المسبحة في يدي اليسرى، سلاحي في يدي اليمنى، على ظهر ناقّة بيضاء علّقت في عنقها الأجراس والتماثيل، النوم

بالنهار والسفر ليلاً تحت القبة المرصعة بالنجوم... خطّاي في خطّي أجدادٍ كان حجّهم إلى الأراضي المقدسة مغامرة العمر...

عائد إلى منطلق رحلة الأجداد فهذا الطريق هو الذي أتى بهم من أقاصي المشرق إلى أين تغرب الشمس... رحلتي هذه

عودتهم في ثوبي من غربة طالت قرونا والطريق كان أطول مما توقّعتوا والزمن أقصر مما تمنوا... أولى المحطات قبل مكان

الموعد مدينة عريقة قصدتها وإن أطالت على طريق الحجّ لا يخص أحداً سواي... مارة يتغامزون: درويش من بلاد المغرب

يبحث بين الرصافة والكرخ عن أخبار ذلك الزنديق... هنا أركبوه على البغل... عبر هذا الطريق ساقوه إلى ساحة الذبح... هنا

جلدوه ألف سوط وهو يردد: أحد، أحد... هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى... هنا صلبوه... هنا انتظروا -ودمه ينزف- إن

الخليفة بضرب عنقه.. هنا علّقوا رأسه... هنا حرقوا جسده الطاهر... هنا تصاعدت روحه لتلتحق بروح الأرواح... أخيراً

المكان المقدس أين ضرب لي الموعد... نهلت من النبع القدسي وأتممت المهمة... الرجوع لأبشر "ما" أن المنزه عن كل صفة قبل مئي إنسانيتي... ستكون قافلة الرجوع محملة بقرب ماء زمزم، بتوابل سرنديب، بحرير الصين، بلبان حضر موت وبعطور سقطرى... قبل الوصول يجب أن أجري وراء اللصوص وقطاع الطريق الذين لم ينتبهوا لقافلاتي أعطيهم منابهم مما تئن بحمله الإبل... على تخوم واحة الآباء والأجداد سأطلق سراح هذه الإبل لتتعم هي الأخرى بالحرية ومسؤولية تدبر عيشها كما أراد لها الذي خلقها وسواها... أنا الآن داعية الشيخين أوصل جهادهما في البلاد التي جارت علي من يوم ولادتي والتي صن بي أهلها الف مرة ومرة... أمامي السلاطين وفقهاء السلطان في صفوف مترصّة والشرر يتطاير من عيونهم... دمي مهدر أنا أيضا... الفرار! لكن إلى أين والسلاطين وفقهاء السلاطين والدهاء في كل مكان.

يتوقّف الحلم اليقظان فجأة وأنا أسمع زعيق الفرامل وصراخ الركّاب:

- حقيبة سقطت من سطح الحافلة!

يتوجّه إليّ السائق بلطف: آسف، يا سيدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تتفجر وأن أغراضك لم تتبعثر.

صحيح أنني أمرته بذلك وكنت في ذروة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد البدين والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتني. أيعقل أن تصبح أقدس سفرة حلمت بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفر؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل راجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيلًا على بشر أو إله.

في كل الأحوال أليس هذا الذي نحجّ إلى بيته موجود في كل مكان، في كل كائن؟ ألم ينيهم لهذه الحقيقية منذ غابر الزمان كم من حكيم؟

"إين رمت شرقا أنت للشرق شرقه
وإن رمت غربا أنت نصب عيان (الحلاج)
وإن رمت فوقا أنت في الفوق فوقه
وإن رمت تحتا أنت كل مكان
وأنت محلّ الكلّ بل لا محلّه
وأنت بكلّ الكلّ ليس بفان"

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلت من الحافلة متوجها إلى حقيبة رابضة تنتظرني على الاسفلت، كيف رميتها بالحجارة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهرول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبة اللعينة تركض ورائي والقمر يقهقه ويحرّض.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تفجّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدق فيّ مطولا.

- يا بني أي أهمية لما نعاني على الطريق... المهم أنك وصلت بيت الله وعدت منه سالما.

- الطريق بالنسبة لأمثالي أهم من... لنقل إن للطريق أهمية كبيرة.

بل هو لي كل شيء... آه يا أولى خطوات المغامرة المقدسة والأخطار كامنّة في كل منعرج، متى تعودين... متى تعودين؟ في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أشرّ لأقصر الطرق المؤدية إليه.

ومما رويته للمحتصرة أنني لم أصبر على اللقاء، أنه حال وصول "المنورة" آخر ساعات الليل رميت بالحقيبة اللعينة على فراش النزل، أنني هرعنت إلى المسجد أترنح من التعب وبي أملّ ساذج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي آخرهم. زحمة مخيفة. تدافع فظ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.

حملني تيار الأمواج الأدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرئب المهج والعيون.

فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط! الشيء المخصص لحثّ الحيوانات على الطاعة وعقاب الأدميين بأكثر العقوبات إذلالا.

ربما لا وسيلة غيره للوقوف في وجه جشع وحمق الأدميين.

لا شكّ أنهم كانوا دون هذا السوط سيسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم، لا يتركون حجرة أو عظما ليبنوا حولها في أراضيهم قبابا وزوايا يضعون داخلها ما نهبوا لإبهار واستغلال ايمان البسطاء. كم من سوابق في كل الديانات!

ألم تكن أكبر تجارة في العصور الوسطى في بلدان الغرب العلماني تجارة العظام المزيفة للقدسين والمسامير المزيفة لصليب المسيح؟ هكذا بنت مدينة باري مجدها طوال النهضة على حج لرميم قديس اسمه نقولا سُرق من مدينة قديمة اسمها ميرا كان القديس أسقفها. المضحك في الأمر أن أهل البندقية سرقوا السراق ليزينوا به كاتدرائيتهم وبالطبع كان كل المسروق مزيفا.

بقية الأحداث التي كانت "ما" تستعجل تفاصيلها والتفاصيل داخل التفاصيل.

حاذرت للبقاء بعيدا عن السوط. جاهدت للاقتراب ما أمكنتني من مئوى هذا الذي كانت "ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي من تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُرد له شفاعاة.

يصرخ في أحدهم: تحرّك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟

لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة.

هنا يردد صداها من جيل إلى جيل... الإنسان الذي طلع على الأدميين وأتاهم بالخبر اليقين، الإنسان الذي تقدّست معه الكتابة، الذي أقطعنا وطننا اسمه لغة الضاد... النبي الذي قال إنه لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلق.

"وقيل كل نبي عند رتبته ويا محمد هذا العرش فاستلم (أحمد شوقي)

حَطَطت للدين والدنيا علومهما يا قارئ اللوح بل يا لأمس القلم

أحطت بينهما بالسر وانكشفت لك الخزائن من علم ومن حكم

أجبل البصر مطولا بين مثواه الأخير ومثوى الصديق الراقد جنبه

"الثاني المحمود شيمته وأول الناس طرا صدق الرسلا (حسان بن ثابت)

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبل

خير البرية أبقاها وأرأها بعد النبي وأدناها بما حملا

وعلى جنبه الآخر يردد الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء... المنارة "ومن في البرية كالفاروق معدلة".

يا لهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحزكون الجحافل لا حراك بهم، يطاعون ولا أمر يصرخون به.

تهمس "ما" بصوت متزايد الضعف

- عد إلي... كيف كانت الساعات الأولى؟

- تواصلت المهزلة بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساخر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي.

قالوا وقد حان وقت الصلاة: تقدّم لتؤمننا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان، أنني انهمكت في الإعداد المادي للبعثة ولم أعد إلى تعلّم طقوس نسيب قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرثل في الأثناء. كان حقًا موقفا محرّجا للغاية. النجدة يا كلّ من يهّمه أمرى!

تتسع ربع ابتساماة "ما".

- لا تقل إنك لم تجد مخرجا وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.

- من استجاب لندائي؟ "الغوثة"، "المحجوب" مدعوما ب "سيدي محرز" وكل ما في هذه البلاد من أولياء صالحين... بركتك أنت؟ المهم أن ربنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدوية. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرّض يكسو الشيب شعره. علمت أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفا متينا. تنحنح بوقار ثم توجهت إلى مساعدي قائلا: من شيمنا تجبل أكبرنا سنًا، فليتقدّم فلان يوم بنا هو الصلاة، لا فضل هنا لطبيب على ممرّض إلا بالتقوى. لا تقوى "ما" على التماسك فتفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...

- إنها غلظة "با" لما فرض علي الصلاة بالقوة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمم بالآيات وأتمم بالمحفوظات. اختبار قوة آخر بين طاغية يأمر وينهى لا يكلف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيده التجبر إلا عنادا على عناد. ولما ابتلعه المجهول من جديد فسخت كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له لا رفضا للطقوس.

على فكرة، أتذكركين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحتى ملفات القضايا القديمة، واضعا لقبه الجديد أمام اسم كان يدّعي دوما أنه بغير حاجة إلى ألقاب الغرور. تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تفجّر الضحك في عينيها.

- يا بني حرام عليك. أبوك صلى الخمس في أوقاتها منذ رجوعه.

- شريطة أن يوجد أحد يصلي أمامه، بل فولي من يمثل أمامه ولو كان القط.

- يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.

من النبيرة والقسمات، الأمر ليس الكف عن اغتياب الرجل وإنما مواصلته. حتى "ما" تعرف الخبث! تكتشف يوما أنك لا تعرف الأدميين مهما عرفتهم، أنهم يفاجئونك حتى وهم على فراش الموت.

من كانت حقا "ما"؟ من أنت يا "تفاحة"؟ من أنت يا تفاحة؟ وأنت التي قاسمتني الفراش سنين، أي كائن كنت أضم بين

ذراعي؟ من أنت أيها الرجل الذي تقدّمت إلي دوما تحت اسم "با"؟

لا أَحَبَّ إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.

- تظنين أنني أعتاب من هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوماً أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّ دوماً: كن أسداً وكُنّي؟
لم يكن لي طوال الرحلة غيره خصماً ومنافساً... كلُّ من لا عبوني النور لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة... يوم خيل لي
أنني انتصرتُ عليه بالضربة القاضية وقد وصلت القمة التي استعصت عليه اكتشفتُ أنني لم أركض إلا وراء الأهداف التي
حدّدها هو وأنني لم أحقق إلا مطامحه هو.

- واصل، لا أريدك أن تسكت.

- أتذكرين قصة وصول "أين في الناس" الأراضي المقدسة كما رواها هو نفسه...

- يا ولد...

- عفوا قصة وصول زوجك الأراضي المقدسة.

- يا ولد!

- عفوا قصة وصول وأبو أولادك الآخرين...

- يا ولد!!

- طيّب يا لله، مما صرح به "با" وأخفى أنه لما وصل الأراضي المقدسة نزل في أفخر فنادق يثرب وأم القرى ولم يخرج
منها إلا نادراً حتّى لا يضطرّ إلى الاحتكاك - هو الذي لم تحمّل أمّه غيره - برعاع الفارّات الخمس مدّعياً أن كل أمراض
القاموس العالمي للطبّ هاجمته في آن واحد.

تذكّرين كم مرّة أتى إلى البيت معلناً أنه دخل النزع الأخير يمثّل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة وهو أول من يعرف أنه لن يترك
لنا شيئاً نتقاسمه.

تواصل "ما" منع ربع ابتسامتها من فضح ما يعتمل داخلها.

- آه يا بنيّ من أمراض أبيك!

- ما أحلى تلك الأيام. كأنّي أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقاً وهمياً عن جبين يحترق
بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخاً: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن
المقرفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم.

كانت ذاتي هي التي تستعيد عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتّى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان
يريد أن يتأكد مجدداً أننا لا نتحمّله فقط وإنما نحبه أيضاً. ربما كان يمثّل اللحظة التي يرهبا أكثر من كل شيء، يتمرّن على
امتحان لا بدّ منه متمتّعاً بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.

آه لو كان مريضك مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجليك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء

الكلب.

- سرحت مجدداً، فيم تفكّر؟

- في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحجّ في مثل هذه الظروف والحال أن موعداً مع الذات في غرفة الحمام
أمام المرأة جدّ كاف؟

تتنهد "ما":

- لم تتغيّر رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرّة كنت المخطئ وهو المصيب.

- آه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوماً تحيين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضاً كان يحبّك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهره!

- وفي وجهي كان لا يكفّ عن الصراخ: النار لا تخلف إلا الرماد! النار لا تخلف إلا الرماد!

- وأيضاً كان يردّد لي وأحياناً لنفسه: أنا الشرارة وهو اللهب.

- بجدّ... أم الجملة من اختراعك؟

تصمت العجوز وهي الآن طفلة تخاف أن يحرمها هجوم النوم الأبدي من سماع بقية قصة مشوّقة يرويها لها ابن عاد من
أغرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها.

- عد إلى الموضوع أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالة ولا تنس حادثة.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يفي بحقه أو يستنفذه وصف؟

كم من أقوام أتية من كل آفاق الفضاء الحسّي بإنائها وذكورها، بشيبتها وشبابها، بمن يملكون كل شيء ومن يملكون لا شيء!

أليست الوظيفة الحقيقية لهذا المكان ولكل مكان يحجّ له الأدميون لمّ الشمل دوريا لعائلة تاه أفرادها عن بعضهم البعض لا يحنون لشيء قدر أن تعيد الأقدار التي فرقتهم جمعهم ولو مرة في الحياة؟
الثابت أن فيهم الكثيرين ممن أتوا لصفقة مع الآخرة دون أن يغفلوا لحظة عن صفقات الدنيا.
- أه يا ست الحبايب لو تعلمين كم كانت حياتي طوال هذا الحجّ الميمون صراعا يوميا مع الممرضين والأطباء وهم لا يفهمون لماذا أغضب من تغيّبهم عن المستوصف أو أرفض لهم سيارة الإسعاف للتسوّق. كان الحج بالنسبة إلى أغلبهم سياحة تجارية تحت ستار تأديبة واجب ديني لم أر منه إلا طقوسا قشورية كالتّي عرفتّها لهم دوما.
- أه يا بُني من شدتكَ على الناس!

شدتني على الناس؟ هل أنا من قال فيهم:

"عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا
والعدم أروح مما في عوالمهم
تهمس "ما":

- اترك هذه السفاسف... حدتني... حدتني عنها... الكعبة الشريفة.

- أبصرتها من آخر الصوف وظهري للباب من شدّة الاكتظاظ. مشهد ليس كمثله في عالم الأدميين.

مشهد بحر زبد أمواجه الخرق البيضاء لمئات الألاف وعليها أحشاب الشيوخ والمرضى طافية... بحر أمواجه لا تتدافع نحو الشاطئ لتتكسر على حاجزه وإنما تحاصره وتدور حوله لا تتوقف لحظة... إته طواف الكواكب حول الشمس، طواف القمر حول الأرض، طواف الشوارد حول نواة الذرة، طواف الأحياء حول الموت وطواف الأموات حول الحياة... الحركة الدائرية التي هي أساس كل شكل هندسي كامل مكتف بذاته... من المخرج العبقري الذي وضع لوحة يمثل هذا الجمال والجلال؟

المشكلة الكبرى أنك دوما في تعامل مع عالم تناظري لا يوجد فيه شيء إلا ووجد النقيض مما يعني أنك لا تكتشف فيه مطلق الروعة إلا وداهمك بنصفه المكوّن الآخر: مطلق الفضاءة وشكلها الآن زحمة قطيع فقد كل الضوابط. كيف هو يوم الحشر إذن؟

من عرف تجربة المشي لكن بأقدام غيره وعضلات صدره تدفع الأجسام الضاغطة على جسده بحثا عن نفس قد يكون الأخير؟! تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطون والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتصقا بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقى اليسرى معه إلى جاوا.

أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسبّ الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس ونحن أمام أقدم وسائل علاج الذات؟
يستيقظ الطفل النائم دوما بعين واحدة داخلي. يأخذ في الصراخ لا عنا هذا الذي تستعيد منه "ما" طول الوقت.

أما المراهق النائم بالعين الأخرى فهو على مزاج جدّ مختلف. كيف لا يتعاطف مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طوبى كما نطالب دوما، بالشيء وبعبكسه، وكأنّ بممتحننا نية مسبقة لإسقاطنا في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال.

فلو عصى أمر الله بالسجود لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر ولو أطاعه ساجدا لغير الله لكان الذنب أعظم؟
تحميله هو وحده مسؤولية الشرّ الموجود في البشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقّا لما سمح لموظّف عنده أن يغويهم؟ ثم أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابليين للإغواء لما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ لما أغواهم غاوي.

تتوجه أفكار المراهق الساخر للكهل المتزايد حرجا: كفت عن رمي هذا البريء بحجيراتك، وإن أردت الرمي فصوّبها إلى لهؤلاء المجانين. بربك هل ثمة شيطان غير الأدمي. إبليس كبش فداء ضحية سلطات عليا تحاول عبره التغطية على فشلها. من تلعن أول معارض وقف في وجه أول قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لسئ أداة أو بوقا؟ أليس هو جدك الأكبر وجدّ كل الثوار على مرّ العصور؟

الأكيد أنه وليّ هذا الشاعر الفحل.

"رباه لو أن في طول انتظار غد
وما كان حتما علينا أن يعذبنا
النار أشهى فهات النار تصهرنا
إن كان لا يدخل الجنات داخلها
جوى لما أسمعك الريح شكوانا
طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا
يوم الحساب ومثعنا بنينا
إلا شقيا على الأولى وغرثانا
(السياب)

وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا فاحفظ عيبك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ لماذا تلعنه "ما" لو كان بريئا... إنه الوسواس الخناس... هذا ما علمني سيدي الشيخ وما كتبته على لوحى في الكتاب.

يرفض المراهق الدخول في جدل مع طفل ساذج. لكن ما رأي الكهل؟

الحقيقية أن موقفي ما زال مبهما في هذا الموضوع من النص والرؤيا بالكاد تكتسب أولى ملامحها.

كم هي معقدة هندستها وبيداخلي من المهندسين ثلاثة لا يتفقون أبدا على رأي.

كل ما أستطيع في هذا الموضوع من النص مصارحة الأدميين بالحقيقية التي يحاولون تجاهلها. يا أيها الناس، لي ولكم أطيّب خير سمعتموه: الملائكة التي وضعت فيها كل الحسنات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدّر فيكم، أزلي، متجدّد، لا يجتثّه عنف أو إفساد... أيها الناس، لي ولكم أسوأ خير سمعتموه: الشيطان الذي وضعت فيه كل الموبقات مفهوم مشخّص يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشر متجدّر فيكم، أزلي، متجدّد لا يجتثّه فنّ أو علم أو دين.

ألنفتُ حواليّ وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار.

تحسّبا لكل الإمكانيات، أرفع صوتي لأثبت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأنا لسنا هنا لنتمّ أنفسنا والتخلّص ممّا بداخل الذات من نجاسات.

لا يلتفت لصراخي أحد وكلّ مشغولٌ بتصفية حساباته مع كبش الفداء.

يفتر حماسي بالسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى برّ الأمان انطلق وألوية الأولويات الآن الخروج حيّا من الزحمة المرعبة، إن أمكن بكل أطرافي.

وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفيّ المرعب للأدميين وهو الذي يحاولون عبثا إخفاءه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخالطونك بأدب، يسارعون إلى ألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك ألقاب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتّى إن لم تكن أنثى يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين لأول عجوزة مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك مبتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرّد تصنّع. نكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيوننا متجهّمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدّة للمشي فوق خذك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشيا عليك.

إنها الآن نفس وضعية الباخرة التي بصدد الغرق والمحلّ التجاري المغلق الذي اندلعت فيه النيران من كل مكان.

هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمّع فيه الله وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم تتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

تنهار امرأة بدينة أمامي مغشّيا عليها بين أقدام، بل قل حوافر قطعان بشرية فقدت كل ضابطة أو هدف باستثناء البقاء على قيد الحياة. كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة، وهو يئنّ بثقل الحشود المتسلقة جسده وهو يخنق ويسحق ويمحق ويتفكك؟

من أين للغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

ثرى ما الذي شعرت به المرأة البدينة هي سجين غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثا لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟

ترنّ صرخة الاستغاثة إلى اليوم في أذني والضحية تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوح بالوداع لعالم غير مكرث.

اللعنة، كانت مريضة في عهدتي لكني فشلت في منعها من دخول حلبة الموت التي خرجت منها لا أدري بأي أعجوبة حيا بل وبكل مكوناتها عدا النظارات.

كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه لشيطان ضاحك لبس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من لبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع إلى نجدتها ليقول لي اللعين: الزم مكانك، هذا إفطاري وكلّم اليوم سيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير.

- هون عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذب نفسك دوما؟ لست مسؤولا عن موت المسكينة.

تنظر إليّ مطوّلا وفي عينيها مرح خفيف. إنها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمّة من قال لي إن كل الذين لثموا حجزوا في حياة سابقة.

لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

- نعم لثمته ثم... دخلت... البيت وصليت بين جدرانها.

تنتصب تقاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المدهش وهي على سرير الموت.

تتوقف قبحه عن القفز على السرير تاركة إني تسقط من يديها.

- "با"، ماذا قالت جدتي لما بحت لها بالسرّ.

- لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

لم أكن أمزح.

من عادة العالم أنّه إذا بخلَ تجاوزَ حدودَ البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف ذلك الصباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. فتح السفير بابها هامسا في أذني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين؟

باب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجددا بنفس بالجدران الأدمية؟ يدفعني مرافقي أمامه لأعبر البوابة الضخمة. مشهد الذي

لا يكاد يصدق والدهشة وأنت تكتشف البحر من دون ماء.

الساحة مترامية الأطراف التي لا تفرغ أبدا... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخبر؟

- إنه يومٌ غسل الكعبة. الملك بنفسه من يقوم بالعملية. يُفرغ فيه الحرم باستثناء نخبة من المدعوين تدبرتُ أمري لتكون بينهم.

يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكد من الهوية والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر السود لا أصدق أنني

ألثم الحجر الأسود.

يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند بابٍ نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عَجَلًا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.

يفغر الطفل-المراهق-الكهلُ فمه لا يكاد يصدق ما يعيش.

في معابد الأدميين الأخرى، يعبرون عن انبهارهم بالمقدّس وخشيتهم منه وتزلفهم إليه بتشييد أعلى وأعقد المباني يحشونها

بكل ما يقدرون عليه من روائع الفن، لا يتراجعون أمام الإفراط وسوء الذوق في تكديس الرخام والعاج والذهب. إلا هنا.

لا شيء على الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء ولا

بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرد. الفراغ. فراغ عين الإصهار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه

وللفن على تصوّره؟

تنهار فجأة كل الحواجز كالسّد أمام جارف السيل.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى،

على النهار والليل. الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد.

الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل

والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التين والكرم. الحمد

لك والشكر على الغناء، على الضحك، على الصداقة، على الحب وحتى على المحن التي تصلب عودنا. الحمد لك والشكر

على هديتي الحياة والموت.

فعل الأفعال؟ طبعاً عبداً، صلّى، قدّس، تبتّل.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجراً: الحمد على الجراد، الحمد على البعوض، على السلّ، على الطاعون، على

الحسّاد، على الأعداء، على الأغبياء، على الجذام وعلى قمل العانة.

ثم يصمت جاءه التهيّب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تطلبُ منه شيئا!

خاصية قارّة في الأدميين. ثراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة

تعلمت أن هناك خارج الذات قوةٌ محبّة تستجيب لكلّ طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملّق أو الابتزاز.

كم غريب أن نستجدي التراب ممن أعطانا التبر بلا حساب، أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلا

يُستجدي بسماجة، هو الذي وهبنا عالماً بأسره لنعبه سادة لا متسولين.

كم تشمّنت دوماً في هؤلاء المتسولين وهم يعوّدون من حصص الاستجداء في كل معابدهم على مختلف أديانهم بيد فارغة

وأخرى لا شيء فيها، وكم حسبت نفسي من غير طينتهم.

لكن متى تكففت بشراً أو إلهاً؟ أنفتي أمام البشر وحياتي أمام الله.

أواصل افتعال التعقّف ويواصل الطفل صراخه داخلي وكأنه لن يغفر للغبي الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.

- هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أخرج إلى الإعانة مَنّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟

تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربة شجرة الوجود، يا جنورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كلّ أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجدة، إني يانس
إني بانس، إني تانه، دلني على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء. يرفع الحاجب من نبرة همسه الصارخ: أسرع، وصل جلاله الملك، يا الله برة، برة.

إنه "هو" لا غير الذي يطردني وكل الفضاء يعيق بامتعاظ فيه من المداعبة أكثر مما فيه من السخرية، من العتاب أكثر مما فيه من التقرّيع، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجديني!

معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يَمَن، يا من تكرم فلم يتبجح، يا من أغدق عطاياه لا يهّمه نكران أو عرفان.

*

حانت لحظة الوداع. ينفطر العقد. تتفكك اللحمية. تتفرق الأجزاء ليركض كل واحد في اتجاه. تتحرّك الشرطة بحثًا عن تخلفوا عن الرحيل. لا مشكلة لي في الإسراع بمغادرة الربوع.

فإن غرامي بالبريق ولمعه (ابن عربي)

وليس غرامي بالأماكن والترب

تستحّني "ما" كما كانت تفعل تقاحة وتفيحه لمواصلة القصة، لا تتحمل مثلها أن أتوقف وقد شرد مني البصر بعيدا.

- أرجو أن الإياب كان أقلّ تعبًا من الذهاب.

- كادت طائرة الرجوع ألاّ تقلع بنا لمشاكل الحمولة. ألم أقل لك إن المساكين اغتنموا فرصة الحجّ للتسوّق وفرصة التسوّق للحج. "حجّ وحاجة" مثلما يقولون. كانت سنة أجهزة الفيديو خلافا لمواسم الذهب في السنوات السابقة.

- أنت أيضا يا بني رجعت بفيديو.

- أنا! أنا ابن "أين في الناس" هربت فيديو! وكمشني عون الجمارك الوحيد الذي لا يقبل الرشوة! وخرجت من المطار أزر من الغيظ لا فقط لأنني دفعتُ الرسوم والغرامة ولكن لأنني كنت الوحيد الذي دفع! من أين سمعت هذه الاقتراءات الجديدة علي؟

- أنت من رويت لي القصة.

- تقصدين شخصا يشبهني أراد أن يشوه هو الآخر سمعتي حتى عندك أنت؟

لا نجرب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو عندما نقهقه وقد أسدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.

تسلط عليّ "ما" نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لآخر التعليمات.

- لست بحاجة إلى أن أوصيك بالناس أو بإخوتك، انتبه لهشاشة الناس، خاصة من يبذون لك أقوياء. إياك أن تجرح كائنا، لا تحتقر ولا تنتقم؛ لا كفر في هذا العالم إلا الاحتقار والانتقام.

تعود إلى ما يشغل بالها منذ زمن طويل

- عدني أن تُصالح والدك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارم بأن أطمئنها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهقتها عقودا وضعت أخيرا أوزارها.

- اطمئني، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاغلي مع عصا أنقل ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ سنشرفين بنفسك على المراسم.

ليكن في علم كل من يهّمه الأمر أنني قررت استدعاء كل قرّاء الرحلة في نهاية النصّ لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام تنصّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور للبوقيه سنبادل الخطب تحت التصفيق الحارّ لمدعوبين يغالبون دموعهم من فرط التأثر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركه لحيل جديد من الآباء والأبناء، آخر همهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن كل من وقعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.

لم أكن أعلم يومها أنني سأطبع قريبا آخر قبلة على جبين الرجل الذي سميتة دوما "أين في الناس"، أن دمعة حارقة ستسيل على خدي سكنه إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب!

كم سيخيّب الرجل ظني ذلك اليوم أنا الذي آمنْتُ دوما أنه قادر على لي ذراع أيّ عدوّ فإذا بعزرائيل يطرحه أرضا يجزّده من وسامته وأناقته وفصاحته وهو لأوّل مرّة لا يُقاوم ولا ينتصر.

كانوا يظنونني أسخر منه وأنا أقصد كل كلمة. أيُّ والله، أين في الناس أب مثل أبي!
تمسح المحتضرة دموعها وابتسامة كاملة كالبدن ليلة اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر إليّ وهي أحسن من يعلم أنها تراني
لآخر مرة.

- أتُعرف لماذا فُتّر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟
- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير خدمة المرضى لا أكثر...
بالليل وبالنهار بكل جوارحي بكل ما أوتيتُ من علم ومن جهد، بالقليل من التفاني الذي أخذته عنك.
- هل كان يريد منك شيئاً آخر؟ ألم تكن تخدمه وأنت تخدم عباده، اطمئن، هو راضٍ عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وآخرة.
سر محروسا على بركة الله لا ترهب شيئاً ولا تخشَ أحداً.
يا لضربة الحظ التي وضعت تحت ذمتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزري وتربيتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.
ها هي ترحل قائلة: "هو" راضٍ عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.
تفتح "ما" عينيها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي سنترك وراءها. من أين لي أن أنسى
ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لتموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فاجأها ساطع
النور واتساع السماء ومهابة قوافل السحب: يا وجه ربي!

يا وجه ربّي! العالم وجه الله! العالم بأسره بيت المقدس! وفي هذه الحالة أي حاجة للحجّ اللهم إلا إذا كان
للتغلب على التبدّل واسترجاع الانتباه.

يتوقّف بصرها على وجهين يحقّان فيها بعيون دامعة. ثلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ
أو حرّ. يجثو الطبيب طفلاً الأخر على الأرض الوجه بين اليدين تارة، وتارة أخرى يفتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في
الشرابين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئاً لذاتها وإنما تدعو فيها للباقيين على قيد
الحياة. ترفع الأم الأزلية ببطء وصعوبة يدها في حركة آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين.
تنطفئ الشمعة التي احترقت من طول إضاءتها لطريق الآخرين.

"نفد الزيت (كبير)

صمت الطبل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد".

أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الصغير آخر فرائض الحج الأكبر.
تتلقى "الباتشاماما" -الأرض الأم بلغة بشر من قارة أخرى-رفات "الماما" والداخل للأحضان المفتوحة دوما سمد الحصاد
المقبل.

هيهات أن تخفّف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

"ولو حفروا في درّة ما رضيتها لجسمك، إبقاء عليه من الدفن (المعري)

ولو أودعوك الجوّ خفنا مصيفه ومشتاه، وازداد الضنن من الصنّ

فيا قبر وإه من ترابك، لينا عليه وآه من جنادك الخشن"⁴

آخر حفنة من الثرى ثم صوت المرثل: اللهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتردّد كل روعي: آمين.

حولي كلهم يرددون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنا لله! ... وإنا إليه راجعون!

نعم، هذا الأدمي الذي لم تمكنه الظروف من رحلة صغرى يحاكي بها ويتمعن في رحلته الكبرى راجع من إلى بيته وقد أكمل
حجّه الأكبر إذ كلنا نأتي هذا العالم حجّاجاً.

**

وقال لهم الصدى المهمة متواصلة بنجاح لا يجب أن تحبطكم زلة أو إخفاق.

يلبس العالم مجدداً قناعه البشع هو الذي لا يثبت طويلاً على أي قناع. من مذياع السيارة المرهقة بتقل السنين تأتيني أخباره عن آخر الأوبئة، عن آخر كوارث الطبيعة، عن آخر الجرائم، عن الحرب الجارية رهاها، عن الحرب التي بدأت الاستعدادات الحثيثة لها.

لمزيد تعكير المزاج يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة. سيكون الرجوع من المدرسة بالقطنين الشرستين تحدياً عسيراً لأعصاب لا ينقصها التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالباً عملية مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام المشاهد. كم من حروب كانت تتوقف سريعاً بغياب المتفرجين أو بتصاعد ثأؤوبهم.

يتعالى الصراخ نذيراً بأن المعركة مرت من التراشق بالكلمات إلى العضّ وجذب الشعر. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة من أسفل الظهر محمية بالمعطف الغليظ. - والآن هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة؟

تشهق تفيحه بالدمع:

- قلت لها كم من مرة أن تنظر من نافذتها، فلها نافذة بجانبها هي الأخرى. لكنها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلا النظر من نافذتي. بربك، أليست أغلب المشاكل التي يتحدث عنها مذياع السيارة وتلفزيون البيت كل ليلة نتيجة أن الرئيس زيدا غضب من الملك عمرو فجهز الجيوش وبعث بحاملة الطائرات وبالغواصات النووية المحملة بالصواريخ العابرة للقارات لتدمير مدنه عقاباً له لأنه نظر من نافذته بدل من استعمال كل نوافذه هو؟

- انظرا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول مبارزة العيون خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيارة أجد تفاحة واضعة ذراعها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحه ورائها تخرج لها لسانها. أخيراً الليل وأمل نوم دون كوابيس. يجب الانصياع لأخر واجب.

تصرخ البنتان وهم تقفزان على السرير: القصة، القصة، البقية ن البقية!

- قصة؟ بعد كل ما أظهرت ما طيلة السفرة من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تفيحه شريطة أن تكف عن الرقص على السرير.

- تفيحه لا تعرف شيئاً، "با"، أنت من يقود القصة.

لا يا حيويتي أفضل أن تقودها أنت، لأن التي تختمر داخل ذهني ليست من النوع التي يجبها الأدمي.

تعود البنتان للخصام يختلط ضحكي بصراخهما وصراخ أمهما من الصالون تصرخ بالكف عن الصراخ. كيف تحمّل المزيد من صراعات الأدميين وهي لا تتوقف داخل غرف النوم، داخل السيارة، في المستشفى، في الجامعة، في الحيّ، في الوطن، في العالم بأسره. من حسن الحظّ أنهم لم يصلوا المريخ بعد وإلا لكانت أهم ما في نشرات الأخبار حروبهم بين الكواكب.

الله، الطبيعة، سمّ ما شئت المسؤول الأول عن هذا السيرك، السؤال هل ما زال يراهن على الأدميين للنجاح فيما قد يكون أوكل لهم من مهام.

ترى هل قرّر أننا أفضل التجارب التي يراها منذ مئات الملايين من السنين على سطح هذا الكوكب. على أي من الأجناس الحية الأخرى سيركز جهده لمواصلة أبحاثه المجهولة الهدف؟ من حقا أن تراهن على من تشاء وحتى على بشر ما بعد البشر إن وجدوا يوماً، شخصياً لن أراهن إلا على النمل.

المشكلة أنني لست أول من تأتيه مثل هذه الأفكار وهي قديمة قدم الرحلة نفسها.

كالعادة، لن تجد أحسن من الأساطير لترصد لك أولى بوادر الشكوك في نجاحنا وأعمق المخاوف من عقاب مؤجل ربما حان وقت استخلاصه.

عن نصّ قديم فك رموزه علماء الآثار.

“ولما عزمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان

أراد الإله إينكي إنقاذ الأدمية
فاختار الملك زيوسدرا
وعلمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان
ويقيم في أرض العبور
أرض دلمون حيث تشرق الشمس".

توقّف عند الجملة الأولى: "ولما عزمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان". إنها تعكس بالطبع خوف الوعي واللاوعي من قرار هو مثل سيف دموكليس مسلط على رأس الأدمية منذ انطلاق الرحلة ولا أحد يعرف متى يضرب العنق.
السؤال طبعاً: لماذا عزمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان؟
وحده الخيال القادر على تصور وجود الآلهة قادر على استدعائها لمعرفة أسباب القرار.

يفتتح الجلسة المهيبه أمون - رع بنفسه:
أيها الزملاء والزميلات المسجلين في دفتر آلهة البشرية المعترف بهم قانونياً، اجتماعنا الليلة بالغ الأهمية حيث لم يعد مجال للتراخي والتأخير في موضوع الأدمية. حتى الصدى يبدو أنه انتبه للغلظة التي ارتكبتها. هو مثلنا جميعاً مصدوم من هذه الكائنات. أخيراً فهم أن آدم ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، ماله لا مملوكه.
يتدخّل زوس بقوة:

- حقاً لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تُلحقه هذه الأدمية اللعينة بالحديقة المقدسة. هل رأيتم كل هذا الحمق والتهور والقسوة في اقتلاع الغابات وتسميم الأنهار والمحيطات وتلويث السماء والأرض؟ هل رأيتم هذه الوقاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظّها العائر أن يضعها على طريقها؟ بل هل رأيتم فظاعة حروب هؤلاء البشر وامعانهم في قتل بعضهم البعض. قلتها وأرردها أكثر من أي وقت مضى: الأدمي كائن لا يُصلح ولا يُصلح. يجب إيقاف هذه التجربة حالاً، يكفي ما كُلفت.

ينفجر بعلى ضاحكاً:

- آه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فمُنْتَبِه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجرت على رؤوسهم بركان "توبا". للأسف قدرة هؤلاء الملاعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ إيزيس في وجه بعلى:

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى التي أبادت كمّاً هائلاً من الأجناس البريئة وأخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة!
يصرخ كريشنا:

- لا، لا، كلكم تبالغون في التجنّي على جنس بالغ الطرافة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:

- كيف؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللآات والعزى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم.

يرفع شيفاً يده بوقار طالبا الكلمة:

- قلتها من البداية وأردد لا خيار غير اغراقهم بالطوفان.

يتدخل ووطان بالعنف المعروف للآلهة الإسكندنافية:

- نعم لنغرق الكوكب كله حتى لا نترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".
تسارع آتينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحلّ يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسمك السرددين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرّة.

وحدها إيزيس المنهكة في ارضاع ابنها حورس من تعترض بالطيبة المعروفة عنها عن كل قرار بتصفية الأدمية.

والآن إلى الجملة الثانية في الحفرية: "أراد الإله إينكي إنقاذ الأدمية"

قبل العودة لصلب الموضوع لنتساءل من إينكي هذا؟

نحن ندين له بوجودنا ومع هذا لا ديانة محترمة تقدسه، لا أتباع يلهجون بحمده ولا حتى معبد صغير فوقه رخامة شكر وامتنان. ألم أقل لكم دوماً أنني لم أتجنّي على الحقيقة بخصوص لوم الأدميين وأن أهمّ خصائصهم الجحود ونكران للجميل. طيب، لكن ما الحجج التي ساقها هذا الإله المظلوم كي لا تنتهي رحلة الجنس البشري برمته في جوف كوكب أصبح مسبحاً ضخماً تائها في الفضاء اللامتناهي.

“أيتها الآلهة والألهات، حضرات الزميلات والزملاء:

نعم أنتم محقون في استنكاركم للعدد الهائل من الغابات التي دمرها الآدمي، للعدد المريع للحيوانات التي أذلت واسترق وأباد. لكن لا تنسوا أيضا كم كان ولا يزال طريدة الكواسر المجهريّة التي حصدها بالملايين عبر العصور. تذكروا ما عانى ولا يزال من تفجر البراكين، من ميدان الأرض، من غضب السماء تعاقبه تارة بالجفاف وأخرى بالفيضانات. نعم الآدمي مجرم كبير لا جدال في ذلك، لكنه أيضا ضحية كبيرى.

ثم إن قضينا الآن على الأدمية فيماذا نعوضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القانوني ونُعدّ المكان للوريث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وفي كل الحالات التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى- الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية. ختاماً أودّ تذكيركم هذه تجربة خاصة يراقبها الصدى لا غير، وهو لم يعط أمراً بإيقافها خلافاً لما يدعي بعض الزملاء والزميلات “.

يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهتدة بالانقراض نتيجة تواصل البشر، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس المؤقّر. في الأخير يتفق الجميع على الحسم بالتصويت. لا يحصل إينكي إلا على صوته وصوت ايزيس فيخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع لأن المصالح الضيقة بدأت تطغى على المصالح الكبرى. على كلٍّ هو قرّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته. بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تتجح خطة زملائه غير الأعزّاء.

كيف؟ تواصل الأسطورة: "فاختار الملك زيوسدرا وعلمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان" النصّ الآن شاهد على التفاصيل.

ينهر إينكي آدم صارخا فيه أن يعجّل بالعمل وأن يكفّ عن الشجار مع أنثاه قابلا بكل ما تريد حمله من عفش حتى وإن كان غير ضروري.

أخيرا يصبح زيوسدرا جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من مشاكل الأدميين.

تصرخ تفاحة: "با"، هذه قصة نوح!

كيف أفسّر لبنت في هذا العمر دون أن أثير فيها غريزة السرقة -بل وأشّرّعها- أن البشر لا يسطون فقط على بلدان وبنوك ونصوص وأثار وزوجات وأزواج بعضهم، وإنما أيضا على أساطيرهم وألهتهم.

تنتهي الأشغال ويبحر كل من بقي على قيد الحياة وتبدأ السفينة في تسلق الموج والسقوط في هاوية تبدو بلا قرار.

جميل أن تطفو هذه السفينة والأجمل أن ترسو في مكان ما يكون حقا أرض الميعاد وفيها هذا الذي خرج الآدمي بحثا عنه.

في الأثناء كيف مقاومة الدوار وتفادي الارتطام بالسقف، والسفينة تقفز إلى السماء؟

كيف تفادي الارتطام بالقاع وهي تنهاوى إلى الأعماق؟

تصرخ تفاحة فجأة:

- "با"، ما اسم سفينة نوح؟

- يا بنت متى ستكفين عن إلقاء أسئلة لا جواب لها؟

تهمس الأم ضاحكة جاءت لآخر القبلات.

- اسمها "تيتانيك"

على متن السفينة التائهة في هول الطوفان تفكّر حواء في الانتحار، عافت الدوار وملمت مشاكل لا ولن تنتهي مع آدم وذريته الشرسة. تتدافع الأفكار السوداوية في ذهن مرهق: شكرا لك يا إينكي على حسن النوايا، لكن هل ثمة شيء في هذا العالم ما يستأهل البقاء من أجله. كم كانت فكرة الفرار من الجنة طائشة. حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي

نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يتبعني في اليمّ أو أن يجربّ خلق حواء أخرى من عظم الساق.

من أدري مني أن هذه الأنثى تمثّل علينا وعلى نفسها، أنها ستتدبر أمرها لتكون التبعات الوحيدة لقرارها تسميم ليلة طبيب الحراسة.

ككلّ انتحار أنثوي خفيف لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر حواء قبل افتعال رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم، أن تخترق أشعة القمر كثافة السحب ليراها آدم فيقترب منها ليمنعها بوابل القبل من تنفيذ قرارها.

أصرخ فيها: هيا خلصينا، افقزي؛ فترمقني بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبتني "ما" طول حياتها ولا أتحدث عن "ح"؟
البنتان بصوت واحد متثاقل: "با"، لا نحيك إذا واصلت هكذا. ثم ترحلان إلى الضفة الأخرى للعالم.
يمكنني أن أوصل القصة لنفسى غير متيقن حتى الآن إلى أين أريد الوصول بها.
إذن تنفّس، "إينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حواء عن فكرة الانتحار وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلة
خبرة الربان. كل الأمور على ما يرام. كيف لا والصدى يدعم خطّه من وراء الستار.
المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من صغار الآلهة -ومن بينهم عدد لا بأس به من الانقلابيين- إلى
اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرّد وإحالاته على المحاكمة، وخاصة مواصلة
تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسرت به كالي في أذن أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:

- مسكين إينكي، لا شك أنه يحلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثا عن الأرض الصلبة التي ستصلها السفينة. آه لو
يعرف ماذا أعددنا له؟

ينفضّ جبل من جليد من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة نجاة الأدمية. ها هي تغوص في الأعماق وقد أصبحت
التابوت والمحيط هو المقبرة.

هل يُعقل أن تموت حواء في اللحظة التي اقتنعت فيها بضرورة الحياة؟ وأدم المسكين الذي لا يعرف السباحة! ثم ماذا عن
الحيوانات البريئة؟

يمسك آدم بشعر حواء يجرّها إلى الخشبة التي يمتطيها صارخا كالمجنون: البنتان، البنتان؟

ترفع تفيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا وصخب الموج
على أشده؟ تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحه؟ يصرخ أحد الآلهة في
زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

- انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الأدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدّى، أصرّ، تمسك، تشبّث بالحياة؟

تتضرّع حواء للصدى لا تعرف أنه هو المنفذ وأن إينكي أدواته لا غير: أعطنا فرصة أخرى. سنُنجح المهمة هذه المرّة وسنعود
لك بهذا الذي بعثتنا نبحت عنه.

إينكي الآن على زورقه مجدفا ببطء شديد يتحسس طريقه في الظلام الدامس.

تصرخ فيه تفاحة دخلت حلمي ودخلت حلمها: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرمى مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا،
نعم هكذا، والآن ترقّق في جذبها وغطّها بسرعة؛ إنها تموت بردا، لا تنس دميتها إيتي وإلا سترفض الصعود.

- "با"، انظر لقد جعلت زورق الإنقاذ يصل في الوقت وينتشل الجميع؟ ألسنت رائعة؟

بل أنت أروع من رائعة يا حبوبتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برافو لك وللرب إينكي.

كأنّ صبرك نفذ من هذا النص ومن تناقضاته المفسوحة.

مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والأدمية منذ انبثاقها مقسّمة بين عزمها على الفرار من الجنة والحلم
الدائم بالعودة إليها، بين إغراء لا يقاوم للوجود وحنين جارف للعدم.

**

الكتاب السابع الرؤيا

"لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص."

بريهادارانياكا اوبانيشاد

مقدمة الكتاب السابع

هذا عشاء انتهى بسلام. فرصة لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أيٍّ من البنّين.
- تفاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يكتب الزبائنُ عنه رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتوصيةً أكيدة ومُلحّة وعاجلة بترقيته؟
تبتسم تفيحه:

- أصوّت لفائدة رسالة الشكر والتوصية بالترقية؟

أسلّط نظرة حذرة على تفاحة، فتبتسم بمكر:

- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأبي.

تستعدّ تفاحة للنهوض وهي دوماً -مثل والدها، وقبله الذي كان أباً لأبيها- في عجلة من أمرها.

تتوقف بغتة وكأنّ هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نعبر باب خروج المطعم الصغير.

- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند إليك من قبلي هذا الصيف.

- تقصدين!

- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جدّاً.

يا إلهي لا أصدّق أن شخصاً مثلي سينادي له قريباً يا جدّي.

ثقلتُ مني الجملة.

- آه، إذن هذا عالم عبثي كما ترددين، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.

تصدر تفاحة صرخة تدّعي الغضب. تتعلّ تهديدي بأظافر مشهورة في وجه باسم.

تتدخل تفيحه:

- يا أطفال كفى ضوضاء على قارعة الطريق.

تمرّر تفيحه يدها أمام وجهي:

- "با"، عدّ إليّنا.

أتوجه إلى طفلاتي التي ستصبح "ما" وقد عاد النص إلى نقطة السطر.

- تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتأريخ مسيو فيدال وقومه شهر... الموافق في تأريخ "ما" وقومها ل.... طيب سنرى

فيما بعد... الوصول قريباً في...

تضحك تفيحه:

- اترك هذه الحسابات للأطباء. المهمّ أن تغتنم الشهور القليلة القادمة لتجديد مخزونك من القصص للقادم الجديد.

تأخذ تفاحة في تقليد صوتي:

- كانت الأميرة دوماً مليئة بالفضول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جنّا وكانت تحقّق كل ما عزمت عليه.

تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكاك الكلمة، لتقود قصةً لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.

- وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها

العدل ويعم الخير.

- اعترفاً أنها كانت قصصاً مسليةً وأنني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي كان يوسعها إعدادكم لمصاعب الحياة.

تقاطعي تفاحة:

- لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وغشّ بريء تبيعه بضاعة قديمة.

- خشية في غير محلّها. لا أكره عندي بعد التبدّل إلا التكرار. أعدك سأضع قصة لم تُرو من قبل لأطفال وفيها أجمل بطل

وأكثر العقد تشويقاً.

يشرد نظر تفيحه:

- كان يا ما كان، طفل همّه الأوحّد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّه الأوحّد الآخر ألا يكتشف شيئاً لتبقى الأسرار أسراراً.

- آه، أخيراً ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أفضح ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبداً أو

أنه سرّ لا يستأهل كل المشاقّ التي تكبّدنا لكشفه... أو أنه حقّاً استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل الآن بوقتنا وقد اكتشفناه؟

والآن كفى تهرباً من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعول عليكم بخصوص الشهادة... وأريد تسبقه.

يمدّ الدليل يده للبقشيش وكأنه أنهى مهمته في قيادة السائحتين في أدغال هذه المحمية الكبرى. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر

الصدقة. تهزّها تفاحة بحرارة تقلّد الشكر المبالغ فيه.

تطبع تفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية.
طيري يا قبلة. أعيري كل الفضاءات. حطّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركتني وباركت في نرّيتي، ثم على راحة
أحسن أسوأ أب، تنقّلي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر تتسلقين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدا، تحملين الشكر
لكل من عبّوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحوّاء وقد قبلا لنا بأنبل المهام.

تهمس تقاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهري:

- "با"، إذا كان المولود بنتا سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

الحرية! مع المسؤولية أثن ما تعطيك الحياة... وأنبئ علامات الامتنان لها الاحترام لكل كائن وكيان.

يا إلهي، أبهذه السرعة مرت كل هذه السنين، كل هذه العقود لا انتبه لتراكضها!

تحضرني صورة شيخ جليل تعلمت عنه مهنتي عندما قال في معرض حديث لا علاقة له بهذا الأمر: ما زلت شابا لا تنتبه
لعمر طلبتك. ستعي فجأة أنك أصبحت شيخا يوم تفجأ بصغر سنهم وكم هم ثابتون على نفس العمر سنة بعد سنة... وأنت
وحدك الذي يهرم.

ايه والله صدق الرجل! ها قد أصبحت لا أدخل المدرج المكتظ إلا وأفاجأ بوجوه رضّع ثبتت على أجسام عمالقة فأردد
لنفسني: فعلا، كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي أهرم.

ها أنا في العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنتُ أستفرّ به طلبتي: "وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير". إنه
العمر الذي تكفّ فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت.

كأنّ هذه الحياة إبحارٌ على محيط تُسلّمنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقوارب كسّر الدهر
صواريخها وتدافع الماء من ثقبٍ حفرنا الكثير منها بأظافرنا.

أي طريق أطول للبيت حتى أبقى ماشيا أطول وقت؟

لست في عجلة للرجوع و "ح" على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها حتى لا تزيد في أوجاعي. مسكين
جسدها الذي كنت أولع له بالخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم... الجسد الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان
قيارتي أستلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان جنتي وجهمني، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى
وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، أسنان صبغها التذخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد،
نهدان مسكينان لم يعد يشتيهما فم رضيع أو عاشق لا يتحسسهما إلا رجل يلبس الأبيض همّه اكتشاف السرطان.

ها أنا أتمتم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

“المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل”

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طوييييييييل. كم نخلط بين الحب والشهوة، لا يتضح الفرق
إلا والحبيبُ فقد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب.

كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الأدمي، على فراش
الولادة نسخة جديدة له... تواصل مشروع لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة
المجهولة التي لا يُعصى لها أمر.

حان الوقت - أو قل هي آخر فرصة- لأستجمع شجاعتني المزعومة.

سأخذ “ح” بين ذراعيّ أضمّ حطام جسد إلى حطام جسد لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطوع من الطريق الكلمة التي رفضتها
لها ولنفسني عن حياء غبي: أحبك.

ماذا قالت تقاحة؟ إن ولدت بنتا ستسميها حرّة.

حرّة! فال طيب، ماذا أيضا؟ يجب أن أعد لها أجمل قصة لم تُرو من قبل لطفل؟

لكن أي قصة؟ طبعا التي تعطي لرحلتي، لرحلة كل إنسان معناها... التي أجد في مرآتها تفسير وتبرير كل ما عشت وما
جرّبت... التي ستعين حرّة على الحياة والموت... طبعا قصة القصص التي لا زالت تنضج ببطء منذ عقود داخل أعماق الذات.

على فكرة أين توقّفت شغلتنني عن مواصلة العمل عليها هموم الحياة؟

على طريق البيت، البحيرة التي أتيتها كل مساء لمتابعة غروب الشمس وراء أشجار السنديان الشاهقة. لم لا التوقف بعض
الوقت والمقعد العام الذي فضّله شاغر يدعوني للتركوم بالجلوس؟

أخرج هاتفني النقال من جيبي وعذر وجوده فيه أنني استعمله أساسا للكتابة وسماع الموسيقى. أنا الآن في وضع الفنان الذي يخط بقلم الرصاص على الورق أكثر من رسم لصور غامضة في الذهن ربما تصبح لوحة تعلق يوما على جدار أكبر المتاحف. تتدافع الأفكار. يتسارع النقر وتتكاثر على الشاشة أخطاء رفن كتابة متوترة.

إذن خرج آدم من الجنة بمحض ارادته لمهمة بقيت غامضة طوال رحلته... أفاق في عالم عجيب مبهر مرعب... ضرب في الأرض ذات العرض والطول جيلا بعد جيل يستكشف ما تحفل به من أغرب الكائنات ومن أروع مظاهر الطبيعة... مثل وأخرج كل أدوار البنوة والأبوة والحب والصدقة والعداوة وعاش كل الممكن من قصص النجاح والفشل، الشقاء والسعادة مجربا من أقصاه إلى أقصاه طيف ما تقدر عليه الذات الأدمية من أحاسيس ومشاعر وأفكار... أعاد تشكيل العالم بأعمال الساعد والفكر والخيال لا يكلّ من البحث عن الجديد والمبتكر في كل ميدان... اخترع الحرب لترفع فيه طاقة الانتباه وليجدد بها كل قديم بالي... بنى له على طول الطريق واحات يستريح فيها من ذاته ومن أهوال عالم لا يرفع عنه ضغطه لحظة.. يشده الحنين دوريا لهذا الذي المبهم الذي خرج منه فيصطفي من الأرض أمكنة يتخيل أنها الأبواب التي تفتح عليه.

ما الذي بقي لتكتمل الرويا؟

لبنات أربع لن تكون سهلة الصنع والتشذيب: سبب خروج آدم من الجنة، المهمة التي جاء العالم من أجلها، هويته الحقيقية، الخاتمة السعيدة لرحلته.

يا قريحة الفترات الخصبة لا تخذليني.

**

لبنة سبب الخروج

لشرح الظروف والملابسات المعقدة التي كانت وراء القرار الذي أوجدك وأوجدني الكلمة لأدمي يتحمل هو أيضا مسؤولية نفس الطرح " المستقر " لكاتب هذا النص.

إنه المخرج السينمائي جون بورمان (Jhon Borman) في شريط زاردوزو (Zardoz) وهذه أهم أفكار السيناريو. سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جنة اصطناعية تُوفّر كل المطلوب من أي جنة تحترم نفسها وأساسا الخلود. إنها جنة على الأرض اتخذت شكل مَحْمِيَّة تتحصّن منذ قرون وراء أسوار شاهقة والنعيم الأبدي الذي بداخلها وَقَفَّ كالعادة على أقلية. أما قدر الأغلبية فالبقاء الصعب الأليم في عالم تحول أكثر من أي وقت مضى لجحيم على الأرض. لا شيء يثير حفيظة هذه الأغلبية قدر هذه الجنة التي لا يقدرّون دخولها لغزوها ونهبها وتدميرها رغم تعدّد محاولات تسلق أسوارها.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة -أو هكذا حُيِّلَ له- مَنفذاً للمحمية، فيدخلها هو ومحاربه شبه مقتنع أن ساعة الثأر قد حانت. ينتبه سريعا أن الوضع غير طبيعي. أين قوى الدفاع، هو الذي كان يظنها ستجبره على أشرس معركة؟

المشهد الأول

يتابع الصياد الهمجي ببصره شيئا يتقدم نحوه باسم ممدود اليبدين.

شيخ! ألا تؤكّد الأخبار -التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم- أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبدا!

يصرخ في الشيخ:

- الأسطورة التي تقول إنكم لا تسيخون إذن كاذبة!

- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه البطل رنة الحزن في كلام الشيخ. يترجع حقه تاركا مكانا لفضول جارف. يجب أن يحثّ هذا الكائن المقزّر على الكلام ليفهم أخيرا سرّ قلعة استعصت على الأجداد.

لا حاجة لتهديد فالشيخ لا يريد إلا الحديث.

قال الشيخ: اسمع منّي القصة أيها المنقذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري. هنا لا أحد يعبأ بالزمان. كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعددنا لها العدة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر البشري. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما خلناها المدينة الفاضلة... الجنة، كما كان الأوائل يتخيّلونها في السماء بعد الموت.

يوصل الشيخ:

- وضعتنا كل التعليمات لإدارة شؤون الجنة هذه في الزمردة السوداء، منها أن كل من يخرج عليها أو يهددها يعاقب بالشيخوخة الأبدية لا أمل له في راحة الموت.

الزمردة السوداء هي دعامة هذه الجنة وضمان وجودنا. هي حارسة خلودها وخلوننا. لا تقرب ذلك المبنى الذي هو محرابها ومنه تسيّر كل شيء، وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هولا من أفضع ميتة.

غريب! الخطاب يحذّر من شيء وما ولغة الجسد تغري بالعكس.

الصياد الهمجي محادئا نفسه:

الزمردة مقتلهم إذن! لحظة أدمرها سيتهاوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ، وسيكون أعظم نصر. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث يا ربّة القبيلة.

كأنّ الرّبّة المعنوية بالأمر سمعت الدعاء. تعرّضه - هكذا دائما بمجرد الصدفة- فتاة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بالدمقس والمجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة ممدودة اليبدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنقذ.

المنقذ؟ لماذا أطلقت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا رنة الخشوع في كلامها؟

يوصل الصوت الساحر: تعال أيها المنقذ الذي قرع الصير من طول انتظاره كل هذه القرون. اتبعني، أنا دليلك في هذه الدهاليز. الطريق للوصول للحرم من هنا. استعدّ. ستعرّضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستنجح.

تنتطلق الفتاة تفود البطل في الدهاليز الغربية ووراءها من بعيد ذكور وإناث يرفلون في الحلي والحلل، لا يُخفون وراء ملامحهم الجميلة توجسا قلقا.

من أول خطوة أحسّ بألم لا يُطاق ينهش لحمه كأن قوى مجهولة استنفرت لصدّ أي معندي.

من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدوا يواجه من خلف ألف سنارٍ بأسلحة لا يتصوّر ها عقل.

- قولي لي من نحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاع هو والدليل الجميل أكثر من مرّة. ثم وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدّة آلام فظيعة لم يجربها من قبل. كانت تضمّه كل مرة إلى صدرها تُغطّيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل وأصبح لك زوجة.

عند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تتشقى من عدوّ ستنتقم منه ألدّ انتقام.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تفرج أساريرها: من هنا.

حتى في الجنة مؤامرات ومتآمرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يدلونّها حين تختلط عليها الطرق؟

قالت له بعد أن قطعاً شوطاً طويلاً: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفك في شيء. هنا حرّم الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحدا واحدا ممنوعون من دخوله. ادخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها ضدك الآن. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأساتنا.

الزمردة السوداء في قبضته أخيراً.

علم الكون وقدرة الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!

لحظة تردّد.

ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل كل هذا العلم، كل هذه القوة، كل هذه السلطة لمصلحته ولمصلحة قومه؟ لكن كم يكره الخالدين و علمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء المخنثين.

يطبق براحته على الزمردة السوداء فتتطفئ كل الأنوار. تنهوى الأسوار ليقتمح الزمان المحمية كما يقتمح الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.

يشدّه منظر الخالدين وهم... يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا!

الذكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد.

الغانيات يمزقن القميص ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضحك سمعه يوماً.

إنه تعجّب من يرى غزالاً يركض صوب الأسد أو حملاً يرتمي في أحضان الذئب.

يتقدّم الشيخ للهمجي الذاهل أمام أغرب لوحة حيّة شاهدها آدمي.

- بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.

- سنتكلم قبل ذلك. من أنت؟ من هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟

- هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سأدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية.

اسمع مني أغرب قصص الأدمية المجنونة.

كانت الجنة حقاً مكاناً مثيراً في البداية. كنّا كالأطفال الذين يحلمون بأكبر مصاصّة ممكنة. لمّا صنعنا المصاصّة اكتشفنا أنها مسمومة. عرفنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضاً لذة العقل والروح. شبعنا جنساً وعلماً وصلاة وموسيقى.

شيئاً فشيئاً اكتشفنا فظاعة الفحّ الذي نصبناه لأنفسنا واستحالة الخروج منه. لم يطل بنا الوقت قبل أن نكتشف أننا لما ألغينا الألم، لم يعد للذة معنى، أنه لم يبق للجمال قيمة بما أننا قضينا على القبح، أن الحكمة اختفت بما أننا صقينا الغباء. أن الخير أصبح كلمة فارغة من أي معنى وقد انقرض الشرّ. لم تعد بنا حاجة إلى الشعر والموسيقى ونحن لم نعد نعرف لوعة الأسى.

ما الذي سنسعى لمعرفة وقد عرفنا كل شيء، ثم بماذا سنملأ الوقت المتوقّف الممتد أمامنا إلى ما لا نهاية، وقد جعلنا من نهر الزمان بركة أسنة لم تلبث أن تصاعدت منها الروائح العفنة.

يوصل الشيخ: كنت أول من قال يجب إنهاء هذه الموبقة. كذبوا أذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا ادرس أكثر، اسمع الموسيقى أكثر، مارس الجنس أكثر وتعبد أكثر. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلل إلى روحي في البداية ببطء شديد تفاقم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتاً ثابتاً الزمان المشلول. كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بِلادة حسنَ متزايدة العمق وأنا لا أكف عن الصراخ في أذانهم: ألم تفهموا أننا نعيش أفزع عقاب لرفضنا أولى قوانين العالم السوي؟ هكذا حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوباً في قوانيننا وكنْتُ أول مذنّب في عالم الخلود. كان رجوع الأمل كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روحي فترة، لكن الأمل المؤبد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا معنى له.

يتوقف الشيخ ماسحاً دموعه خجول ثم يستأنف رواية أغرب قصة للأدميين مذ وجدوا. تدرجياً نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوماً أننا أصبحنا سجناء زنزانة لن يحررنا منها إلا رجوع الموت. كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاءه؟ بصفتي أول متمرّد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد الممكن اصطفاء منقذ لا تعرفه الزمردة وبالضرورة من خارج المحمية. كنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطيع، كحقل تجارب ممتعة. كنّا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة أو تلك، على هذا النظام السياسي أو ذلك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نقيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحت أملنا الوحيد. قلْتُ يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأة ونكاهاً وحقدًا وتصميماً على تدميرنا ثم ندخله القلعة ونذلّه على مَكن الداء.

بوركت، بوركت أيها المنقذ وقد نجحت أين أخفق قبلك كم من مُغامر صنيدي. كنت يا زاردوز آخر حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. كم تطأبت من جهد حتى تكون جاهزاً لوضع حدّ لهذا المسخ والعبث الذي اسمه الخلود في جنة. بما أنه يجب لأن تكون لكل قصة عظة ما، فعظة قصة زاردوز أنه إذا اعترضك بائع ليق يريد بيعك الخلود في الجنة بآخر درهم في جيبك. ففكر ملياً. مؤكّد أن هناك استثمار أحسن لدرهمك الأخير هذا.

تعديل سيناريو الفيلم لدمجه في اسطورة آدم

الشيخ: كنت أسمع داخلي باستمرار صدى صوت يقول " سمحت لكم بهذه التجربة لتتأكدوا من عبثها. أن الأوان للعودة إلى النسق الذي أردتم الخروج عليه. لا تبحثوا عن الحل خارج أسوار صنعتموها بأيديكم وعقولكم وسجنتم وراءها أنفسكم، ابحثوا عنه داخلكم."

لم يكن الأمر سهلاً والأغلبية تعيش في حالة ذهول دائم. ذات يوم ارتطمت به -وكان الأمر صدفة- هو الرجل الذي أعاد لي الأمل. كان، لسبب ما، غير واقع تحت تأثير التخدير العام وكان يتكلم بصفة غير معهودة. يوم اكتشفتُ أنه يخطط للفرار حيث الزمان، قلْتُ لا بدّ أن أعينه، لكن يجب إقحام تلك المرأة المسماة حواء في العملية فهي أيضاً من نفس الطينة. إنهما أملنا الأخير في ولادة أدمية جديدة تعيد لنا هدية حياة حقيقية ومعها هدية الموت.

اذن بعد طول تعلقه بمفهوم الجنة ومختلف تصوراتها فيما لا يحصى ولا يعد من اساطير البشرية، اساساً لما تعانیه هذه البشرية من عالم لم يبخل عليها بالامتحانات والمحن، ينتهي العقل الجماعي طال الزمان أو قصر إلى الاعتراف بضعف المفهوم وما بداخله من تناقضات. كما راجع هذا العقل الجماعي في هذه الاسطورة المصورة بتقنيات العصر فكرة النهاية في الجنة، هو راجعها في التقيض أي في جهنم عبر اسطورة رابعة العودية. في هذا الاسطورة يستوقف الناس المرأة الجليلة وهي تركض ويبيدها اليمنى دلو ماء ويبيدها اليسرى شعلة نار. يسألونها إلى أين أيتها السيدة الجليلة ولماذا الماء والنار. قالت لإطفاء نار جهنم بهذه الماء وحرق الجنة بهذه النار حتى لا يعبد البشر الحق -أي الله- عن خوف أو عن طمع. ثمّة اذن سبب ثانٍ لرمي مفهوم الجنة في سلة مهملات الفكر الانساني ومع مفهوم جهنم؟ ليس من كرامة الخالق والمخلوق ألا تكون الصلة التي تربط بينهما مبنية على أخس ما في طبع الأدمي: الخوف والطمع. ثم أليس من العبثي تصور حالة أكانت من اقصى المتعة أو اقصى الألم جامدة أبد الدهر وكأنها خرجت أو الغت عامل الزمان وهو مكون لا معنى بدونه للوجود ومنه وجود العالم نفسه؟ .

عودة لسيناريو الفيلم

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاذ صبرٍ دام كم من أبدية:
- هلمّ، خلّصني من كابوس هذا الخلود اللعين. اهدني الطعنة التي ترجيتها كل هذه الأحقاب. تمهّل لأشعر ببرودة النصل وهو يغوص بين ضلوعي. أريد أن أتمتع بروية الدم وهو ينفجر أخيراً خُراً طليقاً من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخناً لرجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملأ نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة.
قالت مقاطعاً الشيخ وهي تنظر إليه برقّة ويدها على ذراع المنقذ: أنا التي قُدته داخل الهيكل. نصلّه لي قبل كل واحد منكم.

يأخذ آدم قراره. يغرس خنجره في صدر الشيخ بلطف فائق وهو ينظر إليه مبتسما فيلطف المتمرد الأول أنفاسه وكأنه في ذروة الجماع.
يلتفت زاردوز-آدم لحواء لأهمّ عرض في تاريخ الجنس البشري: الخروج معه للعالم لتجديد بشرية تلتزم هذه المرة بالقوانين التي سنتها القوى المبهمّة لكل ما تخلق من عوالم.
تتردّد حواء. كيف تقايض راحة العدم التي حلمت بها طوال هذه القرون البليدة بمشاقّ الوجود مرة أخرى؟ من اين لها الشجاعة للقفز في أحضان عالم قد يثير فيها مجدداً الحلم بالعودة لهذه الجنة الجهنمية؟
هل قدرها أن يكون الخيار دوماً بين جهنم وجهنم أخرى والشيء الوحيد الذي يتغيّر طبيعة السمّ المدسوس في الدسم؟

**

لبنة المهمة

هيا يا بنت، اخرجي من الرحم، يكفي من هذا الانتظار المزعج ومن طول الدلال الذي فرضته علينا في بداية النص. المشاهد جزء من ظاهرة عامة: التردد في خروجنا للعالم ولا أتحدث عما يصحب الأمر من صراخ وما يتكلف من آلام. ترى هل يفتح ابليس ستار المستقبل أمام الأدمي في أهم تقاطعات الطريق ليرى كيف سيجد نفسه تائها في فضاء أخرق الاتساع، يربعه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين، طريدة تركض خانقة هربا من صياد جائع، صيادا جائعا يجري وراء طريدة خانقة؟ هل تراهى له كم من جيفٍ سيأكل، كم من جثث سيستخرج من قبورها أيام المجاعات، كم سيبعثر من قممات في شوارع مظلمة بحثا عما يسد به الرمق، كم من مرة سيجلس القرفصاء يبكي حبيبا خانته قواه مجيرا على تركه جيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا...

هل أبصر نفسه على مر العصور عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة نتنة... مجذوما يُساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم... مريضا يمشى بين تلال الجثث وراء قافلة طويلة من المهوسين يضربون صدورهم، أفقدتهم حجم كارثة الطاعون كل صواب... بحارا على زورق وسط المحيط المزمر يقاوم الرعب والنوم حتى لا يلقي به الرفاق في الموج وقد نفذ الغذاء والماء.

هل استبق ما الذي سيجرب من رعب ومن إهانة ومن ألم يوم جدع أنفه ليؤكد الحاكم المجنون لقطع العبيد أنه السيد... يوم رميه وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنه بعد تخبطه... يوم جره إلى أعماق الأرض ورتناه تحترقان ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أثنى معدن... يوم دفعه لمواجهة الكواسر يضحك عليها القوم من رعبه وهو يواجه الأنياب والمخالب بيديه العاريتين... يوم قطع يده بالسكين بحجة أنه سارق سارقي قوت أطفاله... يوم تعذيبه من قبل رهبا من مجانين يتهمونه بالتستر على دينه المضطهد... ويوم تكديس الحطب تحت رجليه ولا نفع لصلاة أن يخنقه الدخان قبل أن تلتهم النار جسدا ظن أنه عرف كل الممكن من العذاب.

هل استشرف القادم الجديد أنه سيكون مملوكا يقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يبقر البطون مفتشا عن بطيخه وسط الأمعاء الدامية... أنه سيكون جارية سجينه إلى آخر العمر في حريم بمشربية تطل كل صباح على شواطئ محرمة عليها إلى الأبد... أنه سيكون طفلة قال والداها أمام الشرطة -لتبرير موتها- إنها سقطت من السلم وكل الجيران يعلمون أنها نفقت في آخر علقه، مات منها الجسد تحت اللطم واللحم بعد أن ماتت منها الروح بنقص الحب... أنه سيكون يتيما سملوا عينيه لأن طفلا أعمى يدرّ مالا أكثر على عصابات التسول المنظم... أنه سيكون طفلا يساق عبر مسارب جبال مرعبة، خراسه يهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمته قربانا لآلهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض... أنه سيكون امرأة وضعت في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم، أوصى الراجمون بعضهم البعض ألا تكون حجاتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا يملأوا طول زفة الإعدام... أنه سيكون جارية ذبحت في ليلة ليلاء مع مئات الجواري لأن إمبراطورا مجنونا آخر صدق أن محظباته يمارسن الجنس مع المخصيين... أنه سيكون شاعرا صوفيا معلقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون... أنه سيكون لاجئا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أبشع... أنه سيكون جنديا يذبح ويذبح في أفزع الظروف وهل استشرف أنه قتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار... أنه سيكون جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية وأطفال جياح يفتشون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما... أنه سيوقف في طاوور طويل ينتظر مرتجفا من الرعب أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة المحاصرة وأسلم سكانها لسيوف القتل بالجملة... أنه سيساق ما لا يحصى ولا يعد من المرات للإعدام شنقا وسحلا وخنقا وحرقا وقطعا للرأس بالفأس والسيف... أنه سيكون قبلة كل الأنظار والحشود تتشبث بجلبابه وهو لا يقدر على شيء لأحد ولا حتى لنفسه... أنه سيكون شحاذا على باب كم من معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء... أنه سيكون ابان الحياة صيد للجراثيم وعند الموت وليمة للدود... أن قائمة ما سيعرف من أهوال وما سيعاني من آلام قائمة لا نهاية لها تتوالد فظاعتها من بعضها البعض كخلايا السرطان.

ألا يفرض الحد الأدنى من المنطق نكوص آدم وحواء على أعقابهما والمهمة أيا كانت بثمن لا يقبله عاقل... هل الرواية الصحيحة لقصة القصاص أن آدم وحواء غيرا رأيهما في آخر لحظة... كأنني بكل امرأة حبلى تشعر بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفس اللطيف الذي تعودت عليه في أحشائها فجأة يتوقف نهائيا.

لم يحدث هذا. الدليل أن كل هذه الفضاعات حصلت أنني موجود لأكتب عنها وأنت لتتذكر كل ما نسيت منها. لأتخيل أي خطاب كان سبب تغلب آدم وحواء على آخر مخاوفهما وأني كنت صاحبه دفاعا عن حقي في الوجود. مهلا أيها الأدمي أنسيت أيضا ما في هذا العالم المريع من روائع؟ أه ليست كلماتي بالبلاغة المطلوبة. لأفاجئه بصور البحار والبراري والجبال المكلفة بالضباب التي ستستخرج منه صرخات الإعجاب والعجب.

والآن إلى النقر على وتر الأحاسيس: طعم الزيتون والتمر والتين والعسل، روائح الياسمين والأرض المبللة بالمطر والحطب فوق النار ودخان قطار أسود يركض خبيبا عبر حقول الزيتون والعنب. بقية المعجزات التي تنتظره: حفيف الأشجار، خرير الماء، همس النسيم، صفير الريح، شدة الناي، زقزقة العصفور، ثغاء الماعز ونقر قطرات الماء على نافذة غرفة النوم. اللعنة، نسيبتُ أنه يسمع أيضا الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتعذيب ومن ساحات الحروب... أنه يسمع بكاء الأطفال المغتصبين.

لأدفع بصورته وهو نفس الطفل يُضحك كلَّ مَنْ حوله، يمشي راقصا أو يرقص مشيا بتلك المشية الراقصة التي لا يعرفها إلا الأطفال... وهو مسافر في الرابعة من العمر أنفه على زجاج الحافلة يتأمل منبهرا أشجار نخيل خضبت هاماتها حمرة الشفق... لإكمال المهمة لأحرك فيه أحلى ما جرّب من أحاسيس ومشاعر وهو الأب العطوف، الأم الحنون، الصديق الوفي، الحبيب المحب، المصحح لكل خلل، المتدارك لكل نقص، الناهض بعد كل كبوة، الرفيق بأضعف الكائنات، مشيد معابد الخير والحق والجمال.

كيف؟ ما زالت فيه بقايا رهيبة؟

يهمس النص في "أذن" الأدمي المتزايد ترددا: تأمل الشكل الذي سترتحل فيه... خاصة أصابع اليدين. لقد صممت بدقة للنقش، للنحت، للرسم، للكتابة. الأهم فُدرئها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار. تمعن فيما ستخلق من أصوات. تُداهم الصامت أنغام تتصاعد لؤلؤا منضدا من بيانو شوبرت وشوبان وشومان. تتعالى إلى عنان سماء الروح أناشيد "باخ" وموزارت تلحقها قوالي فاتح خان لتنتهي الوليمة أذانا بصوت فيروز. ينتبه القادم الجديد إنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه. يتبلور في فكر مبهم قراراً لا رجعة فيه أنه قبل بالمغامرة الجديدة، أنه سيقمص الشكل الأدمي لا لشيء إلا لأنه الكائن الوحيد القادر على خلق الموسيقى. تعود الطمأنينة لكل أدمية حبلى على وهي تكاد تقسم أن الجنين الذي بأحشائها... يرقص.

*

كأنني اسمعك تقول ساخرا إذن هكذا نزل آدم إلى هذا العالم بالرغم من كل ما ينتظره فقط لمجرد سماع الموسيقى وتأليفها، ثم تضيف غاضبا: يا رجل تدعي النزاهة لكنك تغتم كونه صاحب النص لفرض ذوقك وخياراتك على البشرية جمعاء. أنت تسخر من تناقضات من سبقوك من مهندسي فضاء الخيال ولا تعي بتناقضاتك الصارخة. ألم تقل إن آدم هرب من الجنة عافت روحه المتعة؟ ما الموسيقى إن لم تكن وسيلة لإفراز هرمونات المتعة في دماغك الناشف.

ثم ماذا عن فان فو (Van Gogh) الذي قال إنه لم يأت هذا العالم إلا للرسم؟

ثمة أيضا البشر الذين لا يحبون الموسيقى... ايه والله ثمة بشر لا يحبون الموسيقى بل جعلوا النفور منها جزءا من تدينهم... يجب اكتشاف السبب وإن شئت العذر / التبرير الذي يرضي الذين يكرهون الموسيقى والذين يعيشونها، الذين نذروا حياتهم للرسم، للمعرفة، للعبادة، للمجد أو لجمع طوابع البريد.

لا بد لهذا الفعل أن يكون متقدما على كل الأفعال، متحكما فيها، محدد لها، مانعا ظهورها في حال غيابها، منهيها فعلها بانتهاه هو.

يجب أن يكون الفعل-الجزء لكل الأفعال التي غدت أساطير الأدميين تفسيرا وتبريرا وتنظيما لظاهرة الظواهر: وجودهم في هذا العالم.

الوجود! طبعاً هو مبتدأ الخبر ومنتهاه. هو الشرط الذي لا وجود لأي فعل بدونه.

وُجد! هل يمكن أن يكون هو الفعل الأول، الفعل الجذر؟!

لا، طبعاً لأن هذا الذي وُجد وأوجد كل الأفعال محتاج لمن أوجده هو.

ماذا كتبت؟ أوجد؟

أوجد! أوجد! أوجد!

أوجد! هل هذا هو الفعل -الجزر الذي يجري وراءه النص منذ عقود؟

لكل خيار تبعات هائلة ومن ثمة ضرورة أقصى الحذر في التعامل مع هذا الفعل.

لنبدأ بالطواف حول أقرب جيرانه لأن الأفعال لا تتجاوز بالصدفة إلا نادرا وهي كالطيور على أشباهها تقع.

ثمة كما قلنا فعلٌ وُجد ويعني أن الشيء أصبح موجودا أي خرج إلى الوجود أي خرج من العدم بما أن العدم هو عكس الوجود. ثمة فعلٌ وجد وله في لغة الضاد معنى طاع هو اكتشاف الشيء المبحوث عنه كأن يقال وجد فلان نظارته التي قضى نصف ساعة في البحث عنها. بطبيعة الحال صاحبكم هذا لم يجد نظارته إلا لأنها كانت موجودة خرجت من العدم الذي كان قدرها قبل ظهور أي وجود العلم والصناعة والتجارة وكل العوامل التي مكنته من ألا يعبر عالما عائما في الضباب. لفعلٌ وجد أيضا معنى مخفي في لغة الضاد لا يقل أهمية عن معناه الأول وهو الذي يشير إلى درجة من درجات الحب الصوفي.

أهم معاني الأفعال القريبة من فعل أوجد هي إذن ما يخرج من العدم، ما نبحت عنه ونجده بالبصر، وأيضا ما نبحت عنه ونجده بالبصيرة والحب أدق أدواتها.

يمكننا الآن التجاسر على الفعل نفسه نسأله ما المعاني التي يشير إليها؟

يقال أوجد فلانا أي أغناه... ويقال أوجد فلانا بعد ضعف أي قواه... ويقال أوجد على الأمر أي أكرهه وأجأه... ويقال أوجد الشيء أي جعله يجده ويظفر به... ويقال أوجد مطلوبه أي أظفره به... ويقال أوجد على المعصية أي أكرهه عليها... ويقال أوجد الله الشيء أي أنشأه من غير سبق مثال.

لمزيد من التدقيق ما الأفعال المرادفة لفعل أوجد. بسؤال المعاجم اللغوية نجد: أبداع، أبرأ، أحدث، أفضى إلى، أنتج، اخترع، اختلق، استحدث، استنبط، اكتشف، اخترع، خلق، سبب، سوى، صور، كون، ولد.

يمكن التساؤل الآن أي فعل داخل القائمة يستوعب أهم معاني أوجد ويختزل كل ما في المرادفات من إضافات: طبعا لا يوجد أقوى وأشمل وأعمق من فعل خلق.

بالخلق، نحن نغني، نظفر بما نبغي، نجبر الشيء على أن يكون، به نسوي، نبدع، ننتج، ننتج، ننتج، نستحدث نستنبط، نكون نوكد. ليس هذا ما تفعله الحواس الأدمية الخمس عندما تبلور من مبهم أصلي هو واللاموجود نفس الشيء جمال وجلال الجبال والسهول والصحاري والأنهر والغابات... خريز السواقي ونشيد العصافير وهدير البحر... روائح الأزهار والعشب والأرض بللها المطر... طعم التين والزيتون وطيبات الأرض والبحر... البرد والحر، النعومة والخشونة، الجفاف والرطوبة، المتعة ولاذع الألم؟

انظر ما يفعله الفكر والخيال.

أليس خلق المفاهيم والتصورات والأديان والعلوم وكلها لم تكن موجودة قبل وجود الذهن البشري؟

يأتي الفن ليخلق عبر تجاربه التي لا تنتهي على الألوان والأصوات ومختلف المواد أشكالاً لم توجد من قبل وكلها صدى لما تجرّبه الذات من مشاعر واحاسيس وأفكار.

حدث ولا تسلم عما يخلقه الأدمي بعقله ويبيديه من معالم يستحيل تصورها في كوكب آخر.

إنه عالم لم يوجد إلا لما أوجده الأدمي وماله التبخر يوم تختفي آخر نسخة منه.

كل هذا يجعلنا نقول الآن أن آدم لم ينزل لأي فعل ثانوي مثل البحث عن الحكمة أو التعبد لإله، او قضاء عقوبة لجريمة ما ولا لتأليف الموسيقى والتمتع بسماعها وإنما لأهم وأخطر وأصعب وأنبيل فعل ممكن ومن ثم قبوله بكل التضحيات التي ستكون ثمه: خلق العالم وعلى وجه التحديد خلق عالمه، خلق العالم الأدمي.

إشكالية كبرى في هذا التصور قد تنسفه من الأساس.

أليس أيجاد-خلق العوالم من خصائص الاله أيا كان الاسم الذي يعطى له؟

هل من خيار غير جعل آدم الها بل وخالفا من بين كل ما يخلق لهذه الآلهة التي تملأ فضاء خياله والتي يقضي حياته في الجري وراء رضاها؟ في هذه الحالة هل يكون الصدى صوته متصاعدا من أعماق طبقات اللاوعي فيه؟ مهلا. هوية آدم إشكالية أصعب من أن تعالج بمثل هذه البساطة.

**

لبنة هوية آدم

كم غريب أنه ليس للآدميين الى اليوم صورة واضحة، قارة ومتفق عليها بخصوص هويتهم! ثمة فيهم من يؤمن بأن الآدمي كائن خلقه إله في السماء وجعله خليفته على الأرض، لأنه مختلف عن بقية مخلوقاته إذ هو الوحيد الذي له روح وعقل.

بل فيهم من يذهب إلى حدّ القول بأن هذا الاله بعث وضخّى بابنه الوحيد -وليس فقط بهذا النبي أو ذاك- ليقود الآدمي على طريق النجاة وهو ما لم يفعل مع الفيلة والنمل الأبيض رغم خطورة ما يتخبطون فيه من مشاكل.

على عكس هؤلاء، هناك من يعتقد أن الآدمي مجرد حيوان من بين الحيوانات الأخرى بلورته هو الآخر القوانين والصدف لما تسميه اللغة الطبيعية. بل فيهم من يذهب لحدّ القول إنه لا شيء يميزه عن بقية الحيوانات سوى غياب غير مسبوق لقدرته الهائلة على تدمير محيطه ولما يمثله من خطر داهم على جنسه وعلى الأجناس الحية الأخرى.

بين هذين التصورين الرئيسين وداخلهما يوجد طيف هائل من الاختلافات في التفاصيل. هذا ما يجعل صورة الآدمي عند الآدمي بالغة التذبذب والتباين حسب العصور والثقافات والمدارس الفلسفية والأفراد.

المشكلة أنه لا يوجد مقياس أو مؤشر موضوعي يمكّن من الفرز بين كل هذه الرؤى المتنافرة وآليات توزيع شهادات الاقتراب أو الابتعاد من " الحقيقة " جزء من التصورات التي يراد الحكم لها أو عليها.

أكبر مشكل تراجع ثقة الآدميين في الدين والعلم وهما المصدران الأساسيان للأحكام أيا كانت. فتصور الدين لهوية آدم لا يلقى دعمه ورواجه إلا وسط المؤمنين به فقط علما وإن عددهم يتناقص في كل الأديان وإن بسرة متباينة من دين لآخر.

أضف لهذا أن وجود تصورات دينية مخالفة يدحض كل ادعاء بامتلاك حقيقة خاصيتها الأولى قدرتها على فرض نفسها على القلوب والعقول أيا كان العرق، أو الدين أو العصر.

هذا بالضبط ما يدعيه العلم، لكنه هو الآخر يواجهه بوجاهة للغرابية-موجة "الحاد" وعدد الكافرين بخيره المطلق يزداد جيلا بعد جيل. هو اليوم عبر ما ولد من تكنولوجيا مثم بتدمير البيئة وعبر الذكاء الاصطناعي بالإعداد لاستبدال الآدمي نفسه بكائنات لم تفصح بعد عن هويتها.

إنها اتهامات فيها بعض التجني، لكن البلبلة التي أحدثها بخصوص هوية الآدمي ثابتة لا شك فيها.

بديهي أن الآدمي الأفريقي يعرف هويته كإفريقي ليس فقط بموقعه في التاريخ والجغرافيا ولكن أيضا بتميزه عن الأوروبي والآسيوي والأمريكي. بنفس الكيفية لا يمكن تعريف الآدمي ككل إن لم نأخذ بعين الاعتبار ما يميزه عن الكائنات الحية الأخرى سواء كانت الحيوانات وحتى الأشجار. يعني هذا أننا بقدر ما نعرف هذه الكائنات ومكانها داخل منظومة كاملة من القيم والحقوق والواجبات بقدر ما تتضح هويتنا نحن.

هكذا عرفنا أنفسنا في الماضي بأننا الجنس الذي جعله الله خليفة في أرضه لأننا عرفنا الحيوانات بأنها مواشي للأكل أو كواسر للترويض والقتل أما الأشجار فكائنات للزينة، للأكل ثمارا أو للاستعمال حطبا لبناء البيوت أو إشعال النار.

ها هو العلم يكشف لنا أن للأشجار والحيوانات ذكاء صامت لم تكن تتخيل وجوده أبدا... وأنه من الممكن أن يكون لها "روح" و"نفس" و"عقل" ومشاعر وعواطف قد لا تقل حدة ورهافة وتعقيدا عما تجربه كل ذات.

إذا قبلنا أن الأشجار كائنات تتواصل بينها كما نفضل نحن البشر وأنها تعين بعضها البعض وأنها تعقد حلفا مع الكائنات الأخرى مثل العصفير والفطور لتبادل الخدمات، وإذا اعترفنا بأن النمل والنحل مجتمعات حلّت كل القضايا التي نتخبط فيها مثل المساواة والعدل والتعاقد والحوكمة الرشيدة، يصبح السؤال من هي الأشجار حقا ومن هي هذه الكائنات التي نسميها النمل والنحل؟

من البديهي ان تغيير نظرتنا لها سيؤدي لتغيير تعاملنا معها وربما يكون هذا التغيير بداية وقف الانجراف الذي يقود جنسنا والعالم بأسره نحو الهاوية. لكن للتغيير هذا بعد آخر وهو أن إعادة النظر في هوية هذه الكائنات يؤدي أليا لإعادة النظر في هويتنا نحن.

المشكلة أننا مطالبون بتفحص الإشكالية في علاقتنا مع الأجناس الحية الأخرى والبشر أخذون بخناق بعضهم البعض والصراع على أشده بين هوياتهم المجهريّة ... والمحرك في هذا المستوى لا العلم ولا الدين وإنما السياسة بكل ما فيها من خير ومن شرّ.

لننتقل من هذا الصراع والمنهجية دوما التنقيب داخل أقدم أساطير البشرية عما فيها من حدس ومن عمق مع اعتبار أحدث معطيات العلم المزج المصّر على تدمير أقدم قناعاتنا.

للانطلاق في جذب خيط كبة نظرية مجهولة الحجم هذه الأسطورة الاغريقية الشهيرة نتجاوز بها سريريا مسألة الهويات المجهرية.

يرضى الأدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقنعة التمثيل.
ترفع يدك نافذ الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.

تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت... فتالت فراع فحامس فسادس.
تتراكم عند قدميك الأقنعة والذات الأخرى تتباعد تتباعد الأفق عن الراكض.
آخر قناع.

ترفعه مرتعش اليدين خافق القلب.

تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف... وجهك أنت لا غير.
لأنتبّت من الأمر.

ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل أخلع طبقات الأقنعة التي يختفون وراءها ... لأكتشف كل مرة وجهي.
ها هم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرة يصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما... وجههم لا غير.
لأجلهم ينقضون على بعضهم البعض. النتيجة دوما واحدة: كل ذات هي نفسها في مرآة الذات الأخرى.
مغزى الأسطورة؟ بسيط وبالغ الغرابة: كل آدمي هو أنا لكن في قصة أخرى... أنا كل آدمي يتخبط في قصتي...
هذا التصور للأسطورة الإغريقية من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة وفي كل العصور بكلمات أخرى.
أجمل إخراج الذي تجده عند المتصوفين والشعراء.

"وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)

فقد كان شعبا واحدا فتشعبا "

انتبه هنا للتغيير الجذري- أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبيستولوجية"- مع تصورات الرؤى غير المتقنة للذات.
هي جعلت من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الغربية المختلفة الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت، أحسنها من
تحثنا على حب "أخينا" الإنسان وأردوها من تجعله العبد والأنا سيده مع تبادل متواصل للورين اللعينين.
لكن العلم الحديث أعاد اكتشاف الفكرة الموهلة في القدم ليخرجها بلغته هو. فالأدمي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة" تحتل
ألف صفحة من كتاب-يسميه برنامج المورثات.
الاختلاف بين الأفراد جمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، أما ال 999 صفحة الباقية فمتشابهة في كل
حرف وكل فاصلة.

قد يتسبب لنا قبول هذا التصور-والتصرف على أساسه-في لخبطة حياة لا تنقصها اللخبطة. تخيل.

ها أنا أتوجه إلى موظفة النزل: ما أحلى لون عينيّ هذا الصباح. هل هاتقني أنا؟

ثمّ إلى النادل الذي طلبت منه عاشر فنجان قهوة: قلت دون سكر، ألا تعرف عاداتنا بعد كل هذه السنين.

ليس من الصعب فهم اندهاش "نسختي" أو "أنائي" إذ يكفي أن أتصور موظفة النزل تواجهني من الغد: هذه قهوتك، أن الأوان
لتغيير هذه النظارات، ما أبشعها على أنفي. أو أن أتصور موقف النادل: هذا كل البقشيش؟ اطلع بكل ما في جيبتي.

ماذا لو صرخ فيّ كل عابر سبيل:

- ما هذا التهور؟ متى ستكف عن كل هذه الحماقات؟

- وما دخلك أنت، شؤوني الخاصة.

- يا رجل احترم الآراء التي تتلهى بها على الورق ولا تقدر عواقبها. كيف تتصرف في أناي بهذا الطيش وتقول شؤوني
الخاصة؟

المهم أنك بالتصور الجديد للعلم تنقل التركيز من فوارق الصفحة الواحدة إلى تشابه ال 999 صفحة ، مما يعني إنك عندما
تنظر للأخر واضعا على أنفك نظارات هذا التصور فإنك لن ترى إلا نفسك في ذلك اليهودي بذوائبه، في ذلك الراهب البوذي
بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" العاري بجهازه التناسلي في غمده الأنيق.

أنا، أنت، هو، هي، نحن ... كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة وفي ظروف وحالات متباينة؟

يمكنني الآن أن أوصل جذب خط الكبة.

القول بأن آخر قناع ترفعه عن وجه الآخر هو وجهك أنت لا ينيهي الجدل وإنما يدفعه نحو مستوى أعمق . ماذا لو كان كل
وجه هو نفسه قناع. لكن على من أو ماذا هو موضوع؟

للرد على هذا السؤال أحسن ما في الفضاء الفكري-الخيالي للبشرية اسطورة فيشنو الاله الثالث للديانة الهندوسية والكلمة المفتاح فيها: الأفاتار (Avatara) .

هذه الكلمة مأخوذة من السنسكريتية لغة الهند القديمة وتعني من جهة تجسد الخالق في المخلوق وأيضاً المحنة والصعوبة في الأمر لأنه ليس من السهل أن يحشر الكامل نفسه في الناقص، اللأمحدود في المحدود، الأزلي في الفاني. تقول الأسطورة أن فيشنو قبل بالنزول إلى عالمنا الحسي متجسداً في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه رام، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا... والحبل على الجرار لأن التجسد العاشر مبرمج عند نهاية العالم. المهمة في الأسطورة تركيزها على أن كل الأشكال التي يتجسد فيها فيشنو متساوية القيمة والكرامة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى.

أخيراً لا أخراً أن فيشنو ليس معطى وإنما مشروعا بما أنه لم ينهي عملية التجسد حيث لا زال هناك في المستقبل شكل آخر وقد لا يكون الأخير الذي سيتبلور فيه. لكن من فيشنو هذا؟ هل يكون هو نفسه قناع، لكن على أي وجه؟ إن مهمة الأساطير وسبب وجودها تجسيد المفاهيم الفلسفية أو الدينية المعقدة أي ربط حزمة أفكار بالغة التجرد بصور مفهومة للجميع من أول وهلة. نموذجاً عزرائيل المفهوم المجسد للموت أو إبليس المفهوم المجسد للشّر. ما المفاهيم أو المعاني التي يجسدها فيشنو؟

ثمة في البداية الفكرة الأساسية أن هناك قوة جبارة قبلت طوعاً أن تتجسد في كائنات ضعيفة فانية مثل الأدمي والسلحفاة والخنزير البري... بعبارة أخرى أنها قبلت بأخطار ومشاكل الوجود وفصلته على حالة متقدمة عليه لا نعرف بالضبط كيف يمكن تخيلها.

أي قوة قادرة على أن تسكن وان تتشكل وان تدوم ولو زماناً محدداً في كائنات جدّ متباينة مثل الأدمي والسمة والسلحفاة والخنزير البري.

لا توجد إلا إجابة واحدة: الحياة. إنها هي التي تعطي لكل هذه الكائنات وجودها ومنا الأدمي الذي يستطيع مواصلة الخلق ليبلور من خياله الخصب راماً وكريشنا وكائن نصفه أدمي ونصفه الآخر أسد. لنرصد أهم صفات هذه القوة الخلاقة المبدعة.

هي موجودة بنفس الكم والكيف في الجرثومة والفيل، في الوردية وفي الزيتون، لم تقتّر على أحد ولم تميّزه بشيء، وإن اختارت في هذا وفي ذلك أشكالاً-حالات جدّ متباينين

هي لا تتوزّع عند ولادة الأجيال الجديدة كما تتوزع تركة محدودة على كمّ هائل من الورثة. هي التركة التي يقتسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فتكون -ولو قسّمت ملايين المرات- كاملةً من نصيب كل وريث. معنى هذا أنّ الأدمي لا ينطوي على نوع من أنواع الحياة، أو على جزء منها، أو على حياة خاصة به تكون أرقى وأجود أصناف الحياة. هو ينطوي على نفس الحياة التي تُحرّك جميع الأحياء، والموجودة فيهم بكامل مقوماتها وعبقريتها. هي مشروع متواصل حيث لم تتوقف عبر تاريخها الطويل التبلور في أغرب وأعجب الأشكال... والحبل على الجرار إلى ما نعرف من طول الزمان.

آخر طبقات الحفر:

ماذا أو من وراء أو ما هي هذه القوة الخلاقة المبدعة؟

نبيّنا لاوتسو لاستحالة أن يكون لهذه القوة اسم ورغم التحذير نراه يسقط في الفخ الذي حدّرنا منه وهو يسمى هذه القوة التي لا يسمّى "الطاو".

مظلم وبلا قاع (لاوتسو)

سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كان ولم يكن

إنها حقاً لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أو هام وجود مسمّى خارج المسمّى، من جهة أخرى لا بدّ من اسم إذا أردنا قصة لا تكون إلا ببطل محدّد الهوية.

لكن أليس من العبث محاولة حصره في اسم وهو كل الأسماء، في طبائع وهو كل الطبائع، في كائن وهو كل الكائنات، في هدف وهو كل الأهداف، في قصة وهو كل القصص؟

المخرّج الوحيد هو الذي وجده الخوارزمي أي تسمية المجهول الضروري لمواصلة التفكير: "الشيء".

وفي روايتي هو اللبنة الرئيسية لقصة القصص هو مصدر الصدى الذي أسرّ لأدم وحواء بالخروج من تفضيل الوجود على العدم ومواصلة خلق عوالمه والبشر ككل الكائنات الحية الأخرى أحلامه ومشاريعه وأدوات تحقيق هذه الأحلام والمشاريع. كم من صور وأفكار راكمتها الثقافات البشرية على مرّ العصور ولا واحدة استنفذت أو ستستنفذ يوماً هذا "الشيء". كل ما نظفر منه شعورنا بوجوده الدائم فينا وحولنا. كم يبدو بعيداً لا يدرك وفي نفس الوقت كم هو قريب. ألم يُذكرنا المعلم الأسمى:

بأنّ الذي تهواه بين ضلوعكم تقليب الأنفاس جنباً إلى جنب (ابن عربي)

إذن لم يكن الرجل أمام محطة بومباي يستهزئ بي وهو يضمّ راحتيه يسلم عليّ كأنه يصليّ أمامي.

هل كان يعرف ما كنتُ أجهله أو كان يتذكّر ما أتناسى باستمرار؟

ولأننا لا نختلف عن الأوائل في حبّ اختزال أصعب الأفكار في صور تتعش العقل والعاطفة... ولأننا نريد صورة ما تقرب لأذهاننا وقلوبنا هذه القوة المجهولة الخارقة، فإننا سنعود لصورتنا المفضلة نستجد بها في المواضيع الحرجة من رحلتنا نحو الفهم والطمأنينة: الشجرة.

وفي الرؤيا "الشيء" هو كل شجرة..

هو الجذور والجذع وكل الأغصان...

هو كل ما تحمل هذه الأغصان من أوراق وثمار...

وهو العصاراة التي تمكّن هذه الأوراق والثمار من الحياة ومن التجدد عندما يقطفها الموت.

مما يعني أن آدم بلغة الرؤيا وصورها ورقة - ثمرة من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من الأوراق - الثمار على غصن من بين ما لا يعدّ ولا يحصى من الأغصان على شجرة من بين ما لا يعدّ ولا يحصى من الأشجار.

أخيراً لا أخراً هو أيضاً من هذه العصاراة التي تتدفق في كل جذع لتصل أبعد وأصغر ورقة.

السؤال الآن ماذا يريد "الشيء" منّا ومن تجاربه التي لا تنتهي في عوالمه هذه التي لا تُحصى ولا تعدّ؟

لنقل إن السؤال غير قابل للردّ لا لوجود سرّ يجب أن نواصل البحث عنه وإنما لأنه فاسد أصلاً.

هل "الشيء" بحاجة لسبب يبرر به أو يفسر به وجوده وتصرفاته؟

طبعاً لا. "هو" بغير حاجة ليكون مفهوماً، أو مقبولاً أو معذوراً، أو محموداً، أو نافعاً، لا لشيء إلا لأنه "هو" الأصل الذي تتفرع منه كل الأشياء وكل الكائنات وكل ما تُبلورُه عقولُ البعض منها من مفاهيم مثل البداية والنهاية، الحيّ والميت، النافع والمضرّ، العيبيّ والذي له معنى.

هو ليس بحاجة لهدف أبعد من الإيجاد لأن هذا الإيجاد هو الذي يوجد كل الأهداف ومن ثمة هو خارج وفوق كل هدف.

هذا ما يعيد طرح السؤال الذي لا حقنا طوال النص: ما هدف الرحلة؟

كم هدفاً ركضنا وراءه ليتضح لاحقاً أنه كان طمعاً وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيفُ الأحاسيس والمشاعر التي نعتصرها من الجري وراءه.

ألا نصل هدفاً ركضنا وراءه إلا ونكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمنّا؟ ألا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قمة القمم، مُنطلق طريق جديد؟

هل هذا ما كان يعنيه "يا" يوم قال لي اقتحّم أنت الدنيا لمتعة النصر، أمّا أنا فتكفيني منها متعة الصراع؟

يحضرني الآن أنني لم أتكلّف جهد الكتابة بحثاً عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أو هموني وأوهمت نفسي زمناً طويلاً، إنما للكتابة نفسها لا غير.

في الرؤى غير المتقنة لنا جسد لترويض العالم ودماع لمعرفة أسرارهِ.

في روايتي لقصة القصص ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه، وليس للدماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزرع به من قدرات في مجالّي الفكر والخيال.

أخيراً يمكنني أن أجري وراء أي هدف وأنا أعرف أنه مجرد تَعَلّة لتشغيل جسدي وفكري... أو أن أخرج من الطريق لأجلس على قار عته مسندا ظهري إلى جذع زيتونة وقد تخلصت من رواسب ترويض مأكّر ودعاية خبيثة وعقدة ذنب مغروسة بدهاء منذ نشأتي، لأكون لهم خادماً لا يطلب جزاءً ولا شكوراً.

كم من أهداف جرينا وراءها نحزن لعدم تحقيقها والحال أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

كيف لا أتنفس الصعداء ونفسي لم تعد تطالب نفسي بشيء.

أخيراً الرحلة.

"كالموجة
على سطح المحيط
كالرياح
بلا وجهة"
(لاوتسو).

لبنة الموت

في مسرحية شهيرة لفصّاص عبقرى اسمه يونسكو يتوجّه الملك "بيرانجي" وهو يلفظ آخر أنفاسه بابتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علموني، أعينوني"
لا أحد قادر على الرّد رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى.
تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تتمسك بأظفرك بهذه الحياة إنها منفي وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعقاب وقد وصلت خطّ الحدود. تذكر أنك ستتخلص من هموم الدنيا."
تتدافع في ذهن المحتضر آخر الأفكار قبل أن تُطفأ أنوار الوعي: هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. الصعوبات التي أنهكت قواي! ما أحلى تذليلها. ماذا؟ عليّ أن أتذكر كل أنواع الإخفاق! إنه السوط الذي جلدني به العالم لأتسلق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغيبية؟ عليّ أن أسلم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كئيبان الرمل!
من أين لهذا الأدمى المسكين أن يرحل مطمئنا وقد سكن طول حياته أساطير أقل ما يقال عنها أنها غير مسؤولة.
هي جعلت من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر الشرطة لرمي عفشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية وهي متمسكة بالبقاء.
لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقررته قبل ارتكاب أي جريمة.

"نهار أتيت إلى الدنيا
(نزار القباني)

وجدت قرار إعدامي

ولم أر باب محكمتي

ولم أر وجه حكامي"

طبعاً للعقل الحقّ في رفض فكرة مكان لإشباع كل الشهوات دون وجود محركها وشرط وجودها الذي هو الحرمان أو فكرة الخلود بما هو وضع لا يتغير أبداً والحال أن أهمّ خصائص هذا العالم عدم الثبات على حال.
لكن ماذا عن موقف الفؤاد؟ أليس من حقه هو الآخر رفض أن يفقدنا الطريق إلى حافة هاوية مظلمة بلا قاع تُدفع إليها دفعا؟ لنجرّب إقناع الأدمى أنه يرتعد فرقا أمام كلمة صنعناها في فضاء الرموز ووضعناها في فضاء الخيال فتر عرعت فيهما لتعود إلينا بمخالب وأنياب.

لنردّد له أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائنا رمزيا خياليا آخر نسميه عزرائيل بصوره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا "يقطف" به أرواحنا. كأنني بأحدهم يصرخ ساخرا: "كلامك يا هذا في النفاخات زمرا".

لنجرّب التوجه إلى عقل هذا الساخر المروع: حَبّر على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة: غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجدّدة، م.ح.د.و.د.ة. الموت إذن ليس حالة مناقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة.

كيف يكون جزء من طبائع الشيء عدوا أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟

أضف لهذا أن فكرة الموت تلعب عند المنتبهين الدور الذي يلعبه صوت السوط في هرولة دابة كسولة ... لم يهاجمني التبدّل يوما إلا وسارعت إلى استحضارها، فيعود لكل قضية حجمها.

كأنني أصرخ في أذني أطرش قرّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع.

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرة الأحذب لحبيبته!

مما يعني أن عليّ إن أردت أن يكتب للرؤيا بعض القبول احترام كره الذات لمحدودية حياتها وبحثها المحموم منذ وجدت عن الخلود. من أين لها تجاهل حاجة بمثل هذا العمق وإن تبدو لا منطقية ومستحيلة التلبية، هي التي تريد تلبية كل الحاجيات؟

لكن كيف ستواجه الرؤيا من جهة رغبة الذات العارمة في ألا تتوقف الرحلة أبدا ومن جهة أخرى ضرورة نهايتها وأي بديل للجنة يمكنها عرضه عليها لا يتنكر لقواعد المنطق وقوانين العالم؟

عودة للأسس التي بنينا عليها بيتنا الروحي.

لنعتبر التصور القديم للجنة الذي ذهب ضحيته أبطال الفيلم بكونه مثل العملة المزيفة التي تحاكي وتشوه العملة التي تقضي الحوائج ولا تتسبب في مشاكل قانونية لمستعملها.

كيف سنهندس هذه العملة التي لا تخدع مستعملها ولا تشتري الأوهام؟

مرة أخرى بالاحتكام للتفكير العقلاني لا لشطحات خيال يهينا بكل سخاء كاذب ما نطلب وزيادة.

أليست أقصى وأرقى أنواع المتعة المفروض وجودها في الجنة هي راحة البال أي الحالة التي تصبح فيها الذات خارج منطق الجري وراء الشهوات لا تبالي بما تحقق منها أو لم يتحقق.

مثل هذه الحالة لا تعاش كما يعرف ذلك كل مصاب بلعنة الرق إلا إبان نوم هنيّ لا تتخلله الكوابيس... أو عندما يكون النوم بلا يقظة ترجعنا لنفس المهازل والمآسي. إنها الحالة التي يسميها الفلاسفة في أساطيرهم النخبوية العدم والتي لا مدخل لها إلا الموت.

مقاربة أولية لتصور هذا العدم: اعتبار شبيهه في الفضاء الحسي ... هذا الذي نسميه الفراغ.

ما يخبرنا به أهل العلم في فيزياء الكم ان الفراغ ليس... فارغا.

حقًا هو الفضاء الذي تتناثر فيه كل مكونات الكون سواء التي ما زالت قائمة الذات أو التي فككتها قوى الدمار. اخرج منه بقدرة الخيال والفكر كل الموجود فيه أكان بحجم المجرات أو بحجم الذرات. أبقى في "الوعاء" شيء؟

نعم، ثمة دوما في أعماقه مكونات -عوامل- قوى مجهولة بالغة الصغر، بالغة الرهافة، بالغة التعقيد تتحدى كل محاولة التخلص منها. هي ليست بقية بقايا البقايا وإنما أمور أخرى تتحدى طرق فهمنا وتصورنا للواقع.

هذا الفراغ غير الفراغ -دوما حسب هؤلاء الرواة- هو محضنة القوى التي تخلق باستمرار ما سيطفو على السطح والذي سيلتقطه وعينا كجملة الكيانات والكائنات التي تشكل الواقع.

قياسا على تصوراتهم لنعتبر أن العدم نهاية الطريق أين ستفكك لا فقط أجسادنا وإنما ذاكرتنا التي جمعت الذات فيها كل تجربتها.

لكنه أيضا حاضنة القوى التي تعيد تركيب ما تفكك وإن في أشكال جديدة لا تكف عن استكشاف كل إمكانيات الخلق والابداع.

بعبارة أخرى هذا الذي ينتهي فيه كل وجود هو الذي ينطلق منه أي وجود.

ها قد بدأت تنتظم أفكارنا حول كيفية تلبية الحاجتين المتناقضتين

لنخصص في بيتنا الروحي جناحا خاصا اسمه العدم للذات المرهقة الموحوجة وعلى بابها توضع لافتة تُطمئن النفوس الفلقة الخائفة من تجدد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد... أي في شكلك الماضي وفي القصة التي عشت". في هذا الجناح الخاص تبلغ راحة البال قصوتها ولا تحديد لمهلة متعة المتع.

في جناح موازي أين الخلود ليس الثبات على المخلوق وإنما الثبات على الخلق، تتجدد الذات في ألف شكل وشكل لمغامرات لا تعرف لها بداية أو نهاية.

كما تعسفنا على علماء فيزياء الكم باستعمال بعض مفاهيمهم لنستغلها في بناء مفاهيمنا سنتعسف الآن على علماء النبات لنستنتج من اكتشافاتهم ما لا يجرؤون عليه من أفكار، حقا هي من خارج ميدانهم. عودة لنموذج الشجرة مرة أخرى لتوضيح فكرة ليست سهلة الشرح للكاتب. اعتبر الورقة التي تذبذب وتنفصل عن الشجرة. إنها مجرد وعاء مؤقت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تضمن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجنور وبقية الأوراق. هذه العصارة واحدة في الجنور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق. هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها في كل غصن وفي كل ورقة. بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة. هي طبعا الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن "جذع" الجنس البشري كما يفصل الخريف ورقة الشجرة عن الغصن والجذع والجنور. لكنها أيضا العصارة. هذه العصارة هي الحياة، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل الذي راكمته الحياة طيلة ملايين السنين الهائل وهي نفس العصارة الموجودة في كل الذوات الأدمية وغير الأدمية. هذا ما يسمح للرؤيا بالتوفيق بين ما لا يبدو قابلا للتوفيق فقط بالتركيز والتذكير بما نتناسى. كورقة الخريف تفقد الذات بالموت جسدها، لكن الحياة التي شكلت عصارته لا تموت وإنما تواصل ضحاً طاقتها فيما لا يحصى ولا يعد من الذوات الأخرى. مما يعني أن لكل ذات جزء فإن جزء وإن كان ليس خالدا فإنه قديم قدم الحياة وأمامه فسحة من الزمان لا أحد يعرف متى ستنتهي. لقائل إن يقول، لكن البشر ليسوا أوراق شجرة وكل كائن فريداً متميزاً يُضَيِّع الموت طرافته! ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظت على نفس الأشكال، نفس الحالات، نفس الأجساد؟ بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود بفهمه البدائي. أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياة جديدة بأن تُعاش؟ انظر الآن كيف يتحقق دون التعسف على منطق كل ما تريده الذات: القيلولة الأبدية للجزء المرهق - أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف - وقد جفت فيها العصارة... وخلودها عبر تواصل عصارته في كل ذات هي بالضرورة ذاتها والذات الأخرى أي نفس الذات الأزلية التي لا تتوقف منذ الأزل عن الموت والبعث.

كم صدق حدس الشاعر

"أنا في الزمان كموجة في زاخر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد

مهما تلاطم فهو ليس بمغرقى

أو مخرجي منه ولا بمبديى"

**

وقال الصدى لكل ذات أكملت الرحلة " ايتها النفس المطمئنة ارجعي لربك راضية مرضية "

لا أحد يتذكّر كيف كانت مشاعره قبل أن يلفظه الرحم ولا أحد أبقي لنا أبلغ وصفٍ عن لحظات غرغرة الموت.
هكذا حُكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به.

لتعويض البياض في آخر صفحة نصوص رحلات كل الذين حجوا قبلنا لهذا العالم، إليك هذا المشهد يتخيل الأحداث أو يستبقها.
يتصاعد من مكبر الصوت همسٌ رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدم حالاً إلى بوابة المغادرة.
يتوجه المغادرون إلى الباب الدوّار وعلى الوجوه قلق لا ينجحون في إخفائه.
أه هذه الدنيا التي أن الأوان لتوديعها!

تَمَلَّكْهَا الْآتِي تَمَلَّكْ سَالِبٍ وَفَارَقْهَا الْمَاضِي فِرَاقٌ سَلِيبٍ (المتنبي)

بعضهم يجزّون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر. عبثاً، سيصادرها موظفون لا يقبلون رشوة ولا يستثنون
أحداً لشدة حرصهم على بقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا اختلط الحابل بالنابل وضاعت طرفة كل عالم.
من مقعد شاغر ببهو انتظار المطار المترامي الأطراف أتابع الذين وصل طريقهم مثلي لآخر مفترقاته في هذا العالم.
كم أودّ أن أسألهم واحداً واحداً: ما تقييمك للتجربة؟ أستقبل بالعودة لهذا العالم لو عُرض عليك الأمر؟
هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم ملحدٌ مطمئنٌ
لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدد الأزلي؟
على فكرة عزيزي الفارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق لمفترق الوداع الأخير، هلاً أشبعت فضولي بالرد
على سؤال تابعتني طوال الحياة دون أن أتجاسر على إلقائه يوماً على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبه رحلتك؟ هذه قصتي،
هل وجدت نفسك فيها وهل هي حقاً -كما أردتُ- في التفاصيل سيرة ذاتٍ وفي الثوابت سيرة كل ذاتٍ؟

يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيصٍ يبدو مقصوداً وبنبرة تبخّرت منها محاولة الإغراء:
الرجاء الآن من السيد غريب التقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.
السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أوصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة محاولاً التركيز على
آخر عملية تنظيم ملفاتي المبعثرة.

يتجدد النداء بحدة تتم عن توتر عصبي لا زال في بدايته: المطلوب من المدعو غريب التقدم إلى بوابة رحيل القاعة رقم
خمس، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا.

ثرى ما سبب عدم حضور المطلوب؟ ربما لا يزال يثرثر في صالون حلقة المطار، أو يتسوّق في المحلات التجارية المعفاة
من الجمارك، أو أن المنبه لم يرنّ في غرفة النزول، أو أنه رنّ فهشّمه بقبضة يد نافذة الصبر. ربما لم يكمل بحثه ولم ينته من
تدبيح تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. برّبك أيّ تقرير جدّي يمكنك كتابته وهذا عالمٌ تعبّره كمن يزور مدينةً
سياحية مترامية الأطراف بين طائرتين... عالم مثل فيلم ندخله بعد بداية العرض، يُطلب منا الخروج قبل نهايته ولا يُعطى لنا
حتى الوقت الكافي لاكتشاف أحسن وضع للجلوس.

يقطع عليّ تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعماً ولا حتى أنثوياً: يا غريب إن لم تتقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالاً
فسترى ماذا سنفعل بك.

تفتّ فؤادك الأيام فتّاً وتنحت جسمك الساعات نحنا (الالبيري)

وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت من أريد أنتا

كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداء يصبح صراخاً هستيرياً: آخر إنذار يا ابن الكلب، وبعدها تتحمّل
مسؤولياتك.

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنتُ أتوقّع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحتُ في علاج
أغلب أمراضى بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد من الأمراض لم يتبخّر لمجرد اعلامه أنني غير معنيّ بأعراضه المزعجة.
يصرخ الآن في المصدح ذكراً يبدو أنه أخذ الملفت على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلّعت روحنا، الله يطّلع روحك.
يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرووس بالشكوى من العالم ولم يفوّت فرصة لشمته.
الكلب ابن الكلب، بعد نهاية الدوام الإداري سيعود هو وكم من غبيّ آخر إلى بيته وأنا من سيقضي ليلته الأولى في القبر.
كم مرّة يجب أن أردّد لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلابة الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعائم مختلفة،
فيهزون الأكتاف باستخفاف، بل ويصرخون في مكبر الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمك طلّعت روحنا.

مهما صرخوا لن أتحرك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصيا مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن وفي مثل هذا الموضوع... نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الأدميين وقد حافظ جلهم على أسرار مكنونة لم أتمكن من فهمها ربما لأنني لم أحتهم بما فيه الكفاية.

ينفجر الموظف المجهول بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة مخاطبا من يسمع: أنه من قوم حاول نبيهم أن يُعلمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع أبدا وها هو الآن مثلهم كلهم متمسك بأنيابه وأظفاره بخشب الطاولة.

حقا أغادر الوليمة جائعا؟ كلا نلتُ من الحياة كل ما بوسعها بذله.

(شاعر مجهول على الانترنت)

"طلبتُ القوة من الله

فأعطاني الصعوبات لأقوى

طلبتُ العلم

فأعطاني مشاكل للحل

طلبتُ الرخاء

فأعطاني عضلات للعمل

طلبتُ قدرة الطيران

فأعطاني عقبات أتساقها

طلبتُ الحب فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي

طلبتُ امتيازات

فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحصلت على كل ما أحتاج".

صراخ متفاقم الحدة وبداية تجمع حولي. من هذا الغبي المنتصب أمامي؟ الغبي المعني بالشتيمة، كائنٌ من هيكل عظمي يحمل منجلا يربت به على كتفي: يا الله، أمامي يا فخامة الدكتور الأستاذ الحاج الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعمال القوة. تقول صارخا أنت الآخر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث النوايا، أليته مشقوقة من بناية متداعية سيئة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالآخرين. كيف تريدي أن أخذك على محمل الجد؟

ما لكم كلكم معي هذا اليوم؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقا دوما مع آرائي حتى أطالب الآن بشيء كهذا؟

هنا أسلط عليك نظرة أنكلف فيها كل الممكن من البرودة علها تثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك فستطرده شرّ طرده تركله في مؤخرته العظمية. آنذاك تدبّر أمرك معه وحاول تكذيبي إن ترك لك الوقت.

كل هذا الكلام لا يؤخّر ولا يقدم. علي الإسراع بإتمام وصيتي والتأكد من خلوها من الأغلاط.

وصية؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواعظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجة حالة العالم الذي تغادر!

يتواصل الشد والجذب داخلي حتى في هذه اللحظة كما كان الأمر دوما طيلة الحياة.

ماذا تعلمت أنا نفسي لأدعي تعليم من لم تعلمه الرحلة أهم ما يجب ان يعلم؟

بضعة أشياء هامة مثل أن العالم مغامرة لم تقدر بعد مسارها ومرافها لا معطى خدّدت له خصائص ومهام منذ الأزل.. أنه لا قدرة لدين، لفلسفة، لعلم، على استنفاد ثرائه الفاحش وحراكه المتفجر... أنه يجب استكشاف ما تيسر منه، القلب مفتوح على مصراعيه وكذلك العقل... أن أكبر خطر يتهددنا فيه تبدل مزمن يُطفيء فيه جنوة الاعجاب والعجب.. أن الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات: قائمة الأرباح على عمود، على العمود المقابل قائمة الخسائر... لا النجاح هدف الرحلة ولا أي فشل مهما كان فشلها... النجاح والفشل حالتان -أداتان- فرصتان لاستكشاف جزء قارّ وضروري من طيف تجربة الوجود لا أكثر من هذا ولا أقل.

طيب ليكن بخصوص الوصية، سأعلقها على باب الرحيل على أمل أن ينتبه لها أحد من القادمين الجدد.

لم يبق إلا الخطوة الأخيرة. نفس مهابة الخطوة الأولى.

عشنا وجسر الموت قدّامنا

فشمّر الآن لكي تعبره (المعري)

الخيار بين روايتين لما حدث لحظة عبور الجسر.

[الأولى التي يجب أن يكذبها تلامذتي باستنكار شديد] أنني نهضت من مقعدي خائفا مرتبكا، أنني أدركت البصر باحثا عن مهرب، أن عزرائيلهم انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عنقي آخذا بخناقِي، أنني أفلتُ منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه ملّ هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخا أه يا ظهري ، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنتُ أصيح طول الوقت: النظارات، النظارات، أُمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لتُخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جرًا من تحت الأريكة قفزتُ على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقِي وأنا الممسك بخناقهِ، أن اللعين اكتشف الحلّ فركض بي نحو الباب الدوّار وأُني بقيتُ أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شغلهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة الوصية ، مُصافحا عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أنني دعوتُهُ إلى المشي أمامي فقال بل تفضّل فأنت المدعوُ الشرفي، فقضلتُ قاصدا الباب الدوار بمشيتي العسكرية، أنّ المسكين ركض ورائي غير مُصدّق أنني لم أعضه كما كان يتوقع، هو الذي صدّق -مثل الكثيرين- كلّ الإشاعات عني، أنني غافلته لألصق على باب الرحيل خلاصة الرؤيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديرا ظهري لما مضى فاتحا ذراعِي لما سيأتي.

يتوقّف الطبيب عن إنعاش عبثي محتفًا بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أبياتٌ لشاعرٍ فيلسوفٍ أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسرٍ أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأثره، تتبّعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرّر. مستشفى! أي مستشفى؟ لن اقبل بالرحيل إلا من بيتي أو من حفل عشية يوم من أيام الربيع.

يختار الشيخُ الموفورُ الصحةَ موقعا مريحا وسط الأعشاب والأزهار. يستلقي على ظهره يتابع -كما فعل دوما- مرح قطعان السحاب. ينتبه إلى شبح شيخ منحني على الأرض يعدّ بمسحاته القصيرة الصحراء لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر. يرفع الشبح رأسه يجيل حوله البصر انتبه لوجود الخيال الحبيب. يمسح جبيننا بلّله العرق ثم يعود إلى مسحاته يضرب بها الأرض ببالغ اللطف كأنه يخشى عليها من الوجود. ينتصب مجددا ينظر للذي يلاحقه بالنظر. يرفع يده مودعا ثم يخفي. تأخذ سحب عابرة كل ألوان الورد تحضّر لمراسم الغروب. تضع السماء نقاب الليل وتلمع في الأفق أولى النجوم. يتضح المعنى للطفل يوم كان واثقا أن سماء الليل سيورة الكون والنجوم أحرفُ الرسالة التي خطها له صديقه الله. تتدافع إلى سطح وعي متسارع الانحسار أقدم أحاسيس وأثمن مشاعر الرحلة. أصوات لخلخال وأساور أم تقترب. لذة المشي حافيا على رمل الصحراء عندما يأتي المساء. رائحة الأرض بعد المطر. نفحات الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت. لمن يتوجّه الطفل بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب. الحوت! الحوت! يا إلهي، طيع كامل من الحيتان! هذا تاج طفلة أعلنتها ملكة هذه الربوع وتقيحه ولية عهدها. كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على قمتّه قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة. نعم نعم، في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار! What a wonderful world. آخر فكرة لفكر بصدد إطفاء كل الأضواء. ترى ماذا أضافت قصتي لقصة العالم؟ أه ما الذي تضيف القطرة للمحيط...ما الذي تضيف حبة الرمل للصحراء. ما الذي يضيف نجم يتيم للكون الشاسع؟ لا شيء تقريبا. لكن هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكوّنه. هل ثمة صحراء دون حبات الرمل وهل للعالم قصة خارج قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟

يُغمض الرجل عينين لن يعود لفتحهما وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكرٍ قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب. تتداخل الأصوات وتفترق، تعلو وتتنخفض، تتسارع وتتباطأ فتدوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل موسيقى أدمي اسمه باخ ذروة الجمال والجلال والأدمية تتصرّع إلى الربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه: Bleib bei uns. كأنّ الصدى نفسه هو الذي ينفخ بقوة في منديله هامسا: وهل غادرتكم لحظة لتطالبوني بالبقاء! لم يبق على المرتحل غير تحيّن لحظة القفز فوق آخر نوطه عائدا لبيته وراء ستار الموت والمطية أجمل الأنغام. يهمس شيخُ الجدّ المهيب: لا تخف، الجسم مهيا للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهل العبور. الغريبُ العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتداخل فيه العوالم لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت أجنّة في رحم الخيال. تتدافع الكائنات-المشاريع في كل الاتجاهات.

آه، أنت من كنت "ما"! ماذا! أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لست الوحيدة، لا أدري هل أخاطبك بالتأنيث أم بالتذكير وهل للأمر معنى "هنا"، على كل حال برافو، أحببت أداءك. من رأى "أين في الناس"؟ أخذ ملفه للمهمة الجديدة غاضبا وشم كل من سلم عليه بحرارة واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرة العقرب. آه، هذا أنت من لا عيني دور "ح"! لماذا لم ترد أو لم تردّي على سؤالي وأنا أضمك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد. ولو، والآن إلى أين؟ صعب عليّ فراقك. رأيت في مرآة ذاتك أجمل صور ذاتي وأجمل صور الأدمي. تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نفترق في حلم. لم لا يكون لنا لقاء جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ آه، لا فائدة من تكرار نفس القصة. خلاص، اذهبي أو اذهب في حل سبيلك. رجاء لا تعد إلى التدخين تردد إنها سيجارتي الأخيرة. آه، هذا أنت، يا من كنت لي ابن الخال! ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران. غفرت لك أنك كنت أول من بثّ في هاجس الموت. حظ سعيد في رحلتك المقبلة وحذار من حصباء العوالم المجهولة. أنت "هنا"! كنت أظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ آه كنت تمثّل! طبعاً وأنا أيضا، كلنا كنا نمثل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنت لاعبا ماهرا وخبيثا، أجبرتني على أن أستلّ من أعماقي كلّ طاقاتي لمواجهة ضرباتك الموجهة. وأنا أيضا أوجعتك كثيرا! شكرا على الثناء. وأنت، من أنت، لا أتذكرك؟ آه، المسكين الذي عرض عليّ الزميلُ أكلّ كبدك ونحن نشرحك؟ كنت تسمعنا! حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركتكَ تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخبيث ظنك لما فررت أغالب الغثيان! يا خروف سابقا، أولا لم يكن معي مال كافٍ لشرائك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنت تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهام! على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طريدتك، أن تنقضّ عليها نمرا من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت الغزال الذي يتنفس في عنقه الأسد، أمرٌ مفهوم، لكن ما الذي دهاك لثجرب شيئا بغيباء الوجود خروفا؟ آه، لم يكن ذلك مشروعك الأخرق الوحيد. سأقتل عدم فهم التلميح. تتهدّد أن الوجود لم يكن أسهل في أي من عوالمك الأخرى لكنك ستواصل التجربة حتى بالشطط في ثمنها لملاحم أكثر إثارة وخطرا. موافق، موافق، موافق، خاصة أكثرها خطرا، لا شيء أحبّ لديّ من الأخطار. بالمناسبة تهاني الحارة وأنت-أنا-هم كلنا تلك السلحفاة المولودة الجديدة تركض نحو البحر والطيور الجائعة تنقض عليك لتخطف حياة في أولى بداياتها. يا ما أظهرت -ما أظهرنا من شجاعة تلك الليلة ثم بقية العمر وأنت -أنا-نحن نصارع محيطا كاملا للبقاء. أنجح أدوارك-ادواهم -ادوارنا على الإطلاق. ماذا عن مغامرتي-مغامرتك-مغامرتنا المقبلة؟ الأمر لما تجود به شطحات الخيال وعطايا المفاجأة. موافق، موافق، موافق.

حانت اللحظة القدسية التي تتفكك فيها النصوص إلى الحروف الأولى، التي تتفكك فيها السمفونيات إلى الأصوات والصمت، اللحظة القدسية التي تُعيد فيها اليدُ الخفية خُط الأوراق ليتخذ الهباء أشكالا لم توجد من قبل، لتتنظم الحروف في نصوص تجدد القصص، لتتجمّع الأصوات في أصناف من الموسيقى لم تعرف سحرها ذات. اكتملت الرحلة والذات بالوجود نالت كل شيء. اكتملت لا بفك كل الأسرار وإنما بالذوبان فيها. يتسارع التوغّل في أعماق ذاتٍ بصدد إطفاء الأنوار داخلها. شيئا فشيئا تخفت أصوات قطرات مطر يرتطم بزجاج النافذة. يتوقف عازف البيانو عن النقر. يبهتُ تدريجيا بريق النجوم. تتلاشى ابتسامة خجول من الأفق. يتعمّق صمت الصحراء. تنحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأموح لما يأتيها الأمر من القمر. انتهى العالم من جمع أشيائه وكلّ أدوات الإغراء. دمعة حارقة تسيل على خدّ سيسكنه إلى الأبد الصقيع، تذرفها أصعب بنت على أصعب أب. لم نعد بحاجة للمشي على خدّ والحبیب لا يشاء إلا ما شاء المحبوب، والمحبوب لا يشاء إلا ما شاء الحبيب.

يزداد استرخاء شيخ به الآن شبه نفاذ صبر من يعرف أنه في آخر خطوة لملاقاة الموعود. الانتباه الآن على أقصاه. فجأة يستأنف الشيخ ذلك الحلم الذي توقف ليلة تسلقه وهو في سنواته الأولى سلما سحريا يروم به وصول القمر والتسلل عبره لما وراء ستار الصمت والنجوم والليل. ألم يكن وحده المدرك أنه الكوة البراقة التي تفتح على عرش فخم يجلس عليه شيخ جبار كان على ثقة أنه سيحضنه، أنه سيلبّي له كل أمانيه، أنه يستجيب لكل صلوات أمه. أخيرا ورحلته شارفت نهايتها يستطيع الحالم حشر جسمه في هالة النور لتعقد الدهشة لسانه. هو الآن وسط فضاء لا يحده أفق تتلأل في كل ارجائه انوار تشع وتنطفئ، تبرق وتخفت، تتجمع وتتطاير كشرار الألعاب النارية. إنها أنوار كل الكائنات التي ارتحلت، التي تتأهب للرحيل... وكلها تنبض وعيا وشعورا، ارادة وذكاء. داخل الذات الراضية المطمئنة للشيخ-الطفل ثقة مطلقة أنه رجع أخيرا الي مسقط رأسه، الى الوطن الذي لا غربة فيه، إلى اين تشوقت ذاته دوما للرجوع... أنه أمام العرش. الذات الآن كقطرة عبّرت السماء سحابت عرقت وقع السقوط على الأرض، ارتحلت داخل زخم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط، لتضيق وتتجدد في أوسع ذات، في الذات الأوسع.

نعم، إنا لله وإليه راجعون. افتحي باب شساعتك يا عَنَمَة، إنني جاهز ويا قوى الدمار تَرَفَّقِي بأُناتِي التي أترك، ويا قوى التوازن والتعافي اعطيها شجاعةً المواصلة إلى أبعد نقطة على الطريق. يدخل البحار في إغفاء تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر. ثم ينتبه لعودة المدّ انتهى جزر الزمان. “ما أن جذبت كفني على عينيّ (هايكو من الكاتب مهدي لروح إيسا) حتى تصاعد الصراخ من ألف حنجرة وأنا /نحن/ هو كل مولود جديد”

**

عالم الأدميين، 350.000 جيلا بعد طوماي، 78 حولا بعد هيروشيما

مُعَلِّقَةٌ بِابِ الرِّحِيلِ

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالة-لحظة من العالم،
العالم شكل-حالة-لحظة من "الشيء"،
"الشيء" هو كل شيء، كل شيء هو "الشيء"،
مثل "الشيء" كممثل دوحه ولادة يبلى الزمان ولا تبلى،
ثمراها كل ما كان وما سيكون من كائنات-عالم،
نَمَلٌ، نَحْلٌ، قَمَلٌ، فِطْرٌ، شَجْرٌ، بَشَرٌ،
فيض من المخلوقات، تتبارى غرابة وإعجازا،
تتساوى قيمةً وقداسةً، أمامها تُحنى الهامات تهيبًا واحترامًا،
و "الشيء" كالفنان في أوج الخلق، كالطفل في عمرة اللعب،
يستكشف عبرها الطيف اللامتناهي لإمكانيات الوجود،

هكذا بلورَ من وحي ابداعه عالمَ السراب هذا،
أرسي دعانمه على قوانين هي إرادته،
سنَّ الأوجود فيه إلا وهو صراع-تعاضد الأضداد،
الأ نظام دون الخواء، الأ حياة إلا ومعها الموت،
لا مجال للخير دون الشر ولا وجود للمتعة دون الألم
البناء والهدم من الأزل، الإعمار والدمار إلى الأزل،
الكل أكلٌ ومأكول، الكل فريسةٌ وصياد،
عالم مرعب مبهر لا حدود لقسوته، لا نفاذ لعطاياه،
على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بأوجاع الخطأ والخطيئة،
على أحسن حال ودواليبه الصامته تعذل كل عيب بنكاء عجيب،
عالم على الدوام جنة وسط الجحيم، جحيم وسط الجنة.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والملل،
والأدمية الفاعل، المفعولُ بها والفعل،
على طول طريق فيه من الوعد ما فيه من الوعيد
يتبلور "الشيء" جيلًا بعد جيل في كل ذات وفي كل قصة
يستكشف عبر رحلة الأفراد والشعوب والأمم،
من الأحاسيس، من المشاعر، من الأفكار، من الأعمال،
ما لم يعيش في أي من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيان عنده السعادة والشقاء، النجاح والفشل،
كلها تجاربه على ذاته، تمضي كالكابوس تأتي كالحلم،
وفيك كما لو كنت محاولته الأولى، كما لو كنت رهانه الأخير،
يواصل سبر أغوار حَلْوٍ ومُرِّ الوجود إنسانًا.

الإنسان شيء كلاً شيء لأنه الجزء في الكل،
الإنسان شيء ليس كمثله شيء لأنه الكل في الجزء،
لا سبب للوجود إلا الوجود، لا غاية للرحلة إلا الرحلة،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو عن هدف
الموت تفكيك القديم لتركيب الجديد بنفس اللبنيات،
عند هذا المنعطف من طريق لا يعرف له بداية أو نهاية،
انصرف بلا ندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت مهمتك على أحسن وجه،
كيف لا وقد أوجدت عالماً بأسره،
ارتحلت بين أهواله وروائعه،
وأنت شيء من "الشيء" يمشي على قدمين.

شكر وامتنان

جزيل الشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.
جزيل الشكر أيضاً لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد قرابة عقدين
وأخص بالذكر، إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.
أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر للقارئ الذي شرفني بقراءة هذا العمل وكلي أمل أن يكون قد وجد فيه
بعضاً مما نفتح كلنا من أجله الكتب.



المؤلف

طبيب، كاتب، حقوقي، رئيس تونس الأسبق

الكتاب

في المتغيرات رحلة ذات وفي الثوابت رحلة كل ذات